المكتوبات للإمام الربّاني

تأليف

الإمام الربّاني المجدّد للألف الثّاني

أحمد الفاروقي السّرهندي

قدّس الله سرّه العزيز

الجزء الثّالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

الجزء الثالث من معرب المكتوبات الشريفة الموسوم بالدرر المكنونات

النفيسة للفقير المحتاج إلى لطف رب العباد محمد مراد المنزلوي تولداً

المكي توطناً عرَّبتُها رجاء أن ينتفع بها إخوان طريقتنا الذين

لا معرفة لهم باللغة الفارسية التي هي أصلها والتركية

التي هي ترجمتها وأسأل الله سبحانه أن يجعل

خالصاً لوجهه الكريم وأن يجيرني

به من العذاب الأليم إنه

رؤوف رحيم حليم

للمؤلف المعرِّب اللاشي:

أَمُوتُ ويَبْلَى أَعْظُمِي فِي المَقَابِرِ * وسَوْفَ أَرَى مَا قَدْ حَوَتْهُ دَفَاتِرِي

فرُمْتُ ادِّخاراً بَعْدَ مَوْتِيَ مِنَ الدُّعَا * فأَبْقَيْتُ تَذْكَاراً نَتَاجَ خَوَاطِرِي

المكتوبات للإمام الرباني

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعدُ: فهذه كلماتٌ طيباتٌ، وحروفٌ عالياتٌ، كلُّ نقطةٍ منها مركزُ فرجار القلوب المضطربة العديمة القرار، يتفجَّرُ منها عيونُ المعارف والأسرار أمثالَ الأنهار والبحار، وخالٍ مزينٌ لخدود عروس الحقائق، وإنسانُ أبصارِ نُقَّاد الدَّقائق، أو دُرَّةُ التاج، استخرجها من لُجَّة بحر الأحديَّة يدُ الباطن الطولي إلى الساحل، أو النَّافجة المحيية للرُّوح، جاء بها بَنانُ البيان من سُرَّة ظباء بيداء الهويَّة إلى المحافل، أغنى الله فقراءه بهذا الدُّرِّ اليتيم، وروَّح مشامَّ أرواحهم بهذا الشَّميم.

الأشعار الفارسيّة:

ز هر يک نقطه اش چون نافهٔ تر ✽ شميم وصل جانان ميزند سر ✽ ولى آن كز برودت در زكام است ✽ چه داند نافه اش گر در مشام است ✽ سرايم مدح آن سيّاح غوّاص ✽ كنم خورشيد را چون ذرّه رقّاص ✽ مهين فرزندِ فاروق است چون اَب ✽ كنون نطق از زبان او كند رَب ✽ سراپا نسخهٔ اخلاقِ فـــاروق ✽ به زهر منقصت ترياقِ فـــاروق ✽ چراغِ نقشبندِ هفتْ مـــحفل ✽ نـگـــاهش نقشبندِ غير از دل ✽ غوث الخلائق ✽ غوّاص الحقائق ✽ معراج الوصول ✽ منهاج القبول ✽ خزينة الرَّحمة ✽ دفينة الحكمة ✽ مشرِّف القلوب ✽ مشرق الغيوب ✽ لُجَّة العمل ✽ حُجَّة الكُمَّل ✽ حدقة الأخيار ✽ حديقة الأحبار ✽ نور الطَّريقة ✽ نور الحقيقة ✽ زين العالمين ✽ عين العالمين ✽ ذروة المنى ✽ عروة الرجى ✽ مرآة الإراءة ✽ مرقاة المحبّة ✽ مطلع الرموز والإشارات ✽ منبع الكنوز والبشارات ✽ ملّاح بحر الملاحة ✽ مصباح بيت الصّباحة ✽ الصِّلَة بين البحرين ✽ المصلح بين الفئتين ✽ مُسْتَشهِدُ المتكلّمين ✽ مستمسك المتوحدين ✽ برهان السلف ✽ سلطان الخلف ✽ وثيقة هذه الوفود ✽ طليعة المهدي الموعود ✽ ذكاء الأصل والفرع ✽ سناء الدين والشرع ✽ وارث سيد البشر ✽ منوّر المائة الحادية عشر ✽ مجدّد الألف الثّاني ✽ الإمام الرباني: (شعر)

كجا گردد ز وصـفـش خـامـه آگـاه   چـه نَـم دريـابـد از دريـا پـرِ كـاه

همان بهتر كتزين پس گوش باشم　　　سرايم نغمه و خاموش باشم

سَمِيُّ المصطفى بالاسم الذي بشر به عيسى الشَّيخ أحمد ابن الشَّيخ عبد الأحد الفاروقيّ نسباً، والحنفي مذهباً، والنقشنبديّ مشرباً، أدام الله سبحانه ظلال حياته على العالمين، وأرواهم من بحار بركاته إلى يوم الدين، حبّذا حالُ الناظرين السليمي البال الذين يفتحون سوادَ النَّظَر إلى هذا المداد الذي هو السوادُ الأعظم من الأسرار والحكم، فيجدون من هذا المداد بإعلامٍ ربانيٍّ إمداد الحضور، ومن ذلك السّواد تكون سويداءُ قلوبهم ملآنةً بالنور، ونعم مآلُ القارئين المستقيمي الأحوال الذين إذا أَلِفَتْ ألسنتُهم بهذه المعارف العالية تغيب أرواحُهم بإلهامٍ سبحانيٍّ في سكر السُّكر والشُّكر، ومرحباً بالمستعدين المستسعدين بصفاء الطبيعة وحسن الاعتقاد، الذين إذا لم يرتفع لهم الحجابُ عن جمال هذه النُّكات والرُّموز التي هي وراء طور العقل من غاية الدِّقَّة والغموض يعترفون بقصورهم وعدم وجدانهم، ويسلِّمون للكلِّ، سالكين طريق صدقنا قائلين:　(ع)　وَلَيْسَ يَدْرِي سِوَاهُمْ مِنْهُمُ أَحَداً

فيحوزون نقدَ ثمرات السعادات الأبديّة، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]، ويا حسرتا على القارئين الناظرين إليه شزراً، والسَّامعين المهذرين في الكلام هذراً، الذين إذا وافق من هذه الملهمات الغيبيَّة شيءٌ طَبْعَهم وناسب فَهْمَهم؛ يحملونه على مهارة صاحب المقال في القيل والقال ونحت الخيال، وما لم يجدوه كذلك يبسطون ألسنتهم بالسوء من قصور النَّظَر، وبحُكمِ (المرءُ لا يزال عدوّاً لِمَا جهله) يزمرون مزامير الجدال المنحوس الأثر، ولا يعلمون أنَّ هذه الطَّائفةَ العليّةَ ليسوا في البين في إظهار هذه الأسرار الخفيَّة: (شعر)

لَيْسَ مِنْهُمْ هَـذِهِ الْأَلْـ　　　ـحَانُ بَلْ مِنْ مُطْرِبِ

بصَّر الله سبحانه إخواننا سرائر عيوبهم، وأطلعهم على الأسرار الغيبيَّة الصَّادرة من أهل الصفاء بطهارة قلوبهم، ورزقهم مخلصاً من قيد الكيد وغلِّ الغل للمخلصين، وما قلت: إنَّهم ليسوا في البين في إظهار الأسرار؛ ليسمع شاهدُه أيضاً من صاحب هذه الأسرار:

وَلِـحَـالِـهِ فِـي حَـالِـهِ بُـرْهَـانُ

ولَمّا اختتم الجلدُ الأوّلُ من المكتوبات معدن الفتوحات الذي درُّ المعرفة اسمُه، وتأريخُ اختتامه بلغ بعض متعطِّشي زلال المقال إلى العرض الأقدس أنَّه لو وردت الإشارةُ العاليةُ بِجَمْعِ أنهار الأسرار التي تنبع بعد ذلك من عيون الأقلام؛ ليجتمع بحرُ الجلد الثّاني، فقال حضرةُ شيخنا في الجواب من غاية الانكسار والخشية: إنِّي في فكرة أنَّ كلَّ هذه العلوم التي بيَّنتُ وحرَّرتُ هل تكون مقبولةً ومرضيَّةً أم لا؟ فسكتُّ مترصِّداً للإشارة والبشارة، ثم قال في غداة ذلك اليوم: إنَّه قد هتف بي هاتفٌ بالأمس: أنَّ هذه العلومَ التي كتبتها - بل ما جرى على لسانك - كلّها مقبولةٌ ومرضيَّةٌ، وقيل إشارةً إلى ما كتبته: إنَّ كلَّ ذلك مقالتنا وبياننا، وأورد في ذلك الوقت جميعُ تلك العلوم في نظري، فنظرت إلى كلِّ واحدٍ منها إجمالاً وتفصيلاً، سيّما إلى العلوم التي كان لي فيها تردُّدٌ، فوجدت كلَّها داخلةً في ذلك الحكم، الحمد لله على الإحسان، فشرع في إجراء أقدام الأقلام المحترمة بكتابة الأسرار، ولَمّا بلغ ما حواه ذلك الجلد تسعاً وتسعين مكتوباً مطابقاً للأسماء الحسنى؛ اختتم على ذلك في عام تأريخه ظاهر من نور الخلائق، ثم لَمّا ورد بعضُ المكاتيب إلى منصّة الظهور ومجلة السُّطور التمس ....

الأميرُ النسيبُ، والسيدُ الحبيبُ، قطبُ الزَّمان، حرزُ الأمان: (شعر)

دُرِّ تفريد را بحری و کانی | تنِ تجرید را روحی و جانی
دم از آیینه سازد نور زائل | دَمِ او صیقلِ آیینهٔ دل

معدن الإيقان والعرفان، محمد نعمان بن شمس الدين يحيى الشهير بمير بزرگ البدخشانِيّ سلمه الله تعالى وأبقاه، وهو من كُمَّل خلفاء حضرة شيخنا مقيمٌ في صوب دكن بهداية البَرِيَّة، وترويج الطَّريقة العليّة، بأمره العالي نظمَ تلك اللآلي المنثورة؛ ليجعل دفينةَ الجلد الثّالث، فصار مُلْتَمَسُه مقروناً بالإجابة، ولما بلغ المكاتيبُ زهاءَ ثلاثين حالت المهاجرةُ الصُّوريَّةُ الضَّروريَّةُ بين السَّيِّد المذكور وبين ذلك الجناب، ولم يرغبْ خاطرُ حضرة شيخنا أيضاً في تحرير المعارف وتقرير المكاشف مدَّةً طويلةً، إلى أن استسعد هذا الضَّعيفُ الذي ذكر اسمُه في آخر المكتوب الأوّل من هذا الجلد بعد مضيٍّ سنين بتأييد الله وهدايته سبحانه بالجلوس على تراب العتبة العليّة في السَّنَة التي تظهر من خاك نشين، فشرع بحر نيسان حضرةُ شيخنا في التَّموُّج بالتَّقرير، وأنبوبُ بنانه في النَّبع بالتَّحرير، وامتاز هذا الفقيرُ من غاية رحمته وعنايته له بجمع تلك المسودَّات، ونقلها إلى البياض، وتشرَّف بإتمام الجلد الثّالث في تلك السَّنَة التي تظهر أيضاً من لفظ ثالث بإمداد مبدأ الفيَّاض، ولَمّا بلغ عددُ المكاتيب مائةً وثلاثة عشر مكتوباً موافقاً لعدد حروف باقي، وكان التَّقريرُ على ذلك في غاية اللَّياقة باعتبارات ثلاثة اختتم عليه في عامٍ يلوح حسابه من كأس الرَّاسخين، ولما ظهر بعضُ المكاتيب بعد ذلك بعلوم جديدةٍ وأسرارٍ غريبةٍ أمر أن نجعله به مسكَ الختام، فبإلحاقه طابَقَ عددُ المكاتيب بعدد سور القرآن، الحمدُ لله أوَّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً، رزق الله سبحانه للطلاب من هذه المائدة قوتَ الأرواح وقوَّةَ الإيمان إلى يوم التناد، بحقِّ الحقّ الهادي إلى سبيل الرَّشاد.

المكتوب الأوّل

إلى السَّيِّد المِير محمَّد نُعمانَ في جوابِ سُؤالِه عن أقربيَّة أفعالِ الواجِبِ وصفاتِه وذاتِه جلَّ سُلطانُه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. وصلت الصحيفةُ الشَّريفةُ، قد ارتكبتم مشقَّةً كثيرةً جعل الله سبحانه سعيكم مشكوراً، ولما استفسرتم عن أقربيَّة أفعال الواجب وصفاته وذاته جلَّ سلطانه مكرَّراً، ووَلِهْتُم ببيانه؛ أردنا أن نذكر منها قدراً يسيراً.

اعلم أنَّ كلَّ شيءٍ هو ذلك الشَّيءُ بماهيته، وجعلُ الجاعل لثبوت الماهية لذلك الشَّيء ليس بلازمٍ أصلاً، فإنَّ ثبوتَ الشَّيء لنفسه ضروريٌّ، ومن ههنا قالوا: إنَّ الجعلَ ليس بثابتٍ في نفس الماهية، والماهيةُ ليست بمجعولةٍ، والجعلُ إنّما هو لاتِّصاف الماهية بالوجود، ألا ترى أنَّ فعلَ الصباغ إنّما هو في اتِّصاف الثوب باللون، لا أنَّه يجعل الثوبَ ثوباً، واللونَ لوناً، فإنَّه محالٌ لكونه تحصيلَ الحاصل؟ فلم يكن الجعلُ في نفس الشيء، بل في اتِّصاف الشيء بالوجود، فثبت أنَّ الشيءَ إنّما يكون شيئاً بماهيته، وهذا المعنى مفقودٌ في ظلِّ الشيء وعكس الشيء في النَّظر الكشفيِّ، فإنَّ عكسَ الشيء وظلَّه ليسا بظلٍّ وعكسٍ بماهيتهما الظليَّة والعكسيَّة، بل بماهيَّة أصلهما، فإنَّ الظلَّ لا ماهيةَ له، والظَّاهرُ به إنّما هو ماهيةُ الأصل؛ أظهرت نفسها بالظلِّ، فيكون الأصلُ أقربَ إلى الظلِّ من نفسه، فإنَّ الظلَّ ظلٌّ بأصله لا بنفسه، وحيث إنَّ العالمَ ظلالُ أفعال الواجب جل سلطانه وعكوسها........

تكون الأفعالُ التي هي أصولها أقربَ إلى العالم من العالم بالضّرورة، وكذلك الأفعالُ ظلالُ صفات الواجب جل شأنه، فتكون أقربَ إلى العالم من العالم، وأصوله التي هي الأفعال لكونها أصل الأصل، وحيث إنّ الصّفاتِ ظلالُ حضرة الذات التي هي أصلُ جميع الأصول؛ فلا جرم تكون الذّاتُ أقربَ إلى العالم من العالم ومن الأفعال والصّفات الواجبية، هذا هو بيانُ أقربيته تعالى الممكن إيرادُه في حيّز التّحرير، فلو أنصف العقلاءُ يحتمل أنّهم يقبلون هذا المعنى، فإن لم يقبلوا فلا غمَّ؛ لأنّه خارج عن المبحث، وحيث اندرج في هذا البيان المقدّماتُ المعقولةُ لو أشركتم السيد المير شمس الدين علي في مطالعة هذا المكتوب لساغ.

وكتبتم أنّه قد أردنا الشُّروعَ في جمع الجلد الثّالث من المكتوبات، فامضوا على ما أردتم، فإنّ أهلَ الله إذا رأوا في أمرٍ صلاحاً يحتمل أن يكون مباركاً، وإذا فوّضتم هذا الأمرَ إلى المير المشار إليه؛ فليجعل النسخَ متعددةً، وليرسل نسخةً إلى سرهند، وليحفظ المسودات، ولعلّها يقع الاحتياجُ إليها، والفقيرُ متحيّرٌ في سفركم وقعودكم، فمن جهةِ أنّه حريصٌ على ملاقاتكم، لا يقدر أن يحرّك شفتيه بسفركم، ولا يقدر أن يدلّكم على القعود أيضاً لخوف كون القعود سبباً لفوت مصالح جمعٍ كثيرٍ، ولكن إذا سافرتم أرسلوا هنا الخواجه محمد هاشم ليكون في الصحبة أياماً، وليأخذ بعضَ العلوم والمعارف، فإنّه يرى شاباً قابلاً، وحيث إنّ المشارَ إليه مربّاكم وعارفٌ بمذاقكم ينبغي أن تحيلوا الاستفسارات عليه، فيستمع الجواب، ويؤديه إليكم، والسلام.

المكتوب الثاني

إلى جامعِ الأسرارِ والعُلومِ حَضرةِ المَخدومِ زادَه الخواجه محمَّدٍ مَعصومٍ سلَّمه اللهُ تعالى في المَواعِظ، والانقِطاعِ عنِ الخَلقِ، والالتِجاءِ إلى جَنابِ الحقِّ سُبحانَه وتعالى.

الحمد لله رب العالمين في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وفي اليسر والعسر، وفي النِّعمة والنِّقمة، وفي الرَّحمة والزَّحمة، وفي الشِّدَّة والرَّخاء، وفي العطيَّة والبلاء، والصلاةُ والسلامُ على من ما أوذي نبيٌّ مثل إيذائه، وما ابتُلِي رسولٌ بنحو ابتلائه، لهذا صار رحمةً للعالمين، وسيدَ الأوّلين والآخرين.

أيها الأولادُ الكرامُ، إنَّ وقتَ الابتلاء وإن كان مرّاً كريهَ الطعم، ولكنَّ الفرصةَ مغتنمةٌ، وحيث إنّكم أعطيتم الفرصةَ في هذا الوقت ينبغي أن تؤدُّوا حمداً لله جلّ شأنه، وأن تتوجّهوا إلى أمركم من غير أن تجوزوا لأنفسكم فراغةَ لمحةٍ ولحظةٍ، ولا ينبغي لكم الخلوُّ عن أحد أمورٍ ثلاثةٍ: تلاوةِ القرآن المجيد، وأداءِ الصَّلاة بطول القراءة، وتكرار الكلمة الطيِّبة (لا إله إلا الله)، ينبغي أن ينفي بكلمة (لا) آلهةَ أهواء النَّفس، وأن يدفع المقاصدَ والمراداتِ، فإنَّ طلبَ الإنسان مرادَه دعوى منه الألوهيَّة، ينبغي أن لا يكون في ساحة الصَّدر مجالُ مرادٍ أصلاً، وأن لا يبقى هَوَسٌ في المتخيَّلة قطعاً حتى تتحقَّقَ حقيقةُ العبودية، طلبُ العبد حصولَ مراده مستلزمٌ لدفع مراد مولاه، ومعارضةٌ على ربه، وهذا المعنى مستلزمٌ لنفي مولاه، وإثبات مولويَّة نفسه، ينبغي أن يُدرِكَ قبحَ هذا الأمر، وأن ينفيَ دعوى الألوهيَّة عن نفسه إلى أن لا يبقى شيءٌ من الأهواء والهوسات والمرادات غيرَ مراد المولى، وهذا المعنى نرجو أن يتيسّر في أيام البلاء وأوقات الابتلاء بالسُّهولة بعناية الله سبحانه، وأما في غير هذه الأيّام؛ فكلُّ واحدٍ من هذه الأهواء والهوسات كسَدِّ يأجوج، فينبغي الاشتغالُ بهذا الأمر قاعدين في الزَّوايا، فإنَّ الفرصةَ مغتنمةٌ، القليلُ في أيّام الفتن يُتقبَّلُ بالكثير، ....

وفي غير أيّام الفتن لا بُدَّ من الرِّياضات والمجاهدات، الخبرُ شرطٌ يقع الملاقاةُ أم لا، والنَّصيحةُ هي أن لا يبقى مرادٌ ولا هوسٌ أصلاً، وأطلعوا والدتكم أيضـاً على هذا المعنى، ودُلُّوها عليه. وأحوالُ هذه النَّشأة حيث كانت ماضيةً ماذا نورد منها في معرض البيان؟ ارحموا الصغارَ، ورغِّبوهم في القراءة، وأرضوا أهلَ الحقوق من جانبنا مهما أمكن، وكونوا ممدِّين ومعاونين بدعاء سلامة الإيمان، ولنكتب مكرَّراً ومؤكَّداً أنَّه لا تصرفوا هذا الوقت في أمورٍ لا طائلَ فيها، وينبغي أن لا تشتغلوا بشيءٍ غير ذكر الله جلّ شأنه وإن كان مطالعةَ الكتب وتعليمَ الطَّلبة، فإنَّ الوقتَ وقتُ الذِّكْر، واجعلوا الأهواءَ النَّفسانيَّةَ داخلةً تحت (لا) حتى تكون منتفيةً بالتمام، ولا يبقى مرادٌ ومقصودٌ في الصَّدر حتى إنَّ تخلُّصي بالفعل الذي هو من أهمِّ مقاصدكم ينبغي أن لا يكون مراداً لكم، وارضوا بتقديره وفعله وإرادته تعالى، وينبغي أن لا يكون في جانب الإثبات من الكلمة الطيِّبة شيءٌ غير غيب الهوية الذي هو وراءَ وراءِ المعلومات والمتخيلات، وهم الدَّار والقصر والبئر والبستان والكتب وأشياء أخر سهلٌ، ينبغي أن لا يكون شيءٌ مزاحمـاً لوقتكم، ولا يكون شيءٌ غيرَ مرضيات الحقّ جل وعلا مرضياً ومراداً لكم، فإنّا لو ذهبنا ذهبتْ هذه الأشياءُ كلُّها، فلتذهب في حياتنا، لا تتفكَّروا فيها، وقد ترك الأولياءُ هذه الأمورَ باختيارهم، فلنتركها نحن باختياره تعالى ونشكره سبحانه، فعسى أن نكون من المخلَصين بفتح اللام، وكلُّ موضعٍ قعدتم فيه ينبغي أن تعتقدوه وطنـاً، وفي أيِّ محلٍّ تمرُّ حياةُ أيامٍ قليلةٍ ينبغي أن تمرَّ بذكر الحقّ جل شأنه، فإنَّ معاملةَ الدنيا سهلةٌ، ينبغي التوجّهُ إلى معاملة الآخرة، وينبغي أن تُسَلُّوا والدتكم، وأن ترغِّبوها في الآخرة، فإن قدَّر اللهُ سبحانه الملاقاةَ في الدُّنيا؛ فتتيسّرُ، وإلا؛ فينبغي الرضاءُ والتسليمُ بتقدير الله تعالى، والدُّعاءُ لأن يجمع الله سبحانه وتعالى في دار السلام محيلاً لتلافي ملاقات الدنيا بكرمه تعالى على الآخرة، الحمدُ لله على كلّ حالٍ.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ

إلى المِير مُحِبِّ اللهِ المانكْپُورِيِّ في بيانِ معنى الكَلِمَة الطَّيِّبة (لا إله إلَّا اللهُ).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

(لا إله إلا الله) لا أحدَ يستحقُّ الألوهيَّةَ والمعبوديَّةَ إلا اللهُ الذي لا نظيرَ له، الواجبُ الوجود المنزَّهُ عن سمات النقص، المبرَّأُ عن صفات الحدوث، فإنَّ المستحقَّ للعبادة التي هي عبارةٌ عن كمال التذلُّل والخضوع والانكسار ثبت من له جميع الكمالات، وسلب عنه جميع النقائص، واحتاج إليه جميعُ الأشياء في الوجود وتوابع الوجود، وهو ليس بمحتاجٍ في أمرٍ إلى شيءٍ، وهو الضَّارُّ النافعُ لا شيءَ يقدر إيصالَ ضررٍ أو نفعٍ إلى أحدٍ بلا إذنه، والمتَّصفُ بهذه الصِّفات الكاملة ليس إلا الله تعالى، ولا ينبغي أن يكون، فإنَّه لو تحقّقَ غيرُه تعالى بهذه الصِّفات الكاملة من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ لا يكون غيرُه تعالى؛ لأنَّ الغيرين متمايزان، ولا تمايُزَ ثَمَّةَ، فلو أثبتنا الغيريَّةَ بإثبات التَّمايز يلزم نقصُه، وهو منافٍ للألوهيَّة والمعبوديَّة، وذلك لأنا لو لم نثبتْ له جميعَ الكمالات ليحصل التمايزُ يلزم نقصُه، وكذلك لو لم نسلبْ عنه جميعَ النَّقائص يلزم نقصُه أيضـاً، فإن لم تكن الأشياءُ محتاجةً إليه؛ فلأيِّ شيءٍ يكون مستحقّاً للعبادة؟ فإن كان هو محتاجـاً إلى شيءٍ من الأشياء في أمرٍ من الأمور يكون ناقصاً، وكذلك لو لم يكن نافعـاً وضارّاً، فبماذا يكون احتياجُ الأشياء إليه؟ ولِمَ يكون..........

مستحقّاً لعبادتهم إياه؟ فإن قَدَرَ أحدٌ على إيصال ضرٍّ أو نفعٍ إلى الأشياء بلا إذنه يكون معطّلاً، لا يبقى مستحقّاً للعبادة، فلا يكون الجامعُ لهذه الصِّفات الكاملة إلا واحداً لا شريك له، ولا يستحقُّ للعبادة إلا هو الواحدُ القهارُ.

فإن قيل: إنَّ التمايزَ بهذه الصِّفات وإن كان مستلزماً للنَّقص على ما بُيِّن، وهو منافٍ للألوهيَّة والمعبوديَّة، ولكن يمكن أن تكون لذاك الغير صفاتٌ أخرُ تكون باعثةً على الامتياز لا يلزم نقصٌ أصلاً، وإن لم تعرف تلك الصِّفاتُ إنَّها ما هي.

أجيب: إنَّ هذه الصِّفات أيضاً لا تخلو: إما أن تكون من الصِّفات الكاملة أو من الصِّفات الناقصة، وعلى كلا التَّقديرين يلزم المحذورُ المذكورُ، وإن لم نعرف تلك الصِّفاتِ بخصوصها أنَّها ما هي، ولكن نعرف أنَّها ليست بخارجةٍ من دائرة الكمال أو النُّقصان، وعلى كلا التَّقديرين النَّقصُ لازمٌ كما مرَّ. ودليلٌ آخرُ على عدم استحقاق غير الحقّ سبحانه وتعالى للمعبوديَّة، هو أنَّ الله تعالى إذا كان كافياً في جميع ضروريات وجود الأشياء وتوابع وجودها، وكان نفعُ الأشياء وضررُها مربوطاً به سبحانه؛ يكون غيره تعالى معطَّلاً محضاً، لا يقع احتياجُ الأشياء إليه أصلاً، فمن أيِّ جهةٍ يحصل له استحقاقُ العبادة؟ ولأيِّ شيءٍ تتوجّهُ إليه الأشياءُ بالذلَّة والخضوع والانكسار؟ والكفارُ الأشرارُ يعبدون غيرَ الحقّ سبحانه وتعالى، ويجعلون الأصنامَ المنحوتةَ معبودهم بزعم أنَّها تكون شفعاءهم عند الله تعالى، ويتقربون إلى الله تعالى بتوسلها، ما أعظم حماقتهم، من أين علموا أنَّ لها مرتبةَ الشَّفاعة، وأنَّه تعالى يأذن لها في الشَّفاعة؟ وإشراكُ أحدٍ في عبادته جل وعلا بمجرد التَّوهُّم نهايةُ الخذلان والخسارة، العبادةُ ليست بأمرٍ سهلٍ حتى يعبد كلُّ حجرٍ وجمادٍ، ويتصوّر كلُّ عاجزٍ - بل أعجزُ من العابد - مستحقّاً للعبادة، فإنَّ استحقاقَ العبادة لا يتصوَّرُ بدون تحقّق معنى الألوهيَّة، فمن فيه صلاحيَّةُ الألوهيّة؛ فمستحقٌّ للعبادة، ومن لا؛ فلا، وصلاحيةُ الألوهيّة مربوطةٌ بوجوب الوجود، فمن ليس فيه وجوبُ الوجود لا يليق بالألوهيَّة، فلا يستحقُّ للعبادة، ما أشدَّ سفاهةَ من لا يشركون بالله سبحانه شيئاً في وجوب الوجود، ومع ذلك يُشْرِكون به تعالى شركاءَ في العبادة، ألم يعلموا أنَّ وجوبَ الوجود شرطُ استحقاق العبادة؟ فإن لم يكن له شريكٌ في وجوب الوجود لا يكون له تعالى أيضاً شريكٌ في استحقاق العبادة، والإشراكُ في استحقاق العبادة مستلزمٌ للإشراك في وجوب الوجود أيضاً، فينبغي أن ينفي بتكرار هذه الكلمة الطيِّبة شريك وجوب الوجود وشريك استحقاق العبادة، بل الأهمُّ والأحوجُ إليه والأنفعُ في هذه الطَّريق: نفيُ شريك استحقاق العبادة المخصوص بدعوة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، فإنَّ المخالفين الذين ليسوا بملتزمين ملَّةَ نبيٍّ من الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات أيضاً ينفون شريكَ وجوب الوجود بدلائلَ عقليةٍ، ولا يثبتون غيرَ واحدٍ من واجب الوجود، ولكنَّهم غافلون عن معاملة استحقاق العبادة، وفارغون عن نفي شريك استحقاق العبادة، لا يتحاشون من عبادة الغير، ولا يتكاسلون من عمارة الدَّير، الأنبياءُ هم الذين يهدمون الدَّيرَ، وينهون عن عبادة الغير، والمشركُ في لسان هؤلاء الأكابر: من يكون أسيراً لعبادة غير الحقّ سبحانه، وإن كان قائلاً بنفي شريك وجوب الوجود، فإنَّ اهتمامهم في نفي عبادة ما سوى الحقّ سبحانه المتعلّقة بالعمل والمعاملة، المستلزم لنفي شريك الوجوب الوجود، فمن لم يتحقّق بشرائع هؤلاء الأكابر عليهم الصلوات والتسليمات المنبئة عن نفي استحقاق ما سوى الله سبحانه للعبادة لا يتخلَّصُ من الشِّرْك، ولا ينجو من شعبِ شركِ عبادة الالهة الآفاقيّة والأنفسيّة،.........

فإنَّ المتكفِّلَ بهذا المعنى هو شرائعُ الأنبياء عليهم الصلوات والتحيات، بل المقصودُ من بعثتهم: هو تحصيلُ هذه الدَّولة، والنجاةُ من هذا الشِّرْك غيرُ متيسِّرةٍ في غير شرائع هؤلاء الأكابر، والتَّوحيدُ غيرُ ممكنٍ بدون التزام ملَّتهم عليهم الصلوات والتحيات، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] الآية، المرادُ من الآية الكريمة ما أراد الله سبحانه، ويحتمل أن يراد: لا يغفر أن لا يلتزم بالشَّرائع؛ لأنَّ عدمَ التزام الشَّرائع لازمٌ للشِّرْك، فذكر الملزومَ، وأراد اللازمَ، فحينئذٍ يندفع ما يتوهَّمُ من أنَّ الشِّرْك كما لا يُغْفَرُ؛ لا يغفرُ إنكارُ سائر الشَّرعيات أيضـًا، فما وجهُ التَّخصيص؟ ويحتمل أن يكون معنى ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: أن يكفر به؛ لأنَّ إنكارَ الشَّرائع كفرٌ بالله سبحانه، فلا يغفرُ، والعلاقةُ بين الشِّرْك والكفر بالعموم والخصوص، فإنَّ الشِّرْكَ كفرٌ خاصٌّ من مطلق الكفر، فذكر الخاصَّ، وأراد العامَّ. ينبغي أن يعلم أنَّ عدمَ استحقاق غير الحقّ سبحانه للعبادة بديهيٌّ، فإن لم يكن بديهيًّا؛ فلا أقلَّ من أن يكون حدسيًّا، فإنَّ من فهم معنى العبادة كما ينبغي، وتأمَّل غيرَ الحقّ سبحانه كما هو حقُّه؛ يحكم بعدم استحقاقه للعبادة بلا توقُّفٍ، والمقدّماتُ التي أوردت في بيان هذا المعنى؛ فهي من قبيل التَّنبيهات على البديهيات، لا مجالَ لإيراد النَّقض والمناقضة والمعارضة على هذه المقدّمات، ولا بُدَّ من نور الإيمان حتى تدرك هذه المقدّماتُ بالفراسة، وكثيرٌ من البديهيات بقي مخفيـًا على القاصرين والأغبياء، وكذلك الذين مبتلون بمرض الظَّاهر وعلَّة الباطن، صارت البديهياتُ الجليةُ والخفيةُ مخفيَّةً عليهم.

فإن قيل: قد وقع في عبارة مشائخ الطَّريقة قدس الله أسرارهم: إنَّ كلَّما هو مقصودُك فهو معبودُك، فما معنى هذه العبارة؟ وما المحملُ لها من الصِّدْق؟

أجيب: إنَّ مقصودَ الشَّخص: هو المتوجّهُ إليه لذلك الشَّخص، فما دام ذلك الشَّخصُ حيـًّا لا يفترُ ولا يتقاعدُ عن تحصيل ذلك المقصود، وكلُّ ذلٍّ وانكسارٍ يصيبه في تحصيله يتحمَّله ويهون ذلك عليه، ولا يتركه به، وهذا المعنى هو مؤدَّى العبادة لكونه كمالَ الذلِّ والانكسار، فمقصوديَّةُ الشيءِ مستلزمةٌ لمعبوديته، فنفيُ معبوديَّة غير الحقّ سبحانه إنّما يتحقّقُ إذا لم يبقَ مقصودٌ غير الحق تعالى، ولم يكن مرادٌ سواه، والمناسبُ لحال السَّالك في تحصيل هذه الدَّولة أن يلاحظَ معنى الكلمة الطيِّبة (لا إله إلا الله) بعنوان: لا مقصودَ إلا الله، وينبغي أن يكرِّرَ هذه الكلمة إلى أن لا يبقى من مقصوديَّة الغير اسمٌ ولا رسمٌ، ولا يكون مرادٌ غيره تعالى ليكون صادقـًا في نفي معبوديَّة الغير، ومحقّـًا في رفع الآلهة المتكثِّرة، ونفي الآلهة المتكثرة بهذا المنوال والتوصُّل من نفي المقصوديَّة إلى نفي المعبوديَّة على ما سبق بيانه بالمقال من شرط كمال الإيمان عند أهل الحال المربوط بالولاية المنوطة بنفي آلهة الأهواء النَّفسانية، وما لم تكن النَّفسُ مطمئنّةً لا يتوقَّعُ هذا المعنى، واطمئنانُ النَّفس إنّما يتصوَّرُ بعد كمال الفناء والبقاء، وتوجيهها في ظاهر الشَّريعة الغراء الذي هو منبئٌ عن اليسر والسُّهولة، ومشعرٌ برفع الحرج عن العباد الذين خلقوا على الضَّعف هو أنَّ من أخرج رأسه - عياذاً بالله سبحانه - من ربقة الشَّريعة في تحصيل مقصوده، وتجاوز الحدودَ الشَّرعيّةَ في حصوله؛ يكون ذلك المقصودُ معبودَه وإلهَه، فإن لم يكن ذلك المقصودُ كذلك، ولم يرتكب في تحصيله وحصوله المنكرات الشَّرعيّة؛ لا يكون ذلك المقصودُ ممنوعـًا شرعيـًّا، وكأنَّ ذلك المقصودَ ليس من مقاصده، والشيءُ المطلوبُ ليس من مطالبه، بل مقصودُه في الحقيقة هو الحقُّ سبحانه، ....

ومطلوبه أمره تعالى ونهيه الشرعيين، ولم يحدث لذلك الشَّيء مقصوديَّةٌ سوى ميله الطبيعيّ إليه، وهو أيضاً مغلوبُ الأحكام الشَّرعيَّة، وحسمُ مادَّة مقصوديَّة الغير مطلوبٌ في حقيقة الشَّريعة التي تدلُّ على كمال الإيمان، فإنَّه لو جُوِّزَ مقصوديَّةُ غير الحقّ سبحانه وتعالى ربّما تكون تلك المقصوديَّةُ بإمداد استيلاء الهوى، وإعانة غلبة الهوس معارضةً لمقصودية الحقّ سبحانه وتعالى، بل كثيراً ما يختار في حصولها على حصول مراضي الحقّ جلّ وعلا، فيؤدي إلى الخسارة الأبديّة، فنفيُ مقصوديَّة الغير كان ضرورياً في كمال الإيمان مطلقاً حتى يكون مأموناً ومحفوظاً من الزَّوال والرُّجوع عنه. نعم، قد يجعل بعضُ الأولياء صاحبَ إرادةٍ واختيارٍ بعد نفي الإرادة ورفع الاختيار، ويعطى له الاختيارُ والإرادةُ الكليان بعد سلب الاختيار والإرادة الجزئيين عنه، وسيجيء تحقيقُ هذا المعنى في مكتوبٍ آخر إن شاء الله تعالى. ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨]، والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه، وعلى جميع الأنبياء أتمّ الصلوات، وأكمل التسليمات.

المكتوب الرابع

إلى مَعْدِنِ السِّيادةِ والرَّشادةِ المِير محمَّدٍ نُعمانَ في تأويلِ قولِه تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩]، المرادُ من الآية الكريمة ما أراد الله سبحانه وتعالى، والرَّمزُ الذي يخطر في الخاطر الفاتر، ويقع في الفهم القاصر في هذا المقام: أنَّه لا يمسُّ الأسرارَ المكنونةَ القرآنيَّةَ إلا الذين صَفَتْ سرائرُهم من لَوْث التعلّقات البشريَّة، فإذا كان نصيبُ الأطهار مساسَ الأسرار القرآنية ماذا يصيب لغيرهم؟

ورمزٌ آخرُ: لا يقرأ القرآنَ - يعني: لا ينبغي أن يقرأ القرآن - إلا الذين زَكَتْ نفوسهم عن الهوى والهوس، وطهرت عن الشِّرْك الجليّ والخفيّ، ومن الآلهة الآفاقيّة والأنفسيّة، بيانُه: أنَّ المناسبَ لحال مبتدئ السُّلوك هو الذِّكر، ونفي ما سوى مذكورٍ على حدٍّ لا يبقى شيءٌ مما سواه تعالى معلوماً، ولا يكون مرادُه شيئاً غيرَ الحقّ سبحانه، فإن ذكَّروه بالأشياء بالتَّكليف لا يكاد يتذكَّرُ، ولا يكون مقصودَه، فإذا صار طاهراً من الشِّرْك، ومحرَّراً من الآلهة الآفاقيّة والأنفسيّة؛ فحينئذٍ يستحقُّ أن يقرأ القرآن بدلَ الذكر، ويترقَّى بدولة التِّلاوة، وتلاوةُ القرآن قبل حصول هذه الحالة المذكورة داخلةٌ في أعمال الأبرار، وبعد حصول هذه الحالة داخلةٌ في أعمال المقرَّبين، كما أنَّ الذِّكر قبل حصول هذه النِّسبة كان من عداد أعمال المقربين، وأعمالُ الأبرار من جملة العبادات، وأعمالُ المقرَّبين من جملة التفكُّرات، ولعلكم سمعتم (تفكُّرُ ساعةٍ خيرُ من عبادة سنةٍ أو سبعين سنة)، والتفكُّرُ عبارةٌ عن الانتقال من الباطل إلى الحقِّ، والفرقُ بين الأبرار والمقربين هو فرقُ ما بين عبادةِ ذاك وتفكُّرِ هذا. ينبغي أن يعلم أنَّ الذِّكرَ الذي يكون في عداد أعمال المقربين من المبتدئ هو ما أخذه من الشَّيخ الكامل المكمّل، وكان مقصودُه سلوكَ الطَّريقة، وإلا؛ فالذِّكْرُ أيضاً من جملة أعمال الأبرار. والله سبحانه الملهم للصواب، والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعةَ المصطفى عليه وعلى آله أتم الصلوات، وأكمل التسليمات.

المكتوب الخامس

إلى السَّيِّد المِير محمَّدٍ نُعمانَ في بيانِ بعضِ الأحوالِ والأذواقِ الخاصَّة بحَضرةِ شَيخِنا مدَّ ظِلُّه العالِي.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

لا يخفى أنَّه ما لم تنجلِ عناية الله سبحانه بعنايته تعالى بصورة جلاله وغضبه تعالى، ولم أكن محبوساً في قفص السِّجن، لم أتخلَّص من مضيق الإيمان الشُّهوديّ بالكليَّة، ولم أخرجْ من سِكَك ظلال الخيال والمثال بالتَّمام، ولم أتبختر في طريق الإيمان الغيبيّ مطلقَ العنان، ولم أتحوَّلْ من الحضور إلى الغيب، ومن العين إلى العلم، ومن الشُّهود إلى الاستدلال على وجه الكمال، ولم أجد محاسن الآخرين عيوباً، وعيوبَهم محاسنَ بالذَّوق الكامل، والوجدان الصَّادق، ولم أَذُقْ زلالَ الذلِّ والانكسار، ولذائذَ مربى الحقارة والفضيحة والافتقار، ولم أحتظِ من جمال طعن الخلق وملامتهم، ولم ألتذَّ بحسن بلاء الناس وجفائهم، ولم أترك الإرادةَ والاختيارَ بالكلية كائناً كالميت بين يدي الغسال، ولم أقطعْ حبال التعلّقات الآفاقيّة والأنفسيّة على وجه التَّمام والكمال، ولم أَخُذْ حقيقةَ التضرّع والالتجاء والإنابة والاستغفار والذلّ والانكسار، ولم أشاهدْ قسطاسَ استغناء الحقّ سبحانه الرَّفيع المنزلة المحفوف بسرادقات العظمة والكبرياء، ولم أعتقدْ نفسي عبداً حقيراً ذليلاً عديم الاعتبار العاري عن الخاصيّة مفقودَ الاقتدار كاملَ الاحتياج والافتقار، ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]، فلو لم يكن تواتُرُ الفيوض والواردات الإلهيّة جلّ سلطانه، وتوالي عطياته وإنعاماته اللامتناهية في دار المحنة هذه شاملاً لحال هذا العبد المكسور البال كادت المعاملةُ تنجرُّ إلى اليأس، وأوشك حبلُ الرجاء أن ينقطعَ، الحمد لله الذي عافاني في عين البلاء، وكرَّمني في نفس الجفاء، وأحسن لي في حالة العناء، ووفَّقني على الشُّكْر في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وجعلني من متابعي الأنبياء، ومن مقتفي آثار الأولياء، ومن محِّبي العلماء والصلحاء، صلوات الله سبحانه وتسليماته على الأنبياء أوَّلاً، وعلى مصدقهم ثانياً.

المَكتُوبُ السَّادِسُ

إلى صاحبِ المَعارِف الشَّيخِ بديعِ الدِّينِ في بيانِ أنَّ إيلامَ المَحبوبِ وجَلالَه أحبُّ من إنعامِه وجَمالِه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

وصلت الصحيفةُ الشَّريفةُ المرسلةُ مصحوبةً بالشَّيخ فتح الله، وقد كتبتم الشِّكايةَ من جفاء الخلق وملامتهم، والحالُ أنَّها عينُ جمال هذه الطَّائفة وصَيْقَلُ صدائهم، فكيف تكون باعثةً على القبض والكدورة؟ ولَمّا وصل هذا الفقيرُ في أوائل الحال إلى هذه القلعة صار محسوساً أنَّ أنوارَ ملامة الخلق تَرِدُ من القرى والبلاد متواليةً ومتتابعةً كالسَّحاب النورانِيِّ، وترقى المعاملةُ من الحضيض إلى الأوج، وقد قطعتم المراحلَ سنين بالتَّربية الجماليَّة، فينبغي الآن أن تقطعوا المسافةَ بالتربية الجلاليَّة، وأن تكونوا في مقام الصَّبر، بل في مقام الرِّضاء، وأن تروا الجمالَ والجلالَ متساويين.

وكتبتم أيضاً: أنَّ من وقت ظهور الفتنة لم يبق ذوقٌ ولا حالٌ، كان ينبغي أن يتضاعف الذوقُ والحالُ، فإنَّ جفاءَ المحبوب يُورِثُ اللَّذَّةَ أكثر من وفائه، أيُّ بلاءٍ وقع حتى يتكلّم مثل العوامّ، ويتباعد من المحبّة الذاتيّة؟ ينبغي أن يعتقد الجلالَ فوق الجمال، وأن يتصوَّرَ الإيلامَ أفضل من الإنعام على خلاف ما مضى، فإنَّ في الجمال والإنعام مراد المحبوب مشوبٌ بمراد النَّفس، وفي الجلال والإيلام خالصُ مراد المحبوب، وخلافُ مراد النَّفس، والوقتُ والحالُ هنا غيرُ الوقت والحال السابقين، شتّان ما بينهما. وكتبتم في حقّ زيارة الحرمين الشَّريفين، لا مانع منه، حسبنا الله ونعم الوكيل.

المَكتُوبُ السّابِعُ

إلى السَّيِّد المِير مُحبِّ اللهِ المانكْپُورِيِّ في التَّحريضِ على التَّحمُّل لإيذاءِ الخَلقِ.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّه قد وصلت الصحيفةُ الشَّريفةُ من أخي السيد المير محب الله، فأورثت فرحاً وافراً، لا بُدَّ من تحمُّل إيذاء الخلق، ولا مهربَ من جفاء الأقارب، قال الله تعالى أمراً لحبيبه عليه وعلى آله الصلاة والسلام: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، والملحُ في سكونة ذاك المقام هو هذا الإيذاءُ والجفاءُ، وأنتم تريدون الفرارَ من ذلك الملح. نعم، إنَّ مألوفَ السُّكَّر لا يطيق الملح، ماذا نصنع؟ (شعر)

لَا يَسْـتَقِيمُ تَدَلُّلٌ مِنْ عَاشِـقٍ ... لَوْ أَنَّـهُ مَحْبُوبُ كُلِّ خَلَائِقِ

واندرج فيها: أنَّه لو صدرت الإجازةُ لاخترت منزلاً في إله آباد، عيِّنوا منزلاً حتى تذهبوا هناك، وتتخلَّصوا من إفراط الجفاء، هذا هو طريقُ الرُّخصة، وطريقُ العزيمة الصَّبرُ والتحمُّلُ على الإيذاء، وقد غلب الضَّعفُ على الفقير في هذه الأيام كما هو معلومكم، ولهذا اقتصرنا على كلماتٍ. والسلام.

المَكتُوبُ الثّامِنُ

إلى صَاحِب الحَقائقِ مولانا محمَّد صدِّيقٍ في بيانِ أصالَة الغيبِ وظلِّيَّة الشُّهود.

أيُّها المحبُّ، إنَّ الغيبَ مقابلُ الشُّهود الذي فيه شائبةُ الظليَّة، والغيبُ مبرَّأٌ من ذاك الشَّوْب، فيكون أكملَ من الشُّهود، ولكن إذا كان سيِّد البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام مشرَّفاً في ليلة المعراج بدولة الرُّؤية التي هي ما وراء وراء سرادقات الظِّلال وأقدسُ من الشَّوْب بشائبة الظليَّة؛ لَمَا يكون الغيبُ في حقِّه ﷺ أكملَ من الرُّؤية، وقد كان الاكتفاءُ بالغيب لرفع الظليَّة، وحيث تيسّر رفعُ الظليَّة بالكليَّة في عين الحضور لماذا يحتاجُ إلى الغيب؟ هذه دولةٌ مخصوصةٌ بسيّد الكونين عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ولكُمَّل تابعيه أيضاً نصيبٌ من هذا المقام بالتَّبعيَّة والوراثة، كما أنَّه ليس برؤيةٍ؛ ليس بشهودٍ ومشاهدةٍ أيضاً، فالتَّعبيرُ عنه بالغيب أحسنُ العبارات، وتفصيلُ ذاك المقام لا يمكن بالقول، بل كلُّ من يجده يجده على مقدار وجدانه، وهو وراء ذلك، ولا نصيبَ منه إلا لأقلّ القليل. والسلام.

المَكتُوبُ التّاسِعُ

إلى السَّيِّد محمَّدٍ نُعمانَ في بيانِ قولِه تعالى: ﴿وَمَا آتَيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الآيَة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُواْ وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [الحشر: ٧] الآية، ذكرُ التقوى بعد ذكر الامتثال للأوامر والانتهاء عن المناهي إشارةٌ إلى الاهتمام بالانتهاء الذي هو حقيقةُ التقوى، وأنَّه هو ملاكُ الدِّين، قال رسول الله صلى الله عليه وبارك: «مِلَاكُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ»، وقال عليه الصلاة والسلام في مواضع أخر: «لَا تَعْدِلْ بِالرِّعَةِ شَيْئاً»، والرعةُ: هو الورعُ، والوجهُ لهذا الاهتمام - والله سبحانه أعلم بالصواب -: أنَّ الانتهاءَ أعمُّ وجوداً وأكثرُ نفعاً؛ لِمَا أنَّه يوجد في ضمن الامتثال أيضاً؛ لأنَّ الإتيانَ بالأمر انتهاءٌ عن ضدِّه، وهو ظاهرٌ، وأما كثرةُ نفع الانتهاء بغير جهة عمومه؛ فلأنَّه مخالفةٌ محضةٌ مع النَّفس، لا حظَّ للنفس فيه، بخلاف صور الامتثال، فإنَّ النَّفسَ قد تتلذَّذُ فيه، وكلَّما فيه زيادةُ مخالفةٍ مع النَّفس..........

لا شكَّ أنّه أكثرُ نفعاً وأقربُ طرقٍ إلى النَّجاة، فإنَّ المقصودَ الأصليّ من التَّكليفات الشَّرعيّة قهرُ النَّفس؛ لأنَّها انتصبتْ لمعاداة الله سبحانه، وورد في الحديث القدسي: «عَادِ نَفْسَكَ، فَإِنَّهَا انْتَصَبَتْ لِمُعَادَاتِي»، فكلُّ طريقٍ من طُرُق المشائخ تكون رعايةُ الأحكام الشَّرعيّة فيها أكثرَ يكون أقربَ طرقٍ إلى الله سبحانه؛ لوجود كثرة المخالفة مع النَّفس، ألا وهو طريقُ النقشبنديَّة، ولهذا قال سيدُنا وقبلتُنا الشَّيخُ الأجلُ بهاء الدين المشتهر بنقشبند قدس سره: وجدتُ طريقاً أقربَ طرقٍ إلى الله سبحانه؛ لوجود كثرة المخالفة مع النَّفس. وأما بيانُ زيادة رعاية أحكام الشَّريعة في هذه الطَّريقة؛ فمما لا يخفى على المنصف الفطن الخائض في طرق المشائخ، ومع ذلك بيَّنْتُه بزيادة الإيضاح في بعض الرسائل، والله سبحانه أعلمُ بحقيقة الحال، وهو سبحانه حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وبارَكَ وكرَّمَ، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ العَاشِرُ

إلى السَّيِّد محمَّدٍ نُعمانَ في تفسيرِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ الآيَة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، قربُ الحقّ سبحانه وتعالى وإن كان لا كيفيّاً ولا مثليّاً، ولكن للوهم هناك مجالٌ، والخارجُ من حيطة الوهم ودائرة الخيال هو أقربيَّتُه تعالى، ولهذا كان العالمُ بالقرب كثيراً، والعالمُ بالأقربيّة أقلَّ قليلٍ، ونهايةُ القرب إلى حصول الاتحاد، وإن كان الاتحادُ أيضاً مجرَّدَ توهُّمٍ، والأقربيّةُ إنّما هي بعد مجاوزة الاتحاد، وإن تصوَّرَ العقلُ في جانب القرب من هو أقربُ من نفسه بعيداً، وذلك من قصور نظر العقل، حيث اعتاد رؤيةَ البعد، ولم يجد أقربَ من نفسه. والسلام.

المَكْتُوبُ الحَادِي عَشَرَ

إلى السَّيِّد المِير شَمسِ الدِّين عَلِيٍّ الخَلْخَالِيِّ في بيانِ جامِعيَّة الإنسانِ، الذي هو مركَّب مِن أجزاءِ عالمِ الخَلقِ والأمرِ، وتَرجيحِ قَلبِ الإنسانِ على العَرشِ المَجِيد.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

اعلم أنَّ الإنسانَ نسخةٌ جامعةٌ مركَّبٌ من الأجزاء العشرة: العناصرُ الأربعةُ، والنَّفسُ الناطقةُ، والقلبُ، والروحُ، والسرُّ، والخفيُّ، والأخفى، وسائرُ القوى والجوارح في الإنسان راجعةٌ إلى هذه الأجزاء، وبين هذه الأجزاء تضادٌّ، وتضادُّ بعض العناصر ببعضٍ آخر ظاهرٌ، وكذلك تضادُّ عالم الخلق بعالم الأمر أيضاً باهرٌ، وكلُّ واحدٍ من أجزاء عالم الأمر الخمسة مخصوصٌ بأمرٍ، ومنسوبٌ إلى كمالٍ، والنَّفسُ الناطقةُ هي مقتضيةٌ لهواها، لا تريد إطاعةَ أحدٍ سواها، وقد جمع اللهُ سبحانه هذه الأشياء المتضادَّةَ كاسراً سَوْرَةَ كلٍّ منها بعنايته الشَّاملة، وقدرته الكاملة، وأعطاها مزاجاً خاصّاً، وهيئةً وحدانيةً، وبعد حصول المزاج الخاصّ والهيئة الوحدانيَّة؛ وهب لها صورةً بحكمته البالغة حتى تحفظ أجزاءه المتفرّقة المتضادَّة، وسمى هذا المجموعَ بالإنسان، وشرَّفه بشرف استعداد الخلافة باعتبار جامعيته، وحصول الهيئة الوحدانيَّة، وهذه الدَّولةُ لم تتيسّر لشيءٍ غير الإنسان، والعالمُ الكبيرُ وإن كان عظيماً، ولكنَّه خالٍ من الجامعيَّة، ولا نصيبَ له من الهيئة الوحدانيَّة، وهذه المعاملةُ جاريةٌ في جميع أفراد الإنسان، وعوامُّ الإنسان مشاركةٌ فيها لخواصِّه، ينبغي أن يعلم أنَّ أشرفَ أجزاء العالم الكبير هو العرشُ المجيدُ، والتجلّي المخصوصُ به فوق تجلّيات الأجزاء الأخر، ....

فإنَّ ذاك التجلّي جامعٌ، وذلك الظُّهورُ مستجمعٌ للأسماء والصِّفات الوجوبيَّة تعالت وتقدست، وأيضـًا إنَّ ذاك التجلّي دائميٌّ لا مجال فيه للاستتار، وقلبُ الإنسان الكامل الذي له مناسبةٌ للعرش - ويقال له: عرش الله - له نصيبٌ وافرٌ من تجلّي العرش، وحظٌّ كاملٌ.

غايةُ ما في البابِ: أنَّ ذاك التجلّي كليٌّ، وهذا التجلّي بالنِّسبة إليه جزئيٌّ، ولكن في القلب مزيَّةٌ ليست هي في العرش، وهي الشُّعورُ بالمتجلّي، وأيضـًا إنَّ القلبَ مظهرٌ له تعلّقٌ بما ظهر فيه، بخلاف العرش، فإنَّه خالٍ عن هذا التعلّق، فلا جرم أمكن الترقّي للقلب بواسطة هذا الشُّعور والتعلّق، بل هو واقعٌ، فإنَّ القلبَ بحكم «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» من له تعلّقٌ به، ومفتونٌ بمحبَّته، فإن كان محبّـًا للأسماء والصِّفات، فمع الأسماء والصِّفات، وإن كان محبّـًا للذات تعالت وتقدست، فقد صحّح المعيَّةَ هناك، وترقّى من التعلّق بالأسماء والصِّفات، بخلاف العرش المجيد، فإنَّ التجلِّيَ المجرَّدَ عن الأسماء والصِّفات غيرُ واقعٍ في حقِّه. والسلام.

المَكتُوبُ الثَّانِي عَشَرَ

إلى السَّيِّد المِير محمَّد نُعمانَ في بيانِ فوائِد التَّضرُّع، والانكِسارِ، والذِّكر، وتِلاوةِ القُرآنِ، وطولِ القُنوتِ في الصَّلاةِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

وصلت الصَّحيفةُ الشَّريفةُ من أخي معدن السِّيادة، فأورثت سروراً، وقد كتبتم فيها: أنَّه هل الأفضلُ الدُّعاءُ والتضرّعُ والانكسارُ ودوامُ الالتجاء إلى حضرة الحق سبحانه والذِّكرُ، أو هذه المذكوراتُ ممزوجة بالذكر لا بُدّ من الذِّكْر؟ وكلُّ شيءٍ يجتمع معه؛ فهو دولةٌ، وقد وضعوا مدارَ الوصول على الذِّكْر، وأشياء أخرى غيره كثمراته ونتائجه.

وسألتم أيضـًا: إنَّ هذه الثَّلاثة أفضلُ: النفيُ والإثباتُ، أو تلاوةُ القرآن، أو الصلاةُ بطول القنوت؟

اعلم أنَّ ذكرَ النفي والإثبات كالوضوء الذي هو شرطُ الصلاة، وما لم يوجد الوضوءُ لا يصحُّ الشروعُ في الصلاة، كذلك ما لم تتمَّ معاملةُ النفي والإثبات، فكلُّ عملٍ يعمل غيرَ الفرائض والواجبات والسنن داخلٌ فيما لا يعني، ينبغي أوَّلاً إزالةُ المرض، وهي مربوطةٌ بالنفي والإثبات، ثم الاشتغالُ بعد ذلك بعباداتٍ وحسناتٍ أخر مما هو كالغذاء الصالح للبدن، وكلُّ غذاءٍ يتناول قبل زوال المرض؛ فهو فاسدٌ ومفسدٌ:

(ع) وَكُلُّمَا أَخَذَ الْمَعْلُولُ مَعْلُولُ

وتماميَّةُ هذه المعاملة لا يلزم أن تتعيّن، فإنَّ تلك الحالةَ ناطقةٌ بتماميتها بنفسها. وكتبتم أيضـًا: أنَّ الجلدَ الثَّالثَ يسجَّلُ باسم من؟ والظَّاهر أنَّ الفقيرَ كنت كتبت قبل ذلك أنَّه يجعل مسجَّلاً باسمكم، وفي جواب كتابكم الآن أيضـًا الكلامُ هو هذا، ومن يكون أفضلَ وأحقَّ به منكم؟ يمكن أن يقال: إنَّ ميلانَ القلب دائمـًا إلى جانبكم، ولا يعلم وجهُ قعودكم في أكره، فإنَّه وإن كان في الجوار، ولكن لَمّا كان خاليـًا عن الملاقاة؛ فهو عارٍ عن الاعتبار، لا ينبغي إقامتكم هناك لأجل الفقير، توجّهوا إلى الوطن مفوِّضين الفقيرَ إلى أرحم الراحمين، واجعلوا المشتاقين هناك مسرورين، فإن كان في قلبكم وجهٌ آخر لقعودكم هناك؛ فهو أمرٌ آخرُ. ولتكن والدةُ محمد أمين موفقة مصحوبةً بالعصمة والعفَّة، قد طالعتُ ما كتبت من واقعاتها الطويلة العريضة، وإن كانت فيه أشياء موحشةٌ ومكدِّرةٌ، ولكنَّه خيرٌ سينقلب مآلُ كلٍّ منها إلى الخير في الآخر، ولتكن متنبِّهةً من أمثال هذه الواقعات، ومتلافيةً للتَّقصيرات بالتَّوبة والاستغفارات، ولتعلم أنَّ التمتعات الدنيويَّة ....

والمزخرفات الفانية لا شيءٌ محضٌ، لا يصير العاقلُ مفتوناً ومبتلىً بها، ينبغي أن تكون أحوالُ الآخرة نصبَ العين، وأن يكون مشغولاً بالذكر، ولأيّ شيءٍ يلزم حصولُ لذّةٍ تامةٍ في الذكر، وظهور أشياء في النظر؟ فإنَّ ذلك داخلٌ في اللهو واللعب، بل كلّما توجد المشقّةُ في الذِّكْر يكون أفضلَ وأنفعَ، ينبغي تعميرُ الأوقات بالذكر الإلهي جلّ شأنه بعد أداء الصلوات الخمس دون أن يتعطّل بالالتذاذ بالذِّكْر، وينبغي لها أن تلتمسَ رضاكم مغتنمةً لخدمتكم، وينبغي لكم أيضاً أن ترفقوا بها، وأن تجذبوها إلى جانبكم، وأن تدلُّوها على الحسنات. والسلام.

المكتوب الثالث عشر

إلى السَّيِّد المِير مُحبّ اللهِ المانكْپُورِيّ في التَّحريضِ على كَمالِ مُتابعةِ صاحبِ الشَّريعةِ الغرَّاءِ عليهِ وعلى آله الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومُتابَعةِ شَيْخِ الطَّرِيقَةِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل المكتوبُ الشَّريفُ من مرجع السِّيادة أخي المير محب الله، واتَّضحت مقدّماتُ اليأس المندرجة على وجه الاضطرار والاضطراب، اليأسُ كفرٌ، يلزم أن تكونوا راجين، لو كان رسوخٌ في أمرين فلا غمَّ حينئذ متابعةُ صاحب الشَّريعة الغراء عليه وعلى آله الصلاة والسلام، والاعتقادُ في شيخ الطَّريقة ومحبَّتُه، ينبغي أن تكونوا واقفين وملتجئين ومتفرغين؛ لئلا يقع الفتورُ في هذه الدَّولة، وكلُّ شيءٍ سواها سهلٌ كائناً ما كان، وتلافيه ممكنٌ.

وقد كنت كتبت فيما قبل: إنَّه إذا كنتم كارهين للإقامة في مانكپوري، ينبغي اختيارُ الوطن في إله آباد يحتمل أن يكون مباركاً، وأنتم فهمتم منه العكس، ولم يدلَّ لفظُ المبارك أيضاً على المقصود، والكلامُ الآن أيضاً هو ذاك، وقد ظهر الليلةَ في النظر أنَّه قد حوّل رحلُكم من مانكپور إلى إله آباد، فاختاروا هناك خرابةً، وعمروا أوقاتكم بالذِّكْر الإلهيّ جل شأنه، ولا يكون لكم شغلٌ بأحدٍ، والتزموا ذكرَ النفي والإثبات، وأخرجوا بتكرار هذه الكلمة الطيِّبة من ساحة الصدر جميع المرادات حتى لا يكون المقصودُ والمطلوبُ والمحبوبُ غيرَ واحدٍ، فإن عجز القلبُ عن الذِّكْر فقولوا باللسان بشرط الإخفاء، فإنَّ الجهرَ ممنوعٌ في هذا الطَّريق، وقد علمتم بقيَّة طرز الطَّريقة وأوضاعها، وإياكم والعدولَ عن طريق التَّقليد ما استطعتم، فإنَّ لتقليدِ شيخِ الطَّريقة ثمراتٍ، وفي الخلاف لطريقه خطراتٌ، وماذا أكتب زيادةً على ذلك؟ والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله وأصحابه أتم الصلوات، وأكمل التحيات.

المكتوب الرابع عشر

إلى المِير شَمسِ الدِّين عَلِيٍّ في جوابِ سُؤالِه عن وجودِ واجبِ الوُجودِ تعالى.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد صرت محظوظاً وملتذّاً بمطالعة الصَّحيفة الشَّريفة المرسلة على وجه الكرم والشَّفقة، جزاكم الله سبحانه خيراً. واندرج فيها أنَّ ذات الحقّ سبحانه وتعالى إذا كانت موجودةً بماهيتها لا بالوجود عيناً كان أو زائداً، فكيف يتحقّقُ التَّقابلُ بين واجب الوجود الذي هو ذات الله سبحانه بلا اعتبار الوجوب والوجود وبين ممتنع الوجود؟ وبأيِّ وجهٍ يمكن إطلاقُ واجب الوجود على الذات المعراة عن الوجوب والوجود؟ وكيف يثبت استحقاقُ العبادة الذي هو منوطٌ بوجوب الوجود؟ وبأيِّ اعتبارٍ يكون إطلاقُ.........

واجب الوجود على الذات العديمة الوجوب والوجود؟

أيُّها المخدومُ، إنَّ جوابَ هذه الأسئلة مندرجٌ بالتَّفصيل في مكتوبٍ من مكتوبات الجلد الثّاني، والظّاهرُ أنَّه محرَّرٌ باسم واحد من أولاد الفقير، فإن طالعتموه لعلكم تحتظون به، وبالجملة يمكن أن تكون ماهيّةُ الواجب جل سلطانه موجودةً بنفسها لا بالوجود، وإطلاقُ الوجوب على تلك الحضرة يكون من قبيل منتزعات العقل، بل لله المثلُ الأعلى، وكما أنَّ وجوبَ الوجود من قبيل المنتزعات امتناعُ العدم أيضاً في تلك الحضرة جلَّ سلطانها من المنتزعات، وكما أنَّ الذّات البحت ليست فيها نسبةُ وجوب الوجود؛ ليست فيها أيضاً نسبةُ امتناع العدم، وحيث ظهرتْ نسبةُ وجوب الوجود حصلتْ نسبةُ امتناع العدم الذي هو مقابلُه، وظهرتْ نسبةُ استحقاق العبادة الذي هو متفرِّعٌ على وجوب الوجود، «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ**»، وإن كان من النسب والاعتبارات، فإذا ظهرت النسبُ ظهر التقابلُ، والسلام أوّلاً وآخراً.

المكتوب الخامس عشر

إلى المِير محمَّد نُعمانَ في بيانِ أنَّ لذَّة إيلام المَحبوبِ ألذُّ وأجلَى في نَظرِ المُحبِّ من لذَّة إنعامِه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

ليكن معلومَ الأخ السيد محمد نعمان أنَّه صار مفهوماً أنَّ الأحبابَ الناصحين كلَّما اجتهدوا في التشبُّث بأسباب الخلاص لم يكن نافعاً، الخيرُ فيما صنعه الله سبحانه، فحدث من هذا الأمر نوعُ حزنٍ بمقتضى البشريَّة، وظهر ضيقُ الصَّدر، ثم بعد زمانٍ تبدَّل الحزنُ وضيقُ الصدر بفضل الله جل سلطانه بالفرح وشرح الصَّدْر، وعلمت بيقينٍ خاصٍّ أنَّ مرادَ هذه الجماعة الذين في صدد الإيذاء لو كان موافقاً لمراد الحقّ جل شأنه لا معنى للاستكراه وضيق الصَّدر، بل هو منافٍ لدعوى المحبّة، فإنَّ إيلامَ المحبوب مثلُ إنعامه محبوبٌ للمحبّ ومرغوبٌ فيه له، كما أنَّ المحبَّ يلتذُّ بإنعامه يلتذُّ أيضاً بإيلامه، بل يجد اللذَّةَ في إيلامه أكثرَ؛ لكونه مبرَّأً من شائبة حظّ النَّفس ومرادها، وحيث إنَّ الحقَّ سبحانه جميلٌ مطلقٌ، فإذا أراد إيذاءَ شخصٍ تكون إرادتُه تعالى بعنايته سبحانه في نظر ذلك الشَّخص جميلةً ألبتة، بل تكون سبباً للالتذاذ، وحيث إنَّ مرادَ هذه الجماعة موافقٌ لمراد الحق سبحانه وروزنةٌ لمراده تعالى؛ فمرادُهم أيضاً مستحسنٌ في النظر، وموجبٌ للالتذاذ، وفعلُ الشَّخص الذي هو مظهرٌ لفعل المحبوب محبوبٌ أيضاً كنفس فعل المحبوب، وذلك الشَّخصُ الفاعلُ أيضاً يظهر في نظر المحبّ بهذه العلاقة محبوباً، والعجبُ أنَّ الجفاءَ كلَّما يتصوَّرُ من ذلك الشَّخص أزيدَ يظهر في نظر المحبّ أحسنَ وأمجدَ؛ لكون إراءته لصورة غضب المحبوب أكثرَ وأزيدَ، وأمرَّ وألهى هذا الطَّريق مقلوبٌ ومعكوسٌ، وإرادةُ السُّوء لذاك الشَّخص وإساءته منافيةٌ لمحبّة المحبوب، فإنَّ ذلك الشَّخصَ ليس بأزيد في ذلك من أين يكون مرآةً لفعل المحبوب؟ والذين هم في صدد الإيذاء يظهرون في النَّظَر محبوبين بالنِّسبة إلى سائر الخلائق، فليُزِلِ الإخوانُ ضيق الصدر عن أنفسهم، ولا يحقدوا على الذين في صدد الإيذاء، بل ينبغي أن يكونوا متلذذين بفعلهم. نعم، حيث كنا مأمورين بالدُّعاء، والحقُّ سبحانه يحبُّ الدُّعاءَ والالتجاءَ والتضرّعَ والابتهالَ، ينبغي الدعاءُ لدفع البلية، وسؤالُ العفو والعافية، وإنَّما قلت: مرآةُ صورة الغضب، فإنَّ حقيقةَ الغضب نصيبُ الأعداء، وصورةُ الغضب مع الأحباء عين الرَّحمة في الحقيقة، وكم من منافع لمحبٍّ أودعت في صورة الغضب، هذه لا يمكن شرحه، وأيضاً في صورة الغضب التي أعطيها الأحباء هلاكُ المنكرين، وهي باعثةٌ على ابتلائهم،..........................

ولعلَّكم علمتم معنى عبارة الشَّيخ محيي الدين ابن العربي قدس سره حيث قال: لا همَّةَ للعارف، يعني: أنَّ الهمَّةَ التي يقصد بها دفعُ البليَّة مسلوبةٌ عن العارف، فإنَّ العارفَ إذا رأى البليَّة من المحبوب وتيقَّن أنَّها مرادُه كيف يصرف همتَّهَ لدفعها؟ وكيف يريد رفعها؟ وأنَّه وإن أجرى دعاء الدَّفع على لسانه بحسب الصورة لامتثال الأمر بالدعاء، ولكنَّه لا يريد شيئاً في الحقيقة، بل هو ملتذٌّ بكلِّما يصيبه، والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب السادس عشر

إلى مَولانا أحمدَ الدَّيْبَنيِّ في بَيانِ سرِّ عَدمِ اطِّلاعِ السَّالكِ على أحوالِه ومُشاهَدتِها في مَرايا المُستَرشِدينَ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصل المكتوبُ الشَّريفُ، وذكرتم فيه بأنّي لا أجد في نفسي شيئاً من أحوال هذه الطَّائفة العليّة ومواجيدهم وعلومهم ومعارفهم، ومع ذلك كنت علَّمت الطالبين الطَّريقةَ، فتأثَّرا تأثراً كثيراً، وظهرت منهما أحوالٌ غريبةٌ، فما يكون وجهُ ذلك؟

اعلم أنَّ الأحوالَ التي ظهرت من ذينك الشَّخصين كانت من عكس أحوالكم ظهر في مرايا استعدادهما، ولما كانا صاحِبَيْ علمٍ عَرَفا أحوالهما، ودلَّاكم أيضاً على العلم بحصول الحال المستور، كمرآةٍ تدلُّ على كمالاتٍ خفيّةٍ في الإنسان، وتظهر محاسنه المكنونة، المقصودُ حصولُ الأحوال، والعلمُ بالأحوال دولةٌ أخرى، يعطى جمعٌ هذا العلمَ وجمعٌ آخرُ لا يعطاه، ومع ذلك يكون كلاهما من أرباب الولاية، ومتساويين في القرب، فـ(منّا من عَلِمَ، ومنا من جَهِلَ) من كلام هذه الطَّائفة، ينبغي أن لا يكون محزوناً ومتألّماً من عدم العلم بالأحوال، وينبغي السَّعيُ حتى يحصل الأحوالَ، بل حتى يحصِّلَ الوصولَ إلى محوِّل الأحوال تجاوزاً من الأحوال، فإن لم يحصل العلمُ بالأحوال بلا توسُّط المسترشدين ينبغي أن يقنع بمطالعتها في مراياهم، وأن يكون محتظّاً من طريق المظاهر، وليحصل الأحوالَ، فإن لم يتيسَّر العلمُ بالأحوال بلا توسُّطٍ؛ فعساه أن يحصل بتوسُّطٍ.

وكتبتم أيضاً أنَّ دوامَ الحضور عبارةٌ عن أيِّ شيءٍ؟ وكثيراً ما يحسُّ ذهولُ القلب عن هذا الحضور في بعض المشاغل، فينبغي تشخيصُ الحضور ودوام الحضور.

اعلم أنَّ الحضورَ عبارةٌ عن حضور الباطن مع جناب قدس الحق جل سلطانه شبيهٌ بالعلم الحضوريّ الذي الدوامُ لازمُه، هل سمعت أحداً أنَّه غفل عن نفسه في وقتٍ من الأوقات وذهل؟ والغفلةُ والذهولُ إنّما يتصوَّران في العلم الحصوليّ لوجود المغايرة في البين، وفي العلم الحضوريّ حضورٌ في حضورٍ دائماً، وإن كان الأبلهُ في جهلٍ من هذا الحضور ونفورٍ، وبحصولٍ في غرورٍ، فكان الدوامُ لازماً للحضور، والذي لا دوامَ له؛ فهو ميلانٌ إلى المطلوب، وله شباهةٌ بالحضور المذكور، ودوامُه متعذِّرٌ لكونه شبيهاً بالعلم الحصوليّ الذي هو قليلُ النَّصيب من الدوام، ولله المثل الأعلى، وإطلاقُ العلم الحصوليّ والعلم الحضوريّ بالنِّسبة إلى جناب قدسه تعالى إنّما هو على سبيل التَّشبيه والتَّنظير، فإنَّه تعالى إذا كان أقربَ إلى الإنسان من نفسه يكون خارجاً عن حيطة العلم الحضوريّ والعلم الحصوليّ، وإن عجز أربابُ المعقول عن تصوُّره، ولم يجدوا أقربَ من أنفسهم، ولكن هذا المعنى واضحٌ عند أرباب العلم اللدنيّ، وحاصلٌ بالسُّهولة بعناية الله تعالى. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. ثم لا يخفى أنَّ لأخي السيد حقوقاً كثيرةً عليكم، وهو متأذٍّ لمجيئكم بغير إذنه، فينبغي حضورُكم في ملازمته..

بلا توقُّفٍ لتلافِي الإيذاء، فإن جئتم بإذنه؛ فلا مضايقةَ، ينبغي أن تعاملوا موافقاً لمرضاه، وأن تجيئوا بإذنه، وما أكتب زيادةً على ذلك؟

المَكتُوبُ السَّابِعَ عشَرَ

إلى امرَأةٍ صالِحةٍ من أهلِ الإرادَة في بيانِ العَقائِد الدِّينيَّة، والتَّرغيبِ على العِباداتِ الشَّرعيَّة.

الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا إلى الإسلام، وجعلنا من أمة محمد سيد الأنام، عليه وعلى آله الصلاة والسلامُ.

ينبغي أن يعلم أنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى منعمٌ على الإطلاق، فإن كان وجودٌ؛ فموهوبٌ من جناب قدسه تعالى، وإن بقاءٌ؛ فعطاءٌ من حضرته جلّ سلطانه، وإن صفاتٌ كاملةٌ؛ فمن رحمته الشَّاملة، والحياةُ والعلمُ والقدرةُ والبصرُ والسمعُ والنطقُ كلُّها مستفادةٌ من حضرته جلّ شأنه، وأنواعُ النِّعَم وصنوفُ الكرم التي خارجةٌ عن الحدّ والعدّ كلُّها مفاضةٌ من جناب قدسه تعالى، وهو تعالى يزيل العسرَ والشدَّةَ، ويجيب الدعوةَ، ويدفع البليةَ، رزَّاقٌ لا يمنع الأرزاقَ عن عباده من كمال رأفته بعلَّة ذنوبهم، ستَّارٌ لا يهتك سترَ حرمتهم من وفور عفوه وتجاوزه بارتكاب السيئات، ولا يفضحهم بعيوبهم، حليمٌ لا يستعجل في مؤاخذتهم وعقوباتهم، كريمٌ لا يمنع عموم كرمه عن الأحباء والأعداء، وأجلُّ هذه النِّعَم وأعظمُها وأعزُّها وأكرمُها: الدَّعوةُ إلى الإسلام، والهدايةُ إلى دار السَّلام، والدِّلالةُ على متابعة سيد الأنام عليه وعلى آله الصلاة والسلام، فإنَّ الحياةَ الأبديّةَ والتنعماتِ السَّرمديَّةَ مربوطةٌ بهذه، ورضى المولى سبحانه وتعالى منوطٌ بها. وبالجملة: إنَّ إنعامَه وإكرامَه وإحسانَه تعالى أظهرُ من الشَّمس، وأجلى من القمر، وأبينُ من الأمس، وإنعامُ غيره تعالى بإقداره وتمكينه سبحانه وطلبُ الإحسان منهم من قبيل الاستعارة من المستعير، والسُّؤالِ من الفقير، الجاهلُ كالعالم مقرٌّ بهذا المعنى، والغبيُّ مثل ذكيٍّ معترفٌ بهذا الأمر: (شعر)

فَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنْبَتِ شَعْرَةٍ لِسَانًا يَبُثُّ الشُّكْرَ كُنْتُ مُقَصِّرًا

ولا شك أنَّ بداهةَ العقل حاكمةٌ بوجوب شكر المنعم، ولزوم توقيره وتعظيمه، فصار شكرُ الحقّ سبحانه وتعالى الذي هو المنعمُ الحقيقيُّ واجباً ببديهة العقل، وكان تكريمُه وتعظيمُه تعالى لازماً، وحيث كان الحقُّ سبحانه وتعالى في كمال التنزُّه والتقدُّس، والعبادُ في غاية التلوُّث والتدنُّس؛ تعذَّرَ من كمال عدم المناسبة وجدانُ أنَّ تعظيمه وتكريمه تعالى في أيِّ شيءٍ، وعلى أيّ كيفيةٍ، فإنَّ العبادَ كثيراً ما يستحسنون إطلاقَ بعض الأمور على جناب قدسه تعالى، ويكون هو في الحقيقة مستهجناً عنده تعالى، ويخالون شيئاً تعظيماً، ويكون توهيناً، ويزعمون شيئاً تكريماً، ويكون تحقيراً، فما لم يكن تعظيمُه وتكريمُه تعالى مستفاداً من جناب قدسه لا يكون لائقاً بأداء الشُّكر به، وقابلاً لعبادته تعالى، فإنَّ الحمدَ الذي يصدر عن العباد من قِبَلهم ربّما يكون هجواً، ومدحُهم قدحاً، والتَّعظيمُ والتَّوقيرُ والتَّكريمُ التي كانت مستفادةً من حضرته سبحانه هي عينُ شريعتنا الحقَّة على مصدرها الصلاة والسلام والتحيةُ، فإن كان تعظيمٌ قلبيٌّ؛ فمبيَّنٌ في الشَّريعة الحقَّة، وإن ثناءٌ لسانِيٌّ؛ فمبرهنٌ هناك، والأعمالُ والأفعالُ الجوارحيَّةُ أيضاً بيَّنها صاحبُ الشَّريعة بالتَّفصيل، فأداءُ شكره تعالى صار منحصراً في إتيان أحكام الشَّريعة قلباً وقالباً، اعتقاداً وعملاً، وكلُّ تعظيمٍ وعبادةٍ له تعالى يؤدَّى بما وراء الشَّريعة...

لا يكون قابلاً للاعتماد، بل كثيراً ما يكون محصّلاً للأضداد، والحسنةُ المتوهَّمةُ تكون سيئةً في الحقيقة، فبملاحظة البيان المذكور كان العملُ بالشَّريعة أيضـاً واجبـاً بالعقل، وكان أداءُ شكر المنعم تعالى متعذِّراً بدون الإتيان بها، والشَّريعةُ لها جزآن: اعتقاديٌّ وعمليٌّ، فالاعتقاديُّ من أصول الدِّين، والعمليُّ من فروع الدِّين، وفاقدُ الاعتقاد ليس من أهل النَّجاة، والخلاصُ من عذاب الآخرة غيرُ متصوَّرٍ في حقِّه، وفاقدُ العمل أمرُه مفوَّضٌ إلى مشيئته سبحانه وتعالى، فإن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه بقدر ذنبه، والخلودُ في النار مخصوصٌ بفاقد الاعتقاد، ومقصورٌ على منكر ضروريات الدِّين، وفاقدُ العمل وإن كان معذَّبـاً، ولكنَّ الخلودَ في النار مفقودٌ في حقِّه، ولَمّا كانت الاعتقادياتُ من أصول الدين وضروريات الإسلام؛ لزم أن نبينه بالضَّرورة، وحيث كان تفصيلٌ في العمليات مع وجود فرعياتها أحلنا بيانها على كتب الفقه مع بيان شمَّةٍ للتَّرغيب في بعض العمليات الضرورية.

الاعتقاديات: إنَّ اللهَ تعالى موجودٌ بذاته الأقدس، ووجودُه تعالى بنفسه سبحانه، وكما أنَّه تعالى موجودٌ كان دائميـّاً، ويكون دائميّاً، لا سبيلَ للعدم السَّابق والعدم اللاحق إلى جناب قدسه تعالى، فإنَّ وجوبَ الوجود أحقرُ خُدَّام ذلك الجناب المقدس، وسلبَ العدم أذلُّ كُنّاس ذاك الموطن المحترم، وهو تعالى واحدٌ لا شريك له، لا في وجوب الوجود، ولا في الألوهية واستحقاق العبادة، فإنَّ الشَّريكَ إنّما يحتاج إليه إذا لم يكن الله تعالى كافيـاً ومستقلّاً، وذلك نقصٌ منافٍ للألوهيَّة، فإذا كان كافيـاً ومستقلّاً يكون الشَّريكُ معطلاً وعبثـاً، وهما أيضـاً من علامة النَّقص المنافي للألوهيَّة، فصار إثباتُ الشَّريك مستلزمـاً لنقص أحد الشَّريكين المنافي للشِّرْكة، فصار إثباتُ الشّركة مستلزمـاً لنفي الشّركة، وهو محالٌ، فشريكُ الباري تعالى أيضـاً محالٌ.

وله تعالى صفاتٌ كاملةٌ من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسَّمع والبصر والكلام والتَّكوين، ويقال لهذه الصِّفات الثَّمانية: صفاتٌ حقيقيَّةٌ، وهي قديمةٌ موجودةٌ في الخارج بوجودٍ زائدٍ على وجود الذات تعالت وتقدست كما هو مقرَّرٌ عند علماء أهل الحقّ شكر الله تعالى سعيهم، ولم يقل بوجود الصِّفات الزَّائدة أحدٌ من الفرق المخالفة غيرَ أهل السُّنَّة والجماعة شكر الله تعالى سعيهم، حتى إنَّ الصوفيَّةَ المتأخِّرين من الفرقة النَّاجية قالوا بعينيَّة الصِّفات للذَّات، ووافقوا في ذلك المخالفين، فإنَّهم وإن تحاشَوْا عن نفي الصِّفات، ولكنَّه لازمٌ على أصولهم، وتبادر عباراتهم، وقد زعم المخالفون الكمالَ في نفي الصِّفات الكاملة، وفارقوا النُّصوصَ القرآنيَّةَ بعقولهم، هداهم الله سبحانه سواء الصراط. وسائرُ الصِّفات: إما اعتباريَّةٌ، أو سلبيَّةٌ، كالقِدَم والأزليَّة والألوهيَّة كما قالوا، وهو تعالى ليس بجسمٍ، ولا جسمانِيٍّ، ولا عرضٍ، ولا جوهرٍ، ولا مكانِيٍّ، ولا زمانِيٍّ، ولا حالٍّ، ولا محلٍّ، ولا محدودٍ، ولا متناهٍ، لا جهةَ له ولا نسبةَ، والكفاءةُ والمثليَّةُ مسلوبةٌ عن جناب قدسه، والضِّدِّيَّةُ والنديَّةُ مفقودةٌ في حضرة أنسه، وهو تعالى منزَّهٌ ومبرَّأٌ من والدٍ ووالدةٍ وصاحبةٍ وولدٍ، فإنَّ هذه كلَّها من أمارات الحدوث ومستلزمةٌ للنَّقص، وجميعُ الكمالات ثابتةٌ لجناب قدسه، وجميعُ النَّقائص مسلوبةٌ عن حضرة أنسه. وبالجملة: ينبغي أن يسلبَ عن جناب قدسه تعالى جميعُ صفات الإمكان والحدوث التي هي نقصٌ وشرٌّ من القدم إلى الرأس.

وهو تعالى عالمٌ بالكليات والجزئيات، ومطَّلعٌ على الأسرار الخفيات، ولا يخرج عن حيطة علمه سبحانه في السّموات والأرضين..

مثقالُ ذرَّةٍ حقيرةٍ. نعم، حيث كان خالقُ جميع الأشياء هو سبحانه ينبغي أن يكون أيضـًا عالمـًا بجميعها، فإنَّ الخلقَ لا بُدَّ له من علم الخالق به، والذين حرموا السَّعادةَ يزعمون أنَّ الله تعالى ليس بعالمٍ بالجزئيات، ويظنُّون ذلك بعقولهم النَّاقصة كمالاً، كما أنَّهم يقولون من كمال سخافة عقولهم: إنَّه لم يصدرْ من واجب الوجود جلّ سلطانه غيرُ شيءٍ واحدٍ، وهو أيضـًا صدر عنه من غير اختيارٍ منه تعالى، ويظنُّون ذلك أيضـًا كمالاً، ما أجهلهم حيث يزعمون الجهلَ كمالاً، ويرجِّحون الاضطرارَ على الاختيار، ومن الجهل الذي فيهم يزعمون سائرَ الأشياء مستندةً إلى غيره تعالى، وينحتون من عند أنفسهم عقلاً فعَّالاً، وينسبون الأشياءَ إليه، ويزعمون خالقَ السّموات والأرضين معطَّلاً. وعند الفقير لم يوجد في العالم أحدٌ أشدُّ سفاهةً من هذه الطَّائفة، سبحان الله، وقد زعم جماعةُ هؤلاء السّفهاء أرباب المعقول، وينسبون أقوالهم إلى الحكمة، ولعلهم يظنُّون أحكامهم الكاذبةَ مطابقةً لنفس الأمر. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وهو تعالى متكلّمٌ من الأزل إلى الأبد بكلامٍ واحدٍ، فهو آمرٌ ناهٍ مخبرٌ به، والتوراةُ والإنجيلُ والزّبورُ والفرقانُ - وكذلك سائرُ الصُّحُف المنزلة إلى الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات - كلُّها دالَّةٌ على هذا الكلام الواحد، وعلامةٌ له، وتفصيلٌ له، فإذا كان الأزلُ والأبدُ بهذه الوسعة والامتداد آنـًا واحداً، بل لا مجالَ للآن أيضـًا هناك، وإطلاقُ الآن إنّما وقع لضيق العبارة؛ فالكلامُ الذي يصدر في ذلك الآن يكون كلمةً واحدةً، بل حرفـًا واحداً، بل نقطةً واحدةً، وإطلاقُ النُّقطة أيضـًا هناك كإطلاق الآن واقعٌ من ضيق العبارة، وإلا؛ فلا مجال للنُّقطة أيضـًا هناك، والوسعةُ في ذاته وصفاته جلّ سلطانه لا كيفيَّةٌ ولا كميَّةٌ، وهو تعالى مبرَّأٌ منزَّهٌ بذاته وصفاته من هذه الوسعة والضِّيق اللّذَين من صفات الإمكان.

ويراه سبحانه المؤمنون في الجنَّة بعنوانِ اللا كيفيّ واللا مثليّ، فإنَّ الرؤيةَ التي تتعلّقُ باللا كيفيّ تكون لا كيفيَّةً، بل ينال الرَّائي أيضـًا حظّـًا وافراً من اللا كيفيّ حتى يستطيع رؤيةَ اللا كيفيّ، **(لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه)**، وقد حلَّ سبحانه اليوم هذا المعمَّى لأخصِّ الخواصِّ من أوليائه، وجعله منكشفـًا لهم، فهذه المسألةُ الغامضةُ تحقيقيَّةٌ عند هؤلاء الأكابر، وتقليديَّةٌ عند غيرهم، ولم يقل بهذه المسألة أحدٌ من الفرق المخالفين مؤمنيهم وكافريهم غير أهل السُّنَّة، ويعدُّ رؤيةَ الحق سبحانه - عدا هؤلاء الأكابر - كلُّهم محالاً، ومستشهدُ المخالفين قياسُ الغائب على الشَّاهد البيِّن الفساد، وحصولُ الإيمان بمثل هذه المسألة الغامضة بلا نورِ متابعة السنَّة السَنِيَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية متعذِّرٌ: (شعر)

لائقِ دولـت نـبـوَد هـر سـرى　　　بـارِ مـسـيـحـا نـكـشـد هـر خـرى

والعجبُ أنَّه كيف يستسعدُ بحصول سعادة الرُّؤية من لا إيمانَ لهم بها؟ فإنَّ نصيبَ المنكر حرمانٌ، وكيف لا يراه من يدخل الجنَّةَ، فإنَّ المتبادرَ من الشرع حصولُ دولة الرُّؤية لجميع أهل الجنَّة؟ فإنَّه لم يرد في الشَّرع أنَّ بعض أهل الجنة يراه، وبعضهم لا يراه تعالى، والجوابُ في حقّ هؤلاء هو جوابُ موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام لسؤال فرعون قال الله تعالى حاكيـًا عنهما: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولٰى ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسٰى﴾ [طه: ٥١-٥٢].

ينبغي أن يعلم أنَّ الجنَّةَ وما وراء الجنَّة كلَّها بالنِّسبة إلى الحق سبحانه متساويةٌ، فإنَّ كلَّها مخلوقُ الله تعالى، وليس....

له سبحانه حلولٌ وتمكُّنٌ في شيءٍ منها، ولكن ليس لبعض المخلوقات لياقةُ ظهور أنوار الواجب جلّ سلطانه، بخلاف بعضٍ آخر، فإنَّ فيه هذه اللَّياقةَ، كما أنَّ المرآةَ فيها لياقةُ ظهور الصُّور، وليست هذه اللياقةُ في الحجر والمدر، فالتَّفاوتُ في هذا الطَّرَف مع وجود نسبة المساواة لا في حضرته سبحانه وتعالى: (شعر)

اين قاعده ياد دار كآنجا كه خداست　　　نى جزو، نه كل و نه ظرف نى مظروف است

والرؤيةُ ليست بواقعةٍ في الدُّنيا، فإنَّ هذا المحلَّ ليس فيه لياقةُ ظهور هذه الدَّولة، وكلُّ من قال بوقوع الرؤية في الدُّنيا؛ فهو كذابٌ ومفترٍ، زعم غيرَ الحقِّ حقاً سبحانه، فلو تيسّرتْ هذه الدَّولةُ في هذه النَّشأة؛ كان كليمُ الله على نبينا وعليه الصلاة والسلام أحقَّ بها، وإنَّ تشرُّفَ نبينا عليه وعلى آله الصلاة والسلام بهذه الدَّولة، لم يكن وقوعُها في الدنيا، بل دخل الجنَّةَ، ورأى فيها وهي من عالم الآخرة، لا أنَّه رأى في الدنيا، بل خرج من الدنيا، وصار ملحقاً بالآخرة، فرأى.

وهو تعالى خالقُ السّموات والأرضين، وخالقُ الجبال والبحار، وخالق الأشجار والأثمار، وخالقُ المعادن والنباتات، وكما أنَّه سبحانه زيَّن السماء بخلق النُّجوم، وزيَّنَ الأرضَ بخلق الإنسان، فإن كان بسيطٌ؛ فكائنٌ بإيجاده تعالى، وإن مركَّبٌ؛ فمخلوقٌ بخلقه تعالى. وبالجملة: أخرج سبحانه جميع الأشياء من كتم العدم إلى عرصة الوجود، وأحدثها بعد أن لم تكن، لا يليقُ القدمُ بغيره تعالى، ولا شيءَ بقديمٍ سواه سبحانه، وإجماعُ جميع أهل المِلَل منعقدٌ على حدوث ما سواه سبحانه، وكلُّهم متَّفقون على أن لا قديمَ غيرُه تعالى، ويحكمون بتضليل من يقول بقدم غيره تعالى، بل يحكمون بتكفيره، صرَّح الإمام الغزالي بهذا في رسالته «المنقذ من الضلال»، وحكم بكفر جماعةٍ قائلين بقدم غيره تعالى، والذين يقولون بقدم السّموات والكواكب وأمثالها يكذِّبُهم القرآن المجيد، كما قال الله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]، وأمثالُ هذه من الآيات القرآنية كثيرةٌ، وسفيهٌ من يخالف النُّصوصَ القرآنيَّةَ بعقله النَّاقص، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]. وكما أنَّ العبادَ مخلوقُ الحقّ سبحانه؛ أفعالُ العباد أيضاً مخلوقُه تعالى، فإنَّ الخلقَ لا يليق بغيره، وإيجادُ ممكنٍ لا يجيء من ممكنٍ، فإنَّه متَّسمٌ بقصور القدرة، ومتَّصفٌ بنقص العلم، لا يليق بالإيجاد والخلق، ودَخْلُ العبد في أفعاله الاختياريَّة إنّما هو بكسبه الواقع بقدرته وإرادته، وخلقُ الفعل من الله سبحانه، وكسبُه من العبد، ففعلُ العبد الاختياريِّ واقعٌ بمجموع كسب العبد وخلق الحقّ جلّ وعلا، فلو لم يكن لكسب العبد واختياره مدخلٌ في فعله؛ يكون حكمُه حكمَ فعل المرتعش، والفرقُ محسوسٌ ومشاهَدٌ، فإنّا نعلم بالبداهة أنَّ فعلَ المرتعش غيرُ فعل المختار، وهذا القدرُ من الفرق يكفي لمدخليَّة كسب العبد في فعله، وجعل الحقُّ سبحانه خلقَه تابعاً لقصد العبد في فعله من كمال رأفته، حيث يوجد الفعلَ في العبد بعد تعلُّق قصد العبد به، فيكون العبدُ بالضَّرورة ممدوحاً وملوماً، ومعاقباً ومثاباً، وقصدُ العبد واختيارُه اللذان أعطيهما من قبل الحقّ سبحانه يتعلّقان بجهتي الفعل والترك، وأيضاً قد بيَّن الحقُّ سبحانه حسنَ الفعل والتَّرك وقبحَهما بلسان الأنبياء عليهم الصلوات والتسليماتُ بالتَّفصيل، فمع وجود ذلك لو اختارَ العبدُ إحدى الجهتين لا بُدَّ من أن يكون ملاماً أو ممدوحاً، ولا شكَّ أنَّ الحقَّ سبحانه أعطى..

العبدَ من القدرة والاختيار مقدارَ ما يمكن له الخروجُ من عهدة الأوامر والنَّواهي الشرعيتين، ولماذا يلزم إعطاءُ قدرةٍ كاملةٍ واختيارٍ تامٍّ، وقد أعطي مقدارَ ما يحتاج إليه؟ وإنكارُ المنكرين مصادمٌ للبداهة، وبهم مرضٌ قلبيٌّ عجزوا به عن إتيان الأحكام الشَّرعيّة، ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وهذه المسألةُ من غوامض المسائل الكلاميَّة، ونهايةُ شرحها، وغايةُ بيانها هي ما سُوِّدَ في هذه الأوراق، والله سبحانه الموفق. ينبغي الإيمانُ بما قاله علماء أهل الحقِّ دون أن يقع في البحث والجدل: (شعر)

نه هر جاى مَركَب توان تاختن — كه جاها سپر بايد انداختن

والأنبياءُ عليهم الصلوات والتسليمات رحماتٌ للعالمين، بعثهم الله سبحانه لهداية الخلق، ودعا عبادَه بتوسُّط هؤلاء الأكابر إلى جناب قدسه، وهداهم إلى دار السَّلام التي هي محلُّ رضاه وأنسه، والمخذولُ من لا يجيب دعوةَ الكريم، ولا ينتفعُ من مائدة دولته، وما بلَّغ هؤلاء الأكابرُ من طرف الحقِّ سبحانه كلُّه حقٌّ وصدقٌ، والإيمانُ به لازمٌ، والعقلُ وإن كان حجَّةً، ولكنَّه ناقصٌ في الحجيَّة، والحجَّةُ البالغةُ إنّما حصلت ببعثة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، فإنَّها لم تترك محلاًّ للعذر، وأوَّلُ الأنبياء عليهم السلام آدمُ، وآخرُهم وخاتمُ نبوتهم محمدٌ رسول الله عليه وعليهم الصلاة والسلام، ينبغي الإيمانُ بجميع الأنبياء، وأن يعتقد كلَّهم معصومين صادقين، وعدمُ الإيمان بواحدٍ منهم مستلزمٌ لعدم الإيمان بجميعهم، فإنَّ كلمَتَهم متَّفقةٌ، وأصولَ دينهم واحدةٌ، وينزلُ عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ويتبع شريعةَ خاتم الرسل عليه وعليهم الصلوات والتسليمات، وأورد الخواجه محمد پارسا الذي هو من كُمَّل خلفاء الخواجه النقشبند قدس سرهما وعالمٌ ومحدِّثٌ نقلاً معتمداً في كتابه «الفصول الستة»: أنَّ عيسى عليه السلام يعمل بعد النزول بمذهب الإمام أبي حنيفة ﵁، ويحلُّ حلالَه، ويحرِّمُ حرامَه.

والملائكةُ: عبادُ الله تعالى المكرّمون، وبدولة الرِّسالة وتبليغ وحيه تعالى مشرَّفون، وما هم مأمورون به ممتثلون، والعصيانُ والخروجُ عن طاعة الله تعالى مفقودٌ في حقِّهم، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يلبسون، ولا يوصفون بذكورةٍ ولا أنوثةٍ، وليس لهم توالدٌ ولا تناسلٌ. والكتبُ والصحفُ الإلهيّةُ كلُّها نزلت بتوسُّطهم، وبقيت محفوظةً ومصونةً بصداقتهم في أداء أمانتهم، والإيمانُ بهم أيضاً من ضروريات الدِّين، وتصديقُهم من واجبات الإسلام.

وخواصُّ البشر أفضلُ من خواصّ الملك عند جمهور أهل الحقِّ، فإنَّ وصولَ البشر مع وجود العوائق، وقرب القدسيين حاصلٌ لهم بلا مزاحمة الاشتغال، وممانعةُ الخلائق وإن كان التَّسبيحُ والتَّقديسُ شغلَ القدسيين، ولكنَّ جمعَ الجهاد بهذه الدَّولة شغلُ كُمَّل الإنسيين، قال الله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥].

وما أخبر عنه المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام من أحوال القبر وأهوال القيامة والحشر والنشر ومن الجنة والنار كله حقٌّ، والإيمانُ بالآخرة كالإيمان بالله من ضروريات الدِّين، ومنكرُ الآخرة كمنكر الصَّانع كافرٌ قطعاً، وعذابُ القبر من الضَّغطة وغيرها حقٌّ، والمنكرُ له وإن لم يكن كافراً، ولكنَّه مبتدعٌ لكونه منكراً للأحاديث المشهورة، وحيث إنَّ القبرَ برزخٌ بين الدنيا والآخرة يشبه عذابَهُ من وجهٍ بعذاب الدنيا، وهو قبولُه..........

الانقطاعَ، ومن وجهٍ بعذاب الآخرة، وهو كونُه من جنسه، وأكثر من يبتلى به: من لا يستنزهون من البول ومن يمشون بالنَّميمة. وسؤالُ منكرٍ ونكيرٍ في القبر أيضاً حقٌّ، وهو فتنةٌ عظيمةٌ وابتلاءٌ جسيمٌ في القبر، ثبتنا الله سبحانه بالقول الثابت.

ويومُ القيامة حقٌّ واقعٌ ألبتَّة، يومئذ تنشقُّ السّموات، وتنتثرُ الكواكبُ، وتتقطعُ الأرضُ والجبالُ، وتكون ملحقةً بالعدم، كما أنَّ النصوصَ القرآنيةَ ناطقةٌ بها، وإجماعُ جميع الفرق الإسلامية منعقدٌ عليها، والمنكرُ عليها كافرٌ، وإن سوَّل كفرَه بمقدّمات موهومةٍ، وأضلَّ بها السُّفهاءَ عن الطَّريق، والبعثُ يومئذٍ عن القبر وإحياءُ العظام البالية المتفرقة كلُّه حقٌّ، وحسابُ الأعمال ووضعُ الميزان وطيرانُ صحف الأعمال ومجيءُ صحف أرباب اليمين من اليمين وصحفُ أصحاب الشمال من الشمال أيضاً حقٌّ، والصراطُ: الذي يوضع على متن جهنَّم، فيمرُّ عليه الجنتيُّ إلى الجنَّة، ويسقط الجهنميُّ في جهنَّم أيضاً حقٌّ، فإنَّ هذه كلَّها أمورٌ ممكنةٌ، أخبر المخبرُ الصَّادقُ بوقوعها، فينبغي قبولُها بلا توقُّفٍ من غير أن يتشكَّكَ ويتردَّدَ بمقدّماتٍ وهميةٍ، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] نصٌّ قطعيٌّ.

وشفاعةُ الصُّلحاء والأخيار يومئذٍ في حقِّ العصاة والأشرار بإذن الغفار حقٌّ، قال رسول الله ﷺ: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»، وخلودُ الكفار بعد الحساب في النار وعذابها أيضاً حقٌّ، وكذلك خلودُ المؤمنين في الجنة وتنعماتها أيضاً حقٌّ، والمؤمنُ الفاسقُ وإن جاز في حقِّه دخولُ النار وكونُه معذَّباً فيها أياماً، ولكنَّ الخلودَ في النار مفقودٌ في حقِّه، ومن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من الإيمان لا يكون مخلَّداً في النار، بل مآلُ حاله إلى الرَّحمة، ومرجعُ أمره إلى الجنة، ومدارُ الإيمان والكفر على الخاتمة، وكثيراً ما يكون الإنسانُ متَّصفاً بواحدةٍ من هاتين الصفتين طول عمره، ويتحقّق بضدِّها في الآخر، وإنَّما العبرةُ بالخواتم، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

والإيمانُ عبارةٌ عن تصديقٍ قلبيٍّ بما علم من الدِّين بطريق الضَّرورة والتَّواتر، والإقرارُ به أيضاً ضروريٌّ، كالإيمان بوجود الصانع وتوحيده تعالى، وكذلك الإيمانُ بحقيَّة الكتب والصُّحُف المنزلة، والإيمان بالأنبياء الكرام والملائكة العظام عليهم الصلاة والسلام إلى يوم القيام، والإيمانُ بالآخرة من حشر الأجساد، وخلود العذاب والثواب في النار والجنَّة، وانشقاق السّموات، وانتثار الكواكب، واندكاك الأرض والجبال، وكذلك الإيمانُ بفرضية الصلوات الخمس، وتعيينِ أعداد ركعتها، وبفرضيَّة زكاة الأموال، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام على تقدير الاستطاعة، وكذلك الإيمانُ بحرمة شرب الخمر، وقتل النَّفس بغير حقٍّ، وعقوق الوالدين، والسَّرقة، والزنا، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وأمثالها مما ثبت بالتواتر، وصار من ضروريات الدين.

ولا يخرج المؤمنُ بارتكاب الكبيرة من الإيمان، واستحلالُ الكبيرة كفرٌ، وارتكابُها فسقٌ، وينبغي للمؤمن أن يعتقد نفسَه مؤمناً حقّاً، يعني: ينبغي أن يعترف بثبوت إيمانه وتحقّقه، ولا ينبغي أن يجعلَ كلمةَ الاستثناء - يعني: كلمة إن شاء الله - مقرونةً بالإيمان؛ لكونها منبئةً عن الشكِّ، ومنافيةً لثبوت الإيمان بحسب الصُّورة، وإن جعل الاستثناءَ راجعاً إلى الخاتمة؛ لكونها مبهمةً، ولكنَّه لا يخلو من اشتباه الثُّبوت الحالي، فالاحتياطُ في ترك صورة الشكِّ والاشتباه.

وأفضليّةُ الخلفاء الأربعة على ترتيب خلافتهم، فإنَّ إجماعَ أهل الحقِّ منعقدٌ على أنَّ أفضل البشر بعد الأنبياء صلوات الله تعالى وتسليماته ....

سبحانه عليهم أجمعين أبو بكر الصديقُ، ثم عمر الفاروقُ ﵄، ووجهُ الأفضليّة - على ما فهمه هذا الفقير - ليس كثرةُ الفضائل والمناقب، بل الأسبقيَّةُ في الإيمان، والأقدميَّةُ في إنفاق الأموال، والأوّليةُ في بذل الأنفس في كلِّ حالٍ لتأييد الدين، وترويج ملَّة سيد المرسلين، فإنَّ السَّابقَ كأنَّه أستاذُ اللاحق في أمر الدين، وكلُّما ينال اللاحقُ يناله من مائدة دولة السَّابق، ومجموعُ هذه الصِّفات الكاملة الثَّلاثة منحصرةٌ في حضرة الصِّدِّيق ﵁، فإنَّ الذي جمع بين الأسبقيَّة في الإيمان وبين إنفاق المال وبذل النَّفس هو هو ﵁، وهذه الدَّولةُ لم تتيسّرْ في هذه الأمَّة لغيره، قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «**إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنَ النَّاسِ خَلِيلاً؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ**»(١)، وقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟**»(٢)، وقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ**»، وقال أمير المؤمنين عليٌّ ﵁: إنَّ أبا بكر وعمر كليهما أفضلُ هذه الأمة، ومن فضَّلني عليهما؛ فهو مفترٍ، أضربه كما يضرب المفتري. وما وقع بين أصحاب خير البشر عليه وعليهم الصلوات والتسليمات من المنازعات والمحاربات ينبغي أن يحمِلَها على محاملَ حسنةٍ، وأن يُبْعِدَهم عن مظنَّة الهوى والهوس، ومن حبِّ الجاه والرياسة، ومن طلب الرِّفعة والمنزلة، فإنَّ هذه الرَّذائلَ من النَّفس الأمَّارة، ونفوسُ هؤلاء الأكابر صافيةٌ ومزكَّاةٌ في صحبة خير البشر عليه وعليهم الصلاةُ والسلامُ، ولكنَّ الحقَّ كان في جانب أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله وجهه في تلك المشاجرات والمحاربات الواقعة في حقِّ خلافته، ومخالفوه كانوا مخطئين بالخطأ الاجتهاديِّ الذي لا مجالَ فيه للملامة والطَّعن فضلاً عن التَّفسيق، فإنَّ الصحابةَ كلَّهم عدولٌ، ومرويَّاتهم مقبولةٌ، ومرويَّاتُ موافقي عليٍّ ومخالفيه كلُّها متساويةٌ في الصِّدق والوثوق، ولم تصر المشاجرةُ والمحاربةُ علَّةً لجرح أحدٍ، فينبغي أن يحبَّ جميعهم، فإنَّ حبَّهم بحبِّ النبي عليه وعليهم الصلوات والتسليمات، فإنَّه قال: «**مَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ**»، وينبغي الاجتنابُ عن بغضهم وعدواتهم، فإنَّ بغضَهم ببغضه ﷺ، كما قال: «**وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ**»، وفي تعظيم هؤلاء الأكابر وتوقيرهم تعظيمُ خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام وتوقيرُه، وفي عدم تعظيمهم عدمُ تعظيمه، فينبغي تعظيمُ جميعهم من جهة تعظيم خير البشر عليه الصلاة والسلام، قال الشَّيخُ الشبليُّ: ما آمن برسول الله من لم يوقِّرْ أصحابه.

وبعد تصحيح الاعتقاد لا بُدَّ من إتيان الأعمال أيضاً، قال النبي ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ**»، وهي عبارةٌ عن الإيمان، والاعتقادِ بما ثبت بتبليغ محمد رسول الله ﷺ كما مرَّ، والثَّاني: أداءُ الصلوات الخمس التي هي عمادُ الدين، والثَّالثُ: أداءُ زكاة المال، والرَّابعُ: صومُ شهر رمضان، والخامسُ: حجُّ بيت الله الحرام، فالصلاةُ أفضلُ العبادات بعد الإيمان بالله ورسوله، وحسنٌ لذاته مثلُ الإيمان، بخلاف سائر العبادات، فإنَّ حُسْنَها ليس بذاتيٍّ، فينبغي أداءُ الصلاة بحسن التأمُّل والتقيُّد بعد طهارةٍ كاملةٍ كما بُيِّن في كتب الشرع من..................

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧) من حديث ابن عباس ﵄.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦١) من حديث أبي الدرداء ﵁، وفيه: أنَّه قالها مرتين، فما أوذي بعدها.

غير فتورٍ، وينبغي الاحتياطُ في القراءة والرُّكوع والسُّجود والقومة والجلسة وسائر الأركان حتى تؤدَّى على وجه الكمال، وينبغي التزامُ السُّكونة والطُّمأنينة في الرُّكوع والسُّجود والقومة والجلسة، وينبغي الاحترازُ عن المساهلة، وينبغي أداؤها في أوائل أوقاتها من غير أن يجوِّز التَّأخيرَ على وجه التَّكاسل والتَّجاهل، والعبدُ المقبولُ من يمتثل أمرَ مولاه بمجرَّد أمره، فإنَّ التَّأخيرَ في امتثال الأمر من التمرُّد وسوء الأدب.

وينبغي أن يستصحب من الكتب الفقهيَّة ما كتب بعبارةٍ فارسيةٍ، مثل: ترغيب الصلاة، وتيسير الأحكام، وأمثالهما في جميع الأوقات، وأن يأخذ المسائلَ الشَّرعيّةَ منها، والعملَ بمقتضاها، وكتاب كلستان ومثله داخلٌ في الفصول في جنب كتب الفقه الفارسية، بل مما لا يعني بالنِّسبة إلى الأمور الضروريَّة، وما يحتاج إليه في الدين ينبغي أن يعدَّه لازماً دون أن يلتفتَ إلى ما وراءه.

وصلاةُ التهجد أيضاً كأنَّها من ضروريات هذا الطَّريق، فينبغي السَّعيُ حتى لا تتركَ من غير ضرورةٍ، فإن كان هذا المعنى متعسِّراً في الابتداء، ولم يتيسّر التيقُّظُ؛ ينبغي تعيينُ جماعةٍ من الخدَّام ليوقظوه في ذلك الوقت بلا اختيارٍ، ولا يتركوه على النوم، وبعد اعتياد القيام أياماً لا تحتاج إلى التكلّف والتعمُّل، ومن أراد أن يقوم في آخر الليل ينبغي أن ينام في أوَّله بعد العشاء من غير أن يشتغل بما لا طائل فيه، وينبغي أن يغتنم الاستغفارَ والتوبةَ والالتجاءَ والتضرّعَ، وتذكُّر المعاصي والذنوب، وتفكُّر النقائص والعيوب، وخوف العذاب الأخروي، والإشفاق من الألم الدائميّ في ذلك الوقت، وأن يطلب العفوَ والمغفرةَ من الحقِّ سبحانه وتعالى، وأن يقول هذه الكلمةَ باللسان متوجّهاً إلى القلب مائةَ مرةٍ: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ وأتوب إليه سبحانه، وينبغي أن يقول هذه الكلمة بعد أداء العصر أيضاً مائةَ مرةٍ من غير أن يتركها بطهارةٍ أو بلا طهارةٍ، وقد ورد في الخبر: «**طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَاراً كَثِيراً**»(1).

وأداءُ صلاة الضحى إن تيسّر دولةٌ عظيمةٌ، فينبغي السَّعيُ حتى تؤدَّى ركعتان منها على الدَّوام، وأكثرُ ركعاتها كصلاة التهجُّد اثنتا عشرة ركعةً، ومقدارُ ما يؤدَّى بمقتضى الوقت والحال مغتنمٌ، وينبغي أن يجتهدَ لقراءة آية الكرسي بعد أداء كلِّ فرضٍ، فإنَّه قد ورد في الخبر: «**مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ بَعْدَ كُلِّ صَلَاةِ فَرْضٍ لَا يَمْنَعُهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا الْمَوْتُ**»(2)، وأيضاً ينبغي أن يقول بعد كلِّ صلاةٍ من صلوات الخمس كلمة التنزيه: سبحان الله ثلاثاً وثلاثين مرة، وكلمة التحميد: الحمد لله ثلاثاً وثلاثين مرةً، وكلمة التكبير: الله أكبر ثلاثاً وثلاثين مرةً، ومرةً: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، حتى يستمكل العدد مائةً، ويقول أيضاً في كلِّ يومٍ وليلةٍ: سبحان الله وبحمده مائة مرةٍ، فإنَّ فيها ثواباً كثيراً، ويقول وقت الصبح مرّةً: اللهم ما أصبح بي من نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمدُ ولك الشكرُ، ويقول في المغرب بدل: ما أصبح: ما أمسى ويتمُّ، وورد في الحديث النبوي: أنَّ من قرأ هذا الدُّعاء في النهار؛ فقد أدَّى شكرَ ذلك النهار، ومن قرأه في الليل؛ فقد أدَّى شكرَ ذلك الليل(3)، ولا يلزم أن يكون قراءةُ هذا الورد على طهارةٍ، بل ينبغي قراءته في جميع الأوقات.

وأداءُ زكاة الأموال أيضاً من ضروريات الدين، فينبغي أداؤها وإيصالُها إلى مصارفها بالرغبة وقبول المنَّة، فإذا قال الله سبحانه: أعطوا الفقراءَ والمساكين حصَّةً واحدةً من أربعين..

---

(1) أخرجه ابن ماجه (٣٨١٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٥) من حديث عبد الله بن بسر ﷺ. قال البوصيري (٤/ ١٣٥): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(2) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٩٨٤٨) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(3) أخرجه أبو داود (٥٠٧٣) من حديث عبد الله بن غنام البياضي ﷺ.

حصةً من عطيتي وإنعامي، فأعطيكم في مقابلته أجراً جزيلاً وجزاءً جميلاً؛ فالتَّوقُّفُ في أداء هذا الجزء المحقَّر والبخلُ في إعطائه من غاية عدم الإنصاف، بل من التمرُّد والاعتساف، وأمثالُ هذا التوقُّف في امتثال الأوامر الشَّرعيّة منشؤها مرضٌ قلبيٌّ، وعدمُ يقينٍ بالأحكام السماويَّة، ولا يكفي مجرَّدُ النطق بكلمة الشَّهادة بدون تصديقٍ قلبيٍّ بمضمونها، فإنَّ المنافقين أيضاً ناطقون بهذه الكلمة، وعلامةُ يقين القلب: إتيانُ الأوامر الشَّرعيّة بطوعٍ ورغبةٍ، وإعطاءُ فلسٍ لفقيرٍ بنيّة أداء الزكاة أفضلُ من إنفاق ألوفٍ بغير هذه النية، فإنَّ ذاك أداءُ فرضٍ، وهذا إتيانُ نفلٍ، ولا اعتدادَ لإتيان النفل بالنِّسبة إلى أداء الفرض أصلاً، ولا اعتبارَ، وليت له حكمَ القطرة بالنِّسبة إلى البحر المحيط، ومن تسويلات الشيطان اللعين منعُهم من أداء الفرائض، وحملُهم على أداء النوافل، وصدُّهم عن أداء الزكاة.

وصومُ شهر رمضان المبارك أيضاً من واجبات الإسلام وضروريات الدين، فينبغي الاهتمامُ في أدائه أيضاً، ولا ينبغي الإفطارُ بأعذارٍ غير مسموعةٍ، قال النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية: «**الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**»(١)، فإن كان بعضُ الأعذار مانعاً من الصوم، وملجأً إلى الإفطار، كمرض وركوب متن الأسفار ينبغي قضاؤه بلا مهلةٍ بعد زوال الأعذار دون أن يؤخِّرَه بالتَّكاسل إلى مرور الآصال والأبكار، فإنَّ العبدَ ليس له اختيارٌ كليٌّ، بل له مولى لا بدَّ له من المعاشرة بمقتضى أوامره ونواهيه حتى يتصوَّرَ رجاء النَّجاة، فلو لم يكن كذلك يكون عبداً متمرِّداً، جزاؤه أنواع العقوبات.

والركنُ الخامسُ من أركان الإسلام: حجُّ البيت الحرام، وله شرائطُ مذكورةٌ في كتب الفقه، فإذا تحقّقتْ شرائطُه يجب أداؤه، قال النبي ﷺ: «**الْحَجُّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْمَعَاصِي**»(٢).

وينبغي حسنُ الاحتياط في الحلّ والحرمة الشَّرعيين، والامتناعُ عما منع عنه صاحبُ الشَّريعة عليه وعلى آله الصلاة والتحيةُ، والمحافظةُ على الحدود الشَّرعيّة لو كان المطلوبُ السلامةَ والنجاة، إلى متى يمتدُّ نوم الأرنب؟ وحتى متى قطنُ الغفلة في الصماخ؟ فإنَّ الأرنب سيوقظ، والقطنَ سينزعُ، فلا يكون نقدُ الوقت حينئذٍ غيرَ النَّدامة والحسرة والخجالة والخسارة، الموتُ قريبٌ، وأنواعُ عذاب الآخرة مهيَّأةٌ، من مات فقد قامت قيامَتُه، ينبغي الانتباهُ قبل أن ينبَّه، فإنَّه حينئذ لا ينفع، والعملُ بمقتضى الأوامر والنواهي الشرعيتين والاجتناب عن موجبات العذاب الأخروي، قال الله تعالى: ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦] الآية.

وبعد تصحيح الاعتقاد وإتيان الأعمال الصالحة بمقتضى الشَّريعة الحقَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ينبغي تعميرُ الأوقات بالذِّكْر الإلهي جل شأنه، وأن لا يكون فارغاً عن ذكره تعالى أصلاً، فإن كان الظَّاهرُ مشغولاً بالخلق ينبغي أن يجعل الباطنَ بالحقِّ سبحانه، وأن يكون ملتذّاً بذكره تعالى، وهذه الدَّولةُ متيسّرةٌ للمبتدئين في طريقة خواجكان قدس الله أسرارهم في أوَّل قدمٍ في صحبة الشَّيخ الكامل المكمل بعناية الله سبحانه وتعالى، ولعلَّه حصل لكم الإيمانُ بهذا المعنى، بل تيسّر نصيبٌ منه ولو كان قليلاً، وكلَّما حصل ينبغي المحافظةُ عليه، والقيامُ بشكره، والرجاءُ في الزيادة، وحيث إنَّ في طريقة الحضرات النقشبنديَّة اندراجَ النهاية في البداية؛ فإن حصل قليلٌ منها؛ فهو كثيرٌ، فإنَّ السَّالكَ له خبرٌ في البداية من النهاية، ولكن ينبغي للمبتدئ أن يستقلَّ ما حصَّله وإن كان كثيراً، من ....

---

(١) أخرجه الترمذي (٧٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: «الصوم جنة من النار».

وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٠٧) من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ مرفوعاً: «الصوم جنة من عذاب الله».

(٢) أخرجه مسلم (١٢١) من حديث عمرو بن العاص ﷺ.

غير أن يكون فارغاً عن شكره، بل ينبغي أداءُ شكره، وطلبُ الزِّيادة، والمقصودُ الأصليُّ من الذِّكْر: زوالُ التعلّق بما دون الحقِّ سبحانه الذي المرضُ القلبيُّ عبارةٌ عنه، وما لم يحصل هذا الزوالُ لا يكون نصيبٌ من حقيقة الإيمان، ولا يتيسّرُ اليسرُ والسهولةُ في أداء الأحكام الشَّرعيّة:

أَلَا فَـاذْكُـرُوا رَبَّ الْـبَـرَايَـا فَـإِنَّـهُ ... صَـفَـاءُ الْـقُـلُـوبِ وَالْـغِـذَاءُ لِأَرْوَاحِ

وينبغي أن لا يكون المطلوبُ من أكل الطعام حظّ النَّفس، بل يكون حصولَ القوَّة والاستطاعة على العبادة، فإن لم تتيسّر هذه النيَّةُ في الابتداء، ينبغي أن يكون عليها بالتكلّف، وأن يلتجئ ويتضرّع لتتيسّر هذه النيَّةُ، وكذلك ينبغي أن تكون النيةُ في لبس اللباس التزين للعبادة، وأداء الصلاة، فإنه قد ورد في القرآن المجيد: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، ولا يكون المقصودُ من لبس الألبسة المزينة مراءاةَ الخلق، فإنّها ممنوعٌ عنها.

وكذلك ينبغي أن يسعى في أن يكون المنظورُ في جميع الأفعال والحركات والسكنات رضى المولى جلّ سلطانه، وأن يعمل بمقتضى شريعته الحقَّة، ففي هذا الوقت يكون كلٌّ من الظَّاهر والباطن متوجّهًا إلى الحقِّ تعالى، وذاكراً له سبحانه، مثلاً: إذا اختار العبدُ النومَ الذي هو غفلةٌ من أوّله إلى آخره بنيَّة دفع التكاسل في أداء الطاعة، يكون ذلك النومُ بهذه النيَّة عينَ العبادة، فما دام في ذاك النوم؛ فكأنَّه في الطاعة؛ لكونه بنية أداء الطاعة، وقد ورد في الخبر: «**نَوْمُ الْعُلَمَاءِ عِبَادَةٌ**».

وإن كنت أعلم أنَّ حصول هذا المعنى فيكم اليوم متعذِّرٌ لهجوم الموانع، ووجود التزام العادات والرسوم، وكون المنظور الحميَّة والأنفة التي هي مضادَّةٌ للشَّريعة الغراء، فإنَّ الشَّريعةَ واردةٌ لدفع الرسوم والعادات، ورفعِ الحمية الجاهلية الناشئة عن النَّفس الأمَّارة، ولكن إذا حصلت المداومةُ على الذِّكْر القلبيِّ، وأداء الصلوات الخمس بشرائطها من غير فتورٍ بتوفيق الله سبحانه، وتيسّرَ الاحتياطُ في الحلِّ والحرمة الشرعيين مهما أمكن؛ يحتمل أن يظهر جمالُ هذا المعنى، ويحصل الرغبةُ فيه، ووجهٌ آخر لكتابة أمثال هذه النصائح: هو أنَّه وإن لم يحصل العملُ بمقتضى هذه النَّصائح؛ فلا أقلَّ من أن يحصل الاعترافُ بالقصور والنَّقْص، وهو أيضاً دولةٌ عظيمةٌ: (شعر)

وَمَـنْ نَـالَ يَـلْـقَـى دَوْلَـةً فَـوْقَ قَـدْرِهِ ... وَمَنْ لَا فَيَكْفِيهِ الْأَسَـى مِنْ فَوَاتِهَا

ونعوذ بالله سبحانه من حال من لا ينال، ولا يغتمّ من عدم نيله، ولا يعمل ولا يتندَّمُ من عدم عمله، ولا يكون ذلك إلا جاهلاً متمرداً، أخرج رأسه من ربقة العبودية، ورجلَه من قَيْد الرقية، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، وإن لم يقتض الوقتُ والحالُ والزمانُ والمكانُ تحريرَ شيءٍ، ولكن لَمّا رأيت شوقكم ورغبتكم على وجه الكمال كتبنا سطوراً بالتكلّف، وسلَّمناها إلى كمال الدين حسين، رزق الله سبحانه العملَ بمقتضاها، والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب الثامن عشر

إلى المِير محمَّد نُعمانَ في بيانِ عَدمِ التَّعلُّق بما سِوى الحقِّ، والتَّرغيبِ في صُحبَة طالِبي الحقِّ جلَّ وعَلا.

الحمد لله رب العالمين دائماً على كلِّ حالٍ في السَّرَّاء والضَّرَّاء. قد وصلت الصحيفةُ الشَّريفةُ المرسلةُ مع سليمان مع الهدية، جزاكم الله خيراً وكتبتم فيها: أنَّ المقصودَ من هذا السَّفر كان...

حصولَ بعض المقاصد المتعسِّر الحصولُ عليكم بالرجاء، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الإنشراح: ٥-٦]، قال ابنُ عباس ﷺ: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»، وماذا أكتب من أحوالي الملآنة بالأهوال، وأشوِّشُ بها خواطر الأحباب؟ ومع ذلك الشكرُ لله ألف ألف مرةٍ على ما رزقنا العافيةَ في عين البلاء، فسبحان من جمع بين الضدين، وقرن بين المتنافيين، كنت يوماً أتلو القرآنَ المجيدَ، فوصلت إلى هذه الآية: ﴿قُلْ اِنْ كَانَ اٰبَاۤؤُكُمْ وَاَبْنَاۤؤُكُمْ وَاِخْوَانُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤] الآية، فاستولى عليّ من تلاوتها بكاءٌ عظيمٌ، وغلب الخوفُ، فطالعتُ حالي في تلك الأثناء، فوجدتني أن لا تعلّقَ لي بواحدٍ منها بحيث لو تلف كلُّها وتلاشتْ لا يقع تجويزُ أمرٍ منكرٍ ومستقبحٍ في الشَّريعة، ولا تختار تلك الأمور على ذلك الأمر.

بقيَّةُ المرام: أنَّ الأصحابَ حيث كانوا يصحبوننا لله ينبغي لنا أيضاً أن نكرمهم ونستخرجهم عن أحوالهم الظَّاهرية والباطنيَّة، وهذا الحديثُ القدسيُّ: «يا داود، إذا رأيت لي طالباً؛ فكن له خادماً» مشهورٌ، فينبغي التوجّهُ إلى الطالبين بعد ذلك أزيدَ مما كان سابقاً، وأن لا يجعل شيمةَ التغافل وعدم الالتفات منظورةً، وثانياً ينبغي أن تكتب أنَّه هل كان مكتوبُ الأقربية معقولاً أو لا؟ فإن كان فبها، وإلا فاكتبوا بتشخيصِ محلِّ التردُّد، وما أكتب زيادةً على ذلك؟ المسؤولُ من الله سبحانه سلامتكم وعافيتكم وثباتكم واستقامتكم، ومزيد توفيقكم، وحسن عاقبتكم. والسلام.

المَكتُوبُ التَّاسِعَ عَشَرَ

إلى السَّيِّد المِير محمَّد نُعمانَ في الصَّبر والرِّضاء بقَضائِه تعالَى.

الحمد لله رب العالمين في السَّرَّاء والضرَّاء، وفي العافية والبلاء، فعلُ الحكيم جلَّ سلطانه لا يخلو عن حكمةٍ، لعل الله يريد به الصلاحَ، ﴿وَعَسٰٓى اَنْ تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْۚ وَعَسٰٓى اَنْ تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْۜ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَاَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ۟﴾ [البقرة: ٢١٦]، فاصبروا على بلائه وارضوا بقضائه سبحانه وتعالى، واثبتوا على طاعاته، واجتنبوا عن معاصيه سبحانه، إنا لله وإنا إليه راجعون، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَٓا اَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ اَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَث۪يرٍۜ﴾ [الشورى: ٣٠]، فتوبوا إلى الله سبحانه واستغفروا عما كسبت أيدينا، واسألوا العفوَ والعافيةَ من الله سبحانه، فإنَّه تعالى يحبُّ العفوَ، واجتنبوا عن البلاء ما استطعتم، فإنَّ الفرارَ مما لا يطاق من سنن المرسلين عليهم الصلوات والتسليمات، ونحن في عين البلاء مع العافية، فللّه سبحانه الحمدُ والمنةُ، والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات العلى.

المَكتُوبُ العِشرُونَ

إلى مولانا أمَانِ اللهِ في التَّحريضِ على عُلوِّ الهمَّة، وإرجاعِ وُصولِ جميعِ النِّعم إلى شَيخِه.

وصل مكتوبُ الأخ أمان الله، واتَّضح ما حُرِّر من بيان أحواله ومواجيده، والمتوقَّعُ منكم أزيدُ من هذه الأمور، وكلُّما يعطى ينبغي قبوله بالأدب، وقبولُ المنّة، وأن يطلب الزيادةَ والمقامَ الفوقانيَّ بالتضرّع والابتهال والالتجاء والانكسار قائلاً: هل من مزيد، وأن يراعي إتيانَ الأحكام الشَّرعيّة مراعاةً كاملةً مصدِّقَ الأحوال ومصحِّحَها الاستقامة على الشَّريعة، وتعبيرُ الواقعة من عالم المثال التي حرِّرت قريبٌ من المعاملة، والأمرُ إلى الله سبحانه. ولَمّا كنتم في الصُّحبة كثيراً وقع نظرُكم عاليـاً لا تغترُّون بالجوز والموز مثل الأطفال، «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مَعَالِي..........

الْهِمَم». وكتبتم واقعةَ تربية عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام لأخينا الحافظ مهدي علي، نعم، إنَّ للحافظ مناسبةً كثيرةً بطريقنا، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ الدَّولةَ من أيِّ محلٍّ يحصل في الصورة، ينبغي إرجاعُها في الحقيقة إلى شيخه لئلا تتفرَّقَ قبلةُ توجّهه، ولا يتطرَّقَ الخللُ إلى المعاملة، ومن أيِّ محلٍّ يحصل الفيضُ؟ ينبغي أن يراه من شيخه، فإنَّه جامعٌ، فبأيِّ صورةٍ تظهر تربيتُه؛ فهي في الحقيقة منه، وهذا المقامُ من مزالّ أقدام الطلاب، ينبغي أن يكون واقفاً متيقظاً حتى لا يجد العدوُّ اللعينُ سبيلاً. ولعلكم سمعتم أنَّ من كان في محلٍّ واحدٍ؛ فهو في كلِّ محلٍ، ومن كان في كلِّ محلٍّ؛ فليس هو في محلٍّ أصلاً، وبلِّغوا الحافظَ مني الدعاءَ. والسلام.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالعِشْرُون

إلى المِير مُحمَّد نُعمانَ في جوابِ أسئِلَته عن كونه تعالى مُشاراً إليه بالضَّمائِر، وعَن فَضلِ الزُّهَّاد، وعن كَيفيَّة عِلْمِ الحقِّ تعالى بذاتِه جلَّ سُلطانُه وعَمَّ إحسانُه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد سألتم: أنَّه إذا لم تكن الأشياءُ أشياءَ بماهيتها الظلية، بل بماهية أصلها؛ ينبغي أن يكون المشارُ إليه بلفظ (هو) و(أنت) و(أنا) هو ذاك الأصل، فحينئذٍ كيف يصدق حملُ بعض الصِّفات الغير الملائم لذاك الأصل على الضمائر، كقولنا: أنا آكل، وأنا نائم؟ اعلم أنَّ الظلَّ وإن كان قائماً بأصله، ولكنَّ ثبوتَه الظليَّ وإن كان في مرتبة الحسّ والخيال متحقّقٌ دائماً، وأحكامُه الظليّةُ دائمةٌ وباقيةٌ، و(خلقتم للأبد) شاهدٌ لذلك، وحملُ الصِّفات على تلك الضَّمائر إنّما هو بملاحظة اعتبار ظليَّتها، ولكلِّ مرتبةٍ من مراتب الوجود حكمٌ على حدةٍ، وكلُّما هو متلاشٍ ومضمحلٌّ في الإله ليس بإلهٍ جلَّ وعلا. وسألتم أيضاً عن معنى الحديث القدسيّ الوارد في فضائل الزهاد الكرام، معاني ألفاظه ظاهرةٌ، وليس ببعيدٍ عن فضله وكرمه تعالى أن يخصِّصَ جماعةً بفضائل وخصائص، وأن ينعم عليهم بدرجاتٍ ومراتب يغبطهم فيها غيرهم، وعدمُ حساب هؤلاء ليس بمحملِ تردُّدٍ، فإنَّ كثيراً من أمة خير البشر عليه وعليهم الصلوات والتسليمات يدخلون الجنة بغير حساب، ومن جملة ذلك ما ورد في الحديث الصحيح: «**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ**»، فقالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**الذِينَ لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»[1]، وفي هذا المقام سرٌّ عظيمٌ لا مصلحةَ في إظهاره؛ لكونه بعيداً عن أفهام الأكثرين، فإن اتَّفقت الملاقاةُ ينبغي أن تذكروا بها، فنذكرُ شمّةً منه مشافهةً، ورمزٌ من هذا السرِّ مندرجٌ في مكتوبٍ من مكتوبات الجلد الثّاني، فإذا وجدتموه لعلَّكم تجدونه. وسألتم أيضاً: إنَّ علمَ الحق سبحانه هل يكون محيطاً بكنه ذاته أو لا؟ فإن كان محيطاً؛ يلزم تناهي الذات. اعلم أنَّ العلمَ على قسمين: حصوليٌّ وحضوريٌّ، ومحالٌ أن يتعلّق العلمُ الحصوليُّ بكنه ذات الواجب جل سلطانه لكونه مستلزماً للإحاطة والتناهي، وأما العلمُ الحضوريُّ؛ فيجوز أن يتعلّق بكنه ذاته تعالى، ولا يلزم منه تناهٍ أصلاً. والسلام.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالعِشْرُون

إلى المُلَّا مَقصود عَلِيٍّ التَّبْرِيزِيِّ في بيانِ المُرادِ من نَجاسَة المشركِينَ: خُبثُهم الباطنيُّ، واعتِقادُهم السُّوء، لا كَونُهم نَجسَ العَينِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. أيُّها المخدومُ المشفقُ، لم يعلم المقصودُ من إرسال التّفسير الحسينيّ، وصاحبُ التفسير بيَّن معنى الآية الكريمة موافقاً لأئمة الحنفية، ويريد من..............

(١) أخرجه مسلم (٢١٨) من حديث عمران ﷺ.

النَّجاسة الشِّركَ وخبثَ الباطن، وسوءَ الاعتقاد، وما قاله بعد ذلك من أنَّ هؤلاء لا يجتنبون عن النَّجاسات؛ فهذا المعنى موجودٌ في أكثر أهل الإسلام أيضـاً في هذه الأيّام، والفرقُ بين عوامّ أهل الإيمان وبين الكفار مفقودٌ من هذه الحيثية، فلو كان عدمُ الاجتناب عن النجاسة سبباً لنجاسة الشَّخص تصير المعاملةُ ضيقةً، ولا حرج في الإسلام، وما نقل عن ابن عباس ﷺ من أنَّ المشركينَ نجسُو العين مثلُ الكلاب أمثالُ هذا النَّقل الشاذِّ وردتْ كثيراً من أكابر الدين، وكلُّها محمولةٌ على التَّوجيه والتَّأويل، كيف يكون نجسَ العين، فإنَّ النبيَّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام قد أكل الطعامَ من بيت يهوديٍّ، وتوضأ من ظرفِ مشركٍ، وتوضَّأ الفاروقُ ﷺ أيضـاً من ظرف امرأةٍ نصرانيةٍ.

فإن قيل: يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] متأخراً وناسخـاً للمذكورات.

أجيب: إنَّه يجوز أن يكون كذلك لا يكفي في هذا المقام، بل لا بُدَّ من إثبات التأخُّر حتى تصحَّ دعوى النَّسخ، فإنَّ الخصمَ من وراء المنع، ولو سُلِّم أنَّه متأخِّرٌ ينبغي أن لا يكون مثبتـاً للحرمة، ويكون المراد من النجاسة: خبث الباطن؛ لأنَّه قد نقل أنَّه لم يرتكب نبيٌّ من الأنبياء أمراً يكون مآلُه في شريعته أو في شريعة غيره من الأنبياء منجرّاً إلى الحرمة، ويكون محرمـاً في الآخر، وإن كان مباحـاً حين الارتكاب، ألا ترى أنَّ الخمرَ كان مباحـاً أوَّلاً، ثم حرم، ولم يشربه نبيٌّ قط، فلو كان مآلُ أمر المشركين إلى النجاسة الظَّاهرة، وكانوا مثلَ الكلاب نجسو العين؛ لَمَا كان النبيُّ ﷺ الذي هو محبوبُ رب العالمين يمسُّ ظروفهم فضلاً عن أكل طعامهم. وأيضـاً إنَّ النجسَ العين نجسُ عينٍ في جميع الأوقات، لا مجالَ فيه للإباحة سابقةً ولاحقةً، فلو كان المشركون نجسَ عينٍ ينبغي أن يكونوا كذلك في الابتداء، وأن يعامل النبيُّ ﷺ بهم بمقياسه ومقتضاه في الأوّل، وليس فليس. وأيضـاً إنَّ الحرجَ مدفوعٌ عن الدين، ومعلومٌ أنَّ الحكمَ بنجاستهم واعتقادَ أنَّهم نجسُ عينٍ تضييقٌ على المسلمين جداً، وإلقاؤهم في الحرج والمشقَّة، ينبغي أن يقبل المنة من أئمة الحنفية ﷺ، حيث هيؤوا مخلصـاً للمسلمين، وأخرجوهم من ارتكاب الحرام دون أن يطعن فيهم، وزعم حسنهم قبحـاً وعيبـاً، وأين مجالُ الاعتراض على المجتهد؟ فإنَّ لخطائه أيضـاً درجةً من الثواب، وتقليدُه وإن كان مخطئـاً موجبٌ للنجاة، واجتنابُ جماعةٍ يقولون بحرمة أطعمة الكفار وأشربتهم عن ارتكاب أكلها وشربها محالٌ عاديٌّ، خصوصـاً في بلاد الهند، فإنَّ هذا الابتلاءَ أكثرُ فيها، وإذا كان في مسألةٍ دينيةٍ عمومُ البلوى؛ فالأولى أن يفتى بأسهل الأمور وأيسرها بقول أيِّ مجتهدٍ كان، وإن لم يكن موافقـاً لمذهبه، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ اَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْۚ وَخُلِقَ الْاِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، والتَّضييقُ على خلق الله وإيذاؤهم حرامٌ ومنافٍ لرضا الحق سبحانه، والشافعيّةُ يفتون في بعض المسائل الذي ضيَّق فيها الإمامُ الشافعيُّ بمذهب الحنفيَّة ليسهل للخلق، مثلاً: في مصارف الزَّكاة ينبغي أن تصرف الزكاةُ عند الشافعيِّ على جميع أصنافها، وواحدٌ منها المؤلفةُ قلوبهم، وهم مفقودون في هذه الأيَّام، فأفتى علماءُ الشافعية بمذهب الحنفية بأنَّها إذا أُدِّيَتْ على أيِّ صنفٍ منها يكفي. وأيضـاً إذا كان المشركون نجسو العين ينبغي أن لا يطهروا بالإيمان أيضـاً، فعلم أنَّ كونَهم نجسـاً إنّما هو بواسطة خبث اعتقادهم القابل للزَّوال، ومقصورٌ على الباطن الذي هو محلُّ الاعتقاد، ....

ونجاسةُ الباطن لا تنافي طهارةَ الظّاهر كما هو معلومٌ للوضيع والشّريف. وأيضاً إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] إخبارٌ عن حال المشركين، والإخبارُ لا يكون ناسخاً ولا منسوخاً، فإنَّ النَّسخَ في إنشاء حكمٍ شرعيٍّ، لا في الإخبار عن شيءٍ، فينبغي أن يكون المشركون نجساً في جميع الأوقات، ويكون المرادُ من النّجس: خبث الاعتقاد حتى لا تتعارض الأدلّةُ، ولا يكون مساسُهم محظوراً في وقتٍ من الأوقات، ويوم قرأتُ قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] الآية، قلتم في مقابلته: إنَّ المرادَ من الطعام هنا: البُرُّ والحمصُ والعدسُ، فلو قبل هذا التّوجيهَ أهلُ العرف؛ فما المضايقةُ؟ ولكن لا بُدَّ من الإنصاف.

والمقصودُ الأصليُّ من هذا التّصديع وإطالة الكلام هو أنه ينبغي أن يرحم الخلقَ، وأن لا يحكمَ بعموم نجاستهم، وأن لا يعتقد نجاسةَ أهلِ الإسلام أيضاً بواسطة اختلاطهم بالكفار الذي لا بُدَّ منه ولا مهربَ عنه، وأن لا يجتنب عن أطعمة المسلمين وأشربتهم بعلَّة النَّجاسة المتوّهمة، فيحصل التبرِّي من الكلّ من هذه الحجَّة، ويظن ذلك احتياطاً، والحالُ أنَّ الاحتياطَ في ترك هذا الاحتياط، وماذا أكتب زيادةً على ذلك؟ (شعر)

بَثَثْتُ لَدَيْكُمْ مِنْ هُمُومِي وَخِفْتُ أَنْ　　　تَمَلُّوا وَإِلَّا فَالْكَلَامُ كَثِيرٌ

والسلام.

المكتوبُ الثّالثُ والعشرُون

إلى الخواجه إبراهيمَ القَبَادِيَانِيِّ في بيانِ أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ بواسِطَةِ الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ عن ذاتِه وصِفاتِه، وأعمالِ العِبادَةِ المَرضيَّة وغيرِ المَرضيَّة التي لا مَدخَل فيهَا للعَقلِ.

الحمدُ لله الذي أنعم علينا وهدانا إلى الإسلام، وجعلنا من أمَّة محمدٍ عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ.

إنَّ الأنبياءَ رحماتٌ للعالمين، أخبر الحقُّ سبحانه وتعالى بواسطة بعثة هؤلاء الأكابر عن ذاته وصفاته لأمثالنا ناقصي العقول وقاصري الإدراك، وأطلعنا على كمالاته الذاتيّة والصِّفاتية بمقياس أفهامنا، وفرَّق مراضيه عن غير مراضيه، وميَّز منافعنا الدنيويَّةَ والأخرويَّةَ عن مضارِّنا، فلو لم يكن توسُّطُ وجودهم الشَّريف؛ لكانت العقولُ البشريَّةُ عاجزةً في إثبات الصَّانع تعالى، وقاصرةً في إدراك كمالاته تعالى، وكانت قدماءُ الفلاسفة الذين يزعمون أنفسَهم أكابرَ أرباب العقول منكرين للصَّانع عزَّ وجلَّ، وكانوا ينسبون الأشياءَ إلى الدَّهر من نقصان عقولهم، ومجادلةُ النُّمرود الذي كان سلطانَ جميع أهل الأرض مع الخليل على نبيِّنا وعليه الصلاةُ والسلامُ في إثبات خالق السّموات والأرض مشهورةٌ، وفي القرآن المجيد مذكورةٌ، وقال فرعون المخذولُ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال أيضاً خطاباً لموسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال أيضاً لهامان: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]. وبالجملة: إنَّ العقلَ قاصرٌ في إثبات هذه الدَّولة العظمى، لا يكاد يهتدي إليها بدون هداية هؤلاء الأكابر، ولَمّا اشتهرتْ دعوةُ الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات إلى الله الذي هو خالقُ الأرض والزمان والسّموات وتواترتْ، وعلَتْ كلماتهم وارتفعت؛ اطَّلع سفهاء كل وقت كان لهم تردُّدٌ في ثبوت الصَّانع على قبائحهم، وقالوا بوجود الصانع بلا اختيارٍ، وجعلوا الأشياءَ مستندةً إليه تعالى، وهذا نورٌ مقتبسٌ من أنوار الأنبياء، ونعمةٌ مستفادةٌ من موائدهم عليهم الصلوات والتسليمات إلى يوم التّناد، بل إلى ....

أبد الآباد، وكذلك سائرُ السَّمعيات، بلغتنا بتبليغ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، من وجود صفاته تعالى الكاملة، وبعثة الأنبياء، وعصمةِ الملائكة عليهم السلام، ومن الحشر والنشر، ومن وجود الجنة والنار، والتَّنعيم والتَّعذيب الدائمين، وأمثالها مما نطقت به الشَّريعةُ، والعقلُ قاصرٌ عن إدراكه، وناقصٌ في إثباته من غير سماعٍ من هؤلاء الأكابر، لا استقلالَ له في شيءٍ منها، وكما أنَّ طورَ العقل وراء طور الحسّ، حيث يُدْرَكُ بالعقل ما لا يدركُ بالحسّ؛ طورُ النبوَّة أيضاً وراء طور العقل، يدرك بها ما لا يدركُ بالعقل، ومن لم يثبت للمعرفة طريقاً وراء طور العقل؛ فهو في الحقيقة منكرٌ لطور النبوَّة، ومصادمٌ للبداهة، فلا بُدَّ من وجود الأنبياء ليدلُّوا على كيفيَّة أداء شكر المنعم الذي هو واجبٌ عقلاً، وليُظْهِروا تعظيم مولى النّعم جلَّ وعلا المتعلّق بالعلم والعمل المتلقّى من قبله سبحانه، فإنَّ التَّعظيمَ الذي لم يكن مستفاداً من عنده سبحانه لا يكون لائقاً بأداء شكره تعالى، فإنَّ القوَّةَ البشريَّةَ عاجزةٌ عن إدراكه، بل كثيراً ما يظنُّ غيرَ تعظيمه تعالى تعظيماً، فيعدلُ عن الشُّكْرِ إلى الهجو، وطريقُ استفادة تعظيمه سبحانه من حضرته تعالى وتقدس مقصورٌ على النبوَّة، ومنحصرٌ في تبليغ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والإلهامُ الذي هو للأولياء عليهم السلام مقتبسٌ من أنوار النبوَّة، ومستفاضٌ من بركات متابعة الأنبياء وفيوضها، فلو كان العقلُ كافياً في هذا الأمر؛ لَمَا بقي فلاسفةُ اليونان الذين جعلوا مقتداهم عقولَهم في تيه الضَّلالة، ولَعَرَفوا الحقَّ سبحانه قبل كلِّ الناس، والحالُ أنَّ أشدَّ الناس جهالةً في ذات الحقِّ وصفاته سبحانه هو هؤلاء، حيث زعموا الحقَّ سبحانه فارغاً ومعطَّلاً، ولم يجعلوا غيرَ شيءٍ واحدٍ مستنداً إليه تعالى، وهو أيضاً بالإيجاب لا بالاختيار، ونحتوا من عندهم عقلاً فعَّالاً، ونسبوا الحوادثَ إليه مانعين إيَّاها من خالق السّموات والأرض، وصرفوا الأثرَ عن المؤثِّر الحقيقيِّ جلَّ شأنه، وزعموه أثرَ منحوتهم، فإنَّ المعلولَ عندهم أثرُ العلة القريبة، لا يرون للعلَّة البعيدة تأثيراً في حصول المعلول، وزعموا عدمَ استناد الأشياء إليه سبحانه من جهلهم كمالاً له سبحانه، وظنُّوا التَّعطيلَ تبجيلاً إياه، والحالُ أنَّ الحقَّ سبحانه يمدح نفسه بخلق السّموات والأرض، ويقول في مدح نفسه: ربُّ المشرق وربُّ المغرب، ولا احتياجَ لهؤلاء السُّفهاء إلى حضرة الحقِّ سبحانه بزعمهم الفاسد أصلاً، ولا التجاءَ لهم إليه تعالى قطعاً، ينبغي لهم أن يراجعوا وقتَ الاضطرار والاحتياج إلى العقل الفعَّال، وأن يطلبوا قضاءَ حوائجهم منه، بل لا يتصوَّرُ طلبُ قضاء الحاجة من العقل الفعَّال أيضاً؛ لكونه موجباً ومضطرّاً غيرَ مختارٍ في زعمهم، ﴿اَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلٰى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وما هو العقلُ الفعَّالُ حتى يدبِّرَ الأشياءَ، وتكون الحوادثُ مستندةً إليه؟ وفي نفس وجوده وثبوته ألفُ كلامٍ، فإنَّ تحقُّقَه وحصولَه مبتنٍ على المقدّمات المموَّهة الفلسفيَّة التي هي غيرُ تامَّةٍ على الأصول الإسلاميَّة، والأبلهُ من يصرف استنادَ الأشياء عن القادر المختار جلّ شأنه، ويجعلها مستندةً إلى مثل هذا الأمر الموهوم، بل يُلْحِقُ الأشياءَ ألفَ عارٍ وفضيحةٍ من كونها مستندةً إلى منحوت الفلسفيِّ، بل الأشياءُ تكون راضيةً ومسرورةً بعدمها، ولا تميلُ إلى الوجود أصلاً من فضيحة استناد وجودها إلى مجعول الفلسفيِّ، وخوفِ الحرمان من سعادة الانتساب إلى قدرة القادر المختار جلَّ سلطانه، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ اَفْوَاهِهِمْ اِنْ يَقُولُونَ اِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. وكفَّارُ دار الحرب - مع وجود عبادة الأصنام - ....

أحسنُ حالاً من هذه الجماعة، فإنَّهم يلتجئون إلى الحقِّ سبحانه في المضايق، ولا يجعلون أصنامهم غيرَ وسائل الشَّفاعة عنده تعالى، وأعجبُ من هذا: أنَّ جماعةً يسمُّون هؤلاء السفهاء حكماءَ، وينسبون أقوالهم إلى الحكمة، وأكثرُ أحكامهم - سيما في الإلهيات التي هي المقصدُ الأسنى - كاذبةٌ، ومخالفةٌ للكتاب والسنَّة، فبأيِّ اعتبارٍ يطلق الحكماءُ على هؤلاء الذين لا نصيبَ لهم غير الجهل المركَّب؟ اللهم إلا إذا قيل على سبيل التهكُّم والاستهزاء، أو يعدّ من قبيل إطلاق البصر على الأعمى. وجمعٌ من هؤلاء السُّفهاء اختاروا طريقَ الرِّياضات والمجاهدات من غير التزام طريق الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ، بل بمجرَّد تقليد صوفيَّةٍ إلهيّةٍ كانوا في كلِّ عصرٍ من متابعي الأنبياء عليهم السلام، واغترُّوا بصفاء أوقاتهم، واعتمدوا على مناماتهم وخيالاتهم، وجعلوا كشوفَهم الخياليَّةَ مقتداهم في سائر حالاتهم، ضلُّوا فأضلُّوا، ولم يعلموا أنَّ ذلك الصَّفاءَ هو صفاءُ النَّفس الذي يؤدِّي إلى طريق الضَّلالة، لا صفاءُ القلب الذي هو روزنةُ الهداية، فإنَّ صفاءَ القلب منوطٌ بمتابعة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، وتزكيةُ النَّفس مربوطةٌ بصفاء القلب وسياسته إياها، وحكمُ تصفية النَّفس مع وجود ظلمة القلب الذي هو محلُّ ظهور أنوار القدم كحكم إسراج سراجٍ لنهب العدوّ الذي هو في الكمين، وهو إبليسُ اللعينُ. وبالجملة: إنَّ طريقَ الرِّياضة والمجاهدة كطريق النَّظَر والاستدلال إنّما يعتبرُ ويعتمدُ عليه إذا كان مقروناً بتصديق الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات الذين يبلِّغون الأمانةَ من قبل الحقّ جلّ وعلا، ومؤيَّدون بتأييده سبحانه، ومعاملتُهم محفوظةٌ من كيد اللعين ومكرهِ بنزول الملائكة المعصومين، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] نقدُ وقتهم، وهذه الدَّولةُ لم تتيسّرْ لغيرهم، ولم يحصل لهم التخلُّص من شَرَك اللعين إلا إذا التزم متابعةَ هؤلاء الأكابر، ومشى على آثارهم عليهم الصلوات والتسليمات: (شعر)

وَمِنَ الْمُحَالِ الْمَشْيُ فِي طُرُقِ الصَّفَا ... يَا سَعْدُ مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعِ الْمُصْطَفَى

عليه وعلى جميع إخوانه الصلوات والتسليمات العلى. سبحان الله، إنَّ أفلاطون الذي هو رئيسُ الفلاسفة أدركَ دولةَ بعثة عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولم يصدِّقْه، زعماً منه بجهالته أنَّه مستغنٍ عنه، ولم ينل نصيباً من بركات النبوَّة، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، والعجبُ أنَّ طَوْرَ عقول الفلاسفة النَّاقصة كأنَّه واقعٌ على طرف نقيض طور النبوَّة في المبدأ وفي المعاد، وأحكامُهم مخالفةٌ لأحكام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنَّهم ما صحَّحوا الإيمانَ بالله ولا الإيمانَ بالآخرة، وقالوا بقِدَم العالم، والحالُ أنَّ الإجماعَ المتينَ منعقدٌ على حدوث العالم بجميع أجزائه، ولم يقولوا بانشقاق السّموات، وانتثار الكواكب، واندكاك الجبال، وانفجار البحار الموعودة في يوم القيامة، وينكرون حشرَ الأجساد، ويخالفون النُّصوصَ القرآنيّةَ، ومتأخِّروهم الذين عدُّوا أنفسهم داخلين في زمرة أهل الإسلام راسخون في أصولهم الفلسفية كما هي، وقائلون بقدم السّموات والكواكب وأمثالها، وحاكمون بعدم فنائها وهلاكها، قوتُهم تكذيبُ النُّصوص القرآنيَّة، ورزقُهم إنكارُ ضروريات الدين والمسائل اليقينيَّة، يؤمنون بالله وبرسوله، ولا يقبلون ما أمر الله به ورسوله، فهل تتجاوز...

السَّفاهةُ عن ذلك؟ (شعر)

أَكْثَرُ فَلْسَفَةٍ جا سَفَهـا فَكَذَا جَمِيعُهُ إِذْ لِكُلِّ حُكْمُ أَكْثَرِهِ

وهذه الجماعةُ صرفوا أعمارهم في تعليم آلةٍ عاصمةٍ للذِّهن عن الخطأ الفكريِّ وتعلُّمه، ودقَّقوا فيها تدقيقاتٍ كثيرةً، ولما بلغوا المقصدَ الأقصى – يعني: مسائلَ الذات والصِّفات والأفعال الواجبيَّة جلّ سلطانه – ضيَّعوا حواسَّهم، وأضاعوا الآلةَ العاصمةَ، وخبطوا خبطَ عشواءَ، وبقوا في تيه الضلالة، كمن يهيئ آلات الحرب سنين، ثم إذا جاء وقت الحرب يضيِّع حواسَّه، ولا يستعمل الآلةَ، والناسُ يظنُّون علوم الفلاسفة متَّسقةً ومنتظمةً، ويزعمونها محفوظةً عن الغلط والخطأ، ومصونةً، وعلى تقدير التَّسليم إنّما يكون هذا الحكمُ صادقاً في علومٍ للعقل فيها استقلالٌ واستبدادٌ، وهي خارجةٌ عن المبحث، وداخلةٌ في دائرة ما لا يعني، لا تعلّقَ لها بالآخرة التي هي دائميَّةٌ، والنجاةُ الأخرويَّةُ ليست بمربوطةٍ بها، فإنَّ الكلامَ إنّما هو في علومِ العقلُ عاجزٌ عن إدراكها وقاصرٌ، ومربوطةٌ بطور النبوَّة، والنَّجاةُ الأخرويَّةُ منوطةٌ بها، قال حجَّةُ الإسلام الإمام الغزاليُّ في رسالته «المنقذ من الضلال»: إنَّ الفلاسفةَ سرقوا علمَ الطبِّ وعلمَ النُّجوم من كتب الأنبياء المتقدمين على نبيِّنا وعليهم الصلاةُ والسلامُ، واقتبسوا خواصَّ الأدوية وغيرها مما لا سبيل للعقل إلى إدراكه من الصُّحُف والكتب المنزلة إلى الأنبياء عليهم السلام، وسرقوا علمَ تهذيب الأخلاق عن كتب الصُّوفيَّة المتألِّهين الموجودين في كلِّ عصرٍ وفي أمّةِ كلِّ نبيٍّ لترويج أباطيلهم، فهذه العلومُ الثلاثةُ المعتبرةُ لديهم كانت مسروقةً، وقد ذكرت شمَّةً من خبطهم في العلم الإلهي في مباحث الذات والصِّفات والأفعال الواجبيَّة، وفي الإيمان بالله والإيمان بالآخرة، ومخالفتهم النصوص القرآنية فيما سبق، فبقي علمُ الهندسة ومثلُه مما له نوعُ اختصاصٍ به، فلو كان متَّسقاً ومنتظماً فما لزومُه؟ ولأيِّ شيءٍ يحتاج إليه؟ وأيُّ عذاب الآخرة يبعد به ويدفعُ؟ «**عَلَامَةُ إِعْرَاضِ اللهِ تَعَالَى عَنِ العَبْدِ: اشْتِغَالُهُ بِمَا لَا يَعْنِيه**»، وكلُّما هو غيرُ نافعٍ في الآخرة؛ فهو مما لا يعني، وعلمُ المنطق الذي هو آلةٌ، وقالوا: إنَّه عاصمٌ عن الخطأ؛ لم ينفعهم، ولم يخرجهم عن الغلط والخطأ في المقصد الأسنى، كيف ينفع الآخرين وكيف يخلِّصهم عن الخطأ؟ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ اِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةًۚ اِنَّكَ اَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وبعض الناس الذين لهم رغبةٌ في العلوم الفلسفيَّة ومفتونون بالتَّسويلات الفلسفيَّة يعتقدون هذه الجماعةَ حكماءَ، ويزعمونهم عديلَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل يكادون يقدِّمون علومَهم الكاذبةَ بظنٍّ أنَّها صادقةٌ على شرائع الأنبياء عليهم السلام، أعاذنا الله سبحانه عن الاعتقاد السُّوء. نعم، إذ اعتقدوا هؤلاء حكماءَ، وزعموا علومَهم حكمةً يقعون في هذا البلاء بالضَّرورة، فإنَّ الحكمةَ عبارةٌ عن العلم بالشَّيء مطابقاً لنفس الأمر، فتكون العلومُ التي تخالِفُها غيرَ مطابقةٍ لنفس الأمر. وبالجملة: إنَّ تصديقَ هؤلاء وتصديقَ علومهم مستلزمٌ لتكذيب الأنبياء وتكذيب علومهم عليهم الصلاة والتحيات، وهذان العلمان واقعان في طرفي النَّقيض، فتصديقُ أحدهما مستلزمٌ لتكذيب الآخر، من شاء فليلتزمْ ملَّةَ الأنبياء يكنْ من حزب الله سبحانه ومن أهل النَّجاة، ومن شاء فليكن فلسفيّاً يكن من حزب الشيطان وخائباً وخاسراً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْۙ اِنَّا اَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراًۙ اَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۜ وَاِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ..

﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى جميع إخوانه من الأنبياء الكرام والملائكة العظام أتمُّ الصلوات، وأكمل التسليمات. والسلام.

المكتوب الرابع والعشرون

إلى المُلَّا محمَّد مُرادٍ الكشميِّ، الذي هو من خدَّام المِير محمَّد نُعمانَ في بيانِ مَناقبِ أصحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ، ورَحمَتِهم ورَأفتِهم فيما بَينَهم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩] الآية، مدح اللهُ سبحانه في هذه الآية أصحابَ خير البشر عليه وعليهم الصلاةُ والسلامُ بكمال رحمةِ بعضهم لبعضٍ التي كانوا عليها، فإنَّ الرَّحيمَ الذي هو واحدُ ﴿رُحَمَاءُ﴾ متضمِّنٌ للمبالغة في الرَّحمة، وحيث إنَّ للصِّفَة المشبَّهة دلالةً على الاستمرار أيضاً؛ ينبغي أن يكون رحمةُ بعضهم بعضاً على صفة الدَّوام والاستمرار، سواءٌ كان في حضوره ﷺ أو بعد ارتحاله، وكلُّما هو منافٍ لرحمةِ بعضهم بعضاً ينبغي أن يكون مسلوباً عنهم على الدَّوام، ويكون احتمالُ البغض والحقد والحسد وعداوةِ بعضهم لبعضٍ منتفياً عنهم على سبيل الاستمرار، فإذا كان جميعُ الصَّحابة الكرام متَّصفين بهذه الصِّفة المرضيَّة كما هو مقتضى كلمة ﴿وَالَّذِينَ﴾ التي هي من صِيَغ العموم والاستغراق، ماذا نقول من أكابر الصَّحابة؟ فإنَّ هذه الصِّفةَ تكون فيهم أتمَّ وأكملَ وأوفى، ولهذا قال ﷺ: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ**»، وقال ﷺ في شأن الفاروق رضي الله عنه: «**لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ**»، يعني: أنَّ لوازمَ النبوَّة وكمالاتِها كلَّها حاصلةٌ في عمر، ولكن لَمّا خُتِمَ منصبُ النبوَّة بخاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام؛ لم يُشَرَّفْ بدولة منصب النبوَّة واحدٌ، لوازمُ النبوَّة كمالُ الرَّحمة والشَّفقة على الخلق. وأيضاً إنَّ الرذائلَ التي تنافي الشَّفقة والرَّحمة ومن ذمائم الأخلاق من الحسد والبغض والحقد والعداوة كيف تتصوَّرُ من قومٍ تشرَّفوا بشرف صحبة خير البشر عليه وعليهم الصلوات والتسليمات؟ فإنَّهم أفضلُ هذه الأمَّة التي هي خيرُ الأمم، وأسبقُ أهل هذه الملَّة التي هي ناسخةٌ لجميع الملل؛ لأنَّ قرنَهم كان خيرَ القرون، وصاحبَهم كان أفضلَ الأنبياء والمرسلين، فلو كانوا موصوفين بهذه الصِّفات الرديَّة التي على أحقر هذه الأمَّة المرحومة عارٌ منها؛ كيف يكونون أفضلَ هذه الأمَّة؟ وبأيِّ وجهٍ تكون هذه الأمَّةُ خيرَ الأمم؟ وأيُّ مزيَّةٍ وأيُّ فضيلةٍ تكون لأسبقيَّة الإيمان وأولويَّة إنفاق الأموال وبذل الأنفس، وأيُّ تأثيرٍ يكون لخيرية القرن، وأيُّ أثرٍ يترتَّبُ على فضيلة صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام؟ والذين يكونون في صحبة أولياء هذه الأمة ينجون من هذه الرذائل، فكيف تتوهَّمُ هذه الذَّمائمُ في حقِّ جماعةٍ صرفوا أعمارهم في صحبة أفضل الرسل عليه وعليهم الصلوات والتسليمات، وبذلوا أموالهم وأنفسهم لتأييد دينه، ونصرة ملته، وإعلاء كلمته، إلا إذا سقط - عياذاً بالله سبحانه - عظمةُ خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام وجلالتُه عن النَّظَر، وتُوُهِّمَ أنَّ صحبتَهُ ﷺ أنقصُ من صحبة وليِّ الأمَّة؟ نعوذ بالله سبحانه منه، ومن المقرَّر أنَّه لا يبلغ وليٌّ من أولياء الأمة مرتبةَ صحابيٍّ من صحابة تلك الأمة، فكيف بمرتبةِ نبيِّها؟ قال الشَّيخ الشبليُّ عليه الرَّحمة: ما آمن برسول الله من لم يوقِّرْ أصحابه، وجماعةٌ من الناس يظنُّون........

أنَّ أصحابَ النبيّ عليه وعليهم الصلاة والسلام كانوا فرقتين: فرقةٌ كانت لهم مخالفةٌ مع علي ﷺ وعنهم، وفرقةٌ كانت لهم موافقةٌ به كرم الله وجهه، وكان في كلِّ واحدةٍ من هاتين الفرقتين عداوةٌ وبغضٌ وحقدٌ في حقِّ الأخرى، وبعضٌ منهم بطَّن صفاته هذه تَقِيَّةً وملاحظةً لبعض المصالح، وزعموا أنَّ تلك الرَّذائلَ امتدَّتْ فيهم إلى قرنٍ واحدٍ، وما كانوا كانت فيهم هذه الذَّمائمُ، وبهذا التَّوهُّم يذكرون مخالفي علي كرم الله وجهه بالشرِّ، وينسبون إليهم أشياءَ غيرَ مناسبةٍ، ينبغي أن ينصفَ، فإنَّه على هذا التَّقدير يكون كِلَا الفريقين مَوْرِداً للطَّعن، ومتَّصفين برذائل الصِّفات، ويصير أفضلُ هذه الأمة شرَّ هذه الأمَّة، بل شرَّ جميع الأمم، وتتبدَّلُ خيريَّةُ تلك الفرقة بالشريَّة، أيُّ إنصافٍ في ذكر الشَّيخين ﷺ بسوءٍ بهذا التوهُّم؟ ونسبة أمورٍ غير مناسبةٍ إلى كبراء الدين، وحضرة الصديق ﷺ أتقى هذه الأمّة بحكم نصّ القرآن، فإنَّ المفسِّرين - ابن عباس وغيره - أجمعوا على أنَّ قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧] الآية نزل في شأن الصدِّيق ﷺ، والمرادُ من الأتقى: هو الصديقُ ﷺ، فإذا قال الله تعالى في حقّ شخصٍ: إنَّه أتقى هذه الأمَّة التي هي خيرُ الأمم ينبغي أن يتأمَّلَ أنَّ تكفيرَه وتفسيقَه وتضليلَه إلى أيِّ حدٍّ من الشناعة يوصلُ؟ واستدل الإمامُ الفخرُ الرازيُّ بهذه الآية الكريمة على أفضليّة الصديق ﷺ، فإنَّ أكرمَ هذه الأمة المخاطبة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] بحكم هذه الآية هو أتقى هذه الأمة، وحيث كان الصديقُ أتقى هذه الأمة بنصِّ القرآن ينبغي أن يكون أكرمَ هذه الأمَّة عند الحقِّ جل وعلا بحكم النصِّ اللاحق هو الصّديق رضي الله تعالى عنه أيضـاً، وأثبتَ أكابرُ أئمّة السلف - واحدٌ منهم الإمامُ الشافعيُّ رضي الله تعالى عنهم - إجماعَ الصحابة والتابعين على أفضليّة الشَّيخين ﷺ، وحَكَمَ عليٌّ كرم الله وجهه أيضـاً بأفضليّة الشَّيخين، قال الذهبيُّ الذي هو من أكابر المحدثين: روى ذلك عن عليٍّ نيِّفٌ وثمانون نفراً، وعبدُ الرَّزّاق الذي هو من أكابر الشِّيعة حكم بأفضليّة الشَّيخين بموجب هذا النَّقل، وقال: بهذه العبارة أُفَضِّلُ الشَّيخين لتفضيل عليٍّ إياهما على نفسه، وإلا؛ لَمَا فضَّلْتُهما، كفى بي وزراً أنْ أُحبَّه ثم أخالِفَه، فتنقيصُ من كانوا أفضل هذه الأمة التي هي خيرُ الأمم بحكم الكتاب والسنة وإجماع الأمة وباعتراف عليٍّ أيضـاً، وتحقيرهم من أيِّ إنصافٍ؟ ومن أيِّ ديانةٍ؟ وأيُّ خيرٍ مودعٌ في ضمنه؟ فلو كان في سبِّ أحدٍ معنى الخيريَّة والعبادة؛ لكان في سبِّ أبي جهل وأبي لهب الذين هما ملعونان ومطرودان بحكم نصّ القرآن، ولَحَصَلَ في ضمنه حسناتٌ كثيرةٌ، أيُّ خيريَّةٍ في السبِّ الذي هو متضمِّنٌ للفحش والقطيعة، خصوصـاً في حقّ شخصٍ لا يستحقّه، ولا يكون أهلاً له؟ ووضعُ الشيء في غير موضعه ظلمٌ، وفرقٌ بين شيءٍ وشيءٍ، وتفاوتٌ بين موضعٍ وموضعٍ، فيكون بين ظلمٍ وظلمٍ بونـاً بعيداً. وخلافةُ ذي النورين رضي الله تعالى عنه ثابتةٌ بإجماع الصحابة الكرام، وباتفاق صغار ذلك القرن الذي هو خيرُ القرون وكبارهم وذكورهم وإناثهم، ولهذا قال العلماء: إنَّ الاتفاقَ والإجماعَ الذي وقع في خلافة ذي النورين لم يتَّفقْ في خلافة أحدٍ من سائر الخلفاء الثلاثة، فإنَّه لَمّا كان في بدء خلافته نوعُ تردُّدٍ؛ راعى أهل ذلك القرن في تلك المادَّة احتياطـاً كثيراً، ثم أقدموا عليها ينبغي أن يعلم أنَّ الأصحابَ الكرامَ رضي الله تعالى عنهم مبلِّغوا الكتاب والسنَّة، وكان الإجماعُ أيضـاً منوطـاً بقرنهم، فلو كان جميعُهم أو بعضُهم متَّصفين بالضلالة والفسق يرتفع الاعتمادُ عن كلّ الدين أو بعضه، وتكون فائدةُ بعثة خاتم الأنبياء وأفضل الرسل...

قليلةً، وجامعُ القرآن المجيد هو حضرةُ عثمان، بل حضرةُ الصديق وحضرة الفاروق رضي الله تعالى عنهم، فلو كان هؤلاء مطعوناً فيهم ومسلوبي العدالة أيُّ اعتمادٍ يبقى على القرآن؟ وبأيِّ شيءٍ يكون الدينُ قائماً؟ ينبغي أن يتأمَّلَ في شناعة هذا الأمر، أصحابُ النبي ﷺ كلُّهم عدولٌ، وكلُّما بلغنا بتبليغهم حقٌّ وصدقٌ، والمخالفاتُ والمنازعاتُ الواقعةُ في زمن خلافة علي رضي الله تعالى عنه لم تكن من جهة الهوى والهوس، ولا لأجل حبِّ الجاه والرِّياسة، بل كانت على وجه الاجتهاد والاستنباط، وإن كان في اجتهاد واحدٍ منهم خطأ، واستنباطُه بعيداً عن الصَّواب، ومن المقرَّر عند علماء أهل السنة والجماعة رضي الله تعالى عنهم أنَّ المحقَّ في تلك المحاربات والمشاجرات كان عليّاً كرم الله وجهه، ومخالفوهم كانوا على خطإٍ، ولكن لَمّا كان منشأُ هذا الخطأ الاجتهادَ؛ كان صاحبُه بعيداً عن الطَّعن والملامة عليه، والمقصودُ حقيَّةُ جانب عليٍّ، وخطأُ جانب مخالفيه، وأهلُ السنة قائلون بذلك، واللعنُ والطعنُ زيادةٌ بلا فائدةٍ، بل متضمِّنةٌ لاحتمال الضَّرر، فإنَّهم أصحابُ النبيِّ ﷺ ورضي عنهم، وبعضُهم مبشَّرٌ بالجنّة، وبدريٌّ مغفورٌ له، والعذابُ الأخرويُّ مرفوعٌ عنه كما ورد في الأحاديث الصحاح: «**إِنَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»(١)، وبعضهم تشرَّفَ ببيعة الرضوان، وقد قال النبي ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»، بل قال العلماءُ: يفهم من القرآن المجيد أنَّ جميعَ الصحابة من أهل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ [الحديد: ١٠]، والحسنى هي الجنّةُ، فكلُّ صحابيٍّ أنفقَ وقاتلَ قبل الفتح وبعده موعودٌ له بالجنَّة، قالوا: إنَّ صفةَ الإنفاق والقتال ليست للتَّقييد، بل للمدح، فإنَّ جميعَ الصَّحابة كانوا متَّصفين بهاتين الصفتين، فكلُّهم يكونون موعوداً لهم بالجنَّة، فينبغي الملاحظةُ أنَّ ذكرَ أمثال هؤلاء الأكابر بشرٍّ وسوء الظنِّ بهم، فكيف يكون من الإنصاف والديانة؟

فإن قيل: قال جماعةٌ: إنَّ بعضَ الأصحاب الكرام لم يَبْقَ بعد ارتحاله ﷺ على ذلك الطَّريق، بل انحرف من طريق الحقّ بواسطة حبّ الخلافة، وطلب الجاه والرياسة، وغصب عن عليّ كرم الله وجهه منصب الخلافة، بل يظنُّون أنَّ انحرافه بلغ حدَّ الكفر والضلالة، فيكون هؤلاء المذكورون بزعم هذه الجماعة محرومين عما وعد به الأصحاب الكرام؟ فإن نيل فضيلة الصُّحبة فرعُ تحقّق الإسلام، فإذا كان في إسلامهم كلامٌ كيف يكون للصحبة تأثيرٌ؟

أجيب: إنَّ الخلفاءَ الثلاثةَ ﷺ مبشَّرون بالجنَّة، ثبت ذلك بأحاديث صحيحةٍ بلغت حدّ التواتر المعنويّ، فاحتمالُ الكفر والضَّلالة مدفوعٌ عنهم، والشَّيخان من أهل بدرٍ، وهم مغفورٌ لهم مطلقاً على ما في الأحاديث الصحاح، وأيضاً إنَّهم من أهل بيعة الرضوان، وهم من أهل الجنَّة بأحاديث صحيحةٍ كما مرَّ، وعثمان لم يحضر بدراً؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ تركه في المدينة لتمريض أهله بنت النبي ﷺ قائلاً: بأنَّ لك من الأجر ما لأهل بدرٍ(٢)، ولم يحضرْ بيعةَ الرِّضوان؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان أرسله إلى مكّة عند قريشٍ، وبايع عنه النبيُّ ﷺ بنفسه كما هو مشهورٌ، وأيضاً إنَّ القرآنَ المجيدَ يشهد بجلالة شأن هؤلاء الأكابر ويخبر عن علوّ درجاتهم، فمن أغمض عن الكتاب والسنَّة؛ فهو خارجٌ عن المبحث، قال الشَّيخ........

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٦) من حديث عروة مرسلاً، قال الهيثمي (٩/ ٨٤): حسن الإسناد.

السعديّ رحمه الله: (شعر)

مَنْ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ الْكِتَابِ وَسُنَّةٍ فَجَوَابُهُ أَنْ لَا تُجِيبَ وَتَسْكُتَا

أيُّ بلاءٍ وقع؟ لو كان في الصِّدِّيق احتمالُ الكفر والضَّلالة لَمَا أجلسه الصحابةُ مع عدالتهم وكثرتهم مكان النبي ﷺ، وفي تكذيب خلافة الصديق تكذيبُ ثلاث وثلاثين ألفًا من أهل ذلك القرن الذي هو خيرُ القرون، ولا يجوِّزُ ذلك من له أدنى درايةٍ، أيُّ خيرٍ يبقى في قرنٍ يجتمع من أهله ثلاث وثلاثون ألفًا على الباطل، ويُجْلِسون مكانَ النبي ﷺ ضالّاً ومضلّاً؟ رزق الله سبحانه لهؤلاء الجماعة الإنصاف حتى يكفُّوا لسانهم عن الطعن في أكابر الدين، ويراعوا حقَّ صحبة النبي ﷺ، قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا مِنْ بَعْدِي، مَنْ أَحَبَّهُمْ؛ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ**». ماذا أكتب زيادةً على ذلك؟ وكيف أجلِّي أجلى البديهات، والقرآنُ المجيدُ مملوءٌ بمدح الصديق، نزلت فيه سورةُ الليل وآيات أخرُ، وروي في كمالاته وفضائله من الأحاديث الصحاح ما لا يعدُّ ولا يحصى، وورد في كتب الأنبياء المتقدمين ذكر شمائله وأوصافه، بل ذكرُ جميع الصحابة، كما قال الله تعالى: ﴿**مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرٰىةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ**﴾ [محمد: ٢٩]، ورأسُ هذه الأمة المرحومة التي خيرُ الأمم ورئيسُهم هو الصديقُ، فإذا رموه بالكفر والضلالة بما يعتذرون في حقِّ غيره؟ وبأيِّ طريقٍ يتكلّمون؟ ﴿**اللّٰهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ عٰلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهٰدَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [الزمر: ٤٦]. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

المَكتُوبُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

إلى المُلَّا طاهرٍ البدَخْشيِّ في بيانِ النَّتائجِ، وتَرقِّي المَراتبِ التي تَحصُل منَ الذِّكرِ، وتلاوةِ القرآنِ، وأداءِ الصَّلاةِ.

﴿**الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلَامٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفٰى**﴾ [النمل: ٥٩].

لا بُدَّ لمبتدئِي طلبة هذا الطَّريق من الذِّكْر، فإنَّ ترقِّيه مربوطٌ بتكرار الذِّكْر، بشرط أن يأخذه من الشَّيخ الكامل المكمّل، فإن لم يكن بهذا الشَّرط؛ فكثيراً ما يكون من قبيل أوراد الأبرار التي نتيجتها الثوابُ، لا درجةُ القرب التي تتعلّقُ بالمقربين، وإنَّما قلت: كثيراً ما يكون من قبيل أوراد الأبرار؛ فإنَّه يجوز أن يربِّي فضلُ الحقّ جلّ سلطانه الطَّالبَ بلا توسُّطِ شيخٍ، ويجعله تكرارُ الذِّكْر من المقرَّبين، بل يجوز أن يشرَّفَ بمراتب القرب من غير تكرارِ ذكرٍ أيضاً، ويكون من أوليائه تعالى، والشرطُ المذكورُ إنّما هو باعتبار الأكثر الأغلب، وعلى وفق الحكمة والعادة، فإذا تمّت المعاملةُ التي كانت مربوطةً بالذِّكْر بفضل الله سبحانه، وتيسّر الخلاصُ من التعلّق بآلهة الهوى، وصارت الأمَّارةُ مطمئنَّةً؛ فحينئذٍ لا يحصل الترقِّي من الذِّكْر، ويكون حكمُ الذكر حكمَ أوراد الأبرار، وقطعُ مراتب القرب في ذلك الموطن مربوطٌ بتلاوة القرآن وأداء الصَّلاة بطول القنوت، وما كان يتيسّرُ أوّلاً بالذكر يتيسّرُ بتلاوة القرآن، خصوصاً إذا كانت في الصلاة. وبالجملة: إنَّ الذِّكْر حينئذٍ يكون حكمُه حكمَ تلاوة القرآن في الابتداء في كونه من قبيل أوراد الأبرار، ويكون حكمُ التِّلاوة حكمَ الذِّكْر في الابتداء والوسط حيث كان من المقربات، والعجبُ أنَّ الذِّكْر إذا كُرِّرَ في ذلك الوقت بعنوان تلاوة القرآن لكونه من كلمات الآيات القرآنية، وشرع فيه ....

بالاستعاذة؛ يترتَّبُ عليه من الفائدة ما يترتَّبُ على تلاوة القرآن، فإن لم يكرَّرْ بعنوان القراءة؛ يكون مثلَ عمل الأبرار، ولكلِّ عملٍ مقامٌ وموسمٌ، فإن أُدِّي في موسمه؛ يكون له حسنٌ وملاحةٌ، وإلا؛ فكثيراً ما يكون خطأً، وإن كان حسنةً في ذاته، ألا ترى أنَّ قراءةَ الفاتحة في التشهُّد خطأٌ وإن كانت أمَّ الكتاب؟ فكان الشَّيخُ في هذا الطَّريق من الضَّروريات، وتعليمُه من أهمِّ المهمات، وبدونه خرط القتاد، قال واحدٌ من الأعزَّة: (شعر)

لَا بُـدَّ مِـنْ شَـيْـخٍ يَـقُـودُكَ أَوَّلَا ... مِنْ أَجْلِ كَوْنِكَ فِي الْبِدَايَةِ أَحْوَلَا

والسلام على من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ السَّادِسُ وَالعِشْرُون

إلى السَّيِّد محمَّد نُعمانَ في بيان أنَّ الحقَّ سُبحانَه كما هو موجودٌ بذاتِه لا بالوُجودِ، حيٌّ وعالِمٌ ومَوصوفٌ بالصِّفاتِ الثَّمانيَة بذاتِه، لا بصِفاتٍ زائدةٍ، وما يُناسِب ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ الحقَّ سبحانه كافٍ بذاته القُدْس في نفس الوجود وفي سائر كمالات الوجود وتوابعه من الحياة والعلم والقدرة والسَّمْع والبصر والإرادة والكلام والتَّكوين، ليس بمحتاجٍ في حصول هذه الكمالات إلى صفاتٍ زائدةٍ، وإن كانت له سبحانه صفاتٌ كاملةٌ زائدةٌ أيضاً، فهو تعالى كما أنَّه موجودٌ بذاته الأقدس لا بالوجود؛ حيٌّ بذاته لا بالحياة التي هي صفتُه تعالى، عالمٌ بذاته لا بصفة العلم، بصيرٌ بذاته لا بصفة البصر، سميعٌ بذاته لا بصفة السَّمع، وقادرٌ بذاته لا بصفة القدرة، مريدٌ بذاته لا بصفة الإرادة، ومتكلِّمٌ بذاته لا بصفة الكلام، ومبدأُ إيجاد الكائنات بذاته لا بصفة التَّكوين، وإن كان وجودُ العالم بتوسُّط التَّكوين وسائر الصِّفات كما سيجيء تحقيقُ هذا المعنى، وهذا التَّكوينُ وراءَ القدرة، فإنَّ في القدرة صحَّةَ الفعل والترك، وفي التَّكوين جانبُ الفعل متعيّنٌ. وأيضاً للقدرة تقدُّمٌ على الإرادة، والتَّكوينُ بعد الإرادة، وهذا التَّكوينُ شبيهٌ باستطاعة العبد التي قال علماءُ أهل الحقّ: إنَّها مقرونةٌ بالفعل، ووراءَ القدرة والإرادة القدرةُ مصحِّحةٌ لكِلَا طرفي الفعل والترك، والإرادةُ مرجِّحةٌ لأحد الطرفين، والإيجادُ يتعلّقُ بالتَّكوين بعد ترجيح الإرادة، فلو لم تثبت القدرةُ التي هي مصحّحةُ الطَّرفين يلزم الإيجادُ، ولو لم يثبت التَّكوينُ يلزم الإيجادُ من غير مستندٍ، فإنَّ القدرةَ مصحِّحةُ الإيجاد، والتَّكوينَ مباشرُ الإيجاد، فلا بُدَّ إذاً من إثبات التَّكوين، وقد اهتدى إليه علماءُ الماتريدية، ولما وجد الأشاعرةُ إضافته وتعلّقَه إلى الأشياء أكثرَ؛ ظنُّوه من الصِّفات الإضافيَّة، والله يحق الحقَّ وهو يهدي السبيل. وإرجاعُ التَّخليق والتَّرزيق والإحياء والإماتة وأمثالها إلى صفة التَّكوين أحسنُ من القول بكون كلٍّ منها صفة قديمة برأسها؛ لئلا يلزم إثباتُ قدماء متكثِّرةٍ من غير ضرورةٍ، فلاح من هذا البيان أنَّ ما يتيسّرُ لغيره تعالى بإيجاده سبحانه بواسطة الصِّفات حاصلٌ له تعالى بذاته من غير توسُّط الصِّفات، فإنَّ ذاته تعالى جامعةٌ لجميع الكمالات من غير ملاحظة أمرٍ واعتبارٍ، بل هي عينُ كلِّ كمالٍ، فإنَّ التبعُّض والتجزِّي مفقودٌ في حضرته، فهو سبحانه عالمٌ بتمام ذاته، وسميعٌ بالتمام، وبصيرٌ بالتمام، على هذا القياس سائرُ الصِّفات، ومع ذلك له سبحانه وتعالى صفاتٌ سبعةٌ - بل ثمانيةٌ كما قال بها علماء أهل الحق شكر الله تعالى سعيهم -، وهذه الصِّفاتُ الكاملةُ القديمةُ ظلالُ تلك الكمالات الذاتيّة ومظاهرُها، ويمكن أن..

يقال: إنَّها نقابُ تلك الكمالات، وحجبُ أنوارها المكنونة.

فإن قيل: إذا كانت ذاتُه تعالى كافيةً في حصول جميع الكمالات، فلأيِّ شيءٍ تثبتُ الصِّفاتُ؟ ولم يقال بوجود تعدُّد القدماء؟ ولهذا اكتفى الفلاسفةُ والمعتزلةُ بالذات، وهربوا من القول بتعدد القدماء، وقالوا بنفي الصِّفات.

أجيب: إنَّ حضرةَ الذات تعالت وتقدست وإن كانت كافيةً في حصول الكمالات، ولكن لا بُدَّ في تكوين الأشياء وتخليقها من الصِّفات الزَّائدة، فإنَّ ذاتَه تعالى في نهاية التنزُّه والتقدُّس، وفي غاية العظمة وجلال الكبرياء وكمال الغناء، لا مناسبةَ لها بالأشياء، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وبمقتضى الحكمة ووفق العادة لا بُدَّ في الإفادة والإفاضة من المناسبة للمستفيد والمستفيض، والصِّفاتُ قد تنزَّلت درجةً واحدةً، وحصلت ظليَّةٌ ومناسبةٌ بالأشياء ولو في الجملة، فلو لم يكن توسُّطُ الصِّفات لَمَا يتصوَّرُ حصولُ شيءٍ من الأشياء، فإنَّه لا نصيبَ للأشياء في سطوةِ أشعَّةِ أنوار حضرة الذات تعالت وتقدست غير الهلاك والفناء والانمحاء والانعدام، ولا فكرَ فيمن ينسب إيجادَ الأشياء إلى الذات البحت من غير إثبات الصِّفات، وما هو الصادرُ الأوّل حتى لا يكون مضمحلاً ومتلاشياً في سُبُحات وجه ذاته تعالى.

فإن قيل: إنَّ الفلاسفةَ والمعتزلةَ وإن لم يُثْبِتوا الصِّفات في الخارج، ولكنَّهم قائلون باعتباراتٍ علميةٍ، ومثبتون لكمالاتٍ ذاتيّةٍ متمايزة في العلم، فلم يكن إيجادُ الأشياء منسوباً إلى الذات البحت، بل بتوسُّط الاعتبارات.

أجيب: إنَّ إيجادَ العالم في الخارج، والعالمُ موجودٌ في الخارج، فلا بُدَّ من الحجب الخارجيَّة حتى يمكن أن تكون وسيلةً لوجود الأشياء في الخارج، وحافظةً إياها عن الانمحاء والاستهلاك، والاعتباراتُ العلميّةُ لا تجدي شيئاً في الوجودات الخارجيَّة، ولا يكفي الحجابُ العلميُّ في محافظة الموجودات الخارجيَّة، وبعضُ الصوفيَّة الذين لا يقولون بوجود العالم في غير العلم، لعلَّ الاعتبارات العلمية تنفعهم، ويمكن أن تكون وسيلةً لوجوداتٍ علميةٍ، ولكنَّ العالمَ موجودٌ في الخارج، وإن كان هذا الخارجُ ظلَّ ذلك الخارج، وهذا الوجودُ ظلَّ ذاك الوجود، فلا بُدَّ من الحجب الخارجيَّة حتى يمكن أن تكون وسيلةً لوجود العالم في الخارج، فينبغي أن تكون الصِّفاتُ الحقيقيّةُ موجودةً في الخارج، ومربِّيَةً للأشياء، ومجلِّيَةً للكمالات الذاتيّة بوساطة نفسها في مرايا العالم، وموردةً إياها في منصَّة الظهور، والصِّفاتُ وإن كانت حجباً للذات تعالت، ولكنَّ ظهورَ الكمالات الذاتيّة مربوطٌ بوجودها، وحجابيّةُ الصِّفات كحجابية المنظرة التي هي سبب للإراءة، وهذا الظهورُ وإن كان ظلِّياً، ولكن ماذا نصنع؟ قد جُعِلَ وجودُنا مربوطاً بالظلّ، وتحقّقنا منوطاً بالحجاب، ما بالذات لا ينفك عن الذات:

(ع) سياهى از حبشى كى رود كه خود رنگ است

(شعر):

وَمِنْ بَعْدِ هَذَا مَا يَدِقُّ صِفَاتُهُ وَمَا كَتْمُهُ أَحْظَى لَدَيَّ وَأَجْمَلُ

العبدُ لا يكون حقّاً سبحانه، ولكن بفضله تعالى لا ينفكُّ عن الحقّ جل شأنه، «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، وإن كانت له سبحانه نسبةُ المعيّة بجميع الأشياء، ولكنَّ هذه المعيَّةَ التي منشؤها المحبّةُ غير تلك المعية، ومن لا محبّةَ له لا معرفةَ له بتلك المعية، وحيث إنَّ الدَّرجاتِ متفاوتةٌ في المحبّة؛ فالتَّفاوتُ أيضاً حاصلٌ في المعية بقدر تفاوت المحبّة، وهذه المعيَّةُ هي السَّببُ للتخلُّص عن الظليَّة، والواسطةُ للاضمحلال بالكليَّة، وهي المزيلةُ للرقِّيَّة، والمثبتةُ للحريَّة في عين العبديَّة، وهي المسقطةُ للأنانيَّة، بل الرَّافعة للأنانية إلى الدَّرجات الكمالية. ينبغي أن يعلم أنَّه سبحانه قال في المعيّة العامة.........

بالأشياء: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فأثبت المعيَّةَ في طرفه سبحانه، وفي المعيَّة الخاصة بحكم «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» أثبت المعيَّةَ في هذا الطَّرف بمقتضى المحبّة، شتان ما بين المعيتين، فإنَّ في المعية الخاصَّة إثبات المعيَّة من الطرفين، وفي المعيَّة العامَّة من ذاك الطرف فقط، فيلزمها الحرمانُ في عين الوجدان، ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. والعالمُ وإن كان ظلالَ الصِّفات، وعرض له الوجودُ والبقاءُ بتوسُّط الصِّفات، ولكنَّ محبَّ حضرة الذات تعالت وتقدست بتوسُّط المحبّة الذاتيّة مع حضرة الذات تعالت قد ترقّى من الصِّفات التي هي أصولُه بعروجٍ لا كيفيٍّ، واتَّصل بأصل الأصول متجاوزاً الأصولَ، ولكن اتِّصالَه لا كيفيٌّ، فلو لم يترقَّ عن أصله؛ فما تكون الفائدةُ في مجيئه؛ يعني: وجوده؟ وما الحاجةُ إلى المحبّة؟ فإنَّه كان له اتِّصالٌ بأصله في جميع الأوقات، وكان الوصلُ الظليُّ ميسَّراً له دائماً، والأمرُ هو جعلُ الأصل مرقاةً كالظل، والترقِّي بأجنحة المحبّة إلى ما فوقه، وفهمُ هذا العروج ليس مما يحصل في حوصلةِ فهمِ كلِّ أحدٍ، والترقِّي عن نفسه تاركًا لنفسه ليس مما يكون معقولاً لأرباب النَّظَر والفكر، بل الصوفيَّةُ أيضاً يشرَّفُ منهم بهذه الدَّولة واحدٌ من ألوفٍ، وينكشف له سرُّ هذا المعمى: (شعر)

هزار نكتهٔ باريكتر ز مُـو اينجاست　　　نـه هر كـه سر بتراشد قلندرى دانـد

فإن قيل: إنَّ هذا السَّيرَ هل هو آفاقيٌّ أو أنفسيٌّ؟

أجيب: إنَّه ليس بآفاقيٍّ ولا أنفسيٍّ، فإنَّ المرادَ من الآفاق والأنفس: الدَّاخلُ والخارجُ، وهذه المعاملةُ وراءَ الدُّخول والخروج، وإن كانت محالاً عند أرباب النَّظَر، فإنَّه إذا كان المطلوبُ أقدسَ من الدُّخول والخروج تكون النِّسبةُ معه أيضاً منزَّهةً عن الدُّخول والخروج بالضَّرورة، وهذا السَّيرُ مع هذا الإشكال ومع هذه الدِّقَّة معلومٌ ومتميِّزٌ عند أربابه إن كان من أرباب العلم كسير الدهلي وآكره، وكلّ منزل ممتازٍ عن منزل آخر.

تنبيهٌ: إنَّ العالمَ وإن كان ظلالَ الصِّفات، والصِّفات ظلالَ حضرة الذات، ولكن للظليَّة درجاتٌ ومراتبُ كلّ منها حجابٌ للمطلوب، «إِنَّ للهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ»، وما لم تخترق الحجبُ بالتمام لا يتخلَّصُ من الظليَّة، والمرادُ من خرق الحجاب هنا: خرقٌ شهوديٌّ، وما ورد في آخر هذا الخبر من منع خرق جميع الحجب؛ فالمرادُ منه: خرقٌ وجوديٌّ، وهو ممتنعٌ؛ لأنَّه مستلزمٌ لرفع الصِّفات القديمة، وهو محالٌ، ولكن إذا حصلت المعيَّةُ الغيرُ المتكيِّفة؛ فلها حكمُ الخرق الوجوديّ، ومع الحجب كأنَّه لا حجبَ، فإنَّ للمعيَّة دقَّةً بحيث لا تطيق الحائلَ، ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعليهم وعلى آله الطاهرين أجمعين.

المكتوبُ السَّابعُ والعشرون

إلى المـلَّا عَليٍّ الكَشْمِيِّ في بيانِ أنَّ اللَّائقَ بالعبدِ: أن يَخرجَ عن مُراداتِه بالتَّمامِ، وأن يكونَ على مُرادِه سُبحانَه وتعالى، مع بيانِ المَرَضِ الذَّاتيِّ والعَرَضيِّ.

ينبغي للعبد أن لا يكون له مرادٌ ومطلوبٌ غيرَ مولاه عز وجل وغيرَ مراده أصلاً، فلو لم يكن كذلك؛ فهو مخرج رأسه عن رِبقة العبوديَّة، وقَدَمَه عن قيد الرِّقِّيَّة، والعبدُ إذا كان في أسر مرادات نفسه ومنخدعاً بهواه وهوسه؛ فهو عبدُ نفسه، وفي إطاعة الشَّيطان اللعين، وتلك الدَّولةُ المذكورةُ مربوطٌ حصولُها بحصول الولاية الخاصَّة المربوط حصولُها بالفناء الأتمِّ والبقاء الأكمل.

فإن قيل: ربّما تظهر المراداتُ والمقتضياتُ من الكُمَّل أيضاً، ويحسُّ تمنياتُ..........

حصول مطالب شتّى من الكبراء الأُوَل، وكان إمامُ الأنبياء وسلطانُ الأولياء عليه وعليهم أتمُ الصلوات وأكملُ التسليمات يحبُّ الماءَ الباردَ والحلوى، وحرصُه على هداية الأمة مبيَّنٌ في القرآن المجيد، فما يكون وجهُ بقاء أمثال هذه المقتضيات في هؤلاء الأكابر؟

أجيب: إنَّ بعضَ المقتضيات منشؤها الطبيعةُ، فما دامت نشأةُ الطَّبيعة قائمةً؛ فتلك المقتضياتُ باقيةٌ، فإنَّ الطَّبيعةَ مائلةٌ إلى البرودة وقتَ الحرارة من غير اختيارٍ، وراغبةٌ إلى الحرارة وقتَ البرودة بالاضطرار، ومثلُ هذا الاقتضاء لا ينافي العبوديَّةَ، ولا هو سببُ التعلّق بالهوى والهوس، فإنَّ ضروريات الطَّبيعة خارجةٌ من دائرة التَّكليف، وليست هي من هوى النَّفس الأمَّارة، فإنَّ ميلانَ النَّفس: إما إلى فضول المباح، أو إلى المشتبه والمحرَّم، وما هو ضروريٌّ لا مدخلَ فيه للنَّفس، فظهر أنَّ منشأَ التعلّق والتعوُّق هو الاشتغالُ بفضوليات الأفعال، وإن كانت من قسم المباح، فإنَّ لفضول المباح نسبةَ قرب الجوار بالمحرَّم، فلو رفع قدمه منه بإغواء العدوّ اللعين ليضع في المحرم بلا اختيارٍ؛ فكان الاقتصارُ على المباح ضروريّاً، فإنَّه لو رفع القدمَ منه يوضع في فضول المباح، بخلاف ما إذا أقام في فضول المباح أولاً، فإنَّه لو وقع القدمُ خارجه ليقع في المحرم كما مرّ آنفا، وظهورُ بعض المرادات ربّما يكون بسببٍ من خارجٍ مع خلوص الشَّخص في نفسه عن المرادات، وهذا السببُ الخارجُ: إما واعظُ الرحمن، فيلقي الخيرات، فإنَّ لله سبحانه واعظاً في قلبِ كلِّ مؤمنٍ، أو الشَّيطانُ، فيلقي الشُّرورَ والعداوةَ، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، وهذا الفقيرُ كان يوماً بعد صلاة الصبح قاعداً بطريق السُّكوت كما هو شيمةُ أهل هذه الطَّريقة العليّة أيام إقامتي في القلعة، فهجم على الخاطر تمنياتٌ لا طائلَ فيها، وسلبت الحلاوةَ بهجومها، ومنعت من الجمعيَّة، ثم رجعت الجمعيَّةُ بعد لمحةٍ بعناية الله سبحانه إلى حالها، فرأيتُ أنَّ تلك التَّمنِّيات خرجت من الخاطر، وارتفعت كقطع السَّحاب وخرجت من الباب مع مُلقِيها، وخلت البيت عنها، فعلم في ذاك الوقت أنَّ تلك المرادات إنّما ظهرت من خارجٍ لا من داخلٍ حتى تنافي العبوديّة. وبالجملة: إنَّ كلَّ فسادٍ منشؤه النَّفسُ الأمَّارةُ؛ فهو مرضٌ ذاتِيٌّ، وسمٌّ قاتلٌ، ومنافٍ لمقام العبودية، وكلُّ فسادٍ حصل من خارجٍ ولو كان بإلقاء الشيطان؛ فهو من الأمراض العارضية الزائلة بأدنى العلاج، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وبلاؤنا إنّما هو أنفسُنا، وعدوُّ أرواحنا مصاحِبُنا السوءُ، والعدوُّ الخارجيُّ يستولي علينا بمدده إياه، ويزيلنا عن منزلتنا بإعانته إليه، وأشدُّ الأشياء جهالةً هو النَّفسُ الأمَّارةُ، فإنَّها عدوُّ نفسها، ومريدةٌ بالسُّوء إياها، وهمَّتُها إهلاكُ نفسها، ومتمناها معصيةُ ربها الذي هو مولاها ووليُّ نعمها، وإطاعةُ الشَّيطان الذي هو عدوُّها. ينبغي أن يعلم أنَّ التَّمييزَ بين المرض الذاتِيِّ والعرضيِّ، ومعرفةَ الفساد الداخليّ والخارجيّ في غاية التَّعذُّر، وربَّما يظنُّ النَّاقصُ نفسه كاملاً بزعم أنَّ مرضَه عارضيٌّ لا ذاتِيٌّ، فيبقى في الخسارة الأبديّة، ومن هذا الخوف لم أجترئ في تحرير هذا السرِّ، ولم أستحسن إظهارَ هذا المعنى، وكنت في هذا الاشتباه مدة سبعة عشر سنةً، ووجدت الفسادَ الذاتِيَّ مختلطاً بالفساد العارضيِّ، وفي هذا الوقت ميَّز الحقُّ سبحانه الحقَّ من الباطل، وأبان الفسادَ الذاتِيَّ من الفساد العارضيِّ، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ على ذلك وعلى جميع نعمائه، وأحدُ أسباب إظهار أمثال هذه الأسرار وحكمةٌ من حكمه: الإشفاقُ على قاصر النَّظر...............

لئلا يظنَّ الكاملَ ناقصاً بوجود أمثال هذه التَّمنِّيات والمرادات الخارجية فيه، فيحرمَ من بركاته، وكان سببُ حرمان الكفار من دولة تصديق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجودَ أمثال هذه الصِّفات فيهم، فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا﴾ [التغابن: ٦]. وما قيل: إنَّ الحقَّ سبحانه يجعل العارفَ بعد زوال المرادات والمقتضيات عنه صاحبَ إرادةٍ واختيارٍ؛ فتفصيلُه يُذْكَرُ ويحرَّرُ بعناية الله تعالى في محلٍّ آخرَ، وهذا الوقتُ لا يساعد ذلك. والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

المكتوب الثامن والعشرون

إلى الـملّا صالحِ التُّركِ في بيانِ كَيفيَّة التَّصدُّق عن أرواحِ المَوتَى.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

وقع يوماً في الخاطر أن أتصــدَّقَ عن أرواح بعض الأقارب الموتى، فظهر في ذلك الأثناء أنَّه قد حصــل الفرحُ والسرورُ لذلك الميت المرحوم بمجرَّد هذه النيَّة، وظهر في النَّظَر فَرِحاً ومسروراً، ولَمّا جاء وقتُ إعطاء تلك الصَّدقة قصدتُ بها أوَّلاً روحانيةَ خاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام كما كان ذلك عادتي، ثم روحانية ذلك الميت، فأحسستُ في ذلك الميت في ذاك الوقت غمّاً وحزناً، وظهر بالوحشة والكدورة، فحصل لي تعجُّبٌ تامٌّ من مشاهدة هذا الحال؛ لأنَّه لم يظهر وجهُ تكدُّره ووحشته، مع أنَّه كان محسوساً أنَّه قد حصل له من تلك الصدقة بركاتٌ عظيمةٌ، ولم يظهر فيه أثرُ فرحٍ وسرورٍ، وكذلك نذرتُ يوماً مبلغاً لروحانيته ﷺ، وأدخلت في ذلك النَّذر سائرَ الأنبياء الكرام على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، فلم يعلم مرضاه ﷺ في ذلك الأمر، وكذلك إذا أشركت سائر الأنبياء نبينا عليهم الصلاة والسلام في الصَّلوات في بعض الأوقات لا يظهر رضاه ﷺ، مع أنَّه قد علم أنَّه إذا تصدَّقت عن روحانيّة واحدٍ، وأشركت فيها جميعَ المؤمنين؛ يصل ثوابُها إلى الكلّ من غير أن ينقصَ شيءٌ من ثواب الشَّخص المنويّ عنه، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، فما يكون وجهُ التَّكدُّر وعدمُ الرِّضـاء في ذلك التَّقدير؟ وبقي هذا الإشـكال مدّةً، فظهر آخرَ الأمر بفضل الله سبحانه أنَّ وجهَ التَّكدُّر والحزن هو أنَّ الصَّدقةَ إذا تصدِّقَ بها عن الميت بلا شركةٍ يحمل ذلك الميتُ تلك الصـدقةَ من جانبه إلى ملازمة النبي ﷺ بطريق الهدية، ويأخذ عنه ﷺ فُيُوضـاً وبركاتٍ بوسـاطتها، بخلاف ما إذا قصد صاحبُ الصدقة بصدقته النبيَّ ﷺ، فإنَّه لا نَفْعَ حينئذٍ للميت سوى الثواب، ففي صورة الشّركة إن قبلت الصـدقةُ؛ فللميت ثوابُ تلك الصَّدقة، وفي عدم الشّركة إن قبلت ثوابُ الصدقة وبركاتُ إتحاف تلك الصـدقة وفيوضُ إهدائها له ﷺ، وهذا المعنى كائنٌ في كلِّ صدقةٍ يشرك فيها الميتُ بالغير، فإنَّ في صورة الشّركة درجةً واحدةً من الثواب، وفي صورة عدم الشّركة درجتان: درجةُ الصَّدقة، ودرجةُ حملها من عنده إلى ذلك الغير، وكذلك صار معلوماً أنَّ غريباً إذا حمل تحفةً وهديّةً إلى واحدٍ من الأكابر الأفضـلُ أن يحمِلَها إليه من غير شـركةِ أحدٍ به ولو كان طفيليّاً، والمُهْدَى إليه يعطيها من عنده من شـاء من إخوانه وغيرهم، والآلُ والأصـحابُ الذين هم بمثابة عياله عليه وعليهم الصلوات والتسليمات، فلو جعلهم..

داخلين في هديته ﷺ يكون ذلك مرضيًّا ومقبولاً. نعم، من المعروف أنَّ من أهدى هديّاتٍ إلى واحدٍ من الأعزة، وأشرك به فيها أقرانه؛ يكون ذلك بعيداً من الأدب، والتماس رضا المهدى إليه، بخلاف ما إذا أهدى إلى خَدَمته بتبعيته، فإنَّ ذلك يكون مرضيّاً؛ لأنَّ إعزازَ خدمةِ شخصٍ إعزازُ ذلك الشَّخص، فعلم أنَّ أكثرَ رضاء الموتى في أفراد الصَّدقة، لا في الإشراك، ولكن إذا قصد التَّصدُّقَ عن ميتٍ ينبغي أن يهدي أوّلاً شيئاً بنيَّة روحانية النبي ﷺ على حدةٍ، ثم يتصدَّقُ عن الميت، فإنَّ حقوقَه ﷺ فوق حقوق سائر الخلق، وأيضاً إنَّ في هذا التَّقدير احتمالَ كون الصَّدقة مقبولةً ببركة النبي ﷺ، وهذا الفقيرُ إذا عجز عن تصحيح النيَّة في بعض الصَّدقات عن الموتى لا يجد علاجاً أفضلَ من أن أتصدَّقَ بها بنيَّته ﷺ، وأجعل ذلك الميتَ طفيليّاً له، فإنَّه يرجى أن تقبل ببركته ﷺ، وقد قال العلماءُ: إنَّ الصلاةَ على النبي ﷺ مقبولةٌ ولو صدرت رياءً وسمعةً، وهي واصلةٌ إلى النبي ﷺ، وإن لم يحصل منها ثوابٌ إلى المصلي، فإنَّ حصولَ الثَّواب من الأعمال مربوطٌ بتصحيح النية، وأما وصولُها إلى النبيّ ﷺ الذي هو محبوبُ رب العالمين، وكونُها مقبولةً في حقِّه عليه الصلاة والسلام؛ فتكفيه أدنى علّةٍ، وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] نازلٌ في حقّه ﷺ وعلى آله وعلى جميع إخوانه الكرام، من الأنبياء والملائكة العظام، إلى يوم القيام.

المكتوب التاسع والعشرون

إلى المِير محبِّ اللهِ في بيانِ حُصولِ فَهْمِ بعضِ الكلِماتِ القُدسيَّة منَ الآياتِ القُرآنيَّة.

ولما ظهر سابقاً تردُّدٌ في فهم بعض كلمات القرآن، وعجزتُ عن تطبيقه؛ لم أجد بعناية الله تعالى في دفع الوساوس علاجاً أفضلَ من أن أقول لنفسي: إنَّك تعترف بأنَّ هذا النَّظمَ القرآنيَّ كلامُ الله عز وجل، وتؤمن به أو لا، فلو لم تؤمنْ؛ فأنت كافرٌ، وخارجٌ عن المبحث، فإن تؤمنْ؛ فالقصورُ في فهمك، لا في نظم القرآن الذي هو كلامُ خالق الأرض والسّموات، ومبدعُ العقول والإدراكات، ولَمّا حصل الإيمانُ بفضل الله جل سلطانه بحقيقة كلام الله تعالى؛ صارت تلك الوسوسةُ مضمحلَّةً ومتلاشيةً، ونجوتُ من التردُّد، وفي هذه الأوان بلغ الأمرُ بفضل الله تعالى مبلغاً إذا كان لي في محلٍّ من نظم القرآن مجالُ تردُّدٍ من قصور الإدراك؛ صار ذلك المحلُّ باعثاً على ازدياد الإيمان بالقرآن، وكان ذاك التردُّدُ واسطةً لظهور الإعجاز في القرآن، وصرتُ أتصوَّرُ إغلاقَ ما فيه من شُعَب الإعجاز، وأحمل الإشكالَ على كمال البلاغة والفصاحة التي البشر عاجزون عن فهمها؛ لكونها وراء الاختصار والإيجاز، والإيمانُ الحاصلُ في عدم فهم القرآن ليس هو في فهمه، فإنَّ في عدم الفهم انكشاف طريق الإعجاز، وهو مفقودٌ في صورة الفهم، سبحان الله، إنَّ عدمَ فهم القرآن يكون سبباً لضلالة قومٍ وإنكارهم كلام الله تعالى، ويصير لبعضٍ آخر سبباً لكمال الإيمان بالقرآن، ويؤديهم إلى الهداية، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. والسلام.

المكتوب الثلاثون

إلى المِير محمَّد نُعمانَ في بيانِ العُروجِ إلى مَراتِب الأصولِ ومَراتبِ العِباداتِ.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين: (شعر)

وَمَرْتَبَةُ الْإِنْسَانِ فِي آخِرِ الْوَرَى لِذَلِكَ عَنْ عِزِّ الْحُضُورِ تَأَخَّرَا
فَلَوْ لَمْ يَعُدْ مِنْ بُعْدِهِ وَاغْتِرَابِهِ فَلَا شَيْءَ مَحْرُومٌ كَأُنْسٍ مِنَ الْوَرَى

فإذا وقع له العروجُ بعناية الله تعالى إلى أصوله التي هي كالظلِّ لها يكون له في كلِّ أصلٍ من تلك الأصول فناءٌ، وبعده بقاءٌ به، وبهذا الفناء والبقاء يزول إطلاقُ لفظ (أنا) عن ذلك الظلِّ، ويطلقُ على ذاك الأصل الذي كان فانياً فيه وباقياً به، ويرى نفسَه عينَ ذاك الأصل، وكذلك إذا وقع له العروجُ بكرم الحقّ جلّ وعلا من ذاك الأصل يحصل لأصله الأوّل فناءٌ وبقاءٌ بالأصل الذي هو فوقَ ذاك الأصل، وذاك الأصلُ كالظلِّ له، ويزول إطلاقُ (أنا) من الأصل الأوّل، ويقع في الأصل الثّاني، ويجد نفسه عينَ ذلك الأصل الثّاني، وإذا وقع العروجُ من الأصل الثّاني إلى الأصل الثّالث يتقرَّرُ إطلاقُ (أنا) على الأصل الثّالث الذي الأصلُ الثّاني ظلُّه، وهذه النِّسبةُ كائنةٌ في كلِّ أصلٍ تحتانيٍّ مع الأصل الفوقانيِّ الذي الأصلُ التحتانيُّ كالظلِّ له، يعني: إذا وقع العروجُ بمحض فضل الله سبحانه من الظلّ إلى الأصل يزول إطلاق (أنا) من ذلك الظلِّ، ويقع على الأصل، ويجد نفسَه عينَ ذلك الأصل إلى ما شاء الله تعالى على تفاوت درجات الاستعداد، وتصير تلك الأصولُ بتلك الكثرة والرِّفعة أجزاءه، وتجعل القطرةُ بحراً، وتصيرُ الذرّةُ جبلاً، فإذا كانت هذه الأصولُ أجزاءه؛ فلا جرم يكون من كمالاتها وبركاتها نصيبٌ كاملٌ له، ويكون كمالُه جامعاً لكمالات تلك الأجزاء، فينبغي أن يعرف هنا فرقَ ما بين الإنسان الكامل وسائر أفراد الإنسان، فإنّه بحرٌ محيطٌ، وهؤلاء كقطراته المحقَّرة، فهؤلاء كيف يعرفونه؟ وما يُدْرِكون من كماله؟ ونعم ما قيل: إلهي ما هذا الذي جعلتَ أولياءك بحيث من عَرَفَهم وجدك، وما لم يَجِدْك لم يعرفهم. وكما أنَّ بين الإنسان الكامل والإنسان النَّاقص تفاوتاً بقلَّة الأجزاء وكثرتها بين طاعاتهما وحسناتهما؛ أيضاً تفاوُتٌ بقدرها إذا أعطي شخصٌ مثلاً مائةَ لسانٍ، فيذكر الحقَّ سبحانه بكلِّ لسانٍ منها، أيُّ نسبةٍ تكون له بمن أعطي لساناً واحداً يذكر الله تعالى به؟ وينبغي أن يقيس الإيمانَ والمعرفةَ وسائرَ الكمالات على هذا المعنى. ﴿رَبَّنَا اَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَاۚ اِنَّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَد۪يرٌ﴾ [التحريم: ٨]، الحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، والصلاةُ والسلامُ على رسوله دائماً وسرمداً، وعلى آله الكرام، وصحبه العظام، إلى يوم القيام.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالثَّلَاثُونَ

إلى المُلَّا بَدرِ الدِّينِ في تَحقيقِ عالَمِ الأرواحِ، وعالَمِ المِثالِ، وعالَمِ الأجسادِ.

﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلَامٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذ۪ينَ اصْطَفٰىۜ﴾ [النمل: ٥٩]. قد كتبتم: أنَّ الروحَ كان قبل تعلّقه بالبدن في عالم المثال، ويذهب بعد مفارقته من البدن أيضاً إلى عالم المثال، فيكون عذابُ القبر في عالم المثال كألمٍ يحسُّ به الإنسانُ في المنام في عالم المثال، وكتبتم أنَّ هذا الكلامَ له تشعُّباتٌ كثيرةٌ، فإن قَبِلْتُم نفرِّعُ عليه فروعات كثيرةً.

اعلم أنَّ أمثالَ هذه الخيالات قليلةُ النَّصيب من الصِّدْق، نخاف من أن تدلَّكم على طريقٍ غير متعارفٍ، فلنكتب في تحقيق هذا المبحث كلماتٍ بالضَّرورة مع وجود الموانع، والله سبحانه الهادي إلى سبيل الرشاد.

أيُّها الأخ، إنَّ عالمَ الممكنات منقسمةٌ إلى ثلاثة أقسام: عالمُ الأرواح، وعالمُ المثال، وعالمُ الأجساد، وقالوا: إنَّ عالمَ المثال برزخٌ بين عالم الأرواح وعالم الأجساد، وقالوا أيضاً: إنَّ عالمَ المثال كالمرآة لمعاني العالمين............

المذكورين وحقائقهما، وتظهر معاني عالم الأرواح والأجساد في عالم المثال بصورٍ لطيفةٍ، فإنَّ لكلِّ معنىً وحقيقةٍ هناك صورة وهيئة أخرى مناسبة لهما، وذلك العالمُ ليس هو في حدِّ ذاته متضمِّناً للصورة والهيئات والأشكال، وإنَّما ظهرت فيه الصورُ والأشكالُ منعكسةً من عوالم أخر كالمرآة التي ليست هي متضمِّنة لصورةٍ أصلاً في حدِّ ذاتها، فإن كانت فيها صورةٌ؛ فهي حاصلةٌ من خارجٍ. فإذا علم هذا الكلام؛ فاعلم أنَّ الروحَ كان قبل تعلّقه بالبدن في عالمه الذي هو فوق عالم المثال، فإن تنزَّل بعد التعلّق بالبدن؛ فنازلٌ إلى عالم الأجساد بعلاقة حبيّةٍ لا شغلَ له بعالم المثال، لا قبل التعلّق ولا بعد التعلّق، وإنَّما يطالِعُ بعضَ أحواله بعناية الله تعالى في مرآة ذلك العالم في بعض الأوقات، ويستعلم حسنَ أحواله وقبحَها من هناك، كما أنَّ هذا المعنى واضحٌ ولائحٌ في صور الواقعات والمنامات، وربَّما يحسُّ هذا المعنى من غير أن يغيب عن الحسِّ، وبعد المفارقة عن البدن، فإن كان علويّاً؛ فمتوجّهٌ إلى فوق، وإن كان سفليّاً؛ فمأسورٌ في السفل، لا شغلَ له بعالم المثال، وعالمُ المثال إنّما هو للمشاهدة والرّؤية، لا للكينونة فيه، ومحلُّ الكينونة: إما عالمُ الأرواح، وإما عالمُ الأجساد، وعالمُ المثال إنّما هو مرآةٌ لهذين العالمين كما مرَّ، والألمُ الذي يرى في المنام في عالم المثال إنّما هو صورةُ العقوبة وشبحُها التي استحقَّها الرائي ظهرت له للتَّنبيه، وعذابُ القبر ليس من هذا القبيل، فإنَّه حقيقةُ العقوبة لا صورتها وشبحها.

وأيضاً إنَّ الألمَ الذي يحسُّ في المنام لو كان له حقيقةٌ فرضاً؛ فهو من قبيل الآلام الدنيويَّة، وعذابُ القبر من جملة عذاب الآخرة، شتَّان ما بينهما، فإنَّ العذابَ الدنيويَّ لا مقدارَ له ولا اعتبارَ بالنِّسبة إلى عذاب الآخرة، أعاذنا الله سبحانه، فلو وقعت في الدنيا شرارةٌ من نار جهنم لأحرقت الكلَّ، وجعلت متلاشياً، وزعمُ عذاب القبر كعذاب المنام من عدم الاطِّلاع على صورة العذاب وحقيقة العذاب. وأيضاً إنَّ منشأَ هذا الاشتباه هو توهُّمُ مجانسة عذاب الدنيا بعذاب الآخرة، وهذا توهُّمٌ باطلٌ بيِّنُ البطلان.

فإن قيل: قد يفهم من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، أنَّ توفّي الأنفس كما هو في الموت كذلك هو في المنام أيضاً، فما وجهُ عدِّ عذاب أحدهما من عذاب الدنيا، وعذاب الآخر من عذاب الآخرة؟

أجيب: إنَّ التوفّي في المنام من قبيل خروج شخصٍ من وطنه المألوف بالشَّوق والرغبة للنَّزاهة والنَّظارة؛ ليحصل له الفرحُ والسرورُ، فيرجع إلى وطنه فرحاً ومسروراً، ومتنزَّهُه عالمُ المثال الذي متضمِّنٌ لعجائب الملك والملكوت، ولا كذلك التوفي حين الموت، فإنَّ فيه هدمَ الوطن المألوف، وتخريبَ البناء المعمور، ومن ههنا لا تحصل المحنةُ والكلفةُ في توفي النوم، بل هو متضمِّنٌ للفرح والسرور، وفي توفي الموت شدّةٌ وكلفةٌ، فيكون وطنُ المتوف النومي هو الدنيا، وتكون المعاملةُ التي تظهر له من معاملات الدنيا، والمتوفى الموتي منتقلٌ إلى الآخرة بعد تخريب وطنه المألوف، وكانت المعاملةُ معه من معاملات الآخرة، ولعلَّكم سمعتم: (من مات فقد قامت قيامته)، وإياكم والانحرافَ عن اعتقادات أهل السنة والجماعة شكر الله تعالى سعيهم اغتراراً بالكشف الخياليَّة، وظهور الصور المثالية، فإنَّ النجاةَ بدون متابعة هذه الفرقة النَّاجية غيرُ متصوَّرةٍ، فعليكم بالاجتهاد في اتِّباع هؤلاء الأكابر غايةَ الإمكان تاركين ما ينافيه كائناً ما كان، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤]. وقد أوردني انبساطُكم في العبارة في توهُّم أنَّ هذه التخيلات تكاد تخرجكم من تقليد هؤلاء الأكابر، وتجعلكم ممن يتَّبع كشفيات نفسه، نعوذ بالله سبحانه منها..............

ومن شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، الشيطانُ عدوٌّ قويٌّ، ينبغي للإنسان أن يكون واقفاً على نفسه حتى لا يخرج من الصِّراط المستقيم إلى سككٍ أخرَ، أيُّ بلاءٍ وقع؟ لم تنجرَّ مدةُ المفارقة إلى سنةٍ حتى وقع الذُّهولُ عن الاحتياط، والتزامُ متابعة السنة وأهل السنة، وحصرُ النَّجاة في تقليد هؤلاء الأكابر التي كانت فيكم، وجعلتم متخيَّلاتكم مقتداكم، وفرَّعتم عليها فروعات كثيرةً، واحتمال ملاقاتنا يرى بحسب الظَّاهر بعيداً جداً، فعليكم المعيشة والمعاملة بحيث لا ينقطع حبلُ الرجاء. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب الثاني والثلاثون

إلى المَقصودِ عَلِيٍّ في بيانِ أنَّ ما قيل: إنَّ كثرةَ الخطَراتِ من أسبابِ الوَصلِ إنَّما هو على مِقدارِ التَّجلِّي، وفي تَحقيقِ حَقيقةِ الكَثرةِ الوَهميَّة، وما يُناسِب ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

قد كتبتم أنَّ ساري طريقٍ اشتكى إلى عالمِ طريقٍ من هجوم الخطرات، فقال: حيث إنَّ إحاطةَ المطلوب وشمولَه بحكمٍ (وهو بكل شيء محيط) معلومٌ ينبغي أن تعدَّ الخطرةُ من أسباب الوصل، لا من موجبات الفصل، وأن يجعل أبوابُ المشاهدة مفتوحةً، وروزنةُ الغفلة مسدودةً، هذا الكلامُ صادقٌ بحسب التجلِّي الصوريِّ الذي هو مقدّمةٌ من مقدّمات هذا الطَّريق، فإن كان في هذا الموطن وصلٌ؛ فمع كونه في الحقيقة فصلاً، فهو باعتبار الصُّورة، وإن كانت مشاهدةٌ ولو هي في الواقع مباعدة؛ فهي أيضاً بملاحظة الصُّورة، وهذا التجلِّي ساقطٌ عن حيِّز الاعتبار عند أكابر هذا الطَّريق؛ لأنَّه ليس بمفنٍ لوجود السَّالك، والمحقُّ والمبطلُ شريكان فيه، فإنَّ لجوكية الهند وفلاسفة اليونان خبراً عنه، وهم محظوظون وملتذُّون بعلومه ومعارفه.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ حصولَ هذه الدَّولة للمحقِّ من طريق صفاء القلب، وللمبطل من طريق صفاء النَّفس، فلا جرم أنَّ ذاك يفضي إلى الهداية، وهذا يجرُّ إلى الضَّلالة، ولكن كلاهما في أَسْرِ الصُّورة، لا خبرَ لهما عن المعنى: (شعر)

مَا يَعْرِفُ الْغَفْلَانُ عَابِدُ صُورَةٍ ... حُسْنَ الْمُقَنَّعِ عَنْ جَمِيعِ مُؤَانِسِ

ولكن في المحقِّ احتمالُ النَّجاة من أسر الصُّورة، والمبطلُ منهمكٌ في الصُّورة، فإنَّ الخلاصَ من أسر الصُّورة من غير التزام ملَّة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام محالٌ. وأيضاً إنَّ التجلِّيَ الصوريَّ داخلٌ في دائرة العلم، ولكن لَما طرح الحالُ والذَّوقُ فيه الشّعاعُ يرى مثل الحال. وأيضاً إنَّ المشهودَ في التجلِّي الصوريِّ الكثرةُ، لكن بعنوان المظهريَّة للوحدة، وشهودُ الكثرة بأيِّ عنوانٍ كان وبالٌ في وبالٍ، ينبغي أن لا يبقى في نظر الباطن اسمٌ من الكثرة وشهودها ولا رسمٌ، ولا يكون المشهودُ غيرَ الواحد الحقيقيِّ أصلاً، حتى يتيسّرَ الفناءُ الذي هو قدمُ أوَّلٍ في هذا الطَّريق، فإنَّ الفناءَ عبارةٌ عن نسيان ما سوى الحقِّ سبحانه، وزواله من الباطن، فكيف يكون للكثرة مجالٌ في ذلك الموطن، وما يكون شهودُ الكثرة فيه. وما قال القائلُ من أنَّ الخطرةَ من أسباب الوصل وأبواب المشاهدة؛ فالمرادُ بذاك الوصل والمشاهدة: الوصلُ والمشاهدةُ الصُّوريين، وهما عينُ المفارقة والمباعدة، فإنَّ الوصلَ المعتبرَ عند أكابر هذه الطَّائفة العليّة إنّما هو في مقام البقاء بالله الذي يحصل بعد الفناء ونسيان جميع ما سواه تعالى، ووجودُ..

الخطرة منافٍ لتلك الدَّولة، وحصولُ الوسوسة مانعٌ لتلك المنزلة، وفي مقام الفناء الذي هو دهليزُ ذلك الوصل يكون انتفاءُ الخواطر على نوعٍ لو كُلِّفَ بتذكُّر الأشياء لا يتذكَّرُ بواسطة نسيان السِّوَى الذي حصل له.

وقد كتبتم: وهو على كل شيء محيط، بيانُ الإحاطة ما جاء بهذه العبارة يشبه أن تكون هذه من كلام المولَّدين، فإنَّ تعديةَ الإحاطة بكلمة (على) كثيرةُ الوقوع في كلام العجم، والمتعارفُ في العبارة العربية الفصيحة تعديةُ الإحاطة بالباء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]، والظَّاهرُ أنَّ هذه العبارة إنّما أُوردتْ بطريق الاستشهاد بتخيُّل أنَّها من القرآن، وليس كذلك، فإنَّ بيانَ هذا المعنى في الكلام المجيد بعبارةٍ أخرى كما مرَّ.

وكتبتم أيضـاً: إنَّ الكثرةَ الوهميَّةَ والتعدُّدَ الاعتباريَّ قد تراكمتْ على وجهٍ وقع أكثرُ العلماء في الغلط بتوهُّم تعدُّد الوجود، وقنعوا من اللبِّ بالقشر.

اعلم أنَّ الكثرةَ والتعدُّدَ وإن كانت وهميَّةً واعتباريَّةً، ولكن لَمّا صدرتْ وظهرتْ بصنع الله جل سلطانه؛ صارت متقنةً ومستحكمةً، وكانت المعاملةُ الدنيويّةُ والأخرويَّةُ مربوطةً بها، والآثارُ الخارجيّةُ مترتبةً عليها، وارتفاعُها ممنوعٌ، وإن ارتفع الوهمُ والاعتبارُ، فإنَّ العذابَ والثوابَ الدَّائمين الأخرويين الذين أخبر عنهما المخبرُ الصَّادقُ منوطان بالكثرة مربوطان بالتعدُّد، والحكمُ بارتفاع الكثرة والتعدُّد دخولٌ في الإلحاد والزندقة، أعاذنا الله سبحانه من ذلك، فالصوفيَّةُ العليّةُ والعلماءُ الكرام كلُّهم قائلون بثبوت هذه الكثرة، واستمرارِ هذا التعدُّد، ويرون المعاملةَ الأخرويَّةَ الدَّائميةَ مربوطةً بها، ولكن لَمّا كان من شأن هذه الكثرة الارتفاع من شهود الصوفيَّة وقت العروج يجدونها وهميّةً واعتباريّةً، وحيث إنَّها لا ترتفع في نفس الأمر - وإن كانت مرتفعةً من الشُّهود - يقول العلماء: إنَّها موجودةٌ، فنزاعُ الفريقين صار راجعـاً إلى اللَّفظ بعد الاتفاق في المعنى، كلٌّ من الفريقين حكم بمقياس وجدانه، فالصوفيَّةُ اعتبروا الشُّهودَ، وحكموا بالوهميَّة والاعتباريَّة بملاحظة الارتفاع الشُّهوديّ، وقال العلماءُ بوجودها بملاحظة ثبوتها واستقرارها في نفس الأمر، ولكلٍّ وجهةٌ، وقد بيَّن هذا الفقيرُ هذا المعنى في مكتوباته ورسائله بالتَّفصيل، وأرجع نزاعَ الفريقين إلى اللَّفظ، فإن بقي خفاءٌ؛ ينبغي أن يراجع فيها، نظرُ العلماء قريبٌ من الصَّواب؛ لأنَّه مطابقٌ لنفس الأمر، ونظرُ الصوفيَّة باعتبار السُّكر وغلبة الحال، ألا ترى أنَّ النُّجومَ مختفيةٌ في النهار، وثابتةٌ في نفس الأمر، وإن كانت مستورةً عن الشُّهود؟ فالحكمُ بثبوت النُّجوم أقربُ إلى الصَّواب من الحكم بعدمها بملاحظة عدم شهودها، ومقصودُ العلماء من القول بوجود الكثرة إبقاءُ الشَّريعة التي مبناها على التعدُّد، وإجراءُ وعد صاحب الشَّريعة ووعيده، فإنَّه لا يتصوَّرُ بدون الكثرة، والصوفيَّةُ أيضـاً معترفون بهذا المعنى، وإن أطبقوه على الشَّريعة بالتكلّف، وما قاله العلماءُ صادقٌ بلا تكلّفٍ، ومطابقٌ بلا تمحُّلٍ، لا غبارَ فيه أصلاً ولا كدورةَ، وإنَّهم لا يُثْبِتون وجوداً مستقلّاً مستبدّاً حتى يكون فيه مجالٌ للكلام، ويكون شركةً بالواجب تعالى، وإنَّما يثبتون وجوداً ضعيفـاً مفاضـاً ومستعاراً من الغير، كيف يجوز تخطئةُ العلماء؟ فإنَّهم أكابرُ الدين، ونسبةُ الغلط إليهم غلطٌ محضٌ، ومحضُ الغلط، ونحن العاجزون المتعوِّقون أخذنا الدِّينَ والشَّريعةَ من العلماء، واستفدنا المذهبَ والملَّةَ من بركاتهم، فلو كان فيهم مجالٌ للطَّعن؛ لارتفع الاعتمادُ عن الشَّريعة والملَّة، ولهذا قالوا: الطَّاعنُ..........................

في السَّلَف ضالٌّ ومبتدعٌ، وعدُّوا طعنه من أسباب التَّضليل والتَّشكيك في الدِّين، وحكموا ببطلانه. وكتبتم أيضـًا: إنَّهم قنعوا من اللُّبِّ بالقشر يشبه أنَّكم تخيَّلتم الصورَ لبًّا والتَّنزيهَ قشراً، فإنَّ دعوةَ العلماء ودلالتَهم إلى التَّنزيه، ومشهود صاحب التجلِّي الصوريِّ ومطلوبُه الصورُ والأشكالُ، ينبغي الإنصافُ، أيُّهما متشبِّثٌ باللبِّ، وأيُّهما منخدعٌ بالقشر؟ ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام أولاً وآخراً.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالثَّلاثُونَ

إلى المـلّا شَمسِ الدِّين في تَحقيقِ كَلامِ الشَّيخ شَرفِ الدِّينِ يَحيَى المُنَيْرِيِّ من أنَّ السَّالكَ ما لم يَكفُر، ولم يَقطع رأسَ أخيه ولَم يَتزوَّج بأُمِّه لا يَكونُ مسلِمـًا.

عليكم بالاستقامة يا ملا شمس. قد سألتم: إنَّ شيخَ المشائخ الشَّيخ شرف الدين يحيى المنيريّ كتب في رسالته «إرشاد السَّالكين»: أنَّ السَّالك ما لم يكفر لا يكون مسلمـًا، وما لم يقطع رأس أخيه لا يكون مسلمـًا، وما لم يتزوَّجْ بأمِّه لا يكون مسلمـًا، فما المرادُ بهذه الكلمات؟

اعلم أنَّ المرادَ بالكفر: كفرُ الطَّريقة الذي هو عبارةٌ عن مرتبة الجمع الذي هو موطنُ الاستتار، ومقامُ عدم الامتياز بين حسن الإسلام وقبح الكفر، بل كما يرى الإسلام مستحسنـًا؛ يجد للكفر أيضـًا حسنـًا فيه، ويجد كليهما مظهر للاسم الهادي والاسم المضلِّ، وينال من كلٍّ منهما حظًّا، ويكون بهما مستلذًّا، وهذا هو ذلك الكفرُ الذي أخبر عنه حسينُ بن منصور الحلاجُ وكان فيه ومات عليه وقال: (شعر)

كَفَرْتُ بِدِينِ اللهِ وَالْكُفْرُ وَاجِبٌ لَدَيَّ وَعِنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَبِيحُ

والشطحياتُ مثل قول: أنا الحقّ، وقول: سبحاني، وقول: ليس في جبتي سوى الله، كلُّها من أثمار شجرة الجمع الذي منشؤه استيلاءُ الحبّ، وغلبةُ محبّة المحبوب الحقيقيِّ، لم يبقَ في نظر شهودهم غير المحبوب، بل صار مختفيـًا ومستوراً، وهذا المقامُ مقامُ الجهل والحيرة أيضـًا، ولكن جهلُ هذا المقام محمودٌ، وحيرتُه ممدوحةٌ، فإن وقع سيرٌ إلى أعلى من مقام الجمع بعناية الله سبحانه، واجتمع العلمُ بالجهل، واقترنت المعرفةُ بالحيرة، وظهر الفرقُ والتميُّز، وتبدَّلَ السُّكرُ بالصَّحْو؛ فحينئذٍ يحصل الإسلامُ الحقيقيُّ، وتتيسّرُ حقيقةُ الإيمان، وهذان الإسلامُ والإيمانُ محفوظان من الزَّوال، ومأمونان من طريان الكفر والاستبدال، والمرادُ بما ورد في بعض الأدعية المأثورة من قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَانـًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ**»[1] هو هذا الإيمانُ؛ لأنَّه محفوظٌ عن الزَّوال، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] بيانٌ لعلامة حال أهل هذا الإيمان، فإنَّ الولايةَ لا تتصوَّرُ بدون هذا الإيمان، وإن كان يمكنُ إطلاقُ اسم الولاية في مرتبة الجمع أيضـًا، ولكن النَّقصَ والقصورَ لازمُ تلك المرتبة دائمـًا، فإنَّ الكمالَ في الإيمان والمعرفة، لا في الكفر والجهل، أيَّ كفرٍ وأيَّ جهلٍ كان، فصحَّ ما قال الشَّيخُ، فإنَّه ما لم يتحقَّقْ بكفر الطَّريقة لا يشرفُ بإسلام الحقيقة.

وما قال: إنَّه ما لم يقطع رأس أخيه لا يكون مسلمـًا؛ فالمرادُ من الأخ: الشَّيطانُ الذي يولدُ معه، ويكون قرينَه، ويدلُّه على الشرِّ والفساد دائمـًا، كما ورد في الحديث على قائله الصلاةُ والسلامُ: «**مَا مِنِ ابْنِ آدَمَ إِلَّا وَمَعَهُ قَرِينٌ مِنَ الْجِنِّ**»، قالوا: ومعك يا رسول الله؟ قال: «**نَعَمْ، وَلَكِنْ أَعَانَنِي اللهُ عَلَيْهِ، فَأَسْلَمَ**»، يعني: من شرِّه إن كان بصيغة المتكلّم، أو فأسلم شيطاني إن كانت الرِّوايةُ بصيغة الماضي، وهذه الرِّوايةُ الأخيرةُ مشهورة. وقتلُ هذا القرين عبارةٌ.........

(١) أخرج الترمذي (٣٤١٩) من حديث ابن عباس ﷺ حديثـًا طويلاً في دعاءه ﷺ، وفيه: «اللهم أعطني إيمانـًا ويقينـًا ليس بعده كفر».

عن عدم الانقياد إليه وإستحقاره واسترزاله.

فإن قيل: إنَّ الإنسانَ مع وجود العقل والفراسة فيه لم يكن مغلوباً للشَّيطان، ويرتكب غيرَ مرضاته تعالى.

أجيب: إنَّ الشيطانَ فتنةٌ وبلاءٌ سلَّطه الله سبحانه على عباده للابتلاء والامتحان، وجعله مستوراً عن نظرهم، ولم يُطْلِعهم على أحواله، وجعله بصيراً بأحوالهم، وأجراه مجرى الدمّ منهم، والسعيدُ: من يكون محفوظاً بعناية الله تعالى من كيد مثل هذا البلاء ومكره، ومع ذلك ذكر الله سبحانه كيدَه في القرآن المجيد بالضَّعف، وجرَّأ السعداءَ وشجَّعهم. نعم، إنَّ حكمَ الشيطان بهذا التسلُّط مع إعانة الله لعبده حكمُ الثعلب، وبدون إمداد فضله أسدٌ مفترسٌ: (شعر)

أَلَا فَأَعْطِنِي قَلْبـاً تَرَى مِنْ جَسَـارَةِ الْـ أُسُـودِ وَإِنْ أَلْفَيْتَنِي قَبْلُ ثَعْلَبَا

والجوابُ الآخرُ: إنَّ الشيطانَ ربّما يجيء من طرق أهواء النَّفس، ويدلّه على المشتبهات، فيجد النُّصرةَ عليه بالضَّرورة بإعانة النَّفس الأمَّارة التي هي عدوُّ المنزل، ويجعلها منقادةً لنفسه، وكيدُ الشَّيطان ضعيفٌ في حدِّ ذاته، وإنَّما يفعلُ ما يفعل بإعانة من يؤوي العدوَّ إليه، وبلاؤنا في الحقيقة هو النَّفسُ الأمَّارةُ التي هي عدوةُ أرواحنا، لا أحدَ عدوٌّ لنفسه إلا هذه الخسيسةُ، والعدوُّ الخارجُ إنّما يصنع ما يصنع بإمدادها، فينبغي أوَّلاً أن يقطع رأسَ النَّفس، وأن يمتنعَ عن الانقياد إليها، والازدراء بها وإهانتها، ورأسُ الأخ يقطع في ضمن هذا الجهاد، ويصير حقيراً وذليلاً، وحجابُ طريق السَّالك وسدُّه هو نفسُه، والأخُ خارجٌ عن المبحث، فإنَّه يدعو إلى الشرِّ من بعد، ومن صراطٍ مستقيمٍ إلى سبلٍ معوجةٍ، ودفعُ العدوّ الخارجيِّ بعد التخلُّص من انقياد النَّفس متصوَّرٌ بإمداد الله تعالى بأسهل الوجوه، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] بشارةٌ للعباد الذين تخلَّصوا من رقية النَّفس، وأخلصوا العبادةَ للمعبود الحقيقيِّ. والله سبحانه الموفقُ.

وما قال من أنَّه ما لم يتزوَّج بأمه لا يكون مسلماً؛ يمكن أن يكون مراده بأمه: عينَه الثَّابتَ الذي هو سببُ ظهور وجوده في الخارج، وورد التَّعبيرُ عن العين الثابت بالأمّ في اصطلاح هذه الطَّائفة، قال واحدٌ من الأعزة: (شعر)

وَلَـــدَتْ أُمِّـــي أَبَاهَـــا إِنَّ ذَا مِـــنْ عَجَبَـــاتِ

أراد بالأمّ عينَه الثابتَ، وبأبيها اسماً من الأسماء الإلهيّة الذي العينُ الثابتُ ظلُّ ذلك الاسم وعكسه، ولَمّا كان ظهورُ ذلك الاسم في الخارج بتوسُّط ذاك العين الثَّابت، عبَّر عن ذلك الظُّهور بالولادة، وبالجملة يقولون: الأمّ ويريدون به: العينَ الثَّابتَ، ويقال لهذا العين الثَّابت: تعيّناً وجوبياً، فإنَّ التعيّنات عند هذه الطَّائفة العليّة خمسةٌ يقال لها: التنزلاتُ الخمسةُ، والحضراتُ الخمسُ أيضاً، يثبتون منها في مرتبة الوجوب تعيّنين، وثلاثةً في مرتبة الإمكان، والتعيّنان الوجوبيان هما تعيّنُ الوحدة وتعيّنُ الواحديَّة، وكلاهما في مرتبة العلم، والفرقُ بالإجمال والتَّفصيل العلميين، والتعيّناتُ الثَّلاثةُ الإمكانيَّة هي التعيّنُ الروحيُّ والتعيّنُ المثاليُّ والتعيّنُ الجسديُّ، ولَمّا كان العينُ الثَّابتُ في مرتبة الواحديَّة يكون تعيّنُه وجوبيّاً بالضَّرورة، وحيث إنَّ حقيقةَ الممكن عينُه الثابتُ الذي له وجهٌ إلى التعيّن الوجوبيّ، وذلك الممكن كالظلِّ له؛ فيكون أمَّ ذلك الممكن من عالم الوجوب الذي أظهرته في عالم الإمكان، والتزوُّجُ بالأمِّ بمعنى: أنَّ تعيّنَ الممكن الإمكانيِّ يتَّحد مع تعيّنه الوجوبيّ: (شعر)

لَوْ نَـفَـضَ الْـمُـمْـكِـنُ أَغْـبِـرَةَ الْإِمْـ ـــكَـانَ لَا يَـبْـقَـى سِـوَى وَاجِـبِ

يعني: يكون تعيّنه الإمكانيُّ مختفياً عن نظره، ويطلق لفظ (أنا) على التعيّن الوجوبيّ، لا بمعنى: أنَّ التعيّنَ الإمكانيَّ يتّحدُ بالتعيّن الوجوبيِّ في نفس الأمر، فإنَّه محالٌ، والقولُ به مستلزمٌ للإلحاد والزندقة؛ لأنَّ المعاملةَ هنا بحسب الشُّهود، فإن كان زوالُ تعيّنٍ؛ فباعتبار الشُّهود، وإن اتحادٌ؛ فبالشُّهود أيضاً: (شعر)

وَهَــذَا لَا يَصِـــيرُ قَـــطُّ ذَاكَــا وَذَاكُــمْ لَا يَصِـــيرُ قَــطُّ هَــذَا

فإذا وجد السَّالكُ تعيّنَه متّحداً بذاك التعيّن؛ صار مستحقّاً لأن يتخلَّصَ عن التلوثات الإمكانيَّة، وأن يشرَّف بدولة الإسلام والانقياد لمرتبة الوجوب، ينبغي أن يعلم أنَّ التنزلاتِ الخمسةَ التي قال بها الصوفيَّةُ مجرَّدُ اعتباراتٍ في الوجود، وتتعلّقُ بالكشف والشُّهود، لا أنَّه في الحقيقة تنزُّل هناك وتغيُّر وتبدُّل، فسبحان من لا يتغيَّرُ بذاته ولا بصفاته ولا في أسمائه بحدوث الأكوان، وربما يورد الصوفيَّةُ على ألسنتهم أشياءَ على قدر وجدانهم الذي متضمِّنٌ للسُّكر وغلبة الحال، فلا ينبغي حَمْلُها على الظّواهر، بل ينبغي أن يصرفها عن الظّاهر إلى التَّأويل والتوجيه، فإنَّ كلامَ السُّكارى يحملُ ويصرفُ عن الظَّاهر، والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور كلِّها.

ولَمّا نقلتَ هذه الكلمات الموجبة للقلق والاضطراب عن شخصٍ عظيمٍ؛ كتبنا في حلِّها أشياء بالضَّرورة، وإلا؛ فهذا الفقيرُ لا يلتفت إلى أمثال هذه الكلمات المشعرة بالمخالفة، ولا يحرِّك شفتيه بالردّ والقبول، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، الحمدُ لله رب العالمين أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على رسوله دائماً وسرمداً، وعلى آله الكرام، وصحبه العظام، إلى يوم القيام.

المَكتُوبُ الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ

إلى والِدةِ المِير محمَّد أمينَ في النَّصيحَة.

النَّصيحةُ التي أنصحُ بها: هي تصحيحُ العقائد أولاً بموجب آراء أهل السنة والجماعة، الذين هم الفرقة النَّاجية شكر الله تعالى سعيهم، والعملُ بمقتضى الأحكام الفقهيَّة بعد تصحيح الاعتقاد أيضاً ضروريٌّ، لا بُدَّ من امتثال ما نحن مأمورون به، ولا مهربَ من الانتهاء والاجتناب عما نحن منهيون عنه، ينبغي أداءُ الصلوات الخمس من غير كسلٍ ولا فتورٍ مع رعاية الشَّرائط وتعديل الأركان، ولا بُدَّ من أداء الزَّكاة أيضاً على تقدير حصول النِّصاب، وعند الإمام الأعظم ﷺ تجب الزَّكاةُ في حُلْيِ النِّساء أيضاً، ولا ينبغي صرفُ الأوقات في اللَّهو واللعب، وإتلافُ العمر فيما لا يعني، فضلاً عن صرفها في أمورٍ منهيٍّ عنها، وإياكم والرَّغبةَ في الغناء والنغمة، والانخداعَ بالالتذاذ بها، فإنَّها سمٌّ مطليٌّ بالعسل، وعليكم بالاجتناب عن الغيبة والنميمة بين الناس، فإنَّه قد ورد في ارتكاب هاتين الذميمتين وعيدٌ شديدٌ، والاجتنابُ عن الكذب والبهتان أيضاً ضروريٌّ، وهاتان الرَّذيلتان حرامان في جميع الأديان، ومرتكبُهما موعودٌ عليه بوعيداتٍ كثيرةٍ، وسترُ عيوب الخلق وذنوب الخلائق والعفو والتَّجاوز عن زلَّاتهم من عزائم الأمور، وينبغي الشَّفقةُ والمرحمةُ على المماليك والأتباع، والإغماضُ عن تقصيراتهم، دون أن يؤاخذهم بها، وضربُ هؤلاء المساكين بوجهٍ وبلا وجهٍ وشتمُهم وإذاؤهم غيرُ مناسبٍ، وغيرُ ملائمٍ، ينبغي للإنسان أن ينظر إلى تقصيراته الواقعة في كلِّ ساعةٍ..............................

بالنِّسبة إلى جناب قدسه تعالى، وهو تعالى لا يعجِّل في المؤاخذة عليها، ولا يمنع الرِّزقَ بسببها. وبعد تصحيح الاعتقاد وإتيان الأحكام الفقهيَّة ينبغي استغراقُ الأوقات بذكر الله تعالى على نهجِ أخذتموه، وكلُّما ينافيه ينبغي أن يجتنبَ عنه: (شعر)

كُــلُّ شَــيْءٍ غَيْــرُ ذِكْــرِ اللهِ لَــوْ   أَكْــلَ قَنْــدٍ فَهُــوَ سُــمٌّ قَاتِــلُ

وقد قيل في الحضور أيضـًا: إنَّه كلَّما يحتاط في الأمور الشَّرعيّة يزيد في المشغوليَّة، وإذا وقعت المساهلةُ في الأحكام الشَّرعيّة؛ يزول الحلاوةُ والالتذاذُ بالمشغوليَّة. وما أكتب زيادةً على ذلك؟ والله سبحانه أعلم.

المَكتُوبُ الخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ

إلى المِيرزا مَنُوجَهْر في التَّعزِيَة، والنَّصِيحَة، واغتِنامِ الشَّبابِ.

أدام الله سبحانه وتعالى جمعيَّةَ ذاك السعيد المحتشم، وطيَّب أوقاته، وتلافى في حقِّه حزنَ ما مضى وفات بأحسن الوجوه، وأفاض عليه من إنعاماته.

أيُّها الولدُ، إنَّ زمانَ عنفوان الشَّباب كما هو أوانُ الهوى والهوس؛ كذلك هو زمانُ تحصيل العلم واكتساب العمل أيضـًا، والعملُ الذي يوجد في هذه الأوان بمقتضى الشَّريعة الغراء مع وجود استيلاء الموانع الشهوانيَّة والأغراض النَّفسانيَّة له أضعافُ مزيَّةٍ واعتبارٍ واعتدادٍ على العمل الذي يقع في غير هذه الأوان، فإنَّ وجودَ المانع الذي هو باعثٌ على المشقَّة والمحنة رفعُ شأنه إلى السماء، وعدمُ المانع الذي هو مستلزمٌ لعدم الكدِّ والعنا طرحُ معاملته إلى الأرض، ومن ههنا كان خواصُّ البشر أفضلَ من خواصِّ الملائكة، فإنَّ طاعةَ البشر مقرونةٌ بالموانع، وعبادةُ الملك بلا مزاحمةِ الموانع، ألا ترى أنَّ وقتَ اعتبار العساكر إنّما يكون في أوان استيلاء الأعداء الذين هم موانعُ الدَّولة، ويكون لحركتهم اليسيرة في ذلك الوقت أضعافُ مزيةٍ واعتبارٍ على حركتهم الكثيرة في غير هذا الوقت؟

ومعلومٌ أنَّ الهوى والهوسَ مرضيُّ أعداء الله تعالى النَّفسِ والشيطانِ، والعلمُ والعملُ بمقتضى الشَّريعة الغرَّاء مرضيُّ حضرة الرحمن جلَّ سلطانه، وإرضاءُ أعداء المولى وإسخاطُ المولى الذي هو مولى النِّعَم بعيدٌ عن الفطانة والذَّكاوة. والله سبحانه الموفِّقُ.

المَكتُوبُ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ

إلى جَنابِ المِير محمَّد نُعمانَ في رَفعِ شُبهاتِ مُنكِري عَذابِ القَبرِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ لجماعةٍ تردُّداً في عذاب القبر الذي ثبت بأحاديث مشهورةٍ صحيحةٍ، بل بآياتٍ قرآنيّةٍ، بل يكادون ينكرونه، ويجزمون باستحالته، ومقتداهم في هذا الاشتباه إحساسُ أحوال الموتى الغير المدفونة من الاستدامة على نهجٍ واحدٍ التي هي منافيةٌ للتَّعذيب والإيلام الذي من لوازمه التَّذبذبُ والاضطرابُ. والجوابُ في حلِّ هذا الإشكال: هو أنَّ حياةَ عالم البرزخ الذي هو موطنُ القبر ليست من قبيل الحياة الدنيويَّة التي الحركةُ الإراديَّةُ والإحساسُ كلاهما من لوازمها، فإنَّ انتظامَ هذه النَّشأة مربوطٌ بهذين الأمرين، وفي حياة البرزخ لا حاجةَ إلى حركةٍ أصلاً، بل هي منافيةٌ لتلك النَّشأة البرزخيَّة، والإحساسُ فقط كافٍ هناك لوجدانِ ألم العذاب، فحياةُ البرزخ كأنَّها نصفُ الحياة الدنيويَّة، وتعلّقُ الرُّوح هناك بالبدن نصفُ التعلّق به في النَّشأة الدُّنيويَّة، فالأمواتُ الغير المدفونة .....

يحسُّون ألمَ العذاب بحياةٍ برزخيّةٍ، ولا يوجد منهم شيءٌ من الحركة والاضطراب بتلك الحياة أصلاً، وما أخبر عنه المخبرُ الصَّادقُ عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات يكون صادقاً.

أو نقول حسماً لمادّة هذا الإشكال وأمثاله: إنَّ طورَ النبوَّة وراءَ طور العقل، والفكرُ والأمورُ التي العقلُ قاصرٌ في إدراكها تثبت بطور النبوَّة، فإن كان العقلُ كافياً؛ فلأيِّ شيءٍ يكون بعثةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ ولأيِّ شيءٍ يكون العذابُ الأخرويُّ مربوطاً ببعثتهم؟ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، العقلُ وإن كان حجَّةً، ولكنَّه ليس بحجَّةٍ بالغةٍ كاملةٍ، والحجَّةُ البالغةُ إنّما تحقّقتْ ببعثة الأنبياء عليهم السلام، وبها انقطعت ألسنةُ أعذار المكلفين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، فإذا ثبت للعقل قصورٌ في إدراك بعض الأمور؛ فوزنُ جميع الأحكام الشَّرعيّة بميزان العقل لا يكون مستحسناً، والتزامُ تطبيقها على العقل حكمٌ في الحقيقة باستقلال العقل، وإنكارٌ بطور النبوَّة، أعاذنا الله سبحانه من ذلك. ينبغي أوَّلاً فكرُ الإيمان برسول الله، وتصديق رسالته ﷺ، حتى يصدِّقَ في جميع الأحكام، وبوساطته يتيسَّرُ الخلاصُ من ظلمات الشُّكوك والشبهات، ينبغي أن يتعقّل الأصلَ حتى يتعقَّلَ الفرع بعد ذلك، ويعلم من غير تكلّفٍ وتعقُّلِ كلِّ فرعٍ بلا إثباتِ أصلٍ متعسِّرٍ جداً، وأقربُ طرق الوصول إلى ذلك التَّصديق وحصول اطمئنان القلب: ذكرُ الله جلَّ سلطانه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۞ اَلَّذِينَ اٰمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبٰى لَهُمْ وَحُسْنُ مَاٰبٍ﴾ [الرعد: ٢٨-٢٩]، والوصولُ إلى هذا المطلب العالي من طريق النَّظر والاستدلال بعيدٌ جدّاً: (شعر)

أَقْـدَامُ أَهْـلِ نَظَـرٍ مِـنْ خَـزَفٍ ... وَمَـا الـذِي تَمْكِينُـهُ يَـا لَهَفِـي

ينبغي أن يعلم أنَّ مقلِّدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد إثبات نبوَّتهم، وبعد تصديق رسالتهم من المستدلِّين، وتقليدهم إيّاهم، وتصديق كلامهم حينئذٍ عينُ الاستدلال، مثلاً: إذا أثبت شخصٌ أصلاً من الأصول باستدلالٍ؛ فجميعُ الفروع التي تنشأ وتتشعَّبُ من هذا الأصل تكون مستندةً إلى الاستدلال، وباستدلال الأصل يكون مستدلاًّ في جميع فروعه، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدٰينَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ اَنْ هَدٰينَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ

إلى مولانا محمَّد طاهرٍ البدَخْشيِّ في بيانِ أنَّ كلَّما يصدرُ عنِ الجَميلِ المطلَق فهو جميلٌ مطلقاً.

الحمد لله ربِّ العالمين دائماً وعلى كلِّ حالٍ. إيَّاكم والتوحُّشَ والتضجُّرَ من سماع الأخبار الموحشة، فإنَّ كلَّما يصدر عن الجميل المطلق يكون حسناً ومليحاً، وإن كان ظهورُه بصورة الجلال، ولكنَّه في الحقيقة من الجمال، لا تحملنَّ هذا الكلامَ على التقوُّل، ولا تصرفنَّه إلى التفوُّه، بل له تمامُ الحقيقة، وكمالُ اللبّ، لا يصحُّ بالتكلّم والكتابة، فإن تيسّرت الملاقاةُ في الدنيا فبها، وإلا؛ فمعاملةُ الآخرة قريبةٌ، وبشارة «اَلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» مورثةُ التسلّي للمهجورين، ووصلت الصحيفةُ الشَّريفةُ المرسلةُ مع الدرويش محمد علي الكشميريّ، واطَّلعنا على ما كتبتم، وكتبنا في جوابه ما يسعه الوقت، ليكن الأولادُ والأحبابُ على جمعيَّةٍ، ثابتين في مكانهم، راضين بقضاء الله تعالى.

المكتوب الثامن والثلاثون

إلى الـملّا إبراهيمَ في جوابِ سُؤالِه عن مَعنَى حَديثِ: «ستَفترقُ أمّتي...» الحَديثَ، ودَرجَة أربابِ الفقرِ.

ينبغي أن يعلم أنَّ المرادَ من قول النبي ﷺ: «**كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةٌ**» الواقع في حديث: «**سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي إِلَى اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**»: دخولُهم في النار، ومكثُهم في عذابها مدّةً، لا خلودُهم في النار ودوامُهم في عذابها، فإنَّ ذلك منافٍ للإيمان، ومخصوصٌ بالكفار. **غَايَةُ ما فِي البابِ**: أنَّه لَمّا كان الباعثُ على دخولهم في النار معتقداتهم السوءَ يدخلُ كلُّهم فيها بالضَّرورة، ويعذَّبون على مقدار خبث اعتقادهم، بخلاف الفرقة الواحدة المستثناة، فإنَّ اعتقادَهم موجبٌ للنَّجاة من عذاب النار، وسببٌ لفلاحهم، ولكن إذا ارتكب بعضٌ منهم الأعمالَ السيئةَ، ولم يُعْفَ عنه بالتوبة أو الشفاعة؛ يجوز أن يعذَّبَ بالنار بقدر ذنبه، ويتحقّقَ الدخولُ في النار في حقِّه، فدخولُ النار في سائر الفرق شاملٌ لجميع الأفراد، وإن انتفى الخلودُ، وفي حقِّ الفرقة النَّاجية مخصوصٌ ببعض مرتكبٍ للمعصية، وفي كلمة (كلّهم) رمزٌ إلى هذا البيان كما لا يخفى، وحيث إنَّ هذه الفرقَ المبتدعةَ من أهل القبلة لا ينبغي الجراءةُ في تكفيرهم ما لم ينكروا لضروريات الدِّين، ولم يردُّوا ما ثبت من الأحكام الشَّرعيّة بالتواتر، وقَبلوا ما علم مجيئُه من الدين بالضَّرورة، قال العلماء: لو وجد في مسألةٍ تسعةٌ وتسعون وجهاً توجب التّكفيرَ، ووجهٌ واحدٌ ينفيه؛ ينبغي تصحيحُ هذا الوجه، وأن لا يحكم بالكفر. والله سبحانه أعلم، وكلمتُه أحكم. وأيضاً ينبغي أن يعلم أنَّ المرادَ من نصف اليوم الذي يدخل فقراءُ هذه الأمة قبل الأغنياء بتلك المدَّة في الجنَّة: هو خمسمائةُ سنةٍ من سِنِيِّ الدنيا، فإنَّ اليومَ عند الله تعالى ألفُ سنةٍ، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] شاهدٌ لهذا المعنى، وكيفيَّةُ تقدير تلك المدَّة مفوَّضةٌ إلى علم الله جل شأنه، من غير أن يكون هناك ليلٌ ولا نهارٌ، ولا سنةٌ ولا قمرٌ متعارفةٌ، والمرادُ من الفقير: الفقيرُ الصَّابرُ الذي هو ملتزمٌ لإتيان الأحكام الشَّرعيّة، ومجتنبٌ عن المنهيات الشَّرعيّة، وللفقراء درجاتٌ ومراتبُ بعضها فوق بعضٍ، وأعلى مراتبه إنّما يتصوَّرُ في مقام الفناء الذي يكون فيه غيرُ الحقِّ سبحانه مضمحلاً ومتلاشياً ومنسيّاً، ومن هو جامعٌ لجميع مراتب الفقر أفضلُ ممن يتحقّق ببعضها دون بعضٍ، فمن فيه فقرٌ ظاهرٌ مع وجود الفناء أفضلُ ممن له الفناءُ فقط دون الفقر الظَّاهر. فافهم.

المكتوب التاسع والثلاثون

إلى الخواجه حُسامِ الدِّينِ أحمَدَ في جَوابِ مُشاورَته لسَفرِ الحجِّ مع تَوابِعه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وبعدُ: إنَّ أحوالَ فقراء هذه الحدود وأوضاعَهم مستوجبةٌ للحمد، المسؤولُ من الله سبحانه سلامتُكم وعافيتَكم، وقد تشرَّفتُ بمطالعة الصحيفة الشَّريفة المرسلة باسم هذا الفقير على وجه الشَّفقة والمرحمة، وقد أظهرتم اشتياقَ التوطُّن في أحد الحرمين الشَّريفين مع الأهل والعيال، والموت فيه. أيُّها المخدومُ المكرّمُ، إنَّ ذهابَ الأهل والعيال لا يظهر في النَّظر، بل يكاد يفهم المنعُ، وذهابُكم وحدكم يظهر في النَّظر مستحسناً، ونرجو وصولَكم بالسلامة، والأمرُ إلى الله سبحانه. وكتبتم أيضاً في مادّة السيد: أنَّ الأطباء حاكمون بضرره، أيُّها المشفقُ، إنَّه كلَّما يمعن النَّظر لا يشاهد فيه الضَّرر، بيد أنَّه يحسُّ ظلمة غير ظلمة الضَّرر، ولم ندرِ ما وجهُها، وبالجملة إنَّ ضررَ الأطباء مفقودٌ. والله سبحانه أعلم. والسلام.

المكتوب الأربعون

إلى مولانا محمَّد صادقِ الكَشْميريِّ في بيانِ عِلْمِ اليَقينِ الحاصلِ للصُّوفيَّة، وعِلْمِ اليَقينِ الكائِنِ لأربابِ المَعقولِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ علمَ اليقين عبارةٌ عند الصُّوفيَّة عن يقينٍ حاصلٍ من الاستدلال بالأثر على المؤثِّر، وهذا المعنى ميسَّرٌ لأهل النَّظر والاستدلال، فما يكون الفرقُ بين علم اليقين المخصوص بالصوفيَّة وعلم اليقين الحاصل لأرباب المعقول؟ ولِمَ يكون علمُ اليقين المختصُّ بالصوفيَّة داخلاً في الكشف والشُّهود، ولا يكون ما للعلماء خارجاً عن مضيق النَّظر والفكر؟ ينبغي أن يعلم أنَّ شهودَ الأثر لازمٌ في علم كلتا الطائفتين حتى ينتقل منه إلى المؤثِّر الذي هو غيرُ مشهودٍ. **غَايَةُ مَا فِي البابِ**: أنَّه لَمّا كان بين الأثر والمؤثِّر ارتباطٌ؛ كان ذلك سبباً للانتقال من وجود الأثر إلى وجود المؤثِّر، وذلك الارتباطُ أيضاً مكشوفٌ ومشهودٌ في علم اليقين المختصّ بالصوفيَّة دون ما للعلماء، فإنَّه نظريٌّ وفكريٌّ فيه، فيكون الانتقالُ أيضاً نظريّاً وفكريّاً بالضَّرورة، فيكون يقينُ الطَّائفة الأولى داخلاً في الكشف والشُّهود، دون يقين الطَّائفة الثّانية، فإنَّه لا يكون خارجاً من مضيق الاستدلال، وإطلاقُ الاستدلال على يقين الصوفيَّة مبنيٌّ على الظَّاهر والصُّورة؛ لكونه متضمِّناً للانتقال من الأثر إلى المؤثِّر، وإلا؛ ففي الحقيقة داخلٌ في الكشف والشُّهود، بخلاف يقين العلماء، فإنَّ فيه حقيقةَ الاستدلال، ولَمّا كان هذا الفرقُ الدَّقيقُ مخفيّاً على الأكثرين بقوا في مرتبة الحيرة بالضَّرورة، وأطال جماعةٌ منهم من قصوره لسانَ الاعتراض على بعض الأعزَّة الذي فسَّر علمَ اليقين المختصَّ بالصوفيَّة بالاستدلال من الأثر إلى المؤثِّر، كلُّ ذلك لعدم الاطِّلاع على حقيقة الأمر، والله يحقُّ الحقَّ وهو يهدي السبيل، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالأَرْبَعُونَ

إلى واحِدةٍ منَ النِّساء الصَّالحاتِ في النَّصائحِ الضَّروريَّة لطائفَة النِّساء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة: ١٣] الآية، نزلت هذه الآيةُ يوم فتح مكة، ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال شرع في بيعة النساء، وكانت بيعةُ النساء بمجرد القول، لم تمسَّ يدُ النبي ﷺ يد النساء المبايعات أصلاً، ولَمّا كانت الذَّمائمُ والأخلاقُ الرديةُ في النساء أكثرَ منها في الرجال بيَّن في بيعة النساء شرائطَ زائدةً على ما في بيعة الرجال، ونهى النِّساء عن تلك الذمائم في ذلك الوقت لامتثال أمر الله تعالى.

الشرطُ الأوّلُ: عدمُ إشراك شيءٍ بالله تعالى، لا في وجوب الوجود، ولا في استحقاق العبادة، ومن لم يكن عملُه مبرَّأً عن شائبة الرِّياء والسُّمعة، ومظنَّة طلب الأجر من غير الله تعالى ولو بالقول والذكر الجميل؛ فليس هو بخارجٍ من دائرة الشِّرْك، ولا هو موحِّدٌ مخلصٌ، قال عليه وعلى آله وصحبه الصلاةُ والسلامُ: «**الشِّرْكُ فِي أُمَّتِي أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلَةِ التِي تَدِبُّ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ عَلَى صَخْرَةٍ سَوْدَاءَ**»(١): (شعر)

لاف بی شرکی مزن کان از نان پای مـور   در شب تاریک بر سنگ سیه پـنهانتر است

وقال عليه الصلاة والسلام: «**وَاتَّقُوا الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ**»، قالوا: ما الشركُ الأصغر؟ قال: «**الرِّيَاءُ**»(٢)، ولتعظيم مراسم الشِّرك ومواسم الكفر كلِّها قدمٌ راسخٌ في الشِّرْك، والمصدِّقُ للدينين من أهل الشِّرْك والمتشبِّس بمجموع أحكام الإسلام والكفر مشركٌ، والتبرِّي من الكفر شرطُ الإسلام، والاجتنابُ عن شائبة الشرك توحيدٌ، والاستمدادُ من الأصنام والطَّاغوت في دفع الأمراض..

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٦٠٦) من حديث أبي موسى ﵁، ولفظه: «أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل». وأخرجه أبو يعلى (٦٠) من حديث أبي بكر ﵁ بلفظ: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل».

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٣٠) من حديث محمود بن لبيد ﵁، والطبراني في «الكبير» (٤٣٠١) من حديث رافع بن خديج ﵁ مرفوعاً بلفظ: «إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء». وأخرج الطبراني أيضاً (٧١٦٠) من حديث شداد بن أوس ﵁ قال: (كنا نعدُّ الرياء على عهد رسول الله ﷺ بالشرك الأصغر).

والأسقام كما هو شائعٌ فيما بين جهلة أهل الإسلام عينُ الشِّرْك والضَّلالة، وطلبُ الحوائج من الأحجار المنحوتة نفسُ الكفر، وإنكارٌ على واجب الوجود تعالى وتقدس، قال الله تبارك وتعالى شكايةً عن حال بعض أهل الضلال: ﴿يُرِيدُونَ اَنْ يَتَحَاكَمُوا اِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ اُمِرُوا اَنْ يَكْفُرُوا بِهٖ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ اَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، وأكثرُ النساء مبتلياتٌ بهذا الاستمداد الممنوع عنه بواسطة كمال الجهل فيهنَّ، يطلبن دفعَ البلية من هذه الأسماء الخالية عن المسميات، ومفتوناتٌ بأداء مراسم الشِّرْك وأهلِ الشرك، خصوصاً وقت عروض مرض الجدريّ المعروف فيما بين نساء الهنود بالستيلة، فإنَّ ذلك الفعلَ مشهودٌ ومحسوسٌ من خيارهنَّ وشرارهنَّ في ذلك الوقت، بحيث لا تكاد توجد امرأةٌ خاليةٌ من دقائق هذا الشِّرْك، وتاركةٌ للإقدام عليه برسمٍ من رسومه إلا من عصمها الله تعالى، وتعظيمُ الأيّام المعظَّمة عند الهنود وأداءُ رسوم الأيّام المتعارفة عند اليهود مستلزمٌ للشِّرْك، ومستوجبٌ للكفر، كما أنَّ جهلةَ أهل الإسلام خصوصاً طائفةً نساؤهم يؤدُّون رسوم أهل الكفر في أيام دوالي الكفار، ويجعلونها عيدهم، ويرسلون إلى بيوت بناتهم وإخوانهم هدايا كهدايا أهل الشرك، ويصبغون في ذلك الموسم ظروفهم مثل الكفار، ويملؤنها بالأرز الأحمر، ثم يرسلونها هدايا، ويعتنون بهذا الموسم كمال الاعتناء، وكلُّ ذلك شركٌ وكفرٌ بدين الإسلام، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ اَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ اِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وما يفعلونه من ذبح الحيوانات المنذورة للمشائخ عند قبور المشائخ المنذورة لهم جعله الفقهاءُ أيضاً في الروايات الفقهيَّة داخلاً في الشِّرْك، وبالغوا في هذا الباب، وألحقوه بجنس ذبائح الجنّ الممنوع عنها شرعاً، والداخل في دائرة الشِّرْك، فينبغي الاجتنابُ عن هذا العمل أيضاً لكون شائبة الشِّرْك فيه، فإنَّ وجوهَ النذر غيرُ ذلك كثيرةٌ، فلأيِّ شيءٍ يرتكب ذبحُ الحيوان، ويجعل ملحقاً بذبائح الجنّ، ويتشبّه به بعبدة الجن؟ ومثل ذلك صيامُ النساء بنيّة المشائخ وبلا بيانٍ، وينحتن أكثر أساميهم من عند أنفسهن، ويصمن بنيتهم، ويعيّن لكلِّ إفطارِ يومٍ وضعاً مخصوصاً، ويعين الأيّام أيضاً للصيام، ويجعلن مطالبهنَّ ومقاصدهنَّ مربوطةً بتلك الصيام، ويطلبن حوائجهنَّ منهم بواسطة تلك الصِّيام، ويزعمن قضاءَ حوائجهنَّ منهم، وذلك الفعلُ إشراكٌ للغير في عبادة الله تعالى، وطلبٌ لقضاء الحوائج عن الغير بواسطة العبادة إليه، ينبغي أن يعلم شناعةُ هذا الفعل، وقد ورد في الحديث القدسي: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، يعني: أنَّ الصومَ مخصوصٌ بي، لا شركةَ للغير بي في الصوم، وإن لم يجز إشراكُ أحد به تعالى في جميع العبادات، ولكن تخصيصُ الصوم للاهتمام به والتأكيد في نفي الشركة عنه. وقولُ بعض النساء وقتَ إظهار شناعة هذا الفعل: نحن نصوم هذه الصيام لله تعالى، وإنَّما نهدي ثوابها لأرواح المشائخ حيلةٌ منهنَّ، فإن كنَّ صادقاتٍ في ذلك؛ فلأيِّ شيءٍ يحتاج إلى تعيين الأيّام للصيام، وتخصيص الطعام وتعيين أوضاعٍ شنيعةٍ مختلفةٍ في الإفطار؟ وكثيراً ما يرتكبن المحرمات وقت الإفطار، ويفطرن بشيءٍ حرامٍ، ويسألن شيئاً من غير حاجةٍ، ويفطرن به، ويزعمن قضاءَ حوائجهنَّ مخصوصاً بارتكاب هذا المحرم، وهذا عينُ الضلالة، وتسويل الشيطان اللعين، والله العاصمُ.

والشرطُ الثاني المذكورُ في بيعة النساء: النَّهيُ عن السرقة، وهي من كبائر السيئات، وحيث كانت هذه الذَّميمةُ متحقّقةً فِي.....................................

أكثر أفراد النساء - حتى لا تكاد توجد امرأةٌ خالية عنها - جُعِلَ النَّهْيُ عنها من شرائط بيعتهنَّ، واللاتي يتصرَّفنَ في أموال أزواجهن من غير إذنهم ويتلفنها بلا تحاشٍ داخلاتٌ في جملة السارقات، وهذا المعنى يمكن أن نقول: إنَّه ثابتٌ في عموم النساء، وهذه الخيانةُ تكاد توجد في جميع أفرادهنَّ إلا من عصمها الله سبحانه، وليتهنَّ يعددن ذلك سيئةً وخيانةً، وخوفُ استحلال هذه السيئة غالبٌ في حقهنَّ، وخوفُ الكفر من جهة هذا الاستحلال أزيدُ في شأنهنَّ، والحكيمُ المطلقُ جلَّ شأنه نهى النِّساءَ عن السَّرقة بعد النَّهي عن الشِّرْك بعلاقة أنَّ لهذه الذَّميمة قدماً راسخاً في الكفر في حقهنَّ، وذلك بواسطة شيوع استحلالهن إياها، وأنَّها أنكرُ من سائر كبائر السيئات في حقهنَّ، فإذا حصل للنساء بواسطة تكرُّر أخذ أموال أزواجهن ملكةُ الخيانة، وزال قبحُ التَّصرُّف في أموال الغير عن نظرهنَّ؛ لا يَبْعُدُ أن يتعدّى تصرُّفهنَّ في أموال غير أزواجهنَّ، فيسرقن أموال الغير، ويخنّ فيها بلا تحاشٍ، يكاد يكون هذا المعنى واضحاً بأدنى تأمُّلٍ. فتحقَّقَ أنَّ نهيَ النِّساء عن السَّرقة من أهمِّ مهمات الإسلام، وتعيّنَ كونُ قبحها بعد قبح الشِّرْك بالنِّسبة إليهنَّ.

تذييلٌ: قال نبينا ﷺ يوماً للأصحاب: «**أَتَدْرُونَ مَا أَسْوَأُ السَّرِقَةِ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إِنَّ أَسْوَأَ السَّرِقَةِ مَنْ يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ**»، يعني: لا يكمل أركانَ صلاته، ولا يؤديها على وجه الكمال، والاجتنابُ عن هذه السرقة أيضاً ضروريٌّ حتى لا يكون من أسوء السارقين، فينبغي أن ينوي الصلاةَ بحضور القلب، فإنَّ العملَ لا يصحُّ بدون حصول النية، وأن يقرأ القراءةَ صحيحةً، وأداء الركوع والسجود، والقومة والجلسة بالاطمئنان، يعني: ينبغي أن يقوم بعد الركوع قياماً كاملاً، وأن يسكن فيها مقدارَ تسبيحةٍ، وأن يجلس بين السجدتين مقدار تسبيحةٍ أيضاً حتى يتيسّر الاطمئنانُ في القومة والجلسة، فمن لم يفعل كذلك؛ فقد أدخل نفسه في زمرة السارقين، وصار مورداً للوعيد.

والشَّرْطُ الثّالثُ المنصوصُ في بيعة النِّساء: النَّهْيُ عن الزنا، وتخصيصُ بيعة النساء بهذا الشرط بواسطة أنَّ حصولَ الزنا إنّما يكون في الأغلب بتوسُّط حصول رضاء النِّساء بهذا العمل، وعرضِ أنفسهنَّ على الرجال، فتكون النساءُ أسبقَ فيه، ويكون رضاهنَّ معتبراً في حصوله، فيكون النهيُ عنه آكدَ في حقهنَّ، ويكون الرجالُ تابعين للنساء فيه، ومن هنا قدَّم الحقُّ سبحانه الزانيةَ على الزاني في كتابه المجيد، وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٣]، وهذه الذَّميمةُ موجبةٌ لخسارة الدنيا والآخرة، ومستقبحةٌ في جميع الأديان ومستنكرةٌ، روى أبو حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا مِنَ الزِّنَا، فَإِنَّ فِيهِ سِتَّةَ خِصَالٍ، ثَلَاثَةٌ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا، وَثَلَاثَةٌ فِي الْآخِرَةِ، فَأَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا: الْأُولَى: إِنَّ الزِّنَا يُذْهِبُ بَهَاءَ الْإِنْسَانِ وَنُورَانِيَّتَهُ وَصَفَاءَهُ، وَالثَّانِيَةُ: إِنَّهُ يُورِثُ الْفَقْرَ، وَالثَّالِثَةُ: إِنَّهُ يُورِثُ النُّقْصَانَ فِي الْعُمُرِ، وَأَمَّا الَّتِي فِي الْآخِرَةِ؛ فَأَحَدُهَا: سَخَطُ اللهِ وَغَضَبُهُ تَعَالَى، وَالثَّانِيَةُ: سُوءُ الْحِسَابِ، وَالثَّالِثَةُ: عَذَابُ النَّارِ**»(١).

اعلم أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**زِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ إِلَى الْأَجْنَبِيَّاتِ، وَزِنَا الْيَدَيْنِ مَسُّ الْأَجْنَبِيَّاتِ، وَزِنَا الرِّجْلَيْنِ الْمَشْيُ نَحْوَ الْأَجْنَبِيَّاتِ**»(٢)، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، ينبغي أن يعلم أنَّ القلبَ تابعٌ للعين، وما لم تغمض العينُ عن المحرمات؛ فحفظُ القلب مشكلٌ، وما دام القلبُ..............

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٠٩١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١١١) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٥٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لكل ابن آدم حظٌّ من الزنا، فالعينان تزنيان، وزناهما النظرُ، واليدان تزنيان، وزناهما البطشُ، والرجلان تزنيان، وزناهما المشي، والفم يزني، وزناه القُبَل، والقلبُ يهوى ويتمنَّى، والفرجُ يصدق ذلك أو يكذبه». وأصله في مسلم.

مشغولاً؛ فحفظُ الفرج متعسِّرٌ، فكان غضُّ البصر من المحرمات ضروريّاً حتى يتيسّر حفظُ الفرج، ونهى في القرآن المجيد النساء عن لين الكلام مع الرجال الأجانب مثل الفاجرات لئلا يطمع الذين في قلوبهم مرضٌ، فيهمون بالسوء، بل يقلن قولاً معروفاً خالياً عن الوهم والطمع، وورد النهيُ أيضاً عن إبداء النساء زينتهنَّ عند الرجال؛ لئلا يظهر فيهم الاقتضاءُ، وورد النهيُ أيضاً عن الضرب بأرجلهنّ إلى الأرض ليعلم ما يخفين من زينتهن مثل الخلخال وأمثاله، فيتحرَّك، ويظهر شنشنته، وهي مستلزمةٌ لميل الرجال إلى النساء. وبالجملة: إنَّ كلَّما هو منجرٌّ إلى الفسق؛ فهو مستقبحٌ ومنهيٌّ عنه، ينبغي الاحتياطُ منه؛ لئلا ترتكبَ مقدّماتُ المحرمات ومبادئُها حتى يتيسّرَ السلامةُ من نفس المحرمات، والله سبحانه العاصمُ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيبُ.

لا يخفى أنَّ المرأةَ الأجنبيَّةَ كالرجل الأجنبيِّ في حقِّ النظر إلى المرأة ومسِّها بشهوةٍ، ولا يجوز تزيينُ المرأة نفسها لغير بعلها، رجلاً كان ذلك الغيرُ أو امرأةً، وكما أنَّ نظرَ الرِّجال إلى الأمرد ومسَّهم إيَّاه بالشَّهوة حرامٌ؛ نظرُ النِّساء إلى النِّساء ومسُّهنَّ إيَّاهنَّ بالشهوة أيضاً حرامٌ، ينبغي أن يراعي هذه الدَّقيقة كمال الرعاية، فإنَّها طريقٌ واسعٌ إلى خسارة الدنيا والآخرة، وفي وصول الرجل إلى المرأة تعسُّرٌ بواسطة التباين بين الصنفين، ووجود الموانع، بخلاف وصول المرأة إلى المرأة، فإنَّه لاتحاد الصنف في كمال اليسر والسهولة، فينبغي رعايةُ الاحتياط في ذلك أكثرَ منها فيما هنالك، وينبغي المنعُ البليغُ عن نظر المرأة إلى المرأة، ونظر الرجل إلى المرأة، ونظر المرأة إلى الرجال.

والشرطُ الرّابعُ المذكورُ في بيعة النساء: النهيُ عن قتل الأولاد، وكان نساءُ الجاهلية يقتلنَ بناتهنَّ مخافة الفقر، وهذا العمل الشنيعُ كما أنَّه متضمِّنٌ لقتل النَّفس؛ متضمِّنٌ لقطع الرحم أيضاً، وهو من الكبائر.

والشرطُ الخامسُ المذكورُ في بيعة النساء: النهيُ عن البهتان والافتراء، ولَمّا كانت هذه الذميمةُ في النساء أكثرَ؛ خصَّهنَّ بالنهي عنها، وهذه الصِّفةُ من أشدِّ ذمائم الصِّفات قبحاً، وأرذل رذائل الأخلاق، فإنَّها متضمِّنةٌ للكذب الذي هو حرامٌ في جميع الأديان ومستنكرٌ، وأيضاً إنَّه متضمنٌ لإيذاء المؤمن، وهو حرامٌ، وإنَّه مستلزمٌ للفساد في الأرض، وهو محظورٌ وممنوعٌ عنه ومحرمٌ ومستنكرٌ بنص القرآن.

والشرطُ السادسُ: النهيُ عن معصية النبي ومخالفته ﷺ في كلِّ أمرٍ معروفٍ يأمر به، وهذا الشرطُ متضمِّنٌ لامتثال جميع الأوامر، والانتهاء عن جميع المناهي الشَّرعيّة، من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وهذه الأربعةُ مما بني الإسلامُ عليها بعد الإيمان بالله تعالى، وبما جاء من عنده بالضَّرورة، فينبغي أداءُ الصلوات الخمس من غير كسلٍ وفتورٍ بالجدِّ والجهد، وينبغي أيضاً أداءُ الزكاة المالية إلى مصارفها بقبول المنَّة، وينبغي أيضاً صيامُ شهر رمضان الذي هو مكفِّرٌ لسيئاتِ سنةٍ، وينبغي أيضاً أداءُ الحجّ الذي قال النبي ﷺ في حقه: «**الْحَجُّ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ**» حتى يكون الإسلامُ قائماً، وكذلك لا بُدَّ من الورع والتقوى، قال النبي ﷺ: «**مِلَاكُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ**»، وهو عبارةٌ عن ترك المنهيات الشَّرعيّة، فينبغي الاجتنابُ عن تناول المسكرات، وأن يعدَّها كالخمر محرماً ومستنكراً، والاجتنابُ عن الغناء أيضاً ضروريٌّ، فإنَّه داخلٌ في اللهو واللعب الحرام، وورد: إنَّ الغناءَ رقيةُ الزناء، والاجتنابُ عن الغيبة والنميمة أيضاً لازمٌ، فإنَّهما ممنوعٌ عنهما، وأيضاً الاجتنابُ عن السُّخرية وإيذاء المؤمن ضروريٌّ، فإنَّ إيذاءَ المؤمن بغير حقٍّ بأيِّ وجهٍ كان وسخريته منهيٌّ عنهما، ولا ينبغي اعتبارُ الطيرة واعتقاد تأثيرها، ولا ينبغي أيضاً اعتقادُ تعدي..............................

المرض من شخصٍ إلى آخر، فإنَّ المخبرَ الصادقَ عليه الصلاة والسلام منع عن كليهما، حيث قال: «**لَا طِيَرَةَ وَلَا عَدْوَى**»(١)، ولا ينبغي اعتبارُ كلام الكاهن والمنجّم، ولا يسألهما عن الأمور الغيبيَّة، ولا يعتقد معرفتهما بالأمور الغيبيَّة، فإنَّه قد ورد المنعُ عن ذلك بالمبالغة، وينبغي الاجتنابُ عن استعمال السحر مباشرةً وأمراً، فإنَّه حرامٌ قطعيٌّ، وله قدمٌ راسخٌ في الكفر، ولا كبيرةَ أقرب إلى الكفر من استعمال السحر، ينبغي الاحتياطُ عنه حتى لا تصدر دقيقةٌ من دقائقه، فإنَّه قد ورد (ما دام المسلم مسلماً لا يصدر عنه السحرُ)، فإذا زال عنه الإيمانُ - أعاذنا الله سبحانه عن ذلك - يصدر عنه السحرُ، فكلٌّ من السحر والإيمان كأنَّه نقيضُ الآخر، فإذا وقع السحرُ لا يبقى الإيمانُ، فينبغي رعايةُ هذه الدَّقيقة؛ لئلا يتطرَّقَ الخللُ في الإيمان، ولئلا يخرج الإسلامُ عن اليد بشؤم هذا العمل. وبالجملة: كلُّما أمر به المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام وبيَّنه العلماءُ في الكتب الشَّرعيّة ينبغي الاجتهادُ والسعيُ البليغُ في امتثاله، معتقداً خلافه سمّاً قاتلاً موصلاً إلى الموت الأبديّ، وموقعاً في أنواع العذاب السرمديِّ، ولما قبلت النساءُ المبايعاتُ هذه الشرائطَ كلَّها بايعهنَّ النبيُّ ﷺ بمجرد القول، واستغفر لهنَّ الله بأمره جلَّ وعلا، والاستغفارُ الذي وقع عن النبي ﷺ في حقّ جماعةٍ يرجى رجاءً تاماً أن يكون مستجاباً، وأن تكون الجماعةُ مغفورةً لها، وكانت هند زوجة أبي سفيان رضي الله عنها داخلة في المبايعات، بل كانت هي رئيستهنَّ، وتكلّمت من لسانهنَّ، ففي هذه البيعة والاستغفار رجاءٌ عظيمٌ في حقِّها، فأيُّ امرأةٍ تعترف بهذه الشَّرائط وتعمل بمقتضاها تكون داخلةً في هذه البيعة حكماً، ويرجى لها من بركات ذلك الاستغفار، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، والشُّكْرُ عبارةٌ عن قبول الأحكام الشَّرعيّة والعمل بمقتضاها، وطريقُ النجاة والخلاص هي متابعةُ صاحب الشَّريعة عليه وعلى آله الصلاة والسلام في الاعتقاد والعمل، والأستاذُ والشَّيخُ إنّما هما للدِّلالة على الشَّريعة، وليحصل اليسرُ والسهولةُ في الاعتقاديات والعمليات ببركتهما، لا لأن يفعلَ المريدون ما أرادوا، ويأكلوا ما شاؤوا، ثم يكون الشَّيخُ ستراً لهم عن النَّار، ويمنع عنهم العذابَ، فإنَّ هذا المعنى تمنّي محضٌ، لا يشفع هناك أحدٌ إلا بإذن الله، ومن لم يكن ممن ارتضاه ربه لا يشفعُ فيه أحدٌ، وإنَّما يكون مرتضىً إذا كان عاملاً بمقتضى الشَّريعة، فحينئذٍ إذا صدرت عنه زلّةٌ بمقتضى البشريّة؛ فتداركُها يمكن بالشفاعة.

فإن قيل: بأيِّ اعتبارٍ يمكن أن يقال للمذنب مرتضى؟

أجيب: إنَّ الحقَّ سبحانه إذا أراد مغفرةَ شخصٍ يبدي وسيلةً للعفو عنه، فهو مرتضىً في الحقيقة، وإن كان مذنباً في الظَّاهر، والله سبحانه الموفق. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. والسلام.

المكتوب الثاني والأربعون

إلى الخواجه محمَّد هاشمٍ في بشارَته.

بعد الحمد والصلاة، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ الصحيفةَ الشَّريفةَ المرسلة مع الملا فتح الله قد وصلت، وحيث كانت متضمِّنةً لبيان المحبّة والإخلاص والحرارة والاشتياق أورثت فرحاً وسروراً، وظهر انبساطُ نورانيتكم في النواحي وقت مطالعة كتابكم انبساطاً كثيراً في النظر، وأوقعني ذلك في الرجاء، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ على ذلك، وما أكتب زيادة على ذلك؟

أيُّها المحبُّ، إنَّا ما نعلم ما كان الباعثُ على ترك المير محمد نعمان المراسلات، فإن كان له.................

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٧)، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

توهُّمُ شيءٍ من هذا الجانب؛ فليس بواقعٍ أصلاً، بل ينبغي تصوُّرُ كمال الصَّفاء، والفقيرُ مراعٍ لغاية السَّعي في محافظة جانب الميرِ محافظةَ الطير لبيضته؛ لئلا يقع فتورٌ في أمر الطَّلب، فيكون سدّاً في طريق السَّالكين، وقد طرأ الضَّعفُ على الفقير منذ شهرين، ولهذا عجز عن تسويد جواب بعض أسئلته المندرجة في المكتوب السابق، فإن رزق اللهُ سبحانه الصحةَ والعافيةَ؛ نكتب إن شاء الله، وإلا؛ فالملتمسُ من الأحباب الدعاءُ والفاتحةُ، وحسبنا الله ونعم الوكيل. والسلام عليكم وعلى سائر أهل الله، وليكن الأولادُ الكرامُ سالمين غانمين محفوظين.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالأَربَعُونَ

إلى الخواجه محمَّد سعيدٍ، والخواجه محَمَّد مَعصومٍ سلَّمهما اللهُ تعالى في بيانِ مُكالمَتِه الواقِعَة في مَحْفَل سُلطان الوَقْتِ مُدَّ ظِلُّه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وبعدُ: إنَّ أحوالَ هذه الحدود وأوضاعَها مستوجبةٌ للحمد، قد تمرُّ صحباتٌ عجيبةٌ وغريبةٌ، وبعناية الله سبحانه وتعالى لا يتطرَّق مقدارُ شعرةٍ من المساهلة والمداهنة في هذا القيل والقال إلى الأمور الدينيَّة، والأصول الإسلاميَّة، ويقع البيانُ في هذه المعارك بعين العبارات التي كانت تصدر في الخلوات والمجالس الخاصة بتوفيق الله سبحانه، فإن كتبنا ما جرى في مجلسٍ واحدٍ يستدعي أن يكون مجلَّداً، خصوصاً في البارحة التي هي الليلةُ السابعةَ عشر من شهر رمضان، قد ذكرت أشياء كثيرةً من فائدة بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعدم استقلال العقل، والإيمان بالآخرة وعذابها وثوابها، ومن إثبات الرؤية، وخاتمية خاتم الرسل، ومن مجدّد كلّ مائةٍ، ومن الاقتداء بالخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وسنيَّة التراويح، وبطلان التناسخ، ومن أحوال الجنِّ، ومن عذابهم وثوابهم، وأمثال ذلك، وصارت مسموعةً بحسن الاستماع. وذكر في ضمن ذلك أيضاً أشياء أخرُ من أحوال الأقطاب والأبدال والأوتاد، وبيان خصوصياتهم كذا وكذا. الحمد لله سبحانه، تكونون على ما أنتم عليه لا يظهر تغيُّرٌ أصلاً، ولعلَّ لله سبحانه وتعالى في هذه الواقعات والملاقاة مصالح مستورة وأسرارًا مكنونةٌ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وأوصلتُ ختمَ القرآن إلى سورة العنكبوت، وكلُّ ليلةٍ أنصرف من ذاك المجلس، وأجيءُ إلى محلّي أشتغل بالتراويح، وفائدةُ الحفظ التي هي دولةٌ عظيمةٌ قد حصلت في هذه الفترات التي هي عينُ الجمعيَّة، الحمدُ لله أولاً وآخراً.

المَكتُوبُ الرَّابِعُ وَالأَربَعُونَ

إلى المِير عَبدِ الرَّحمنِ بنِ المِير محمَّد نُعمانَ في دَفعِ شبُهاتِ المُنكِرينَ للرُّؤيةِ الأُخرَويَّة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الاعتراضُ الذي يوردونه في مسألة الرُّؤية، بل الدَّليلُ الذي يقيمونه على نفي الرُّؤية: هو أنَّ الرُّؤيةَ البصريَّةَ تقتضي محاذاة المرئيّ، ومقابلته بالرائي، وهي مفقودةٌ في حقّ الواجب تعالى؛ لكونها مستلزمةً للجهة المنجرَّة إلى الإحاطة والتَّحديد والنِّهاية المستلزمة للنَّقص المنافي للألوهيَّة، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

والجوابُ: إنَّ القادرَ على الكمال جلَّ سلطانه إذا أعطى للبصر الذي هو عبارةٌ عن القطعتين العصبيتين المجوفتين الخاليتين عن الحسّ والحركة في هذه النَّشأة الضَّعيفة الفانية قوَّةَ إحساس الأشياء وإبصارها بشرط المقابلة والمحاذاة لِمَ لا يمكن أن يعطي في النَّشأة الآخرة القويّةِ الباقيةِ........................

لهاتين القطعتين العصبيتين قوَّةً تبصر بها المرئيَّ بلا مقابلةٍ ومحاذاةٍ، سواءٌ كان ذلك المرئيُّ في جميع الجهات أو لم يكن في جهةٍ أصلاً؟ فما الاستبعادُ في ذلك؟ وأين المحالُ؟ فإنَّ الفاعلَ المختارَ جلَّ سلطانه في أعلى مرتبة الاقتدار، وقابلٌ مستعدٌّ لأن يتعلّق به الإحساس والإبصار.

غَايةُ ما فِي البابِ: إنَّه تعالى راعى في بعض الأمكنة لمصالحَ شرطَ المحاذاة وتعيُّنَ الجهة في إحساس الأبصار، وفي بعض أمكنةٍ وأزمنةٍ أخرَ أسقطَ ذلك الشَّرْطَ عن حيِّز الاعتبار، وقرَّر من غير هذا الشَّرط رؤيةَ الأبصار، وقياسُ موطنٍ على موطنٍ آخرَ مع وجود كمال الاختلاف والتضادِّ بينهما بعيدٌ عن الإنصاف، وقصرُ النَّظَر على مكشوفات عالم الملك والشَّهادة، وإنكارٌ على عجائب عالم الملكوت.

فإن قيل: إذا كان الحقُّ سبحانه مرئيّاً ينبغي أن يكون محاطاً ومُدْرَكاً بالبصر، وذلك مستلزمٌ للحدِّ والنِّهاية، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

أجيب: يمكن أن يكون مرئيّاً ولا يكون محاطاً ومدركاً بالبصر، قال الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، والمؤمنون يرون الحقَّ سبحانه في الآخرة، ويجدون باليقين الوجدانيِّ أنّهم يرونه جلّ شأنه، ويجدون في أنفسهم الالتذاذَ المترتِّبَ على الرُّؤية على وجه الكمال، ولكنَّ المرئيَّ لا يكون مدركاً لهم أصلاً، ولا يحصل لهم شيءٌ منه قطعاً غيرُ وجدان الرُّؤية، وغيرُ الالتذاذ بها: (شعر)

وَلَا أَحَدٌ يَصْطَادُ عَنْقَاءَ فَاسْتَرِحْ ... وَإِلَّا تَكُونُ حَامِلَ الْفَخِّ دَائِمَا

والنقصانُ الذي يتوهَّمُ في الرُّؤية من كون المرئيّ محاطاً ومدركاً مفقودٌ في ذلك الموطن، ومجرَّدُ ثبوت الرؤية بلا جهةٍ، والالتذاذُ الحاصلُ للرائي من تلك الرؤية لا نقصَ ولا قصورَ فيه أصلاً، بل من كمال إنعام المرئيّ وإحسانه إجلاءُ جماله الكامل لمحترقي نائرة محبَّته، وإرواؤهم من زلال رؤيته، وتشريفُهم بوصال حضرته، من غير أن يعودَ شيءٌ من النَّقص والقصور إلى جناب قدسه تعالى، وبدون ثبوت الجهة والإحاطة في حضرة أنسه سبحانه:

(شعر) از آن طرف نپذيرد كمال او نقصان ... و زين طرف شرف روزگار من باشد

(ترجمة): فِي مَجْدِكُمْ لَا يَلْحَقُ النُّقْصَانُ مِنْ ... هَذَا وَلِي فِيهِ أُلُوفُ كَرَامَةِ

أو نقول: لو كانت المقابلةُ والمحاذاةُ شرطاً في حصول الرُّؤية؛ ينبغي أن تكون شرطاً في جانب الرَّائي أيضاً؛ لكونها شرطاً في جانب المرئيِّ، فإنَّ المقابلةَ نسبةٌ قائمةٌ بالمتقابلين - أعني: الرائي والمرئيّ -، فلزم أن لا يرى الحقُّ سبحانه الأشياءَ، ولا تكون صفةُ رؤية الأشياء ثابتةً له تعالى وتقدَّس، وذلك مخالفٌ للنُّصوص القرآنيَّة، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤]. وأيضاً هو نقصٌ وسلبٌ للصفة الكاملة منه تعالى.

فإن قيل: إنَّ الرؤيةَ في الواجب تعالى عبارةٌ عن العلم بالأشياء، لا أنَّها أمرٌ آخرُ وراء العلم مستلزم للجهة.

أجيب: لا شكَّ أنَّ الرؤيةَ من الصِّفات الكاملة ثابتةٌ للواجب سبحانه بالاستقلال بنصّ القرآن، وإرجاعُها إلى العلم ارتكابُ خلاف الظَّاهر، ولو سُلِّم أنَّها من أقسام العلم لا يلزم منه عدمُ اشتراط المحاذاة فيها، فإنَّ العلمَ على قسمين: قسمٌ لا يشترط فيه محاذاةُ المعلوم، وقسمٌ آخرُ تشترط فيه المحاذاةُ، وهو المسمّى بالرؤية، وهذا القسمُ أعلى أقسام العلم في الممكنات، وحاصلٌ في مرتبة اطمئنان القلب، ولا أمنَ في المعقولات من معارضة الوهم، والخالي عن تلك المعارضة...

إنّما هو المحسوسُ، ومن ههنا طلب الخليلُ على نبينا وعليه الصلاةُ والسلامُ رؤيةَ إحياء الموتى؛ ليطمئنَّ قلبُه مع وجود الإيمان واليقين به. ينبغي أن يعلم أنَّ الرؤيةَ التي هي من الصِّفات الكاملة إذا لم تكن في الواجب تعالى من أين جاءت للممكن؟ فإنَّ كلَّ كمالٍ حاصلٍ للممكن هو عكسُ الكمال الذي في مرتبة الواجب تعالى وتقدس، وحاشا أن يكون في الممكن ما ليس للواجب تعالى، فإنَّ الممكنَ هو عينُ النقص في حد ذاته، فإن كان فيه كمالٌ؛ فهو عاريةٌ من مرتبة حضرة الوجوب تعالت وتقدست التي هي عينُ كلِّ خيرٍ وكمالٍ: (شعر)

مَا جِئْتُ مِنْ بَيْتِي بِشَيْءٍ إِنَّمَا   أَعْطَيْتَنِي مَا بِي وَنَفْسِي بَعْضُ ذَا

وجوابٌ آخر عن أصل السؤال: إنَّ هذا الاعتراضَ متمشٍّ في وجود الواجب تعالى وتقدس، فكما أنَّه ينفي الرؤيةَ ينفي الوجودَ من جناب قدسه تعالى، فهذا الاعتراضُ ليس بواردٍ؛ لكونه مستلزماً للمحال العقليّ. بيانه: أنَّ الواجبَ سبحانه إذا كان موجوداً يكون ألبتة في جهةٍ من جهات العالم من فوق وتحت وقدام وخلف ويمين وشمال، وذلك مستلزمٌ للإحاطة والتَّحديد المستلزم للنقص المنافي للألوهيَّة، تعالى الله وتقدس عن ذلك.

فإن قيل: يمكن أن يكون في جميع جهات العالم، فلا يلزم الإحاطةُ والتَّحديدُ.

أجيب: إنَّ كونَه في جميع جهات العالم لا ينفي الإحاطةَ والتحديدَ، فإنَّه على هذا التقدير أيضاً يكون وراءَ العالم ألبتة، فإنَّ الاثنينيَّةَ لازمةٌ للغيرية، الاثنان متغايران قضيَّةٌ مقرَّرةٌ عند أرباب المعقول، وذلك مستلزمٌ للتَّحديد.

لا يخفى أنَّ طريقَ التَّفصِّي من أمثال هذه الشُّبهات المموَّهة الغير الحقَّة التزامُ الفرق بين أحكام الغيبة وأحكام الشَّهادة، وعدمُ قياس الغائب على الشَّاهد، فإنَّه يمكن أن يكون بعضُ الأحكام صادقاً في الشَّاهد وكاذباً في الغائب، وكمالاً في الشاهد ونقصاً في الغائب، فإنَّ تباينَ الأحكام ثابتٌ، خصوصاً إذا كان بين المواطن بونٌ بعيدٌ، (ما للتراب ورب الأرباب). رزقهم الله سبحانه الإنصافَ حتى لا ينكروا النصوصَ القرآنية بهذه التوهُّمات والتخيلات المشتبهة، ولا يكذِّبوا الأحاديثَ الصَّحيحةَ النبويّةَ، ينبغي الإيمانُ بأمثال هذه الأحكام المنزلة محيلاً كيفيَّتَها على العلم اللا كيفيّ، معترفاً بقصور الإدراك عن معرفتها، لا أنَّه ينبغي نفيُ تلك الأحكام بانتفاء الإدراك، فإنَّه بعيدٌ عن السَّلامة والصَّواب، فإنَّه يمكن أن تكون أشياء كثيرةٌ صادقةً في نفس الأمر، وتكون مستبعدةً عن إدراك عقولنا الناقصة، فلو كان العقلُ كافياً لكان مثلَ أبي علي سينا الذي هو مقتدى أرباب المعقول محقّاً في جميع الأحكام العقلية غيرَ غالطٍ فيها، والحالُ أنَّه أخطأ في مسألةٍ واحدةٍ، وهي الواحدُ لا يصدر عنه إلا الواحدُ، ما هو واضحٌ للنَّاظر المنصف بأدنى تأمُّلٍ، وطعن فيه الإمامُ الفخر الرازيُّ في هذا المقام بهذه العبارة، والعجبُ ممن يفني عمره في تعليم الآلة العاصمة عن الخطأ في الفكر وتعلُّمِها، ثم إذا جاء إلى هذا المطلب الأشرف وقع منه أشياء يضحك منها الصبيانُ، وعلماءُ أهل السنَّة شكر الله تعالى سعيهم يُثْبِتون جميع الأحكام الشَّرعيّة، سواءٌ كانت معقولةَ المعنى أو لا، ولا ينفونها بعلَّةِ عدم إدراك كيفيتها، مثل: عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، والصراط والميزان، وأمثالها مما عجزتْ عقولُنا النَّاقصةُ عن إدراكه، وهؤلاء الكبراءُ جعلوا مقتداهم الكتابَ والسنَّةَ، وجعلوا عقولهم تابعةً لهما، فإن ظَفِروا بإدراكها؛ فبها، وإلا؛ يقبلون الأحكامَ الشَّرعيّةَ، ويحملون عدمَ الإدراك على قصور............

فهمهم، لا أنَّهم كغيرهم يقبلون ما تقبله وتُدْرِكه عقولُهم، ويردُّون ما يعجز عن إدراكه عقولُهم، ألا يعلمون أنَّ بعثةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنّما هي بواسطة قصور العقول عن إدراك بعض المطالب المرضيَّة للمولى سبحانه؟ والعقلُ وإن كان حجَّةً، ولكنَّه ليس بحجَّةٍ كاملةٍ، والحجَّةُ الكاملةُ إنّما تمَّتْ ببعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: إنَّ المقابلةَ والمحاذاةَ وإن كانت شرطاً في رؤية الشاهد، ولكن يمكن أن لا يكون ذلك شرطاً في الغائب، كما أنَّ الغائبَ موجودٌ، وليس في جهةٍ من جهات الموجودات أصلاً، فكما أنَّه منزَّهٌ عن جميع الجهات بلا رؤية الرائي لا تكون جهةٌ من الجهات ثابتةً له بعد الرؤية أيضاً، وتكون المقابلةُ والمحاذاةُ مفقودةً هناك، فأيُّ استبعادٍ وأيُّ استحالةٍ هنا؟ ورؤيةُ اللا كيفي لا كيفيَّةٌ، فإنَّه لا سبيل للكيفيِّ إلى اللا كيفي، (**لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه**)، وقياسُ الرؤية المنزَّهة عن الكيف على الرُّؤية المتكيِّفة بكيفٍ المتعلّقة بمرئيات غيرُ مناسبٍ، وبعيدٌ عن الإنصاف. والله سبحانه الموفق للصواب.

المَكتُوبُ الخامِسُ والأربَعُون

إلى مولانا سُلطانَ السَّرْهندِيِّ في علوِّ شأنِ قَلبِ المُؤمِن، والمَنعِ عن إيذائه، نُقِلَ بالمَعنَى.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله أجمعين. **أما بعدُ**: فاعلموا أنَّ القلبَ جارُ الله سبحانه، وليس شيءٌ أقربَ إلى جناب قدسه كالقلب، إياكم وإيذاءه، أيَّ قلبٍ كان، مؤمناً كان أو عاصياً، فإنَّ الجارَ وإن كان عاصياً يحمى، فاحذروا من ذلك واحذروا، فإنَّه ليس بعد الكفر الذي سبب إيذاء الله تعالى ذنبٌ مثل إيذاء القلب، فإنَّه أقرب ما يصل إليه سبحانه، والخلق كلُّهم عبيدُ الله سبحانه، والضربُ والإهانةُ لعبدٍ أيِّ شخصٍ كان يوجب إيذاءَ مولاه، فما شأنُ المولى الذي هو المالكُ على الإطلاق؟ فلا يتصرَّفُ في خلقه إلا بالقدر الذي أمر به، فإنَّه ليس بداخلٍ في الإيذاء، بل هو امتثالٌ لأمر الله تعالى، مثل الزاني البكر حده مائة سوطٍ، فلو زاد أحدٌ على مائة كان ظلماً وداخلاً في الإيذاء. واعلموا أنَّ القلبَ أفضلُ المخلوقات وأشرفُها، وكما أنَّ الإنسانَ أفضلها لإجماله وجمعه ما في العالم الكبير؛ كذلكَ القلب لجامعيته ما في الإنسان وكمال بساطته وإجماليته، فإنَّه كلَّما كان الشيءُ أشدَّ إجمالاً وأكثرَ جمعيَّةً يكون أقربَ إلى جنابه تعالى، وإنَّ ما في الإنسان: إما هو من عالم الخلق أو عالم الأمر، والقلبُ برزخٌ بينهما، وفي مراتب العروج يعرجُ مما يتضمَّنُها لطائفُ الإنسان إلى أصوله، مثلاً: يكون عروجُه أولاً إلى الماء، ثم إلى الهواء، ثم إلى النار، ثم إلى أصول اللطائف، ثم إلى الاسم الجزئيّ الذي هو ربّه، ثم إلى كليه، ثم إلى ما شاء الله تعالى، بخلاف القلب، فإنَّه ليس له أصلٌ يعرج إليه، بل يكون العروجُ منه أولاً إلى الذات تعالت، وإنَّه بابُ غيب الهوية، لكن الوصولُ من طريق القلب وحده بغير ذلك التَّفصيل متعسِّرٌ، وإنَّما يتيسّرُ الوصولُ بعد إتمام ذلك التَّفصيل، ألا ترى أنَّ الجامعيَّةَ والوسعةَ فيه إنّما تكون بعد طيِّه تلك المراتب التَّفصيلية؟ والمرادُ من القلب ههنا: هو القلبُ الجامعُ البسيطُ، لا المضغةُ اللحمية.

المَكتُوبُ السَّادِسُ والأربَعُون

إلى حَضرَةِ المَخدومِ زَادَه محمَّد سعيدِ مُدَّ ظِلُّه العالِي في بيانِ العُروجِ والنُّزولِ، نُقِل بالمَعنَى.

نحمده ونستعينه، ونصلّي على سيّدنا ومولانا، وشفيع ذنوبنا، محمد وآله وأصحابه. اعلموا أنَّ الله سبحانه أظهرَ لي أنَّ في الكائنات نقطةً هي مركزُ العالم الظليِّ، وتلك النُّقطةُ إجمالُ جميع العالم، والعالمُ بتمامه تفصيلٌ لذلك الإجمال، وتلك النقطةُ كالشمس في السماء بها يتنوَّرُ ما في الآفاق، فكلُّ من يصل إليه الفيضُ منه سبحانه يكون بتوسُّل تلك النقطة، وتلك النُّقطةُ محاذيةٌ لنقطة غيب الهوية، وتلك النقطةُ كائنةٌ في مرتبة النزول، فما لم يكن النزولُ في هذه المرتبة من الهبوط والأسفليَّة لا يكون العروجُ إلى تلك المرتبة المسمَّاة بغيب الهوية، وهذا النُّزولُ في الدّعوة والتّكميل، وفي ذلك النزول الذي يكون في مرتبة تلك النقطة يتخيَّلُ كأنَّ الوجهَ إلى العالم، والظهرَ إليه سبحانه، وظهر أنَّ هذا التوجّهَ إلى العالم والانقطاعَ عنه سبحانه إنّما هو إلى الموت، فإذا جاء وقتُ الوصال انعكس الحالُ، ففي هذه النَّشأة الفراقُ والشوقُ من الجانبين، والملاقاةُ إنّما تكون بعد الموت، وظهر معنى الحديث القدسي: «**أَلَا طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي، وَأَنَا إِلَيْهِمْ لَأَشَدُّ شَوْقًا**».

واعلم أنَّه مع تحقُّق النزول في هذه المرتبة ليس بين السَّالك وبين الله سبحانه حجابٌ، بل الحجبُ كلُّها مفقودةٌ، ولكنَّ التوجّهَ إلى الله سبحانه مفقودٌ، بل التوجّهُ ثمَّةَ بتمامه إلى الخلق، فهذا مقامُ الدعوة، وقد يقع النزولُ من تلك النقطة التي هي مركزُ دائرة العالم الظليِّ إلى النقطة التي هي مركزُ دائرة العدم، وهو مقامُ الكفر بالله تعالى، والإنكارُ له سبحانه، وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولآياته تعالى، ويقع العروجُ عن تلك النقطة إلى مركز دائرة الأصل التي هي دائرةُ مقامات الأنبياء عليهم السلام، وتلك النقطةُ التي ذكرناها ظلمانيّةٌ غايةَ الظلمة، فالنزولُ في ذلك المقام لتنويره وإشراقه أمرٌ عظيمُ القدر، ومقابلها نقطةُ الإسلام، وهي النقطةُ التي يقع العروجُ إليها بعد هذا النزول الظلمانيّ، ومصباحُ تلك النقطة الظلمانيّة كلمةُ (لا إله إلا الله). والسلام.

المكتوب السابع والأربعون

إلى سُلطانِ الوَقتِ مُدَّ ظِلُّه في أسرارِ الدُّعاءِ، ومَدحِ العلَماءِ والصُّلحاءِ.

إنَّ أقلَّ الداعين أحمد يظهرُ الانكسارَ والتواضعَ لخدَّام ذلك الجناب المعلّى، ويؤدِّي شكرَ نعمة الأمن والأمان التي هي شـاملةٌ لحال الخواصّ والعوامّ، ويطلب الفتحَ والنصـرةَ للعسـاكر الإسـلاميَّة في أوقاتٍ مظنَّة إجابة الدعاء، وزمان اجتماع الفقراء، فإنَّ كلَّ أحدٍ مخلوقٌ لأمرٍ، و«**كُلٌّ مُيَسَّـرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»، فإنَّ العبثَ في أفعال الله تعالى ممتنعٌ، والأمرُ الذي جعل مربوطـًا بالعسـاكر الغزاة المجاهدين هو تقويةُ قوائم الدَّولة القاهرة، وتأييدُ أركان السَّـلطنة الباهرة التي ترويجُ الشَّريعة الغراء منوطٌ بها؛ لِمَا قيل من أنَّ الشرعَ تحت السيف، وهذا الأمرُ جليلُ القدر أيضـًا مربوطٌ بعسكر الدعاء الذين هم الفقراء وأصحاب البلاء، فإنَّ الفتحَ والنصرةَ على قسمين: قسمٌ جعل مربوطـًا بالأسباب، وهو صورةُ الفتح والنصرة المتعلّقة بعسكر الغزاء، والقسمُ الثّاني: حقيقةُ الفتح والنصرة الكائنة من عند مسبِّب الأسباب، وقوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] إشارة إلى ذلك، وهي متعلّقةٌ بعسكر الدعاء، فعسكرُ الدعاء سبق بذلّه وانكساره عسكرَ الغزاء، وترقى من السبب إلى المسبِّب:

(ع) بُرند شكستگان از اين ميدان گـوى

وأيضـًا إنَّ الدُّعاءَ يردُّ القضاء كما قال المخبر الصادق عليه وعلى آله الصلاة والسلامُ:........................

«**لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ**»(١)، والسيفُ والجهادُ ليس فيهما قدرةُ ردِّ القضاء، فعسكرُ الدعاء مع وجود الضعف والانكسار كان أقوى من عسكر الغزاء. وأيضاً إنَّ عسكرَ الدعاء كالروح لعسكر الغزاء، وهو له بمثابة القالب، فلا بدَّ لعسكر الغزاء من عسكر الدعاء، فإنَّ القالبَ الخالي عن الروح ليس بقابلٍ للتأييد والنصرة، ومن ههنا قالوا: كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين(٢) مع وجود جند الغزاء واستيلاء المحاربين، فالفقراءُ الذين هم جنودُ الدعاء مع وجود الذلَّة والمسكنة وعدم الاعتبار كما قالوا: الفقرُ سوادُ الوجه في الدَّارين، وقع عليهم الاحتياجُ في بعض المواقع، وحصل لهم الاعتبارُ، مع عدم اعتبارهم هذا في الواقع، وفاقوا أقرانهم في أمثال هذه المواضع، قال المخبرُ الصادقُ عليه الصلاة والسلام: «**يُوزَنُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ بِدَمِ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَتَرَجَّحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ**»، سبحان الله وبحمده، قد صار ذاك المدادُ وسوادُ الوجه باعثاً على عزَّتهم ورفعتهم، وبلغ من الحضيض إلى الأوج درجاتهم، نعم:

(ع) وَفِي الظُّلُمَاتِ مِنْ مَاءِ الْحَيَاةِ

قال الشاعر: (شعر)

غلام خويشتنم خواند لاله رخساری سياه رويی من كرد عاقبت كاری

وهذا الفقيرُ وإن لم يكن لائقاً بأن يجعل نفسه في عداد جنود الدعاء، ولكن بمجرَّد اسم الفقر، ولاحتمال إجابة الدعاء لا يجعل نفسه فارغاً من دعاء الدَّولة القاهرة، ويكون رطبَ اللسان بالدعاء والفاتحة بلسان الحال والقال، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّاۤ اِنَّكَ اَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالأَرْبَعُونَ

إلى حَضرةِ المَخدومِ زادَه الخواجه محمَّد سعيدٍ مُدَّ ظِلُّه العالِي في بيانِ سرِّ أقربيَّته تعالَى، وبيانِ أنَّ انكِشافَ كُنْهِ الذَّاتِ بالعِلْمِ الحُضوريِّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿**الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلَامٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفٰى**﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ أقربيَّته تعالى مربوطةٌ بالعلم الحضوريِّ الذي تعلّق بأصل المعلوم، لا بظلٍّ من ظلاله، وبصورةٍ من صوره، فإنَّ ذلك نصيبُ العلم الحصوليِّ، فالعلمُ الحصوليُّ لا يكون في الحقيقة علمَ نفس الشيء، بل علمُ صورةٍ من صوره، ويكون الجهلُ متحقّقاً بالنِّسبة إلى نفس ذلك الشيء، سبحان الله، قد قالوا للجهل بالشيء علماً بذلك الشيء، وكأنَّهم تصوَّروا صورة الشيء وظلَّه عينَ الشيء، وزعموا علمَ تلك الصورة علمَ ذلك الشيء، وذلك ممنوعٌ، ودعوى العينيَّة غيرُ مسموعةٍ، فإنَّ بين الشيء وصورته نسبةُ الاثنينية، وكلَّما ثبتت نسبةُ الاثنينية؛ فالتغايرُ لازمٌ، (الاثنان متغايران) قضيةٌ مقرَّرةٌ من قضايا أرباب المعقول. وأيضاً إنَّ العلمَ بصورة الشيء كيف يكون مستلزماً للعلم بذلك الشيء كما هو؟ فإنَّ صورةَ الشيء تمثالُ ظاهر الشيء ظهر متلبساً بأحكام المرآة، وكم من دقائق شيءٍ وأسراره ليس منها في الصورة اسمٌ ولا رسمٌ: (شعر)

لَوْ صَوَّرَ النَّقَّاشُ صُورَةَ ذَا الْمُنَى وَا حَيْرَتِي مَا حِيلَتِي فِي غُنْجِهِ

وليت ظاهرَ الشيء يظهر بصرافته في صورة الشيء، ويكون الباطنُ موقوفاً ومسكوتاً عنه، فإنه إذا ثبت أنَّ ظاهرَ الشيء يظهر في صورة الشيء متلبساً بأحكام المحلِّ والمرآة على ما مرَّ لا يبقى الظَّاهرُ على صرافته يقيناً، بل تعرضُ له هيئةٌ أخرى، فالصورةُ كما أنَّها محرومةٌ من باطن الشيء؛ محرومةٌ أيضاً من ظاهره، فلا يكون علمُ تلك الصورة مستلزماً لعلم ذلك الشيء...

(١) أخرجه الترمذي (٢١٣٩) وحسنه من حديث سلمان ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٥٧) من حديث أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، قال الهيثمي (١٠/ ٢٦٢): رجاله رجال الصحيح.

كما هو بالضَّرورة. وبالجملة إنَّ المعلومَ هو ما يكون كائناً في الذهن، ولَمّا كان الكائنُ في الذهن الصورة يكون المعلومُ أيضاً هو تلك الصورة، ولما كانت بين الصورة والشيء نسبةُ التباين والتغاير لا يكون علمُ الصورة مستلزماً لعلم الشيء كما هو، والعلمُ الحضوريُّ هو الذي يكون الحاضرُ فيه في المدركة نفسَ الشيء من غير أن يتخلَّل في البين شيءٌ من الظلِّ والصورة، فيكون المعلومُ في هذا العلم هو نفس الشيء، لا صورة من صوره، فيكون العلمُ الحضوريُّ أشرفَ، بل يكون العلمُ هو فقط لا غير، ويكون ما سواه من العلم الحصولي جهلاً مشتبهاً بصورة العلم، والمتَّصفُ بالجهل المركب من يزعم جهلَه علماً، ولا يدري بأنَّه لا يدري، فلا يكون للعلم الحصوليِّ إلى ذاته وصفاته تعالى سبيلٌ، ولا تكون الذاتُ والصِّفاتُ الواجبيّةُ تعالت وتقدست معلومةً بهذا العلم، فإنَّ هذا العلمَ في الحقيقة علمٌ بصورة المعلوم، لا بنفس المعلوم كما مرَّ، ولا سبيلَ للصورة في حضرته جل سلطانه حتى يظنَّ العلمُ بالصورة علماً بالأصل، وإن قال البعضُ: إنَّ الحقَّ سبحانه وإن لم يكن له مثلٌ، ولكن له تعالى مثالٌ، ولكن هذه الصورةُ المثاليةُ على تقدير ثبوتها غيرُ تلك الصورة المنفيَّة التي يتعلّق بها العلمُ يمكن أن تكون الصورةُ كائنةً في المثال الذي هو أوسعُ المخلوقات، ولا تكون ثابتةً في الذهن، وهذا الحديثُ القدسيُّ: «**لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**» مخصوصٌ بقلب العبد المؤمن الذي معاملتُه مغايرةٌ لمعاملة سائر الناس لتشرُّفه بالفناء والبقاء، وتخلُّصه من الحصول، وتحقّقه بالحضور، فإن كان هناك التوسُّعُ؛ فهو باعتبار الحضور، لا باعتبار الحصول:

(ع) فِـي أَيِّ مِـرْآةٍ يَـكُـونُ مُصَـــوَّرَا

ينبغي أن يعلم أنَّ في العلم الحضوريِّ اتِّحاد العالم بالمعلوم، فزوالُ هذا العلم عن العالم لا يجوزُ، فإنَّ المعلومَ هو نفسُه، فلا ينفكُّ عنه، بل العلمُ ثمَّة عينُ العالم، وعينُ المعلوم، فأين المجالُ للانفكاك؟ ينبغي أن يعلم أنَّ المعلومَ لما كان في العلم الحضوريّ نفسُ الشيء لا صورتُه ينكشف المعلوم فيه كما هو بالضَّرورة، ويصير معلوماً بالكنه، فإنَّ كنهَ الشيء عبارةٌ عن نفس الشيء، ولما كان جميعُ الوجوه والاعتبارات ساقطةً، وبقي نفسُ الذات الحاضرة عند المدركة؛ صار كنهُها معلوماً، بخلاف العلم الحصوليِّ، فإنَّ المعلومَ هناك وجوهُ الشيء واعتباراته التي هي صورُه وأشباحُه لا نفسه كما مرّ، فلا يكون المعلومُ هناك كنهَ الشيء، ولا يكون الشيءُ فيه معلوماً بكنهه.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ في العلم الحصوليِّ انكشافَ الشيء ودركَ الشيء، وفي العلم الحضوريِّ انكشافُ الشيء موجودٌ، ودركُه مفقودٌ، فكنهُ المعلوم يصير منكشفاً لا يكون مدركاً، لا يخفى أنَّه إذا ثبت العلمُ الحضوريُّ بالنِّسبة إلى ذات الواجب جل سلطانه كما مرَّ؛ لزم أن يكون كنهُ الذات منكشفاً، وتكون الذاتُ معلومةً كما هي، وهذا خلافُ ما تقرر عند العلماء. وأقول: إنَّ هذا العلمَ الحضوريَّ الذي تعلّق بذات الواجب تعالى من قبيل الرؤية التي يثبتونها بالنِّسبة إليه تعالى، وهناك الانكشافُ موجودٌ، والدركُ مفقودٌ، وكذا هنا الانكشافُ موجودٌ والدركُ مفقودٌ، فإذا تعلّقت الرؤيةُ بذات الواجب تعالى، لِمَ لا يتعلّق بها العلمُ الذي هو ألطفُ من الرؤية؟ والمحذورُ إنّما هو في الإدراك المستلزم للإحاطة لا في الانكشاف، قال الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، لم يقل: لا تراه الأبصار.

فإن قيل: إذا لم يحصل الدركُ ماذا يجدي الانكشافُ؟

أقول: إنَّ المقصودَ من الانكشاف هو التذاذُ الرائي، وهو حاصلٌ، تحقّق الدرك أو لا.

فإن قيل: إنَّ الانكشافَ بلا دركٍ كيف يكون مستلزماً للالتذاذ؟

أجيب: أنَّ العلمَ بالانكشاف كافٍ، حصل...

الدركُ أو لا، أو نقول: إنَّ الدركَ أيضاً حاصلٌ في ذاك الموطن، ولكنّه مجهولُ الكيفية، والدركُ المنفيُّ - والله أعلم -: هو ما تعلم كيفيَّته، ويوجب إحاطةَ المعلوم، ﴿لَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] مناسبٌ للعلم الحصوليّ، فإنَّه إذا لم يكن الدركُ في العلم الحضوريِّ من أين يكون في العلم الحصوليّ؟ فإنَّ كلَّما هو في الظلِّ مستفادٌ من مرتبة الأصل، ولكن الدركَ في الأصل مجهولُ الكيفية، وفي الظلّ معلومُ الكيفية.

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالأَرْبَعُون

إلى جنابِ حَضرَةِ المِير محمَّد نُعمانَ في بيانِ أنَّ العِلْمَ الحُضوريَّ للعارِفِ بنَفسِه يَتعلَّق به تعالى.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

ينبغي أن يعلم أنَّ العلمَ الحصوليَّ هو بالنِّسبة إلى الآفاق، والعلمَ الحضوريَّ بالنِّسبة إلى الأنفس، فإذا ظهرت معاملةُ أقربيَّته تعالى لعارفٍ تامِّ المعرفة وحصلت، وكان العارفُ متحلياً بهذا المقام العالي؛ يكون حكمُ تلك الأنفس في حقّه حكمَ الآفاق، ويتبدَّل العلمُ الحضوريُّ المتعلّقُ بها علماً حصوليّاً، وفي هذا الوقت يعرض لأقربيَّته تعالى حكمُ الأنفس، والعلمُ الحضوريُّ الذي كان أوَّلاً متعلّقا بالأنفس يكون حينئذٍ متعلّقاً بتلك الأقربية، لا بمعنى: أنَّه يجد نفسه عينَ الواجب تعالى، ويظنُّ أنَّ العلمَ المتعلّقَ بنفسه متعلّقٌ بعينه بالواجب سبحانه، فإنَّ هذا هو بعينه معاملةُ التَّوحيد، ومتعلّقٌ بمقامات القرب، ونهايةُ القرب هي الاتحادُ، والأقربيَّةُ غيرُ ذلك، ومعاملته شيءٌ آخر، ينبغي مجاوزةُ الاتحاد والاعترافُ بالاثنينية حتى يتصوّرَ الأقربيةُ، ولا يقعنَّ القاصرُ من لفظ الاثنينية في التوهُّم، ولا يزعمنَّ أنَّ الاتحادَ فوق الاثنينية، فإنَّ الاثنينيةَ التي هي دون الاتحاد مقامُ العوامّ كالأنعام، وهذه الاثنينيةُ التي لها ألوفُ مزيةٍ على الاتحاد مقامُ الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام كما أنَّ الصحوَ الذي دون السُّكر هو حالُ العوام، والصحوَ الذي بعد السُّكر مقامُ الخواصّ، بل أخصُّ الخواصّ، وكما أنَّ الإسلامَ الذي قبل كفر الطَّريقة إسلامُ عوامّ أهل الإسلام، والإسلامُ الذي بعد كفر الطَّريقة إسلامُ أخصِّ الخواصّ، والعجبُ أنَّ العارفَ وإن لم ير نفسه واجباً تعالى، ولكن العلمَ الحضوريَّ المتعلّقَ بنفس العارف يتعلّق بالواجب، ويكون علمُه بنفسه الذي هو حضوريٌّ حصولياً:

(ع) وَكَمْ فِي الْعِشْـقِ مِنْ عَجَبٍ عَجِيبِ

والعقلُ المعتقلُ لا يهتدي إلى هذه الدقيقة، بل يجعلها راجعةً إلى جمع الضدين، قال واحدٌ من العارفين: عرفت ربي بجمع الأضداد. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ الخَمْسُونَ

إلى القاضي نَصرِ الله في بيانِ الفَرقِ بينَ استِدلالِ العلَماءِ الرَّاسِخينَ، واستِدلالِ أربابِ الظَّاهرِ بالأثَرِ على المؤثّر.

إنَّ الاستدلالَ بالأثر على المؤثّر وبالمخلوق على الخالق جلّ سلطانه شغلُ علماء الظَّاهر، وشغلُ العلماء الراسخين أيضاً الذين هم كُمَّلُ ورثة الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ، علماءُ الظَّاهر يحصّلون من العلم بوجود المخلوق العلمَ بوجود الخالق، ويجعلون وجودَ الأثر دليلاً على وجود المؤثّر، ويحصِّلون الإيمانَ واليقينَ بوجود المؤثّر، والعلماءُ الرَّاسخون الذين قطعوا درجات كمالات الولاية، وبلغوا مقام الدَّعوة التي هي خاصَّة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالأصالة أيضاً يستدلُّون بالأثر على المؤثّر بعد حصول التجلّيات والمشاهدات، ويكتسبون..........................

بهذا الطَّريق أيضـًا إيمانـًا بالمؤثِّر الحقيقيّ، فإنَّهم يعرفون في آخر الأمر أنَّ كلَّما كان مشهوداً ومتجلّيـًا لهم؛ كان ظلّاً من ظلال المطلوب، مستحقـًا للنفي وعدم الإيمان، ويتيقنون أنَّ الإيمانَ باللا كيفيّ لا يتيسّر في هذا الموطن من غير استدلالٍ، فلا جرم يقبلون على الاستدلال، ويطلبون المطلوبَ بلا حيلولة الظلال، ولما كانت لهؤلاء الكبراء محبّةٌ قويةٌ لجناب قدسه تعالى، بحيث جعلوا ما سواه فداءً له سبحانه؛ فلا جَرَمَ يصلون إلى المطلوب الحقيقيّ من طريق الاستدلال؛ لقوله ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»، ويتخلصون من مضيق التجلّيات والظهورات المشوبة بالظلال، ويعدون نحوَ أصل الأصل، والمقامُ الذي يبلغ فيه علمُ علماء الظَّاهر يصل فيه هؤلاء الأكابر بأنفسهم منجذبين بجذبات المحبّة، ويحصل لهم الاتِّصالُ اللا كيفيُّ، وهذا الفرقُ إنّما نشأ من طريق المحبّة، فكلُّ من هو محبٌّ منقطعٌ عن غير المحبوب متَّصلٌ به، ومن ليست فيه هذه يكتفي بالعلم ويغتنم ذلك، بل ربّما يبلغ هؤلاء الكبراء مبلغـًا لا يبلغ فيه علمُ العلماء ونهايةُ العلم على تقدير الصحة إلى دهليز المطلوب، والذي هو واصلٌ إلى المطلوب؛ فهو مع المطلوب، والمعيّةُ لا تَتْرُكُ دقيقةً لا تكون نصيبـًا لهم، قال واحدٌ من الكبراء:

(ع) بنده با حق هـمـچو شير و شكر است

ولله المثلُ الأعلى، ينبغي أن يكون عبداً، وأن يتخلَّصَ عن عبديَّة ما سواه تعالى. والله سبحانه الموفِّقُ.

المَكتُوبُ الحَادِي والخَمْسُونَ

إلى الـملّا شِير محمَّدٍ اللّاهُورِيِّ في بيانِ الفَرقِ بينِ تَصديقِ القَلبِ ويَقينِه.

﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ**﴾ [النمل: ٥٩].

سؤالٌ: قال بعضُ محقِّقي المتكلّمين: إنَّ حقيقةَ الإيمان قبولُ القلب وانقيادُه بالمؤمَنِ به، فما معنى ذلك؟ وهل القبولُ والانقيادُ عبارةٌ عن نفس التصديق ويقين القلب بالمؤمَنِ به، أو أمرٌ زائدٌ عليهما؟

الجوابُ: إنَّ قبولَ القلب غيرُ يقينه، وإن لم يكن غيرَ التَّصديق، ولكنّه متفرِّعٌ على اليقين، فإنَّ القلبَ لا يخلو بعد حصول اليقين من إحدى الحالتين: إما التسليمُ والانقيادُ بالمؤمن به، أو الجحودُ به والإنكارُ عليه، وعلامةُ التسليم والانقياد: رضاءُ القلب بالمؤمن به، وانشراحُ الصدر له، وعلامةُ الجحود والإنكار: كراهةُ القلب بالمصدق به وضيقُ الصدر عليه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥] الآية، وحصولُ التسليم والانقياد للقلب بالمؤمن به بعد حصول التَّصديق واليقين به، واليقينُ به بمحض الموهبة الإلهيّة جلّ سلطانه، وبصِرْف كرمه اللا متناهيّ، ومن ههنا قيل: إنَّ الإيمانَ موهبةٌ إلهيّةٌ، ومنشأُ الجحود والإنكار بعد حصول اليقين والتَّصديق بالمصدَّق به رسوخُ الصِّفات الرديَّة في النَّفس الأمَّارة، وتمرُّنُها فيها؛ لكونها مجبولةً على حبّ الجاه والرياسة، ومطبوعةً على عدم قبول تبعيّة أحدٍ وتقليده، تريد أن يصدِّقَها ويقبلَها كلُّ أحدٍ، وهي لا تقلِّدُ أحداً ولا تتبعُ، ولا تستسلمُ فرداً من الأفراد ولا تنقادُ، ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [النحل: ٣٣]، وقد خلَّص اللهُ سبحانه طائفةً - بمحض فضله وكرمه - من هذا المرض الجبليّ، وشرَّفهم بشرف تسليم الأنبياء وانقيادهم عليهم الصلاة والسلام الذين هم هداةُ الأنام إلى سبل السلام والصراط المستقيم، ووعد لهم بجنَّات النَّعيم التي هي محلُّ رضائه تعالى، وترك طائفةً على طَوْرهم، ولم..................

يخلِّصهم من تلك الرَّذائل جبراً وقهراً، ولم يجذبْهم إلى هذه الدَّولة، ولكن بالَغَ في بيان الصراط المستقيم، وتبشير المصدِّق المطيع، وإنذار المكذِّب العاصي بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإقام الحجَّة على الفريقين.

المَكتُوبُ الثَّانِي والخَمسُونَ

إلى الفَقيرِ محمَّد هاشمٍ الكِشمِيِّ في بيانِ فناءِ القَلبِ والنَّفسِ، وزَوالِ العِلْمِ الحُصوليِّ والحُضوريِّ.

الفناءُ عبارةٌ عن نسيان ما سوى الحق سبحانه، وما سواه تعالى على قسمين: آفاقيٌّ وأنفسيٌّ، فنسيانُ الآفاقيِّ عبارةٌ عن زوال العلم الحصوليِّ بالنِّسبة إلى الآفاق، ونسيانُ الأنفسيّ عبارةٌ عن زوال العلم الحضوريِّ بالنِّسبة إلى الأنفس، فإنَّ العلمَ الحصوليَّ يتعلّقُ بالآفاق، والعلمَ الحضوريَّ بالأنفس، وزوالُ العلم الحصوليّ بالأشياء مطلقاً وإن كان متعسِّراً لكونه نصيبَ الأولياء، ولكنَّ زوال العلم الحضوريِّ مطلقاً عسير جداً، ونصيبُ الكُمَّل من الأولياء يكاد يكون تجويزُه، بل تصوُّرُه محالاً عند أكثر العقلاء؛ لزعمهم عدم حضور المدرك عند المدرك سفسطةً، فإنَّ حضورَ الشيء عند نفسه ضروريٌّ عندهم، فزوالُ العلم الحضوريّ - وإن كان لمحةً - لا يكون مجوَّزاً عندهم، فكيف إذا كان زوالُ هذا العلم مطلقاً بحيث لا يعود أبداً؟ والنسيانُ الأوّلُ الذي هو بالنِّسبة إلى العلم الحصوليّ يتعلّقُ بفناء القلب، والنسيانُ الثّاني الذي هو بالنِّسبة إلى العلم الحضوريّ مستلزمٌ لفناء النَّفس الذي هو أتمُّ وأكملُ، وحقيقةُ الفناء إنّما هي في هذا الموطن، والفناءُ الأوّل كالصورة لهذا الفناء وكالظلِّ له، فإنَّ العلمَ الحصوليَّ ظلُّ العلم الحضوريِّ في الحقيقة، فيكون فناؤه ظلَّ فناء هذا بالضَّرورة، وبحصول هذا الفناء تستقرُّ النَّفسُ في مقام الاطمئنان، وتصير راضيةً عن الحقِّ سبحانه، ومرضيَّةً له تعالى، وبعد البقاء والرجوع تتعلّقُ معاملةُ التكميل والإرشاد بها، ولها يتيسّرُ الجهادُ والغزا مع طبائع العناصر الأربعة المختلفة التي هي أركانُ البدن، وكلُّ واحدٍ منها يقتضي أمراً من الأمور غيرَ ما يقتضيه الآخرُ، ويريد شيئاً من الأشياء خلافَ ما يريده الآخر، وهذه الدَّولةُ غير متيسّرةٍ لواحدةٍ من اللطائف، وهي التي تصلح الأنانيَّةَ الإبليسيَّةَ الناشئةَ من عنصر النار بسياستها، وتورث الاعتدالَ للقوة الشهويَّة والغضبيَّة وسائر الأوصاف الذَّميمة التي فيها شركةٌ للبهائم والحيوانات بحسن تربيتها، سبحان الله، قد صار شرُّ اللطائف خيرَها، قال عليه الصلاة والسلام: «**خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**»(١).

تنبيهٌ: علامةُ نسيان السوى: عدمُ حضوره في القلب، وعلامةُ زوال العلم الحضوري بنفس العالم: انتفاءُ العالم بالكلِّ عيناً وأثراً، حتى يتصوَّر زوالُ العلم والمعلوم عنه، فإنَّ العلمَ والمعلومَ في ذلك الموطن نفسُ العالم، فما لم يزل نفسُ العالم لا ينتفي العلم والمعلوم، والفناءُ الأوّلُ هو فناءُ الآفاق، والفناءُ الثّاني فناءُ الأنفس الذي هو حقيقةُ الفناء.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ والخَمسُونَ

إلى حَضرةِ المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد مَعصومٍ مُدَّ ظِلُّه في بيانِ زَوالِ العَينِ والأثَر وجُوداً وشُهوداً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا...............................

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «خيارهم في الجاهلية خيارهم...».

مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، بلى يا رب، قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكوراً، لا عيناً، ولا أثراً، ولا شهوداً، ولا وجوداً، ثم يصير بعد ذلك إن شئت حيّاً بحياتك، وباقياً ببقائك، ومتخلقاً بأخلاقك، بل صار باقياً بك بفضلك في عين الفناء، وفانياً فيك في عين البقاء لتلازمٍ بينهما، وحصولُ كمال كلٍّ واحدٍ منهما بوجود الآخر، مثلُه مثلُ إنسانٍ ألقي في معدن ملحٍ حتى صار شيئاً فشيئاً منصبغاً بأحكام الملح، إلى أن صار كلُّه ملحاً، ما بقي منه عينٌ ولا أثرٌ، فلا جرم أبيح قتلُه وقطعُه، وحلَّ أكلُه وبيعُه وشراؤه، فلو بقي منه عينٌ أو أثرٌ؛ لَمَا جاز ذلك، ولنعم ما قيل في الشعر الفارسي: (شعر)

گی كاندر نمكزار اوفتد گم گردد اندر وى | من اين درياى پر شور از نمك كمتر نميدانم

فإن قلت: إنَّك قد كتبت في المكاتيب والرسائل: إنَّ زوالَ العين والأثر إنّما يكون شهوديّاً لا وجوديّاً؛ لاستلزامه الإلحادَ والزندقةَ، ورفعه الاثنينيةَ الثابتةَ بين العبودية والربوبيَّة، فما معنى زوال العين والأثر في الوجود أيضاً هنا؟

قلت: انصباغُ الشيء بالشيء بحيث يصير أحدِهما منخلعاً عن أحكامه ومنصبغاً بأحكام الآخر لا يوجب رفعَ الاثنينية عنهما حتى يكون إلحاداً وزندقةً، فإنَّ الإنسان الملقى في معدن الملح ما اتَّحد مع الملح، وما زالت الاثنينيّةُ، بل حصل له من جِوَار الملح وسلطانه فناءٌ عن نفسه وعن صفاته، وبقاءٌ بالملح وأحكامه، مع بقاء الاثنينية.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ هذه الاثنينيّةَ شبيهةٌ باثنينية الظلّ مع الأصل لا استقلالَ لها، وفي تلك الاثنينية الزائلة نوعُ استقلالٍ في نظر العوامِّ، فالاثنينيةُ باقيةٌ بعدُ، فلا إلحادَ ولا زندقةَ. وأما منعي في الكتب والرسائل عن الزوال الوجوديّ؛ فمحمولٌ على قصور فهم العوامِّ، فإنَّهم يفهمون منه رفعَ الاثنينية، ويقعون في الإلحاد والزندقة، تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

بقي أنَّ الشبحَ الذي يقع من ذلك الإنسان بعد صيرورته ملحاً حكميّاً هو في الحقيقة صورةُ الملح الذي انصبغ ذلك الإنسانُ بصبغه، لا صورةُ الإنسان، إلا أنَّه قيس ذلك الملحُ الحكميُّ بمقياس شبح ذلك الإنسان، وصُوِّرَ بصورته، لا أنَّه بقي شبحُ ذلك الإنسان، فبقي أثرُه.

تنبيهٌ: ذلك الشبحُ في الملح الذي قيس بمقياس صورة الإنسان ممكنٌ، بل واقعٌ، وأما ما نحن بصدده؛ فليس كذلك، فللّه المثلُ الأعلى، فهو سبحانه لا يتَّحد مع شيءٍ، ولا يتَّحدُ معه شيءٌ، ولا يتَّصلُ بالأشياء، ولا ينفصلُ عنها، والأشياءُ أيضاً غيرُ متَّصلةٍ به سبحانه ولا منفصلةٍ عنه تعالى، سبحان من لا يتغير بذاته ولا بصفاته ولا في أسمائه بحدوث الأكوان، فهو سبحانه الآن كما كان على صرافة التنزيه والتقديس، فهو تعالى قريبٌ من العالم، ومع العالم بالقرب والمعية المجهولة كيفيتهما، لا كقرب الجسم مع الجسم، ولا كقرب الجسم مع العرض. وبالجملة: إنَّ صفاتِ الإمكان وسماتِ الحدوث كلَّها مسلوبةٌ عن جناب قدسه، عروجُ الأولياء لا يزيد في قربه سبحانه للعبد، ووصولُ الأصفياء لا يحصل اتِّصالُه مع الله، والفناءُ والبقاءُ أحوالٌ للعرفاء غيرُ ما فهمها العقلاء، وزوالُ العين والأثر له معنىً لا يفهمه إلا من رزق ذلك كما سيجيء تحقيقُه، فاستمع كلام هذه الطَّائفة بحسن الظنِّ والقبول، ولا تفهم منه مدلوله الظَّاهريّ ومدلوله المطابقيَّ، فإنَّه ربّما تغلط فيه غلطاً فاحشاً، فتَضِل وتُضِل، والله سبحانه الموفِّقُ الملهمُ للصواب.

فإن قلت: قد جوَّزت زوالَ العين والأثر من الإنسان، فما تقول..........................

فيما جاء في القرآن المجيد في شأن خاتم الرسل عليه وعليهم الصلوات والتسليمات: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وما جاء في الحديث النبوي: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ»(١)، وليس هذا إلا لبقاء الأثر من الإنسانية؟

قلت: ليس كذلك، ولا دلالةَ فيه على بقاء الأثر، إلا أنَّه لما أريد إرجاعُ الإنسان الكامل بعد الفناء والبقاء إلى العالم، ودعوة الخلق إلى الحقّ سبحانه؛ رُكِّبت فيه الصِّفاتُ البشريةُ والخصائصُ الإنسانيةُ الزائلةُ بعد كسر سورة تلك الصِّفات لتحصل المناسبةُ بينه وبين العالم بعد ما زالت، ويفتح الله بابَ الإفادة والاستفادة بينه وبين العالم بتلك المناسبة، والحكمةُ الأخرى في إرجاع هذه الصِّفات البشرية وإلحاقها بعد زوالها: ابتلاءُ المكلفين، واختبارُ المدعوين؛ ليميز الخبيثُ من الطيب، ويعتزل المكذِّبُ من المصدق، ويحصل الإيمان بالغيب بعد ما لُبِسَ الأمرُ وسُتِرَ الحالُ برجوع تلك الصِّفات، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

فإن قال قائلٌ: ما معنى زوال العين والأثر من الإنسان الكامل، والحالُ أنَّ ظاهرَه دائمٌ على الصِّفات البشرية، يأكل ويشرب، وينام ويستريح، قال الله في شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨]؟

قلت: الفناءُ والبقاءُ من صفات الباطن، لا تعلّقَ للظاهر بهما بالأصالة، فإنَّ الظَّاهرَ دائمٌ على أحكامه، والباطنَ ينخلع ويتلبس.

فإن قيل: لطائفُ الباطن متعدِّدةٌ، كلُّها متحقّقٌ بالفناء والبقاء أو بعضُها؟ فأيُّ بعضٍ هو؟

قلت: المتحقّقُ بهما إنّما هو لطيفةُ النَّفس التي هي في الحقيقة حقيقةُ الإنسان المشار إليها بإشارة قول (أنا)، فهي الأمّارةُ بالسوء أولاً، والمطمئنةُ آخراً، والقائمةُ بعداوة الرحمن جلّ شأنه ابتداءً، والراضيةُ به والمرضيّةُ عنها انتهاءً، فهي شرُّ الأشرار وخيرُ الأخيار، زاد شرُّه شرَّ إبليس، وزاد خيرُه على خير أهل التسبيح والتقديس.

تنبيهٌ: ليس معنى الفناء والزَّوال هو الفناء الوجوديّ والزوال الوجوديّ، ومعنى البقاء بالله: هو زوالُ الإمكان من الممكن رأساً، وحصولُ الوجوب له ثانياً، فإنَّه محالٌ عقليٌّ، والقولُ بذلك كفرٌ، بل هو خلعٌ ولبسٌ مع بقاء الإمكانية مثلُ خلعٍ ولبسٍ أثبته أربابُ المعقول في العناصر بطريق الكون والفساد، إلا أنَّهم أبقوا هيولاها ثابتاً في الحالين مع تبدُّل الصور النوعيَّة، ونحن لا نقول بالهيولى ولا بثبوته، بل نقول: إنَّ الفناءَ والبقاءَ إعدامٌ وإيجادٌ من القادر المختار جل شأنه، جاء في الخبر: «لَنْ يَلِجَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ مَنْ لَمْ يُولَدْ مَرَّتَيْنِ» كأنَّه أشار إلى الإيجاد الثّاني بالولادة الثّانية، وإنما قالوا البقاء بالله تجوزاً وتشبيهاً لزوال الصِّفات الرذيلة، وحصول الأخلاق الحميدة، كأنَّها شبيهةٌ بصفات مرتبة الوجوب تعالت وتقدست، وقد حقَّقتُ في غير موضعٍ أنَّ ذاتَ الممكن هو العدم ليس إلا هو، فلا معنى لزواله، فإنَّ الممكنَ ممكنٌ في جميع الأحوال، حال الفناء والبقاء كما كان في حال عدمهما، والواجبُ تعالى واجبٌ على الاستمرار والدوام، لا يلحق بجناب قدسه شيءٌ، ولا ينفصل عنه أمرٌ، ولنعم ما قيل في الشعر الفارسي: (شعر)

سيه رويى ز ممكن در دو عالَم جدا هرگز نشد والله أعلم

ولا يخفى عليك أنَّ بقاءَ الإمكان في الممكن ليس عبارة عن بقاء الأثر في الممكن، وبقاءِ ثبوته في مرتبةٍ من مراتب الثبوت، فإنَّه منافٍ للفناء الأتمِّ، والفاني بهذا الفناء بعد ردِّ الأمانات إلى أهلها، وردِّ الظلال المنعكسة فيه إلى أصلها من الوجود وتوابعه كلّها من الصِّفات........................

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٣) من حديث أنس ﷺ.

الكاملة والنعوت الفاضلة لحق هو بالعدم الصرف الكامل في العدميّة بحيث لم يوجد فيه إضافةٌ ولا نسبةٌ إلى شيءٍ ولا اسمٌ ولا رسمٌ، فإنَّ وجودَ الإضافة في العدم ينبئ عن ثبوته ولو في الجملة.

المكتوب الرابع والخمسون

إلى خان جهان في اتِّباع الشَّرع المبينِ، ومُحارَبة أعداءِ الدِّين.

رزقكم الله سبحانه التَّوفيقَ على مرضياته، وسلَّمكم وجعلكم معززاً ومحترماً بالنبي وآله الأمجاد عليه، وعليهم الصلوات والتسليمات: (شعر)

أَلْـقَـوْا سَـعَـادَةَ دَارَيْـنِ بِـمَـعْـرَكَـةٍ مَـا رَامَـهَـا أَحَـدٌ مَـاذَا عَـلَـى الْـبَـطَـلِ

إنَّ التَّلذُّذات الدنياويَّةَ والتنعُّمات الفانيةَ إنّما تكون هنيئةً مريئةً إذا حصل في ضمنها العملُ بمقتضى الشَّريعة الغراء، واجتمعتْ بتنعُّمات الآخرة، وإلا؛ فحكمُها حكمُ السمّ القاتل المموَّه بالسُّكَّر ليغترَّ به الأبله، فيا أسفي لو لم تعالج بترياق الحكيم المطلق، ولم تتلافَ حلاوتُها بمرارة الأوامر والنواهي الشَّرعيّة. وبالجملة: إنَّ الملكَ الأبديَّ يمكن تحصيله بأدنى سعيٍ وحركةٍ على وفق الشَّريعة التي مبناها على السهولة، ويزولُ ويخرج من اليد بأدنى غفلةٍ وفراغ، وكذلك ينبغي استعمالُ العقل المدرك، وأن لا يعوّض الملك الأبديّ بالجوز والموز مثل الأطفال، وتلك الخدمةُ التي أنتم قائمون بها لو جمعتموها بإتيان أحكام الشَّريعة المصطفويَّة على مصدرها الصلاةُ والسلامُ والتحيةُ؛ فقد عَمِلْتُم عملَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونوَّرتم الدينَ المتينَ وعمرتموه، ونحن الفقراءُ لو اجتهدنا سنين وعذَّبنا أرواحنا لا نلحق في هذا العمل، ولا نُدْرِكُ غبارَ أمثالكم البُزَاة: (شعر)

أَلْـقَـوْا سَـعَـادَةَ دَارَيْـنِ بِـمَـعْـرَكَـةٍ مَـا رَامَـهَـا أَحَـدٌ مَـاذَا عَـلَـى الْـبَـطَـلِ

اللهم وفِّقنا لِمَا تحبُّ وترضى.

بقيّةُ المرام: إنَّ رافعي رقيمة الدعاء الفاضلين الخواجه محمد سعيد والخواجه محمد أشرف من الأصحاب المخصوصين، فكلَّما راعيتم أحوالهما تكون موجبةً لامتنان الفقراء، أمرُكم أعلى، وشأنُكم أرفعُ.

المكتوب الخامس والخمسون

إلى ممريز خان أفغان في ذمِّ الرُّجوعِ منَ الفَقر إلى الغِنَى.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. إنَّ الأخَ ميان ممريز خان هرب من ضيق الفقر، والتجأ إلى الأغنياء، ورغب في تنعمات الغنا وتلذذاته، إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أبعده عن الفهم، فإن حصل في صحبة الأغنياء غايةُ الترقِّي في الدُّنيا يصير هزاريّاً، فإن بلغتم فَرَضاً منصبَ المانكسنكيّ تفكَّروا إذاً ما يحصلُ لكم منه؟ وأيُّ حشمةٍ تكتسبون به؟ ولقمةُ الخبز كانت تصل في الفقر أيضاً، والآن تأكلون لقمةً أسمن منها، فذاك فاتَ، وهذا أيضاً يفوتُ، ولكن تفكَّروا وتأمَّلوا أيّ أمرٍ يضيع ويخرج من يدكم؟ وتصيرون أفلسَ الورى، الراضي بالضَّرر لا يستحقُّ النَّظَرَ، وحيث ابتليتم بذلك؛ فعليكم السعي حتى لا يخرج طريقُ الاستقامة والتزام الشَّريعة من يدكم، ولا يقعَ الفتورُ أيضاً في شغل الباطن، وإن كان جَمْعُه بالدُّنيا مشكلاً؛ لكونه جمع الضِّدين، ولكن لَمّا اخترتم هذا الوضعَ عليكم باختيار خدمة دروبان، إن صحّت نيَّتُكم؛ فهي داخلةٌ في الغزو وعملٌ حسنٌ، ولكنَّ تصحيحَ النية مشكلٌ، واليوم أنتم في هذه الخدمة التي لها حسنٌ في الجملة، ولعلَّ غداً يأمرونكم بخدمةٍ أخرى تكون عينَ الوبال. وبالجملة: الأمرُ مشكلٌ، ينبغي........................

التيقُّظ، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤]. والسلام.

المكتوب السادس والخمسون

إلى جنابِ الخواجه محمَّد عبدِ الله ابنِ شَيخ حضرةِ شيخِنا والخواجه جمالِ الدِّين الحسينِ بنِ الخواجه حسامِ الدِّينِ أحمَد في التَّأسُّف على فوتِ الصُّحبة الماضيَة، والإيماءِ إلى أسرارٍ جَديدةٍ، وما يناسبُ ذلك.

ليكن قرَّةُ العينين ومسرَّةُ الأذنين الخواجه محمد عبد الله والخواجه جمال الدين الحسين متحليَيْن بجمعيَّةٍ صوريةٍ ومعنويةٍ، والعجبُ أنَّهما قد اختارا تغافلاً لا تغافلَ مثله، وعدم الرأفة والمرحمة، حيث لم يصلا إلى سرهند مع وجود قرب الجوار، ولم يسألا عن حال هذا الغريب، ولم يؤدِّيا حقوقَ المودَّة، وماذا أقول لخواجه محمد أفضل، فإنَّه يعدُّ نفسه أبعدَ عنهما في المودَّة بمراحلَ، بل هو خائفٌ من مودتنا؟ وما أقول للمير منصور، فإنَّه يتمنَّى الصحبة دائماً، ولكن لا يخرج تمنِّيه من القوَّة إلى الفعل، ومن قول الفقهاء العظام: الراضي بالضرر لا يستحقُّ النظرَ، العسكرُ وإن كان بحرَ الظُّلمات، ولكنَّه متضمِّنٌ لماء الحياة، وهنا بعناية الله سبحانه يحصل من الجواهر ولو على سبيل النُّدرة ما لو حصل في مواضع أخرى شبحُه لكان مغتنماً، وكلُّ مبارزٍ اكتسب قدراً وقيمةً إنّما يتيسّرُ له ذلك حين استيلاء الأعداء، والسَّلامةُ وإن كانت في الزَّاوية، ولكنَّ دولةَ الغزو والشهادة في المعركة، والزاويةُ إنّما هي مناسبةٌ لأهل السَّتر وأرباب الضعف، وقد ورد في الحديث: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»، وحالُ الرجال الأقوياء المبارزةُ في المعركة الكبرى، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلٰى شَاكِلَتِهٖ فَرَبُّكُمْ اَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ اَهْدٰى سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٤]. ولما كنت متوجّهاً إلى العسكر بعد مضيّ مدة الرخصة والإذن؛ تركت ولدي محمداً سعيداً في البيت بالضَّرورة، ولما تفكَّرتُ في الفيوض والبركات والعلوم والمعارف الحاصلة بعد مفارقته نَدِمْتُ على مفارقته، وطلبتُه مغتنماً للفرصة، فجاء الصغارُ والكبارُ كلُّهم رجاء أن ينالوا من هذه البركات، والعجبُ كأنِّي من طائفة الملامتي، وفي زمرة القلندريَّة، مع أنِّي ممتازٌ من الفريقين ومغايرٌ لهما، ولي معاملةٌ على حدةٍ، اسمعوا شمَّةً من العلوم الجديدة، وهذا عنوانُ مكتوبٍ، قال الله تعالى: ﴿هَلْ اَتٰى عَلَى الْاِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْـًٔا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، بلى يا رب، قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، لا عيناً ولا أثراً، ولا شهوداً ولا وجوداً.. إلى آخره. وأنتم قد رأيتم في بعض المكاتيب أنِّي جعلتُ القولَ بالزوال الوجوديّ من قبيل الإلحاد والزندقة، وههنا كتبتُ بهذه العبارة وعالجتُ ذلك بكرم الله سبحانه وتعالى:

(ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْتَانِي رَبِيعِي

وهذه الدولُ كلُّها من بركات هذه الواقعات، لولاها لَمَا وُجِدَتْ تلك، ﴿رَبَّنَا اَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَاۚ اِنَّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]. ولَمّا كان مولانا محمد مراد متوجّهاً إلى تلك الحدود كتبنا كلمتين، العاقبةُ بالخير.

المكتوب السابع والخمسون

إلى مولانا حَميدٍ الأحمدي في بيانِ حُدوثِ العالَم، وردِّ عبيدِ العَقلِ الفعَّال.

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين.

إنَّ الله تعالى موجودٌ بذاته، ووجودُه سبحانه بنفسه، وهو تعالى قد كان على ما عليه الآن، ويكون على ذلك إلى أبد الآباد، ولا سبيل للعدم السَّابق والعدم اللَّاحق إلى جناب قدسه تعالى، فإنَّ وجوبَ الوجود أحقرُ........................

خُدّام ذلك الجناب المقدس، وسلبُ العدم أذلُّ كنّاسي ذاك الحريم المحترم، وما سواه تعالى المسمَّى بالعالم من العناصر والأفلاك والعقول والنفوس والبسائط والمركَّبات كلُّها موجودةٌ بإيجاد الله تعالى، ومخرجةٌ من العدم إلى الوجود، والقدمُ الذاتيّ والقدمُ الزمانيّ كلاهما ثابتان لجناب قدسه تعالى فقط، والحدوثُ الذاتيّ والزمانيّ كائنٌ لغيره تعالى، كما أنَّه خلق الأرضَ في يومين؛ أخرج السّموات والكواكب بعد خلق الأرض من العدم إلى الوجود في يومين، قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [طه: ٤]، وقوله تعالى: ﴿فَقَضٰيهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] مصداقُ هذا الكلام، سفيهٌ - بل منكرٌ لنصّ القرآن - من يتفوَّهُ بقِدَم بعض ما سواه كالأفلاك وما فيها، وبسائط العناصر والعقول والنفوس، وقد انعقد إجماعُ المليين إلى حدوث ما سواه تعالى، وحكموا بوجوده بعد العدم السابق بالاتفاق كما صرح به الإمامُ حجَّةُ الإسلام الغزاليُّ في رسالته «المنقذ من الضلال»، وكفَّر جماعةً قالوا بقِدَم بعض أجزاء العالم، فالحكمُ بقدم شيءٍ من الممكنات خروجٌ عن الملَّة، ودخولٌ في الفلسفة، وكما أنَّ العدمَ السابقَ كائنٌ لما سواه تعالى؛ العدمُ اللاحقُ أيضاً لاحقٌ به، فتنتثر الكواكبُ، وتنشقُّ السّمواتُ، وتندكُّ الأرضُ والجبالُ، وتلحق بالعدم كما نطق به نصُّ القرآن، وانعقد عليه إجماعُ جميع الفرق الإسلاميَّة، قال الله تعالى في كلامه المجيد: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ الْاَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ وَانْشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣-١٦]، وقال: ﴿اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَاِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَاِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ١-٣]، وقال: ﴿اِذَا السَّمَآءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَاِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الإنفطار: ١-٢]، وقال: ﴿اِذَا السَّمَآءُ انْشَقَّتْ﴾ [الإنشقاق: ١]، وقال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَاِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، ووردت في القرآن أمثالُ ذلك آياتٌ كثيرةٌ، والجاهلُ يُنْكِرُ فناءَ هؤلاء بجهله، ويردُّ النصوصَ القرآنيَّةَ مفتتناً بالمموهات الفلسفية. وبالجملة: إنَّ إثباتَ العدم اللاحق في الممكنات كإثبات العدم السابق فيها من ضروريات الدين، والإيمانُ به لازمٌ، وما قال بعضُ العلماء من أنَّ سبعةَ أشياء لا يتطرَّقُ عليها الفناءُ، بل تكون باقيةً، وهي العرشُ والكرسيُّ واللوحُ والقلمُ والجنَّةُ والنارُ والروحُ، لا بمعنى: أنَّ هذه الأشياءَ لا تقبل الفناءَ، وليست فيها قابليَّةُ الزوال، حاشا من ذلك وكلا، بل بمعنى: أنَّ القادرَ المختارَ جلَّ شأنه يفني بعد الوجود من يشاء، ويبقي من يشاء لحكم ومصالحَ، يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد. ولاح من هذا البيان أنَّ العالمَ بجميع أجزائه مستندٌ إلى الواجب تعالى، ومحتاجٌ إليه سبحانه في الوجود والبقاء، فإنَّ البقاءَ عبارةٌ عن استمرار الوجود في زمانٍ ثانٍ وثالثٍ إلى ما شاء الله تعالى، ليس فيه أمرٌ زائدٌ على الوجود مسمّىً بالبقاء، فيكون نفس الوجود واستمرارُه مستنداً ومفوضاً إلى إرادته تعالى، وماذا يكون العقلُ الفعالُ حتى يدبِّرَ الأشياءَ، وتكون الحوادثُ مستندةً إليه، وفي نفس وجوده وثبوته ألفُ كلامٍ؟ فإنَّ تحقّقَه وحصولَه مبتنٍ على المقدَّمات الفلسفية المموهة، وكلُّها غيرُ تامّةٍ على أصول جميع الفرق الإسلامية، والأبلهُ من يصرف الأشياءَ عن القادر المختار جلّ شأنه، ويسندها إلى مثل هذا الأمر الموهوم، بل يلحق للأشياء ألوف من العار من أن تكون مستندةً إلى منحوت الفلسفيّ، بل الأشياءُ بعدمها راضيةٌ من أن يكون استنادها إلى مجعولٍ سفسطيٍّ، محرومةٌ من سعادة الانتساب إلى قدرة القادر المختار جل سلطانه، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ اَفْوَاهِهِمْ اِنْ يَقُولُونَ اِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

المكتوب الثامن والخمسون

إلى الخواجه صَلاحِ الدِّينِ الأحراريِّ في بيانِ أنَّ خَلقَ المُمكناتِ ووجُودَها في مَرتَبةِ الوَهمِ.

«**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ**»، ولما أراد أن يظهر كمالاته المكنونة طلب كلُّ اسمٍ من أسمائه تعالى مَظْهراً من المظاهر؛ ليجلي كمالاته في ذلك المظهر، ولا قابلَ لمظهريَّة الوجود وتوابعه غيرُ العدم، فإنَّ مظهرَ الشَّيء ومرآته مباينٌ ومقابلٌ لذلك الشيء، والمباينُ والمقابلُ للوجود هو العدمُ فقط، فعيَّن الحقُّ سبحانه بكمال قدرته في عالم العدم لكلِّ اسمٍ من أسمائه مظهراً من المظاهر، وخَلَقَه في مرتبة الحسّ والوهم في أيِّ وقت أراده على أيِّ طورٍ شاء، خلق الأشياءَ متى شاء، وجعل المعاملةَ الأبديّةَ مربوطةً بها. ينبغي أن يعلم أنَّ المنافي للعدم هو الخارجُ، لا الثبوتُ العارضُ له في مرتبة الحسّ والوهم، فإنَّه لا منافاةَ بينهما، وثبوتُ العالم في مرتبة الحسِّ والوهم لا في مرتبة الخارج حتى يكون منافياً له، فيجوز أن يعرض للعدم ثبوتٌ في مرتبة الحسِّ والوهم، ويحصل له هناك بصنع الله جل سلطانه إتقانٌ ورسوخٌ، ويكون في تلك المرتبة حيّاً وعالماً وقادراً ومريداً وبصيراً وسميعاً ومتكلّماً بطريق الانعكاس والظليَّة، ولا يكون له في مرتبة الخارج اسمٌ ولا رسمٌ، ولا يكون شيءٌ غيرَ ذات الواجب وصفاته تعالى ثابتاً وموجوداً في الخارج، وبهذا المعنى يمكن أن يقال: وهو الآن كما كان، ومثالُ ذلك: النُّقطةُ الجوَّالةُ والدائرةُ الموهومةُ، فإنَّ الموجودَ هو النقطةُ فقط، والدائرةُ معدومةٌ في الخارج، لا اسمٌ منها فيه ولا رسمٌ، ومع ذلك عرض لها في مرتبة الحسّ والوهم ثبوتٌ، وحصل لها في تلك المرتبة بطريق الظليَّة إنارةٌ وإشراقٌ، ومن هذا التَّحقيق حصل الاستغناءُ عن المقدّمات المبسوطة التي ذكرها الشَّيخ محيي الدين وتابعوه في تكوين العالم من بيان التنزلات والتعيّنات العلمية والخارجية، وإثبات الحقائق والأعيان الثَّابتة في مرتبة علم الواجب تعالى، وإثبات عكوسها في الخارج الذي هو ظاهرُ الوجود، وتسمية آثارها خارجيَّةً كما لا يخفى على المنصف النَّاظر في كلامهم المطَّلع على اصطلاحهم، وبهذا التَّحقيق صار معلوماً أن لا موجودَ في الخارج غيرُ الحق جلّ وعلا، لا الأعيانُ ولا آثارُ الأعيان، بل ثبوتُ هؤلاء في مرتبة الحسّ والوهم، ولا محذورَ في ذلك أصلاً، فإنَّ ذلك ليس بموهومٍ ثابتٍ باختراع الوهم حتى يرتفع بارتفاع الوهم، بل ثبوتُه بصنع الله جل شأنه في مرتبة الوهم، وله في تلك المرتبة تقرُّرٌ وإتقانٌ واستحكامٌ، ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

واتَّضح من هذا البيان: أنَّ حقائق الممكنات عدماتٌ عرض لها في موطن علم الواجب تميُّزٌ وتعيُّنٌ، وصارت ثابتةً في مرتبة الحسّ والوهم مرّةً ثانيةً بصنع الله تعالى، وصار بعضٌ منها مرايا الأسماء الإلهيّة جلّ شأنه، وصار في تلك المرتبة بطريق الظليَّة والانعكاس حيّاً وعالماً وقادراً ومريداً وبصيراً وسميعاً ومتكلّماً، وتحقيقُ الشَّيخ ومتابعيه أنَّ حقائقَ الممكنات صورُ الأسماء الإلهيّة العلميَّة التي هي أحدُ التنزلات الخمسة الوجوديّة، وبالجملة: إنَّ حقائقَ الممكنات في فهم هذا الفقير عدماتٌ، وعند الشَّيخ وجوداتٌ متنزلةٌ، وحضرةُ الشَّيخ أثبت إراءة الكثرة في الخارج، وقال: إنَّ الصورَ العلميَّةَ المتكثرةَ التي هي حقائقُ الممكنات - وعبَّر عنها بالأعيان الثابتة - صارت منعكسةً في مرآة ظاهر الوجود تعالى الذي لا موجود غيره ....

في الخارج، وعرض لها إراءةٌ في الخارج، وصارت ترى كأنَّها موجودةٌ في الخارجة، ولا موجودَ في الحقيقة في الخارج غير الذات تعالت، وقال: إنَّ كلَّ واحدةٍ من الصور العلمية تحدث لها في وقتٍ من الأوقات نسبةٌ مجهولةُ الكيفية بظاهر الوجود الذي هو كالمرآة لتلك الصور، وتصير تلك النِّسبةُ سبباً لكونها مرئيَّةً في الخارج، وهذه النِّسبةُ ليست بمعلومةٍ لأحد، حتى إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يطَّلعوا على هذا السرِّ، وقال لإظهار تلك الصُّور في الخارج بعد حصول تلك النِّسبة المجهولة الكيفيّة: خلقاً وإيجاداً للأشياء، وعلى التَّحقيق السَّابق الذي اهتدى إليه هذا الفقيرُ كما أنَّ الأشياءَ لا وجودَ لها في الخارج؛ كذلك كونُها مرئيةً فيه أيضاً على لا لونيَّتها لا وجود فيه للغير ولا إراءةَ ولا شأنَ، فإن ثبتت له إراءةٌ؛ فهي في مرتبة الوهم، وإن كان له ثبوتٌ؛ فهو أيضاً بصنع الله تعالى في مرتبة الوهم. وبالجملة: إنَّ ثبوته وإراءته في مرتبةٍ واحدةٍ، لا أنَّ ثبوتَه في موضعٍ وإراءتَه في موضعٍ آخر، مثلاً: إنَّ الدائرةَ الموهومةَ الناشئةَ من النقطة الجوالة كما أنَّ ثبوتها في مرتبة الوهم لا في الخارج إراءتُه أيضاً في تلك المرتبة، فإنَّه لا رسمَ لها في الخارج حتى تصير مرئيةً فيه.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّه ربَّما يظنُّ الإراءة الوهميّة إراءةً خارجيةً، كما إذا رأى الرائي الصورَ المثاليةَ في عالم المثال في اليقظة بحسِّ الباطن؛ فيخال أنَّه يراها في عالم الشهادة بحسب الظَّاهر، وأمثالُ هذا الاشتباه تقع كثيراً، ويجد السَّالكُ مرتبةً من المراتب مشتبهةً بأخرى، فيحكم على ذاك بحكم هذا، ففيما نحن فيه إنَّ تلك الدائرةَ الموهومةَ التي صارت مرتسمةً في الخيال ترى في مرتبةٍ هي مرتسمة فيها ببصر الخيال، ويتخيل أنَّها ترى في الخارج بعين الرأس، وليس كذلك، فإنَّه لا اسمَ لها في الخارج الذي هو محلُّ النقطة الجوالة ولا رسمَ حتى تكون مرئيَّةً فيه، وصورةُ الشَّخص التي صارت منعكسةً في المرآة على هذا المنوال أيضاً، فإنَّه لا ثبوتَ لها في الخارج ولا إراءةَ، بل ثبوتُها وإراءتُها كلاهما في مرتبة الخيال، والله سبحانه أعلم. فما ظنَّه الشَّيخُ قدس سره خارجاً، وأثبت للأشياء الإراءةَ والمرئيَّةَ فيه بطريق الانعكاس ليس هو خارجاً، بل مرتبة الوهم قد حصل لها ثباتٌ وتقرُّرٌ بصنع الله جلّ شأنه، وتوهَّم أنَّها خارجٌ، والخارجُ ما وراء ذلك، فإنَّه بمعزل عن شهودنا وإحساسنا، وما هو مشهودٌ ومحسوسٌ ومعقولٌ ومتخيَّلٌ لنا كلُّها داخلةٌ في دائرة الوهم، والموجودُ الخارجيُّ هو ما وراء وراء أفهامنا، لا مجالَ هناك للمرآتية، وأيُّ صورةٍ تنعكس في تلك الحضرة والمرايا والصور كلّها في مراتب الظلال التي تتعلّق بدائرة الوهم والحس. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ١٠].

المكتوب التاسع والخمسون

إلى الخواجه شَرفِ الدِّينِ الحسَينِ في إرجاعِ الحَوادثِ اليَوميَّة إلى إرَادةِ الله تعالى، والتَّلذُّذ بها.

رزق الله سبحانه الاستقامةَ على جادة الشَّريعة المصطفوية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، وجعلنا مشغولاً بجناب قدسه بالكلية.

أيُّها الولد العزيز صاحب التَّميُّز، إنَّ الحوادثَ اليوميّةَ لَمّا كانت بإرادة واجب الوجود جلّ سلطانه ومشيته ينبغي أن يجعل العبدُ إرادتَه تابعةً لإرادته تعالى، وأن يعتقد الحوادثَ عينَ مراداته، وأن يكون ملتذّاً بها، فإن كان المقصودُ العبوديّةَ؛ ينبغي اكتسابُ هذه النِّسبة، وإلا؛ فإنكارٌ للعبودية، ومعارضةٌ بمولاه، وقد ورد........................

في الحديث القدسي: «مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي، وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائِي؛ فَلْيَطْلُبْ رَبّـًا سِوَائِي، وَلْيَخْرُجْ مِنْ تَحْتِ سِمَائِي». نعم، قد كان الفقراءُ والمساكينُ ومتعلّقاتكم مستريحين ومرفّهة الأحوال برعايتكم وحمايتكم، وحيث إنَّ لهم صاحباً يكفيهم ذلك، وحسنُ ثنائكم وذكركم الجميل باقٍ، جزاكم الله سبحانه بالجزاء العاجل والآجل. والسلام.

المَكْتُوبُ السِّتُّونَ

إلى وَلدِ شَيخِه الخواجه عبدِ الله في بيانِ عدميّة ذاتِ الإنسانِ، وبيانِ أنَّ ذاتَه هيَ النَّفس النَّاطقة، مع بيانِ فناءِ النَّفسِ والقَلبِ، وزَوال العِلْمِ الحُصوليِّ.

هو الحقُّ المبينُ سبحانه، من لا يتغيَّرُ بذاته ولا بصفاته ولا في أسمائه بحدوث الأكوان، فإنَّ كلَّ تغيُّرٍ وتلوُّنٍ وقع في حدوث الأكوان؛ فإنَّما هو في مراتب العدم، ولم يتطرَّقْ إلى حضرة الوجود تعالى وتقدس تنزُّلٌ ولا تبدُّلٌ لا في الخارج ولا في العلم أصلاً. بيانه: أنَّ الحقَّ سبحانه لَمّا أراد أن يظهر كمالاته الذاتيّةَ والصِّفاتيةَ والأسمائيةَ، وأن يجليها في مجالي الأشياء ومراياها؛ عيَّن لكلِّ كمالٍ في مراتب العدم نقيضَ ذلك الكمال المقابل له، والمتميِّز عن سائر الأعدام بالإضافة إليه ليكون مرآةً له، فإن مرآةَ الشيء مقابلُ الشيء، وسببٌ لظهوره، وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياء، والأعدامُ التي فيها قابليَّةٌ لأن تكون مرايا للكمالات أَوْجَدَها في مرتبة الحسّ والوهم في أيِّ وقتٍ أراد، وأعطاها الاستقرارَ والاستحكامَ، وجعل جميع تلك الكمالات منعكسةً فيها، وصيَّر تلك الأعدامَ بذلك الانعكاس حيّاً وعالماً وقادراً ومريداً وبصيراً وسميعاً ومتكلّماً في تلك المرتبة، ولكن قد كان محسوساً أنَّه قد يتصرَّفُ أوّلاً في العدم من غير أن يجعل فيه شيءٌ آخرُ، ويجعلُ هو بذلك التصرُّف ملائماً ولنياً، ثم يظهر فيه الكمالُ، كما أنَّ الشَّمعَ يجعل أوّلاً ليناً وملائماً، ثم يُصَوَّرُ بعد ذلك صوراً وأشكالاً. ينبغي أن يعلم أنَّ المرادَ هنا من العدم: هو العدمُ الخارجيُّ المقابلُ للوجود الخارجيِّ، فلا يكون منافياً لإيجاده الواقع في مرتبة الوهم، مع أنّا نقول: إنَّ المنافي للعدم: هو الوجودُ الذي نقيضُه، ولا يصير العدمُ وجوداً، وأما إذا كان موجوداً؛ لا يلزم منه محذورٌ أصلاً، كما قالوا في الوجود: إنَّه من المعقولات الثانوية، ولا وجودَ لها في الخارج، بل هي معدومةٌ فيه، فعلم من هذا التَّحقيق: أنَّ حقائقَ الأشياء أعدامٌ انعكستْ فيها كمالاتُ مرتبة الوجود تعالت وتقدست، وحصلت لها بإيجاد الله تعالى تحقّقٌ وثبوتٌ وهميٌّ، واستقرارٌ واستمرارٌ في مرتبة الحسّ والوهم، وكان ذواتُ الأشياء تلك الأعدامَ، وانعكاسُ الكمالات فيها بمثابة قواها وجوارحها، وبعد تمهيد هذه المقدّمات نذكر في بيان المقصد الأصليّ الذي يتعلّق بالولاية الخاصَّة كلماتٍ ينبغي استماعها بسمع العقل.

اعلم - أرشدك الله وهداك سواء الطَّريق - أنَّ حقيقةَ الإنسان وذاته العدمُ الذي هو حقيقةُ النَّفس النَّاطقة التي يُعَبَّرُ عنها في الابتداء بالنَّفس الأمَّارة، وكلُّ فردٍ من أفراد الإنسان يشير بلفظ (أنا) إليها، فتكون ذاتُ الإنسان هي النَّفس الأمَّارة، وتكون سائرُ لطائف الإنسان كالقوى والجوارح لها، وحيث إنَّ العدمَ شرٌّ محضٌ في حدِّ ذاته لم يَشَمَّ رائحةً من الخيريّة؛ تكون النَّفسُ أيضاً شراً محضاً لا تكون فيها رائحةٌ من الخيرية، ومن خباثتها وجهلها تدَّعي الكمالات الظَّاهرة فيها بطريق الانعكاس والظليَّة لنفسها، وتَنْسِبُ قيامَ تلك الكمالات الثابتة بأصلها إلى نفسها، وتزعم نفسها بتلك الكمالات كاملةً وخيراً، وتكتسب من هذه الحيثيّة دعوى السِّيادة، وتُشْرِكُ نفسها بربِّها في الكمالات، وتظنُّ..........

الحولَ والقوّةَ من نفسها، وتزعم نفسها متصرِّفةً، وتريد أن يكون الكلُّ تابعـاً لها، وتحب نفسها أكثرَ من الكلّ، وتحبُّ غيرها لنفسها لا لأجلهم، ومن هذه التخيلات الفاسدة تكتسب عداوةً ذاتيّةً لمولاها، ولا تذعن بأحكامها المنزلة، بل تتبع هواها، وورد في الحديث القدسيّ: «**عَادِ نَفْسَكَ، فَإِنَّهَا انْتَصَبَتْ لِمُعَادَاتِي**»، وبعث الله سبحانه الأنبياءَ عليهم السلام من كمال رأفته ورحمته - رحمةً للعالمين؛ ليدعوا الخلقَ إلى الحقّ سبحانه، وليخربوا بيوت الأعداء، وليدلوها على مولاها، وليخلصوها من جهلها وخبثها، وليطلعوها على شرِّها ونقصها، فمن أدركته السعادةُ الأزليّةُ أجاب دعوةَ هؤلاء الأكابر، ورجع من جهله وخبثه، وصار منقاداً للأحكام المنزلة. ينبغي أن يعلم أنَّ طريقَ تزكية النَّفس على نوعين: طريقٌ يتعلّق بالرياضات والمجاهدات، وهو طريقُ الإنابة، ومخصوصٌ بالمريدين، والطَّريقُ الثّاني: طريقُ الجذب والمحبّة، وهو طريقُ الاجتباء، ويتعلّق بالمرادين، شتَّان ما بين الطَّريقين، الطَّريقُ الأوّلُ سيرٌ إلى جانب المطلوب، والطَّريقُ الثّاني جرٌّ نحو المقصود، وبين السَّير والجرِّ فرقٌ كثيرٌ وتفاوتٌ فاحشٌ، فإذا أريد لصاحب دولةٍ بسابق الكرم الجرُّ من طريق الاجتباء يعطى له الجذبُ والمحبّةُ لجناب القدس، ويوصل به إلى المقصود جرّاً جرّاً، فإذا كان فيما بين هؤلاء من أدركته السَّعادةُ؛ يوصل به إلى حدّ الفناء، ويتخلَّصُ من رؤية السِّوَى وعلمِه، ويجاوز به الآفاق والأنفس، ونسيانُ الآفاق مربوطٌ بفناء القلب، ونسيانُ الأنفس موقوفٌ على فناء النَّفس الأمّارة، وفي الأوّل زوالُ العلم الحصوليِّ، وفي الثّاني زوالُ العلم الحضوريِّ، وزوالُ العلم الحضوريّ لا يُتصوَّرُ ما لم يتحقّق زوالُ النَّفس الحاضرة، وما دامت النَّفسُ الحاضرةُ قائمةً؛ فالعلمُ الحضوريُّ موجودٌ، فإنَّ العلمَ الحضوريَّ عبارةٌ عن النَّفس الحاضرة، لا أمرٌ زائدٌ عليها، فالزَّوالُ الشُّهوديُّ في فناء النَّفس يكون عبارةً عن زوالها الوجوديّ، بخلاف الزوال الشُّهوديّ الذي اعتبر في فناء القلب، فإنّه ليس بمستلزمٍ لزوال وجود القلب، فإنَّ الشُّهودَ هناك زائدٌ على الشَّاهد، وفناءُ أحدهما ليس بمستلزمٍ لفناء الآخر.

تنبيهٌ: لا يتخيَّلنَّ الأبلهُ أنَّ زوالَ النَّفس الحاضرة حاصلٌ أيضـاً في مقام البقاء بالله الذي هو ميسَّرٌ لأرباب التَّوحيد الوجوديّ، فإنَّ الحاضرَ ثمَّةَ هو الحقُّ سبحانه، لا نفسُ السَّالك الفانية؛ لأنا نقول: إنَّ الحاضرَ في ذلك المقام هو نفسُ السَّالك، وقد تصورَّها السَّالكُ بعنوان الحقية، والحقُّ سبحانه منزَّهٌ ومبرّاً من هذا التعيّن والحضور، وهذا من قبيل ما قيل:

(ع) وَصَـــارَ الْـفَـأْرُ فِـي رُؤْيَـاهُ نَـاقَـةً

وإنَّما هنا زوالُ العلم بالنَّفس الحاضرة، وهو من أقسام العلم الحصوليِّ، لا زوالُ النَّفس الحاضرة المستلزم لزوال العلم الحضوريّ، وزوالُ النَّفس الحاضرة عبارةٌ عن زوال عينها وأثرها، لا أنَّه عبارةٌ عن زوال العلم بها، شتّان ما بينهما.

المكتوب الحادي والستون

إلى حضرةِ المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد سعيدٍ مُدَّ ظِلُّه في بيانِ أنَّ رُؤيَةَ العارفِ لبَعضِ المَظاهرِ تَصير له سَبباً للعُروجِ في بعضِ الأحيانِ، وما يُناسِب ذلك.

إذا وقعت معاملةُ العارف في صرف الذات تعالت وتقدست، وسقطت جميعُ النسب والاعتبارات؛ ففي ذاك الموطن يتعسّرُ العروجُ، ويعسرُ الخروجُ من غير علاقةٍ وتعلّقٍ، وفي ذلك الوقت بحكم «النَّظرةُ الأولى لك» ربّما يمدُّ النظرَ الأوّلَ إلى المظاهر الجميلة في ذاك المقام، ويرقى إلى فوق..........................

بالسرعة، ويوصل من المجاز الذي قيل له: قنطرة الحقيقة إلى الحقيقة، ولكنَّ الاجتنابَ عن النظرة الثّانية التي ورد في حقها «النظرةُ الثّانيةُ عليك» لازمٌ في ذلك الوقت، فإنّها مضرّةٌ وسمٌّ قاتلٌ، فكيف يتصوَّرُ منه الإمدادُ والإعانةُ؟ وما جعل الله لك في الحرام شفاءً، وقد صار محسوساً أنّه إذا وقع النظرُ الثّاني بالطمع الفاسد يرى مرمياً خالياً كسائر الحجر والمدر، والذين يعتقدون النظرةَ الثّانيةَ والثّالثةَ والرّابعةَ المتعلّقةَ بالمظاهر الجميلة مفيدةً، ويزعمونها من أسباب العروج إلى الحقيقة؛ فهم أربابُ الاستدراج، والحقيقةُ الذين يزعمون أنّهم يعروجون إليها من عالم المجاز، قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] كافٍ في ردِّ هذه الجماعة، وربّما تكون ظلمات الجِوَار نافعةً في تلك الوقعة، وكفرُ الجيران وفسقُهم ممدّاً في هذه المعاملة، حتى إنّه كلّما تزيد الظلمةُ يزيد الإمدادُ، لا لما قيل: إنَّ الفيوضَ الواردةَ على المستغرقين في ظلمة الغفلة لا تصل إليهم لعدم قابليّتهم لها، بل تتوجّهُ إلى من يكون في جوارهم بالحضور والجمعيّة، وهو يترقّى بفيوض الآخرين، فإنَّ الأمرَ ليس كذلك؛ لأنّه يمكن أن يقال: إنَّ تلك الفيوضَ الواردةَ لا تصل إلى حوالي ذلك العارف بواسطة علوِّ درجته، فضلاً عن أن تُمِدَّه في العروج، وشأنُ هؤلاء الأكابر عالٍ لا ينفع في شؤونهم كلُّ عملٍ وفيضٍ، بل ثَمَّةَ سرٌّ دقيقٌ منكشفٌ لأرباب ذلك الحال، والقدرُ الممكنُ إظهارُه أنَّ الظلمةَ أيضاً يحتاج إليها لأجل كمال ظهور النُّور، ولعلكم سمعتم: (وبضدها تتبين الأشياءُ)، ولما كان ارتكابُ الظلمة منهياً عنه اعتبرت ظلمةُ الجوار أيضاً من كمال الكرم، وجعلت نافعةً في ظهور النور الذي هو نورُ الأنوار.

فإن قيل: كيف لا يكون للطاعات والعبادات - خصوصاً أداء الفرائض - نفعٌ في ذلك الموطن؟ ولم لا تُمِدُّ في العروج؟

قلت: لم لا تكون نافعةً؟ ولم لا تمدُّ في العروج؟ ولكنَّ النفعَ والإمدادَ المعتدَّ بهما المتحقّقان سابقاً ليسا بحاصلٍ في ذلك الوقت، وليس لها نفعٌ كنفع الأسباب الخارجية المذكورة فيما سبق وأمثالها، والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال، ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب الثاني والستون

إلى حَضرَة المخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد مَعصومٍ مُدَّ ظِلُّه العالي في بيانِ انتفاءِ الفَناءِ الوُجوديِّ عن الإنسانِ بناءً على عدَمِه الذّاتيِّ.

إنَّ حقيقةَ الإنسان وذاتَه هي النَّفسُ الناطقةُ المشارُ إليها لكلِّ فردٍ من أفراد الإنسان بلفظ (أنا)، وحقيقةُ النَّفس النَّاطقة العدمُ، وقد توهّمت نفسها - بواسطة انعكاس الوجود والصِّفات الوجوديّة - موجودةً وحيّةً وعالمةً وقادرةً بالاستقلال، وزعمت هذه الصِّفاتِ الكاملةَ من الحياة والعلم وغيرهما من نفسها، وقائمةً بها، وتيقَّنتْ نفسها بهذا التوهُّم كاملةً وخيراً، ونسيتْ خباثَتَها ونقصَها الذاتيّين الناشئين من العدم الذي هو شرٌّ محضٌ، فإذا أدركتها عنايةُ الله سبحانه، وخلَّصتها من الجهل المركَّب وتصديق الكاذب؛ تعرف أنَّ هذه الكمالات من محلٍّ آخرَ لا منها، ولا أنَّها قائمةٌ بها، وتعلم أنَّ حقيقتها وذاتها العدمُ الذي هو شرٌّ محضٌ، ونقصٌ خالصٌ، فإذا غلبت هذه الرؤيةُ بكرم الله تعالى، وسلّمت الكمالاتِ إلى صاحبها بالتمام، وأدَّت هذه الأمانةَ إلى أهلها بالكليَّة، ووجدت نفسها عدماً محضاً، ولم تشمَّ في نفسها رائحةً من الخيرية؛ فحينئذٍ لا يبقى منها اسمٌ ولا رسمٌ، ولا عينٌ ولا أثرٌ، فإنَّ العدمَ لا شيءٌ محضٌ، لا ثبوتَ له في مرتبةٍ من المراتب، فلو تحقّق له فرضاً ثبوتٌ في مرتبة من المراتب؛ لَمَا كانت جميعُ الكمالات مسلوبةً عنه، فإنَّ الثبوتَ عينُ........

الكمال، بل أمُّ الكمالات، فلزم من هذا التحقيق أن يكون هذا الفناءُ أتمَّ وأكملَ، لا حاجة إلى زوال وجود الفاني أصلاً، فإنَّه لم يثبت له وجودٌ أصلاً حتى يتصوَّرَ الزوالُ، بل كان عدميّاً مثبتاً نفسه بتوهُّم الوجود، ولَمّا زال ذلك التوهُّمُ، وتحقّق بالعدم الصرف؛ بقي هالكاً، ولا شيئاً محضاً، فلا يكون بُدٌّ من الزَّوال الشُّهوديّ، ولا يحتاج إلى الزَّوال الوجوديّ. والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالسِّتُّونَ

إلى المِير مَنصورٍ في كشفِ سرِّ الإحاطَةِ والقُربِ والمَعيَّةِ الكائنَةِ للهِ تعَالى، وإرجاعِ هذه إلى مُجمَلِ الكِتابِ الكريمِ ومُشكلِه.

إنَّ القربَ والمعيّةَ والإحاطةَ والسريانَ والوصلَ والاتِّصالَ والتوحيدَ والاتحادَ وأمثالها في حضرته سبحانه من قبيل المشكلات والشطحيات، وجنابُ قدسه جل شأنه منزَّهٌ ومبرَّأٌ من القرب والمعية والوصل والاتِّصال التي تكون مدركةً بفهومنا، ومتعقلةً بعقولنا، ولكنَّ القدرَ الذي اطَّلعنا عليه في آخر الأمر أنَّ هذا القربَ وغيره شبيهٌ بالقرب والاتِّصال الحاصلين بين المرآة وبين الصورة المتوهمة فيها الذي هما من قبيل قرب الموجود واتِّصاله بالموهوم، وحيث إنَّ الحقَّ سبحانه موجودٌ حقيقيٌّ، والعالمَ مخلوقٌ في مرتبة الحسّ والوهم؛ يكون القربُ والاتِّصالُ بين الواجب والممكن من قبيل قرب الموجود واتِّصاله بالموهوم، ولا يعود من هذا القرب والاتِّصال إلى جناب قدسه تعالى محذورٌ أصلاً، فإنَّ الأشياءَ الخسيسةَ قد تنعكس في المرآة، ويحصل للمرآة قربٌ وإحاطةٌ بها، ولا يتطرَّقُ إلى المرآة نقصٌ أصلاً، ولا ترى فيها خِسَّةٌ قطعاً، فإنَّه لا اسمَ لتلك الأشياء في المرتبة التي فيها المرآة ولا رسمَ حتى تؤثِّرَ فيها صفاتها.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ الحقَّ سبحانه لَمّا خلق العالمَ في مرتبة الحسّ والوهم، وأراد أن يثبت هذه المرتبة ويحكم؛ أجرى الأحكامَ والآثارَ المترتبةَ على الموجود على هذا الموهوم، ولهذا أثبت القربَ والإحاطةَ الموهومين كالقرب والإحاطة الموجودين، وجعلهما من الأحكام الصادقة، ألا ترى أنَّ رؤيةَ الصُّورة الجميلة في الخارج كما أنَّها مستلزمةٌ للالتذاذ وحصول العلاقة؛ كذلك تلك الصورةُ موجبةٌ للالتذاذ والعلاقة حين انعكاسها في المرآة، وحصول الثُّبوت الوهميّ لها فيها، مع أنَّ الصورةَ الأولى موجودةٌ، والثّانيةَ موهومةٌ، وفي حصول الأثر بينهما شركةٌ، ولما حصلت للموهوم بكرم الله تعالى شركةٌ مع الموجود في ترتُّب الأحكام، وترتّبت الآثار على الموهوم ترتُّبها على الموجود؛ انبعثت في الموهوم المحروم أطماعٌ ورجايا من الموجود، وحصلت له بشاراتُ حصول دولة القرب والاتِّصال بالموجود: (شعر)

هَنِيئـاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُـهَا وَلِلْعَاشِـقِ الْمِسْكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. ينبغي أن يعلم أنَّ القربَ والاتِّصالَ كلَّما تصوِّرا وتعقِّلا بغير المعنى الذي ذكر لا يكونان من غير تشبيهٍ وتجسيمٍ، إلا أن يؤمنوا بهما، ولم يشتغلوا بكفيتهما، ويفوضوهما إلى علم الله تعالى، وحيث لحق بهذه الألفاظ نوعُ بيانٍ ساغ أن نخرجها من المتشابهات، ونلحقها بالمجمل أو المشكل. والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

المَكتُوبُ الرَّابعُ وَالسِّتُّونَ

إلى حضرةِ الخواجه محمَّد سعيدٍ، وحضرَةِ الخواجه محمَّد مَعصوم سلَّمهُما اللهُ سبحانَه وأبقاهُما في بيانِ الفَناءِ الأتَمِّ المَربوطِ بزَوالِ العَينِ والأثَر، مع تَحقيقِ وُجودِ الواجِبِ سُبحانَه، وبيانِ زَوالِ العَدمِ منَ المُمكنِ، وبَقاءِ الثُّبوتِ وعُروجاتِه.

الفناءُ الأتمُّ إنّما يتحقّقُ إذا حصل زوالُ العين والأثر عن الفاني، ولم يبق منه اسمٌ ولا رسمٌ. **فإن قيل**: إذا كانت حقيقةُ الممكنات الأعدامَ التي تمايزت بالإضافة، وصارت مجالي أسماء الواجب وصفاته سبحانه كما حقّقت ذلك في مكاتيب؛ لزم أن لا يبقى من العدم الذي هو حقيقته اسمٌ ولا رسمٌ في الممكن على تقدير حصول هذا الفناء، وأن لا يكون فيه شيءٌ غيرَ الوجود الصرف، فإنَّ زوالَ أحد النَّقيضين مستلزمٌ لحصول الآخر؛ لئلا يلزم ارتفاعُ النقيضين معـاً، والوجودُ عند الصوفيَّة عينُ الواجب تعالى أو أخصُّ صفاته سبحانه، وعلى كلا التَّقديرين يلزم قلبُ الحقيقة، وهو مستلزمٌ للإلحاد والزندقة.

أجيب: أنَّ نقيضَ العدم ليس هو ذاك الوجودَ الذي هو حقيقةُ الواجب تعالى أو أخصُّ صفاته الذاتيّة سبحانه، بل هو ظلٌّ من ظلال ذلك الوجود، وعكسٌ من عكوسه. وبالجملة: إنَّ كلَّ وجودٍ وقع العدمُ في الطرف المقابل له؛ فهو من مظانِّ الإمكان، ومحتاجٌ إلى رفع العدم الذي هو نقيضُه، وصفاتُ الواجب جل شأنه وإن كانت خارجةً من دائرة الإمكان، ولكن لما كانت لها احتياجٌ إلى ذات الواجب تعالى، ومقابلةُ الأعدام ثابتةٌ بكلٍّ منها ليست بخارجةٍ من شوب الإمكان، والاحتياجُ إلى الذات لازمٌ لها دائماً، وإن كانت قديمةً غيرَ منفكّةٍ عن الذات، ونفسُ الاحتياج دليلُ الإمكان، فإن كان احتياجاً إلى الغير؛ فهو نقصٌ كاملٌ، والمتصفُ به داخلٌ في دائرة الإمكان، وإن لم يكن احتياجاً إلى الغير؛ فالمتلبِّسُ به فيه رائحةٌ من الإمكان، وإن لم يكن داخلاً في دائرة الإمكان، كما أنَّ صفات الواجب تعالى كمالها دون كمال الذات تعالت وتقدست، فالوجوبُ المطلقُ مختصٌّ بذات الواجب تعالى، فإنَّها منزَّهةٌ عن مظنَّة النقص، ومبرَّأةٌ من شائبة القصور، وصفاتُ الواجب وإن كان لها قدمٌ في دائرة الوجوب، ولكن لما كانت محتاجةً إلى الذات؛ كان وجوبُها دون وجوب الذات، كما أنَّ وجودها دون وجود الذات تعالت، فإنَّ في وجودها نقاضةً بالعدم، وهو عدمُ العلم وعدمُ القدرة مثلاً، وليس لوجود الذات تعالت عدمٌ مقابلٌ أصلاً، ولا يتصوَّرُ له نقيضٌ قطعاً، فلو كان عدمٌ من الأعدام نقيضاً لوجود الواجب تعالى؛ لكان محتاجاً إلى رفع ذلك النقيض، والاحتياجُ من سمات النقص المناسب لحال الإمكان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

لا يخفي أنَّه ينبغي التحاشي من إطلاق لفظ الإمكان على صفات الواجب جلّ سلطانه؛ لكونه موهماً للحدوث، وصفاتُ الله تعالى قديمةٌ، وإن لم تكن واجبةً بذواتها، ولكنَّها واجبةٌ بالنظر إلى ذات الواجب جل شأنه، فإنَّها غيرُ منفكّةٍ عنها، وحاصلُ هذا المعنى وإن كان منجراً إلى الإمكان، ولكنَّه خالٍ عن توهُّم الحدوث، وعدمُ حصول النَّقيض من العدم لوجود الواجب تعالى كشفيٌّ وشهوديٌّ، وإن استدلَّ عليه بحسب الصورة كما يورد على بديهيٍّ تنبيهٌ في صورة الاستدلال، ولنرجع إلى أصل الكلام، فنقول في جواب السؤال:

لا يبقى في الممكن على تقدير الفناء بعد زوال العدم شيءٌ غير الوجود، ولا يكون له نصيبٌ غيرَ الثُّبوت والتحقّق، فإنَّه قد انتفى عنه العينُ والأثرُ، ولكن هذا الوجودُ والثبوتُ مما أثبت للممكن في مرتبة الوهم والحسّ، وترتَّبت عليه الآثارُ، وصار مرآةً لكمالات مرتبة حضرة الوجوب تعالت وتقدست بعد زوال العدم، وصار ذاتُ الممكن وحقيقتُه كالعدم الزائل، وكان هذا الثُّبوتُ قبل زوال العدم من صفات العدم مثبتاً له في مرتبة الحسّ والوهم، وقد صار ذلك الثبوت الآن بعد زوال العدم نائباً منابه في كونه ذات الممكن، وانتساب..

الصِّفات إليه، وقيام معاملة العدم به، وقيامُ معاملة نيابة العدم هذه منوطٌ ببقاء نقيض ذلك الثبوت وبقاء الإمكان، فإذا ترقَّت المعاملةُ من نقيض الثبوت، ولم يبق للوجود ما يقابله، بل لم يبق للعدم مجالُ المقابلة به، ولم يبق للإمكان مساغٌ فيه؛ فحينئذٍ تتبدَّلُ المعاملةُ غيرَ المعاملة، وتقع بين الجلساء والندماء مغايرةٌ ومبادلةٌ، فينبغي طلب سرّ (أو أدنى) ثمّةَ، وكلُّ محلٍّ فيه شوبُ الإمكان ومجالُ العدم - ولو بالنقاضة - فهو داخلٌ في قاب قوسين، فإذا شرع الإمكانُ والعدمُ في الرحيل، وقرعت لهما مقرعةُ التحويل؛ فحينئذٍ تستقبل كمالات (أو أدنى)، لا بمعنى: أنَّ الممكنَ يصير في ذلك الوقت ذاتَ الواجب يعني عينه، بل بمعنى: أنَّ قيامه يكون بالذات البحت تعالت، ويزول قيامه الذي كان بظلٍّ من ظلال الذات تعالت:

(ع) لَـيْـسَ مَـنْ غَـابَ فِـي الْإِلَـهِ إِلَـهـًا

وقيامُ هذا العارف بذات واجب الوجود كقيام صفاته بذاته سبحانه وتعالى، بل قيامُه بمرتبةٍ ليست الصِّفاتُ ملحوظةً فيها أصلاً، وإن لم يكن للصفات انفكاكٌ عن الذات، إلا أنَّ قيام الصِّفات أزليٌّ وأبديٌّ، وهي قديمةٌ، وقيامه ليس بأزليٍّ، وهو متَّسمٌ بسمة الحدوث، ولكن للصفات نقائصُ من الأعدام، كعدم العلم وعدم القدرة مثلاً، ومعاملةُ هذا العارف قد ترقَّتْ من نقاضة الأعدام كما حقَّقنا. لا يخفى أنَّ المعاملةَ إذا ترقَّت من نقاضة العدم يتحقّقُ الوجوبُ، ويصير الممكنُ واجبًا، وهو محالٌ.

أجيب: إنّما يصـير الممكنُ واجبًا إذا عرض له الوجودُ الخارجيُّ، ولا ثبوت للممكن في غير مرتبة الوهم والحسّ، فمن أين يتصـوَّرُ في حقِّه وجوبُ الوجود؟ وظهر من هذا البيان بين قيام العارف وقيام الصِّـفات فرقٌ آخر، وهو أنَّ قيامَ الصِّفات باعتبار الوجود الخارجيّ، وقيامَ العارف باعتبار الوجود الوهميّ، وإن كان له ثباتٌ واستقرارٌ، وكان مبدأً للآثار. ينبغي أن يعلم أنَّ بقاءَ صـدور (أنا) من العارف مربوطٌ ببقاء العدم الذي هو حقيقتُه، فإذا زال العدمُ لم يبقَ لـــ(أنا) موردٌ حتى يطلق عليه، ومعاملةُ الثبوت بعد زوال العدم وإن كانت طويلةَ الذيل، وصـار الثبوتُ ذاتـًا للممكن، ولكن لا موردَ لكلمة (أنا) هناك، وكأنَّ وضـعَ لفظ (أنا) كان للحقيقة العدميّة حيث تنفر من الحقيقة الثبوتية. نعم، إنَّ الجزءَ الأعظمَ في الممكن هو العدمُ، وصـار الممكنُ ممكنـًا من العدم، واتَّسعت معاملةُ الممكن من العدم، واحتياجُ الممكن إنّما نشأ من العدم، والحدوثُ اللازمُ للإمكان إنّما ترتَّب على العدم، وكثرةُ الممكن منشعبةٌ من جهة العدم، والامتيازُ فيه أيضـًا حصل من العدم، والوجودُ في حقِّه مستعارٌ، وهو أيضـًا بالتخيُّل والتوهُّم ولو كان له ثباتٌ واستقرارٌ. واعلموا أنَّ الصِّفاتِ القائمةَ بذات الواجب جلَّ سـلطانه تُظْهِرُ الذَّات عزَّ شـأنها بتمامها بلونِ كلِّ واحدةٍ منها، لا أنَّ بعضَ الذات يكون متَّصـفا بصـفةٍ، وبعضٌ آخرُ منها متَّصفـًا بصفةٍ أخرى، فإنَّه لا تبعُّضَ في حضرة الذات ولا تجزّي، بل هي بسيطٌ حقيقيٌّ، وكلُّ حكمٍ يثبت ثمة؛ فهو باعتبار الكلية، كما قالوا: إنَّ ذات الله تعالى كلَّها علمٌ، وكلَّها قدرةٌ، وكلَّها إرادةٌ، والقيامُ الذي يحصـل للعارف بذات الواجب جل سـلطانه بلا ملاحظة الأسـماء والصِّـفات أيضـًا من هذا القبيل، حيث تظهر بالكلية بلونه، وتبدي مرآتيتها بتشخُّصه، ....

على عكس مرايا أخر، فَهِمَ من فهم: (شعر)

أَتُقِيمُ يَا سَعْدُ الْقِيَامَةَ مِنْ حَلَا ... وَةِ مَنْطِقٍ عُطِّلَتْ بِهِ الْبَبَّغَاءُ

ومثلُ هذا الظهور - أعني: ظهورَ المرآة بلون الصُّورة بالكلية - إن حصل للعارف بعد الفناء الأتمِّ بقاءٌ بذلك الظُّهور يكون أكملَ تعيّناته؛ لكونه وجوداً موهوباً حقّانياً، قد تيسّرَ له بالولادة الثّانية، وهذا التعيّنُ مع حدوثه وإمكانه لما كان ناشئاً من مرتبة الجمع له مزيّةٌ وفضلٌ على تعيّناتٍ أخرَ ليست ناشئةً من تلك المرتبة، كمزيَّة حروف القرآن وكلماته على حروفٍ وكلماتٍ أخرَ، وإن كان كلّها متّسمةً بسمة الحدوث، وأبلهُ من يرى هذا التَّعيّنَ من اقتصار نظره على الظَّاهر مساوياً لتعيّناتٍ أخر، وتزعم مساواة حروف القرآن وكلماته مع حروف كلمات أخر، فاعرف فضلَ العارف من ههنا، وقس مزيَّته على الآخرين على مزية كلام الله عز وجل على كلام الآخرين: (شعر)

خَابَ الذِي قَدْ يَرَى ذَا الْقُبْحِ كَالْحَسَنِ ... وَفَازَ مَنْ كَانَ فِيهِ حِدَّةُ الْبَصَرِ

وقال المحجوبون في حق محمد رسول الله ﷺ: إنَّه بشرٌ، وتصوَّروه كسائر البشر، فأنكروه بالضَّرورة، وتصوَّره أصحابُ الدَّولة وأربابُ السعادة بعنوان الرسالة والرَّحمة للعالمين، واعتدوه ممتازاً من سائر الناس، فتشرفوا بدولة الإيمان، وصاروا من أهل النجاة.

تنبيهٌ: إذا أورد في أثناء أداء بعض المطالب العالية المتعلّقة بذات الواجب جلّ شأنه وصفاته بواسطة ضيق ميدان العبارة ألفاظٌ موهمةٌ بصفات الممكن المستلزمة للنَّقص والقصور ينبغي أن يصرفَ تلك الألفاظُ عن ظاهرها، وأن يُعتقدَ جنابُ قدسه تعالى منزَّهاً ومبرَّأً عن جميع صفات النَّقص وسمات القصور، وأطلق بعض الألفاظ الذي لم يَرِدْ به الشَّرْعُ على حضرته تعالى بتقليد المشائخ العظام بطريق التجوُّز مثلُ المرآتية وغيرها، وأنا خائفٌ مشفقٌ منه. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ اِنْ نَسِينَآ اَوْ اَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فإن قيل: إنَّه قد يقع في عبارتك لفظ التجلِّي والظهور الظلي وأمثالهما، فيلزم منه تنزُّل الوجود في مراتب الظهورات كما قال به المشائخ، وأنت تنكر على ذلك، فما وجه ما ذكرت هنالك؟

قلت: إنَّ التنزُّلَ إنّما يلزم إذا قلنا: إنَّ المظهرَ عينُ الظَّاهر كما قال الآخرون، وأما إذا لم نقل: إنَّه عينُه لا يلزم التنزُّلُ، ومختارُ هذا الفقير عدمُ عينية الظَّاهر بالمظهر. والله سبحانه الموفق.

المكتوب الخامس والستون

إلى مولانا صفر أحمَدَ الرُّوميِّ في بيانِ أنَّ كلَّ صفةٍ من صِفاتِ العارفِ،
وكلَّ لَطيفةٍ من لَطائفِه تظهَر بعُنوانِ كلِّيَّة ذاتِه بعدَ بقاءِ ذاتِه.

إذا أعطي العارفُ الكاملُ التامُّ المعرفة بعد بقاء الذات الصِّفاتِ الكاملةَ والأخلاقَ الحميدةَ تظهرُ كلُّ صفةٍ من تلك الصِّفات متَّصفة بعنوان كليّةِ ذاته، لا أنَّ بعض ذاته يكون متّصفاً بصفةٍ، وبعضاً آخر متّصفاً بصفةٍ أخرى، مثلاً: تكون ذاته بتمامها علماً، وبتمامها بصراً، وبتمامها سمعاً، كما قال محققو الصوفيَّة في صفات الواجب جل شأنه: ذاتُ الله تعالى كلُّها علمٌ، وكلُّها قدرةٌ، وكلُّها سمعٌ، وكلُّها بصرٌ مثلاً، ومن ههنا يرى المؤمنون الحقَّ سبحانه في الجنة بلا جهةٍ، فإنَّهم يكونون بكليتهم أبصاراً، فإذا كانوا بكليتهم أبصاراً؛ كيف يكون هناك مجالٌ للجهة؟ قالوا: إنَّ ما تيسّر لعوام المؤمنين في الآخرة بعد اللتيا والتي يتيسّرُ للأولياء الذين هم خواصُّ المؤمنين في ....

الدنيا، فيكون ما هو نسبة في حقّ هؤلاء نقداً لهؤلاء، ينبغي أن يقيس نسبتهم من ذلك:

(ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْتَانِي رَبِيعِي

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. وكذلك كلُّ لطيفةٍ من لطائف ذلك العارف تظهر بوصف كليَّته، فيصيرُ العارف بتمامه لطيفةَ الروح، وبتمامه لطيفةَ القلب، وعلى هذا القياس سائرُ اللَّطائف الإنسانيَّة من النَّفس النَّاطقة والسرِّ والخفيّ والأخفى، وعلى هذا المنوال أيضاً كلُّ جزءٍ من أجزائه وكلُّ عنصرٍ من عناصره يأخذ حكم الكلّ، مثلاً: يجد العارفُ نفسه بالتمام عنصرَ التراب، وبتمامه عنصرَ الماء، فإذا انصبغت لطيفةُ القلب التي هي الحقيقةُ الجامعةُ بلون الكلّ، وزال تعلّقُه الذي كان بالمضغة القلبية، وبقيت المضغةُ خاليةً في ذلك الوقت كالجسد الخالي عن الروح؛ يتخيَّل أنَّه ما أصابها في هذا المجيء والذهاب غبارٌ من هذا الطَّريق، بل هي على صرافتها الأصلية كحبَّةٍ بقيت في قدرٍ مغليٍّ غيرَ مطبوخةٍ بحيث لم تؤثِّرْ فيها الحرارةُ، ولم يصبها الماءُ.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّها بعد رفع ذلك التعلّق وبعد الخلوّ تكون منصبغةً بلون سائر الأجزاء، وتأخذ حكمَ الكلّ كأجزاء أخر.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالسِّتُّونَ

إلى مُحمَّد مُقيمٍ القُصوريِّ في جَوابِ سُؤالِه عن مَعنَى: (المَجازُ قنطرةُ الحَقيقةِ).

سأل أخي محمد مقيم: أنَّه بأيِّ معنى قالوا: المجازُ قنطرةُ الحقيقة؟

اعلم أنَّ المجازَ ظلُّ الحقيقة، ومن الظلِّ إلى الأصل طريقٌ سلطانيٌّ، ولعلهم بهذا الاعتبار قالوا: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**»، فإنَّ معرفةَ الظلّ مستلزمةٌ لمعرفة الأصل، فإنَّ الظلَّ كائنٌ على صورة أصله، فيكون سبباً لانكشاف الأصل؛ لأنَّ صورةَ الشيء: ما ينكشف به ذلك الشيءُ، لكن ينبغي أن يعلم أنَّ المجازَ إنّما يكون قنطرةَ الحقيقة إذا لم يدخل في البين تعلّقٌ بالمجاز، ولم ينجرَّ الأمرُ إلى نظرةٍ ثانيةٍ، وقنطرةُ الحقيقة هي النظرةُ الأولى التي قال المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام في حقِّها: «**النَّظْرَةُ الْأُولَى لَكَ**»[1]، وكأنَّه أشار بلفظ (لك) إلى حصول هذه الدَّولة، وأما إذا دخل التعلُّقُ بالمجاز في البين - عياذاً بالله سبحانه -، وانجرَّ الأمرُ إلى النظرة الثّانية؛ فذلك المجازُ سدٌّ في طريق الوصول إلى الحقيقة، فضلاً عن أن يكون قنطرةً، بل هو صنمٌ يدعو إلى عبادته، وغولٌ يضلّ عن طريق الحقيقة بغوايته، ولهذا قال المخبرُ الصادقُ بياناً لمضرة النظرة الثّانية: «**النَّظْرَةُ الثَّانِيَةُ عَلَيْكَ**»، وأيُّ شيءٍ يكون أضرَّ مما يصدُّ عن الحقّ ويشغل بالباطل؟ ينبغي أن يعلم أنَّ النظرةَ الأولى إنّما تكون نافعةً إذا لم تكن عن اختيارٍ، وأما إذا كانت بالاختيار؛ فحكمُها حكمُ النظرة الثّانية، قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] كافٍ في إثبات هذا المطلب، ولم يفهم جهلاءُ الصوفيَّة الناقصون معنى هذه العبارة، فغلطوا وخلطوا، وطفقوا يشغفون بالصور الجميلة، وينخدعون بغنجهم ودلالهم بطمع أنَّهم يجعلونهم وسيلةَ الوصول إلى الحقيقة، ومعراجاً لحصول المطلوب. كلا، إنَّ ذلك هو عينُ سدِّ طريق المطلوب، وحاجبٌ عن حصول المقصود، والذي زُيِّنَ في نظرهم هو الباطلُ، وهم قد وقعوا في الغرور بأنَّه الحقيقةُ، وزعم جمعٌ منهم حسنَ تلك الصور وجمالَهم حسنَ عين الحقّ جلّ شأنه وجمالَه، وظنُّوا التعلّقَ بهم عينَ التعلّق بالحقِّ، وزعموا مشاهدتهم عينَ مشاهدة الحقّ حتى قال بعضهم: (شعر)

امروز چون جمال تو، بی پرده ظاهر است　　　در حيرتم، كه وعدهٔ فردا براى چيست

(١) أخرجه البزار (٧٠١) من حديث علي ﷺ بلفظ: «يا علي، لا تتبع النظرةَ النظرةَ، وإنَّما لك النظرة الأولى».
وأخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ١٥) من حديث علي أيضاً بلفظ: «النظرةُ الأولى لك، والآخرةُ عليك».

تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ماذا ظنَّ هؤلاء القاصرون الحقَّ سبحانه؟ وماذا زعموا حسنه وجماله تعالى؟ أما سمعوا أنَّه إذا وقعت شعرةٌ من شعر حور الجنان التي هي من مخلوقاته سبحانه فرضـًا في الدنيا؛ لَمَا أظلمت الدنيا من إضاءتها وإشراقها أبداً[1]، وقد ثبت احتراقُ جبل الطور واندكاكه بتجلٍّ واحدٍ من تجلّيات الحق جلّ وعلا، وسقوطُ كليم الله على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام مغشيّـًا عليه من ذلك التجلّي مع علوِّ منزلته وزيادة قربه ورفعته بنص القرآن، وهؤلاء مع قصور عقولهم هذه يرون الحقَّ سبحانه بلا حجابٍ في جميع الأوقات، ويتعجبون من وعد الرؤية الأخرويَّة، ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]. وعلماءُ أهل السنة والجماعة شكر الله تعالى سعيهم بذلوا غايةَ جهدهم في إثبات الرؤية الأخرويَّة ببراهين نقليةٍ، وخالفوا في ذلك جميع الفرق، فإنَّه لم يقل برؤية الحق جلّ وعلا غيرَ أهل السنة أحدٌ من الفرق المخالفين، مِلّيُّوهم وغير ملييهم، بل عدُّوها من المحال العقليِّ، وأهلُ السنَّة أيضـًا قالوا: إنَّها بلا كيفٍ، وإنَّها مخصوصةٌ بتلك النشأة، وهؤلاء المهوسون يزعمون حصولَ هذه الدَّولة الباهرة في هذه النَّشأة الفانية، وصاروا مسرورين بمنامهم وخيالهم. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

المكتوب السابع والستون

إلى المِير مَنصورٍ فِي بيانِ حقيقةِ الكائناتِ، وبيانِ الفَرقِ بينَ مكشوفِ حضرةِ شيخِنا ومكشوفِ صاحبِ «الفتوحاتِ».

إنَّ عرصةَ هذه الكائنات التي تتخيَّل معاينةً ومشهودةً ومنبسطةً ومسطَّحةً وطويلةً وعريضةً هي عند حضرة الشَّيخ محيي الدين ابن العربي وتابعيه حضرةُ الوجود الذي لا موجودَ في الخارج غيرُه، وذلك الوجودُ هو ذاتُ الحقّ سبحانه الذي يسمُّونها: ظاهرَ الوجود الذي بواسطة انعكاسه في الصُّور العلمية المتكثِّرة التي يسمُّونها: باطن الوجود، ويقال لها: الأعيانُ الثابتةُ، وتلبُّسُه بها يتخيَّل متكثراً ومنبسطاً وطويلاً وعريضـًا مع كونه على وحدته وبساطته، ويقولون: إنَّ مشهودَ الكلِّ ومحسوسَ الجميع من العوام والخواصّ في هذه الصفحة في الكسوة الكونية، وفي الصور والأشكال المتمايزة هو حضرةُ الحق سبحانه، يتوهم للعوام عالمـًا، والعالم لم يخرج من موطن العلم أصلاً، ولم يشمَّ رائحةً من الوجود الخارجي، والظَّاهرُ في مرآة حضرة الوجود هو عكوسُ تلك الصور العلمية أوقعت العوامَّ في توهم الوجود الخارجيّ بظهورها في الخارج، لمولانا الجامي عليه الرَّحمة رباعي[2]:

مجموعهٔ كون را به قانونِ سَبَق	كرديم تفحُّص وَرقـًا بعد وَرَق
حقّا كه نديديم و نخوانديم درو	جز ذات حق و شؤونِ ذاتيهٔ حق

وما هو مكشوفُ هذا الفقير ومعتقدُه هو أنَّ هذه العرصةَ هي عرصةُ الوهم، وهذه الصورُ والأشكالُ التي فيها هي صورُ الممكنات وأشكالُها ثبتت بصنع الله سبحانه في مرتبة الحس والوهم، وصارت متقنةً، وكلُّما هو محسوسٌ مشهودٌ في هذه الصفحة؛ فهو من الممكنات، وإن كان يتوهَّم ذلك المشهودُ لبعض السَّالكين واجبـًا، وظهر بعنوان الحقية، ولكنَّه من أفراد العالم، وهو تعالى وراء الوراء، ومنزَّهٌ عن رؤيتنا وعلمنا، ومبرَّأٌ من........................

(١) أخرج ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٢٧٢) من حديث أنس ﷺ مرفوعـًا: «والذي نفسي بيده، لو طلعت امرأةٌ من نساء أهل الجنة على أهل الأرض؛ لأضاءت ما بينهما، وملأت ما بينهما بريحها، ولنصيفُها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها». وأخرج أيضـًا (٣٦٤) من حديث شيخ من أهل البصرة مرفوعـًا: «لو أنَّ حوراءَ بزقت في بحرٍ؛ لعذُب ذلك البحرُ من عذوبة ريقها». وأخرج أيضـًا (٢٨٦) عن ابن عباس قال: (لو أنَّ امرأةً من أهل الجنة بصقت في سبعة أبحرٍ؛ لكانت تلك الأبحرُ أحلى من العسل).

(٢) الرباعيُّ لمولانا الجاميِّ، وقد التزمت أن أثبت أصولَ الأبيات غالبـًا في هذا الجلد تبركـًا واعتماداً على التراجم السابقة، فليتنبه. من المعرِّب.

كشفنا وشهودنا: (شعر)

أَنَّى يُرَى لِلْخَلْقِ نُورُ جَمَالِهِ وَبِأَيِّ مِرْآةٍ يَكُونُ مُصَوَّرَا

غايةُ ما في البابِ: أنَّ هذه العرصةَ الموهومةَ ظلُّ تلك العرصة الخارجيَّة التي هي حَرِيَّةٌ بمرتبة الوجوب تعالت وتقدست، كما أنَّ وجودَ هذه المرتبة ظلُّ وجود تلك المرتبة، فلو قيل لمرتبة الوهم هذه باعتبار كونها ظلّاً لمرتبة الخارج خارجاً؛ لساغ كما يقال لها باعتبار الوجود الظليّ موجوداً أيضاً، وعرصةُ الوهم هذه كعرصة الخارج من جملة نفس الأمر، ولها أحكامٌ صادقةٌ، والمعاملةُ الأبديّةُ مربوطةٌ بها كما أخبر به المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ينبغي أن يلاحظ أنَّ أيّاً من هذين المكشوفين أقربُ إلى تنزيه الله تعالى، وأليقُ بتقديسه سبحانه، وأولى وأنسبُ بالنِّسبة إلى جناب قدسه تعالى؟ وأيٌّ منهما مناسبٌ لبداية الحال وتوسطه؟ وأيُّهما مناسبٌ لحال الانتهاء؟ وكان هذا الفقيرُ معتقداً للمكشوف الأوّل منذ سنين، ومرَّتْ عليه في ذلك الموطن أحوالٌ عجيبةٌ ومشاهداتٌ غريبةٌ، وحصل له في ذاك المقام حظٌّ وافرٌ، ثم صار آخرَ الأمر بمحض فضل الله جل شأنه معلوماً أنَّ كلما يرى ويعلم فهو غيرُ الحقّ سبحانه لازم النفي، وبعد اللّتيا والتي انجرّت المعاملةُ بكرم الله جل شأنه من النفي إلى الانتفاء، وزال الباطلُ الذي أظهر نفسه بعنوان الحق عن الرؤية والعلم، وحصل التعلّقُ بغيب الغيب، وامتاز الموهومُ من الموجود، وافترق القديمُ من الحادث، وذلك حاصلُ المكشوف الثّاني، للمؤلف (رباعي):

در عرصهٔ کائنات، با قلّتِ فهم بسيار گذشتيم به سرعت، چون سَهم

گشتيم همه چم، نديديم درو جز ظلّ صفات آمده ثابت در وَهم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

المَكتُوبُ الثَّامِنُ وَالسِّتُّونَ

إلى الفقيرِ محمَّد هاشمٍ الكَشْمِيِّ في تحقيقِ مرتَبةِ الوهمِ التي ظهرَ العالَمُ في تلكَ المرتبةِ، وما يُناسِب ذلك.

إنَّ قولنا للعالم: موهوماً لا بمعنى: أنَّه منحوتُ الوهم ومجعولُه، كيف يكون منحوتَ الوهم، فإنَّ الوهمَ أيضاً من جملة العالم؟ بل بمعنى: أنَّ الحقَّ سبحانه خلق العالمَ في مرتبة الوهم وإن لم يكن الوهمُ موجوداً في ذلك الوقت، ولكنَّه كان في علم الله تعالى، ومرتبةُ الوهم عبارةٌ عن ظهورٍ بلا كونٍ، ووجودٌ كمثل دائرةٍ ناشئةٍ من جولان النقطة الجوالة، حيث إنَّ لها ظهوراً ولا وجودَ، والحكيمُ المطلقُ جلَّ سلطانه خلق العالم في تلك المرتبة، وأعطى الظهورَ المحضَ ثبوتاً وثباتاً، وأخرجه من الغلط إلى الصحة، ومن الكذب إلى الصدق، وجعله نفس الأمر، ﴿أُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، والمرتبةُ الموهومةُ مرتبةٌ عجيبةٌ لا مزاحمةَ لها بالموجود أصلاً ولا تدافعَ، ولا تثبت له جهةٌ من الجهات ولا حدٌّ ولا نهايةٌ، كما لا تنازع للدائرة الموهومة مع النقطة الجوالة الموجودة، ولا جهةٌ من الجهات ثابتةٌ لها معها، ولم يحدث في النقطة نهايةٌ أصلاً من حدوث الدائرة الموهومة، حيث لا يمكن أن يقال: إنَّ النقطةَ في يمين الدائرة أو في شمالها أو في قدامها أو في خلفها أو فوقها أو تحتها، وثبوتُ هذه الجهات للدائرة إنّما هو بالنِّسبة إلى الأشياء التي لها ثبوتٌ في مرتبتها، وأما ما هو كائنٌ في مرتبةٍ أخرى؛ فليس شيءٌ من هذه الجهات بثابتٍ........

للدائرة معها، وأيضـًا لم يثبت لهذه النقطة حدٌّ ونهايةٌ بحدوث تلك الدائرة، بل هي على صرافتها، ولله المثل الأعلى. ينبغي أن يعلم من هذا البيان حالُ العالم مع صانع العالم جلَّ شأنه بأنَّه لم يحدثْ له سبحانه من إيجاد العالم حدٌّ ولا نهايةٌ، ولم تحصلْ له جهةٌ من الجهات، وهذه النِّسبةُ كيف تتصوَّرُ هناك، فإنَّه لا اسمَ من هؤلاء في تلك المرتبة العلياء ولا رسمَ حتى تتصوَّرَ النِّسبُ؟ وطائفةٌ من المخذولين توهَّموا - من قصور نظرهم - حصولَ هذه النسب وثبوتَ الجهات في حقّ صانع العالم جل شأنه مع العالم، ونفوا رؤيته تعالى، وزعموها محالاً، وقدَّموا جهلهم المركَّبَ وتصديقَهم للكاذب على الكتاب والسنَّة، وظنُّوا أنَّه لو كان الحقُّ سبحانه مرئيًّا؛ لكان في جهةٍ من جهات الرائي، وذلك مستلزمٌ للحدِّ والنهاية. وقد علم من التحقيق السابق: أن لا شيءَ في حقه سبحانه من هذه النسب مع العالم، سواءٌ أثبتت الرؤية أو لا، فتكون الرؤيةُ ولا تحدث الجهةُ كما تحقّق هذا المعنى، أما علموا أنَّ هذا المحذورَ لازمٌ أيضـًا في وقت وجود العالم؟ فإنَّ الصانعَ تعالى يكون في جهةٍ من العالم، ويكون أيضـًا وراء العالم، وهو مستلزمٌ للحدِّ والنهاية. فإن قالوا: إنَّه في جميع جهات العالم؛ فما يقولون في حقِّ لزوم الحدِّ والنِّهاية اللازم للورائية؟ وأيضـًا الفسادُ والمحذورُ في ثبوت الجهة إنّما هو لاستلزامها النِّهايةَ، وهي بنفسها لازمةٌ هنا، والخلاصُ من هذا المضيق إنّما هو في اختيار قول الصوفيَّة، أعني: قولَهم للعالم موهومـًا، فيحصل التخلُّصُ حينئذٍ من إشكال الجهة والنهاية، ولا محذورَ في القول بأنَّه موهومٌ أصلاً، فإنَّ له أحكامـًا صادقةً كالموجود، والمعاملةُ الأبديّةُ والتنعماتُ والتعذيباتُ السرمديةُ مربوطةٌ به، والموهومُ الذي قال به السوفسطائيّةُ المجانين شيءٌ آخر، فإنَّه مخترَعُ الوهم، ومنحوتُ الخيال، شتان ما بينهما. ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول:

إنَّه لا جهةَ للدائرة الموهومة الناشئة من النقطة الجوالة بالنِّسبة إليها، بل هي خارجةٌ من جميع جهاتها، فلو صارت تلك الدائرةُ فرضـًا بتمامها بصراً؛ لرأت النقطةَ من غير جهة ألبتَّةَ؛ لأنَّ الجهةَ مفقودةٌ بينهما، وفيما نحن فيه أيضـًا لو صار الرائي بتمامه بصراً، ورأى الحقَّ جلَّ وعلا بلا جهةٍ، أيُّ محذورٍ يلزم فيه؟ والمؤمنون يرونه سبحانه في الجنة بكليتهم، ولا يثبت جهةٌ أصلاً، وبحكم «**تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ**» تحصل هذه الدَّولةُ للأولياء في الدنيا، ويصيرون بكليتهم بصراً، وإن لم تكن رؤيةٌ، فإنَّها مختصَّةٌ بالآخرة، ولكن لها حكم الرؤية، وإنَّما قلت: تخلقوا بأخلاق الله فإنَّهم قالوا في الواجب تعالى ذاته كلّها بصرٌ، وكلّها سمعٌ، وكلها علمٌ، وللمتخلقين نصيبٌ من هذه الأخلاق ألبتة، وكلُّ صفةٍ من صفاتهم تأخذ في ذلك المقام حكمَ كليَّتهم، فيصيرون بكليتهم بصراً مثلاً، ويعطى سائرُ المؤمنين هذه النِّسبةَ في الآخرة، فيتشرفون هنالك بدولة الرؤية إن شاء الله تعالى، ولا يلزم على هذا التقدير محذورٌ واشتباهٌ أصلاً. والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالسِّتُّونَ

إلى القاضي مُوسَى شوحين في التَّرغيبِ في التِزامِ الشَّريعةِ، وصُحبةِ أربابِ الجَمعيَّة.

بعد الحمد لله والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ أحوالَ فقراء هذه الحدود مستوجبةٌ للحمد، وسَرَتِ الصحيفةُ الشَّريفةُ المرسلةُ مع الدرويش رحم علي بوصولها، رزقكم الله السلامةَ والاستقامةَ، واندرج فيها طلبُ النصائح.

أيُّها المخدومُ، النَّصيحةُ هي الدينُ، ومتابعةُ سيد..

المرسلين عليه وعليهم الصلاة والتسليمات.

غَايةُ ما فِي البابِ: إنَّ للمتابعة أقساماً: قسمٌ منها إتيانُ الأحكام الشَّرعيّة، وباقي الأقسام ذكرها الفقيرُ بالتَّفصيل في مكتوبٍ حرَّره لبعض المحبين آمره إن شاء الله تعالى بإرسال نقله إليكم. وبالجملة: إنَّ مدارَ الإفادة والاستفادة في هذه الطَّريقة على الصحبة لا يكتفى فيها بالقول والكتابة، قال حضرة الخواجه النقشبند قدس سره: إنَّ طريقتنا صحبةٌ، وفضِّل أصحابُ خير البشر عليه وعليهم الصلاة والسلام على غيرهم من أولياء الأمة بالصحبة، حتى لا يبلغ وليٌّ من الأولياء مرتبةَ صحابيٍّ من الصحابة، ولو كان ذلك الوليُّ أويساً القرنيَّ. المسؤولُ من الإخوان الدعاءُ بسلامة الإيمان. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. وقَلَبَ رحم علي ورقته، ورُزِقَ الصلاحَ والإصلاح، أعطاه الحقّ سبحانه الاستقامةَ. والسلام.

المَكتُوبُ السَّبْعُونَ

إلى مولانا إسحَاقَ بنِ القَاضِي مُوسَى في التَّحريضِ على صُحبَة أربابِ الجَمعيَّة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

وصل المكتوبُ الشَّريفُ المرسلُ مع الدرويش رحم علي، ولما كان منبئاً عن الذَّوق والشَّوق؛ أورث المسرَّةَ، وحصل الفرحُ من مطالعة ما كتبتم في ورقة على حدةٍ من الواقعة التي ظهرت لكم، واعلم أنَّ مثل هذه الواقعة من المبشرات، ينبغي السعيُ حتى يخرج الأمرُ من القوة إلى الفعل، ومن المراسلة إلى المعانقة، وتداركُ التقصير اليوم ممكنٌ، فينبغي اغتنامُ الفرصة دون أن يسوّف في الأمر ويؤخّر، قال حضرة الخواجه أحرار قدس سره: كنا مع جماعةٍ من الدَّراويش، فجرى الكلامُ بيننا في الساعة المستجابة المودعة في يوم الجمعة بأنَّها إذا تيسّرتْ ماذا ينبغي أن يطلبَ من الله تعالى فيها؟ فقال كلُّ أحدٍ كلاماً، فلما بلغت النوبةُ إليّ، قلت: ينبغي أن يطلب فيها صحبةُ أرباب الجمعيَّة، فإنَّ جميع السعادات ميسَّرة في ضمنها. وأرسلنا بعض نقول المكاتيب مصحوباً بالرافع رزق الله سبحانه الانتفاع به.

ثم إنَّ أخي الشَّيخ كريم الدين جاء منذ مدّةٍ، ولعله يكتب إليكم من أحواله، والمتوقَّعُ من الأحباب الدعاءُ، ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالسَّبْعُونَ

إلى جَنابِ المَخدومِ زَادَه محمَّد عُبيدِ اللهِ في بيانِ التَّمييزِ بينَ دَقائِقِ المَوهومِ الذي هو العالَمُ، وبَينَ المَوجودِ الحَقيقيِّ الذي هو صانِعُ العالَمِ.

ولله المثل الأعلى إنَّ النقطةَ الجوالةَ التي نشأت منها الدَّائرةُ في الوهم كما أنَّها موجودةٌ في الخارج؛ موجودةٌ في الوهم أيضاً، ولكن وجودُه هناك بلا نقاب ظهور الدائرة، وهنا بهذا النقاب، وكونُها موجودةً في الخارج لا بمعنى: أنَّ لها في كلا المرتبتين وجوداً على حدةٍ، كلا، بل لها وجوداً واحداً في الخارج والوهم، هناك بلا نقابِ الدائرة، وهنا مع النقاب، وهذه الدائرةُ الموهومةُ التي لها ظهورٌ في الوهم بلا وجودٍ إنّما حدثت من غلط الحسّ، فإن جعلت في تلك المرتبة موجودةً، وأعطيت ثباتاً واستقراراً وظهوراً بالوجود؛ لخرجت من غلط الحسّ ألبتة، وصارت من جملة نفس الأمر، وترتَّبت عليها أحكامٌ صادقةٌ، فلهذه ....

الدَّائرة في الوهم حقيقةٌ وصورةٌ، فحقيقتُها هي النقطةُ الجوالةُ التي هي بها قائمةٌ، وصورتُها هي الدائرةُ نفسها التي عرض لها فيه ثبوتٌ وثباتٌ، وهذه الصورةُ وإن لم تكن عينَ تلك الحقيقة لثبوت أحكامٍ متمايزةٍ فيها، ولكنَّها ليست ببعيدةٍ عن الحقيقة، ومنفكّةٍ عنها، فإنَّ المتخيِّل بهذا الظهور هو الحقيقةُ: (شعر)

إنِّـي أُوَرِّي لِـغَـيْـرِي حِـيـنَ أَذْكُـرُهُ ... بِـذِكْـرِ زَيْـنَـبَ عَـنْ لَـيْـلَـى فَـأُوهِـمُـهُ

قال حضرة الشَّيخ محيي الدين بن العربي قدس سره في هذا المقام: إن شئت قلت: إنَّه حقٌّ، وإن شئت قلت: إنَّه خلقٌ، وإن شئت قلت: إنَّه من وجهٍ حقٌّ ومن وجهٍ خلقٌ، وإن شئت قلت بالحيرة؛ لعدم التميّز بينهما. ينبغي أن يعلم أنَّ هذا التميزَ بين الحقيقة والصورة وإن كان في الوهم، ولكن لما صارت الصورةُ موجودةً في تلك المرتبة بإيجاد الله تعالى، وحصل لها فيها ثباتٌ وتقرُّرٌ؛ كانت من جملة نفس الأمر ألبتة، وحصل لها تميُّزٌ مطابقٌ لنفس الأمر، وصارت موجودةً خارجيَّةً بطريق الظليَّة، فإنَّ وجودَ الصورة كما أنَّه ظلُّ وجود الحقيقة؛ كذلك كانت مرتبةُ الظهور بعد حصول الكون والوجود ظلُّ الخارج أيضـاً، فلما كان التميُّز بين الحقيقة والصورة بحسب نفس الأمر، بل كان خارجيـاً؛ امتنع حملُ إحداهما على الأخرى، ولم تكن إحداهما عينَ الآخر، ومن قال بعينيتهما؛ فهو لم يفهم غيرَ التميز الوهميّ، ولم يثبت عنده غيرُ الامتياز العلميّ. سبحان الله، قد صارت مرتبةُ الوهم بواسطة إيجاد الحق سبحانه الواقع في تلك المرتبة خارجـاً ونفسَ الأمر، وصارت ما وراء العلم والخارج المتعارفين، ولما صارت هذه المرتبةُ خارجـاً ميّزت فيها مرتبةُ الوهم، وصارت النقطةُ موجودةً خارجيةً، والدائرةُ الناشئةُ منه سميتْ موهومةً، والعجبُ أنَّ الصورةَ التي هي ناشئةٌ من الحقيقة، وكلُّما فيها حاصلٌ؛ فهو من الحقيقة، ولا انفكاكَ لها عن الحقيقة أصلاً، قد افترقت عن الحقيقة بلا اختيارٍ، وأخرجتْ من التوهُّم إلى التحقّق، وصار التميُّزُ الوهميُّ خارجيـاً، ينبغي أن يلاحظ قوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] هنا حيث صيَّر اللاشيءَ المحضَ بقدرته الكاملة شيئـاً عالمـاً بصيراً قادراً مريداً، قال واحدٌ من الأكابر: (شعر)

چونكه او شد گوش و چشم و دست و پا ... خـيـره ام در چـشـم بنــدیِ خــدا

ولا مجالَ لربط العين، فإنَّ ربطَ العين إنّما يثبت في محلٍّ يرى فيه غيرَ الواقع واقعيـاً، وهنا قد صيَّر قدرةُ الحقِّ سبحانه غيرَ الواقع واقعـاً، وجعل الأحكامَ الكاذبةَ التي كانت في تلك المرتبة صادقةً، والشَّيخُ يقول بعدم التميز بينهما، والحالُ أنَّ بين العبد والربِّ مسافة خمسين ألف سنة، قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] إشارةٌ إلى ذلك، والشَّيخُ بنفسه أيضـاً معترفٌ ببعد الطَّريق هذا، ولهذا قال بالحيرة: ولا يظننَّ الأبلهُ من بعد الطَّريق أنَّ الحقَّ سبحانه بعيدٌ، فإنَّه سبحانه قريبٌ، بل أقربُ إلى العبد من نفس العبد، بل هذا البعدُ إنّما هو باعتبار الدرك والمعرفة، لا باعتبار المكان والمسافة، والنقطةُ الأخيرةُ من الدائرة أقربُ النقط إلى المبدأ، ولكن لما جعل ظَهْرُها إلى جانب المبدأ ووجهُها إلى طرفٍ آخر وقع وجدانُه مع وجود قربه من المبدأ بعيداً ومربوطـاً بطيّ جميع النقط: (شعر)

ای كـمـان و تـيـرهـا بـر سـاخـتـه ... صيد نزديک و تو دور انـداخـتـه

هــر كــه دور انــدازتــر، او دورتـــر　　　از چنين صيد اســت، او مـهـجـورتـر

نعم، من لم يقاس شديدَ البعد لا يعرف قدر القرب، ما صنع الله سبحانه فهو خيرٌ. والسلام على من ابتع الهدى.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالسَّبْعُون

إلى جَنابِ الخواجه حُسامِ الدِّينِ أحمَدَ في بيانِ أنَّ تَلويناتِ العَسكرِ تَمكينٌ لأربابِ الجَمعيَّة، مع جَوابِ استِفسارِه عن قِراءَة المَولِد.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد تشرَّفتُ بمطالعة الصحيفة الشَّريفة، وملاحظة الملاطفة المنيفة المرسلة باسم هذا الفقير على وجه الكرم والشفقة، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ على صحتكم وعافيتكم، وعدم خلوِّكم عن تفقد أحوال الأحباب المهجورين، وأحوالُ فقراء هذه الحدود وأوضاعُهم مستوجبةٌ للحمد، حيث إنَّ في عين البلاء عافيةً، وفي مظانّ التفرقة جمعيَّةً، والأولادُ والأحبابُ الذين في الرفاقة تمر أوقاتهم على الجمعيَّة، وأحوالهم في الترقِّي والتزايد، والعسكرُ في حقهم خانقاه محضٌ، ونصيبهم في عين تلوينات العسكر جمعيَّةٌ، وهم في عين التعلّقات الشَّتى التي هي من لوازم هذا الموطن متوجّهون إلى مطلبٍ واحدٍ، ومشغوفون به لا شغلَ لأحدٍ معهم، ولا ضررَ عليهم من أحدٍ، ومع ذلك هم مسلوبوا الاعتبار، وبدولة الحبس والقيد لهم اشتهارٌ، يا له من حبسٍ لا يشترى في عوضه الخلاصُ بجوزٍ، ويا له من قيدٍ ليس للإطلاق في جنبه مقدارُ موزٍ، الحمدُ لله سبحانه والمنَّةُ على ذلك وعلى جميع نعمائه. أيُّها المخدومُ، فإنَّ المقصود من إرسال الكتاب إلى قرَّة العين إظهارُ التحسُّر على فوت بعض النعم التي كان حصولُها متوقَّعاً في جوار الوطن والمجيء إلى العسكر، والصحبةُ فيه مربوطٌ بصلاحهم، فإنَّ معرفتهم بأوضاع العسكر أكثر، واطِّلاعَهم على نفع هذا الموطن وضرره أزيد وأوفر، واندرج فيها أنَّه إن كتبت أنَّه لا تصيبهم آفةٌ يذهبون هناك، الغيبُ عند الله تعالى، ولكن حمداً لله سبحانه لم تُصِبْ أحداً من الأصحاب والرفقاء بكرم الله سبحانه آفةُ التفرقة إلى الآن مع كثرة الاختلاط بأرباب التفرقة، ولم يمتنع أحدٌ منهم عن المطلب.

واندرج أيضاً ما في باب قراءة المولد ما المضايقة في نفس قراءة القرآن وقراءة القصائد النَّعتية والمناقب بصوتٍ حسنٍ، والمنهيُّ عنه هو تحريفُ حروف القرآن وتغييرُها، والتزامُ رعاية أوزان النغمة، وترديدُ الصوت بها بطريق الألحان، مع تصفيقٍ مناسبٍ لها غير مباحٍ في الشعر أيضاً، فإن قرؤوا على نهجٍ لا يقع تحريفٌ في كلمات القرآن، ولا تتحقّقُ الشرائطُ المذكورةُ في قراءة القصائد، وكانت قراءتها بغرضٍ صحيحٍ؛ فما المانعُ حينئذٍ؟[1] أيها المخدومُ، قد يقع في خاطر الفقير أنَّه ما لم ينسدَّ هذا البابُ مطلقاً لا يمتنع عنه المهوسون، فلو جوَّزنا في القليل لينجرَّ إلى الكثير، (قليلُه يفضي إلى كثيره) قولٌ مشهورٌ. والسلام.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالسَّبْعُون

إلى حَضرَة المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد سعيدٍ في أسرارِ صِفَة الحَياةِ التي هيَ فوقَ العِلمِ، وبيانِ أنَّ العِلمَ كما أنَّه منَ الصِّفاتِ الزَّائِدة، كذلك هيَ منَ الشُّؤونِ الغيرِ الزَّائِدة أيضاً، وكذا سائِرُ الصِّفاتِ.

اعلم أنَّ حضرةَ الشَّيخ محيي الدين ابن العربيّ قدس سره ومتابعيه الذين أثبتوا التنزُّلات الخمس اعتبروا التَّعيّنَ الأوّلَ من إجمال حضرة العلم، وقالوا له: الحقيقة المحمديَّة عليه وعلى آله الصلاة والسلام، واعتقدوا انكشافَ ذلك التعيّن تجلّياً ذاتياً، واعتقدوا ما فوقه اللاتعيّنَ الذي هو مرتبةُ الذَّات البحت والأحديَّة المجرَّدة من جميع النِّسب والاعتبارات.

---

(١) اعلم أنَّه قد مرَّ المنعُ عن قراءة المولد مطلقاً في مكاتيب عديدةٍ، ومرادُه هو هذا الذي ذكره هنا، وإنَّما أطلق هناك؛ للعلَّة المذكورة هنا، فلا سندَ في منعه عنه للوهابيين خذلهم الله ومن يحذو حذوهم. من المعرِّب.

لا يخفى أنَّ فوق شأن العلم شأنَ الحياة التي العلمُ تابعٌ لها، وهي أمُّ جميع الصِّفات علماً وغيرَه، وسواءٌ كان العلمُ حصوليّاً أو حضوريّاً، وشأنُ الحياة هذا شأنٌ عظيمُ الشَّأن، وحكمُ سائر الشُّؤون والصِّفات في جنبه حكمُ الجداول بالنِّسبة إلى البحر المحيط، والعجبُ أنَّ الشَّيخَ المعظَّمَ لم يَسْرِ في هذه المملكة الوسيعة، ولم يقتطف من رياضها أزهار العلوم والمعارف، وهذا الشأن وإن كان إلى حضرة الذات تعالت أقرب، وللجهالة وعدم الإدراك أنسب، ولكن لَمّا كان فيه شائبةُ التنزُّل والظليَّة؛ كان من مظانّ العلم والمعرفة، قلَّ أو كَثُرَ، ولَمّا وقع السَّيرُ لهذا الفقير بكرم الله سبحانه في ذلك الشأن عظيم الشأن صار مشهوداً أنَّ الشَّيخَ له حجرةٌ تحت ذلك المقام بمسافةٍ بعيدةٍ، وأنَّه اختار الإقامةَ فيه، ولعلَّه نال من هذا المقام حظّاً وافراً في الآخر، وإطلاقُ بعد المسافة في مثل هذه الأبعاد اللا كيفيّة يمكن باعتبارين ضيق ميدان العبارة، أو أنَّ صورةَ ذلك البعد المثالية مشهودةٌ في عالم المثال في صورة بعد المسافة. ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]. والسلام على من اتبع الهدى.

فصلٌ بالخير: لزم من هذا البيان أن لا يكون العلمُ ثابتاً في مرتبة الحياة التي فوقه، سواءٌ كان حصولياً أو حضورياً، فإذا لم يكن ثابتاً في مرتبة الحياة؛ كيف يكون ثابتاً في مرتبة حضرة الذات جل شأنها التي هي فوق الفوق؟ فإذا لم يكن العلمُ ثابتاً؛ يكون نقيضُه ثابتاً تعالى اللهُ سبحانه عن ذلك علواً كبيراً. والتفصّي من هذا الإشكال مبنيٌّ على معرفةٍ دقيقةٍ قلَّ من تكلّمَ بها من أولياء الله تعالى، ينبغي أن يعلم أنَّ علمَ الواجب جلَّ شأنه كما أنَّه من الصِّفات الثَّمانية الحقيقيَّة الزَّائدة كما قال أهل الحقّ؛ كذلك هو من الشُّؤون والاعتبارات الذاتيّة الغير الزَّائدة أيضاً، وحيث إنَّ القسمَ الأوّلَ من الصِّفات الزَّائدة على الذات تعالت؛ فمتعلّقُه أيضاً مما سوى الذات المقدسة، سواءٌ كان ذلك السوى عالماً أو صفاتٍ زائدةً، فإنَّ كلَّما هو متّسمٌ بسمة الظليّة، وعرض له اسمُ الزيادة؛ لا يكون لائقاً بجناب مرتبة حضرة الذات المقدسة، ولا يكون له تعلّقٌ بجناب قدسه تعالى، سواءٌ كان ذلك العلمُ حصولياً أو حضورياً، فإن كان حضوريّاً؛ فهو أيضاً متعلّقٌ بظلٍّ من ظلال حضرة الذات، وإن كان بين العلم والعالم والمعلوم اتِّحادٌ، فإنَّ هذا الاتحادَ أيضاً ظلٌّ من ظلال المرتبة المقدسة لا عينُها، وإن ظنَّ جمعٌ عينيَّتَها، والقسمُ الثّاني الذي هو من الشؤون الذاتيّة الغير الزَّائدة متعلّقُه حضرةُ الذات فقط تعالت وتقدست، وأعلى مما يتعلّق بما سوى الذات. وبالجملة: إنَّ العلمَ إن كان زائداً؛ فتعلّقُه مقصورٌ على ما سوى الذات، والعلمُ الذي ليس بزائدٍ، بل مجرَّدُ اعتبارٍ، فتعلّقُه مقصورٌ على حضرة الذات تعالت وتقدست، والعلمُ المنتفي في مرتبة حضرة الذات هو العلمُ الزائدُ الغيرُ اللائق بتلك المرتبة المقدسة الذي هو ظلُّ شأن العلم الغير الزائد، ولا يلزم من انتفاء ذلك العلم ثبوتُ نقيضه الذي هو الجهلُ، فإنَّه إذا لم يكن هناك مجالٌ للعلم الذي هو من الصِّفات الكاملة كيف يكون لنقيضه الذي هو نقصٌ من القدم إلى الرأس مجالُ الثبوت في تلك الحضرة.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ هذين النقيضين كلاهما يكونان مسلوبين عن تلك الحضرة، ولا يلزم محذورٌ أصلاً، قال واحدٌ من العارفين: عرفتُ ربي بجمع الأضداد، وكأنَّه لا يصل إلى ذلك المقام..............................

الأقدس بواسطة علوّه واحدٌ من هذين النقيضين[1]، فإذا كان جميعُ النِّسب والاعتبارات مسلوبةً عن تلك الحضرة؛ فالعلمُ وعدمُ العلم اللذان من جملة النِّسَب يكونان مسلوبين أيضاً، والذي لا بُدَّ له من النِّسَب والاعتبارات، ولا يكون فيه رفعُ النقيضين ولا جمعهما هو الممكنُ، وخالقُ النسب والاعتبارات منزّهٌ عن النسب والاعتبارات، وقياسُ الغائب على الشّاهد ممتنعٌ في ذلك الموطن. أو نقول: إنَّ انتفاءَ العلم الخاصّ لا يستلزم عدمَ العلم المطلق، بل يستلزم عدمَ العلم الخاصّ الذي هو متضمِّنٌ لشائبة الظليَّة، فعلى هذا التّقدير لا يلزم محذورٌ أصلاً، ولا يكون ارتفاعُ النَّقيضين. فافهم.

ينبغي أن يعلم أنَّ العلمَ الذي هو من الشُّؤون الذّاتيّة لا مناسبةَ له أصلاً بالعلم الذي هو من الصِّفات الزائدة، وإن كان أصلُ هذا العلم هو ذاك العلمَ، فإنَّ الصِّفاتِ الزّائدةَ ظلُّ الشّأن الذاتِيّ، وثمَّةَ كلُّه انكشافٌ في انكشافٍ، وحصولٌ في عين الحضور، ومن علوِّ درجته لا يقدر الجهلُ أن يقع في الطرف المقابل له، وأن يقوم بنقاضته، بخلاف صفة العلم، فإنَّ الجهلَ قائمٌ بنقاضتها، وإن كان وقوعُه غيرَ جائزٍ، واحتمالُ النَّقيض له هذا صار باعثاً على انحطاطه ومنعه من التعلّق بجناب القدس، فإنَّ كلَّ كمالٍ فيه احتمالُ النَّقيض - أيّ كمالٍ كان - لا مجال له في تلك الحضرة، القدرةُ التي أثبتوها في تلك المرتبة المقدسة مثلاً هي القدرةُ التي لا عَجْزَ في مقابلته، بخلاف صفة القدرة، فإنَّ فيها احتمالَ النَّقيض وإن لم يكن واقعاً، وعلى هذا القياس جميعُ الشؤون والصِّفات الواجبيَّة تعالت وتقدست، فإذا لم يكن لشأن العلم مناسبةٌ بصفة العلم أصلاً؛ كيف يكون لعلم المخلوقات مناسبةٌ بهذا الشأن عظيم الشأن؟ وكيف يتصوَّرُ له تعلّقٌ بتلك المرتبة المقدسة؟ إلا أن يكون من الحقّ سبحانه رعايةٌ وعنايةٌ للعبد، فأعطي لانكشافه النَّاقص جلاءً من عند انكشافه، وأعطاه البقاءَ الأكملَ من عنده بعد الفناء الأتمّ، ففي هذا الوقت يمكن أن يحصل له تعلّقٌ لا كيفيٌّ بتلك المرتبة المقدسة، ويبلغ مبلغاً يقصر دونه الأصلُ، ويصل إلى أصل الأصل متجاوزاً مرتبة الأصل، وهذه خصوصيّةٌ امتاز بها بنو آدم، وفتح لهم طريقُ الترقِّي حتى يتجاوزون الأصلَ وأصلَ الأصل أيضاً، ويبلغون مبلغاً يبقى الأصلُ كالظلِّ في الطَّريق. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. والسلام.

المكتوب الرابع والسبعون

إلى حضرة المخدوم زاده الخواجه محمّد معصوم في شرح كلام صاحب «الفصوص» في بيان تجلّي الذّات، وتحقيق الرّأي الخاصّ بحضرة شيخنا، ولم يتمّ هذا المكتوب اتّفاقاً.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قال الشّيخُ ابن العربي قدس سره: والتجلّي من الذّات لا يكون إلا بصورة المتجلى له، فالمتجلَّى له ما رأى سوى صورته في مرآة الحقّ، وما رأى الحقَّ، ولا يمكن أن يراه، والمرادُ من مرآة الذّات: هو الشّأنُ الذاتِيُّ الذي ظلّه الاسمُ الزائدُ الذي هو مبدأٌ لتعيّن المتجلَّى له، فإنَّ لكلِّ اسمٍ زائدٍ هو مبدأٌ لتعيّنٍ من تعيّنات المخلوقات أصلاً في مرتبة الذات، وهو الشأنُ الذي هو مجرَّدُ اعتبارٍ في الذات كما حقّقت في غير موضعٍ، وليس المرادُ منه الذات مطلقاً، فإنَّ المطلقَ لا يكون مرآةً للمقيّد، ولما كانت المرآةُ مقيَّدةً مثلَ الصورة الكائنة فيها وأصلاً لأصل تلك الصُّورة لا جرم يتجلى المرآة في نظر المتجلى له بصورته الكائنة فيها من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ؛ لأنَّ تجلّي ذلك الشأن وظهورَه في هذه المرتبة التي وقع التجلّي فيها لا يكون........

---

(١) قوله: «إنَّ هذين النقيضين...» إلخ وهذا من جملة مصطلحات الصوفية، وقد أخذه عنهم بعض أصحابهم من أرباب المعقول، فاشتهر بينهم أيضاً، فهم يستعملونه فيما بينهم ولا يدرون معناه. من المعرِّب.

إلا بهذه الصورة التي كان المتجلَّى له عليها، إلا أنَّ ظهورَه بهذه الصورة لفنائه وعدم تعلّقه بالعالم مشروطٌ بتوسُّط الاسم الظلي الذي هو مبدأٌ لتعيّن صورة المتجلى له، وهذه المرآةُ المقدسةُ مباينةٌ لسائر المرايا، فإنَّ ظهورَ الصورة في تلك المرايا كائنٌ في زاويةٍ من زواياها، ولا تظهر المرايا بأعيان الصورة الحالة فيها لمباينة بينهما، بخلاف هذه المرآة المقدسة، فإنَّ الصورةَ غيرُ حالَّةٍ فيها، ولا حاصلةٍ في زاويةٍ من زواياها؛ لعدم الحالية والمحلية في تلك الحضرة ولو حسّـًا، وعدمُ التبعُّض والتجزّي في تلك المرتبة المقدسة ولو وهمـًا، بل تظهر هذه المرآةُ المقدسةُ بكليتها بصورة المتجلى له فحينئذ تكون هي مرآةً وصورةً، فالمتجلَّى له ما رأى سوى صورته في مرآة الحق الذي هو شأنُ الذات الذي ظهر بصورة المتجلى له، وما رأى الحقَّ المطلقَ ولا الشأنَ الخاصَّ على النَّهج التنزيهيِّ والنَّمَط التقديسيِّ، ولا يمكن أن يراه، هذا مبنيٌّ على رأي الشَّيخ في نفي إمكان الرؤية التنزيهيّة، وإثبات الرؤية في الظهورات التشبيهية الجامعة اللطيفة بطريق التمثُّل والمثال، وهو كما ترى مخالفٌ لِمَا اتَّفق عليه علماءُ أهل السنة شكر الله تعالى سعيهم من أنَّ رؤيته تعالى في الدنيا جائزةٌ غيرُ واقعةٍ، وفي الآخرة بلا كيفٍ واقعة، لا يكون بتمثُّلٍ ومثالٍ: (شعر)

يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ كَيْفٍ وَإِدْرَاكٍ وَضَرْبٍ مِنْ مِثَالِ

لأنَّ رؤيةَ التمثُّل رؤيةُ كيفٍ، وأيضـًا ليست رؤيةً له تعالى، بل رؤيةُ مخلوقٍ أوجده وأظهره بطريق التمثُّل، وهو تعالى وراء التمثُّل والمثال، ووراء التوهُّم والخيال، وكلُّ ذلك مخلوقٌ له تعالى، والعجبُ من كبراء العرفاء أنَّهم تسلَّوا بالتَّشبيه عن التَّنزيه، وبالحادث عن القديم؛ إذ اكتفوا بالمثال، وعكفوا على التمثال، وظنِّي أنَّ ذلك المرضَ حدث لهم من قولهم بالتوحيد والاتحاد، وإصرارهم على قصور حكمهم بأنَّ العالمَ هو الحقُّ سبحانه، فلا جرم تكون رؤيةُ أيِّ فردٍ من أفراد العالم رؤيةً له تعالى عندهم للاتحاد بينهما، ومن ههنا قال بعضهم بالشعر الفارسي: (شعر)

امروز چون جمال تو بی پرده ظاهر است در حيرتم كه وعدهٔ فردا براى چيست

إلا أنَّ الشَّيخَ خصَّ من بين ذلك الأفراد فرداً خاصّـًا جامعـًا حصل بطريق التمثُّل، وهو لا يجدي نفعـًا، وكأنَّه قدس سره بوفور علمه بالكتاب والسنَّة وأقوال العلماء تنبَّه على شناعة القول بإطلاق الرؤية، والحكم بأنَّ رؤيتهم مطلقـًا رؤيةٌ له سبحانه، ومع ذلك لغلبة السُّكر وقوَّة حال التَّوحيد ما تخلَّص عن مضيق التَّشبيه مطلقـًا، وما تفرَّغ لتحصيل كمالات التَّنزيه مفرداً، بل زعم أنَّ المنزّه الصرفَ قاصرٌ وناقصٌ ومحدّدٌ له تعالى كالمشبّه، ففرَّ عن التَّنزيه الصرف، وجزم بأنَّ الكمالَ في الجمع بين التشبيه والتنزيه والحكم بأنَّ أحدهما عينُ الآخر ليرتفع التَّحديدُ والتَّقييدُ مطلقـًا، ولا يخفى عليك أنَّ التَّشبيهَ معدومٌ في الخارج عنده، وإنَّما الموجودُ في الخارج هو التنزيهُ الصرفُ، فلا يكون أحدهما محدّداً ومقيّداً للآخر على قياس الوجود والعدم الخارجيين، فإنَّ العدمَ غيرُ محدِّدٍ للوجود ولا العكسُ، فإنَّ الوجودَ على إطلاقه مع العدم إطلاقُه مع الوجود غيرُ مقيّدٍ أحدهما بالآخر، ولو كان العدمُ محدّداً للوجود لكان ينبغي أن يحكم بأنَّ الكمالَ في الجمع.........

بين الوجود والعدم، ويكون أحدهما عين الآخر، وهو سفسطةٌ ظاهرةٌ، فلا يكون القولُ بالتنزيه الصرف تحديداً له تعالى، ولا يكون الجمعُ كمالاً، بل نقصاً وإلحاقاً للناقص بالكامل، ومعلومٌ أنَّ المركَّبَ من الناقص والكامل ناقصٌ.

بقي الصورُ المسماةُ بالأعيان الثابتة عنده ثابتةٌ في العلم، وهي أيضاً لا تستلزم تحديدَ الموجود الخارجيّ حتى يحكم بالاتحاد والعينيَّة بينهما وبينه، وإنَّما يحدّد الموجودُ الخارجيُّ الموجودَ الخارجيَّ مثله، وأما الموجودُ العلميُّ؛ فلا يحدّد الموجودَ الخارجيَّ ولا يزاحمه لتباين المرتبتين، ألا ترى أنَّ تصوُّرَ شريك الباري وثبوته في العلم ليحكم عليه بالاستحالة لا يزاحمُ الباري تعالى الموجود في الخارج ولا يحدِّدُه ولا يقيّده أصلاً حتى يتمحَّلَ في دفعه تمحُّلاً غيرَ واقعٍ بأنَّ أحدهما عينُ الآخر؟ هذا ولنرجع إلى كلام الشَّيخ في التجلِّي الذاتِيّ وما يناسبه فنقول:

ذكر الشَّيخُ بعد ذكر هذا التجلِّي ما حاصلُه: إنَّ هذا التجلِّي نهايةُ التجلِّيات، وغايةُ العروجات، وما بعد هذا إلا العدمُ المحضُ، فلا تطمع، ولا تتعبْ نفسك بتحصيل العروج فوقه والوصول وراءه، فلا مقام أعلى من هذه الدَّرجة في التجلِّي الذاتِيّ.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالسَّبْعُونَ

إلى هذا الحَقيرِ محمَّد هاشِمٍ الكَشْمِيِّ في بيانِ تَجلِّي أفعالِه، وتَجلِّي صِفاتِه، وتَجلِّي ذاتِه سُبحانَه وتَعالَى؛ وهذا المَكتوبُ كأنَّه تَتمَّة للمَكتوبِ السَّابِق.

ليعلم أخي الخواجه محمد هاشم الكشمي أنَّ تجلِّي الأفعال عبارةٌ عن ظهور فعل الحقّ سبحانه للسالك على نهج يرى أفعال العباد ظلالَ ذلك الفعل، ويجد ذلك الفعلَ أصلَ تلك الأفعال، ويعتقد قيامَ تلك الأفعال بذلك الفعل الواحد، وكمالُ هذا التجلِّي هو أن تختفي تلك الظلالُ عن نظره بالتمام، وتكون ملحقةً بأصلها، وتجد فاعلَ تلك الأفعال بلا حسٍّ ولا حركةٍ كالجماد، وما قاله أربابُ التَّوحيد الوجوديّ بالعينيّة، وقالوا: الكلُّ هو إنّما هو في ذلك الموطن، حيث رأوا هذه الأفعالَ المتكثرةَ الصادرةَ من العباد فعلَ فاعلٍ واحدٍ جلَّ شأنه، وهناك اختفاءُ انتساب الأفعال إلى فعلتها، وحدوث الانتساب فيها إلى فاعلٍ واحدٍ، لا اختفاءُ نفس الأفعال وإلحاقُها بأصلها، شتان ما بينهما، وإن كاد أن يخفى على البعض.

وتجلِّي الصِّفات عبارةٌ عن ظهور صفات الحقّ سبحانه للسالك على نهج يرى صفات العباد ظلالَ صفات الواجب جلّ سلطانه، وأن يجد قيامها بأصولها، فيجد علمَ الممكن مثلاً ظلَّ علم الواجب وقائماً به، وكذلك يجد قدرته ظلَّ قدرته تعالى وقائمةً بها، وكمالُ هذا التجلِّي هو أن تختفي تلك الصِّفاتُ الظلاليةُ عن نظر السَّالك بالتمام، وتكون ملحقةً بأصولها، ويجد نفسه الذي كان موصوفاً بهذه الصِّفات خالياً عنها كالجماد بلا حياةٍ ولا علمٍ، ولا يجد في نفسه أثراً من الوجود وكمالاته وتوابعه حتى لا يكون هناك ذكرٌ، ولا توجّهٌ، ولا حضورٌ، ولا شهودٌ، فلو كان بعد اللحوق بالأصل توجّهٌ؛ فهو متوجّهٌ من نفسه إلى نفسه، وإن حضورٌ؛ فحاضرٌ بنفسه مع نفسه، ونصيبُ السَّالك من هذا المقام حصولُ حقيقة الفناء والاضمحلال، وانتفاءُ انتساب الكمالات التي كان ينسبها إلى نفسه بزعمه، وأداءُ الأمانة التي كان يظنُّ تهمةً وكذباً أنّها من نفسه إلى أهل الأمانة، وزوالُ مورد كلمة (أنا) أيضاً على حدٍّ لو تشرَّفَ بالبقاء لا يكون مورداً لـ(أنا)، ولا يقدر أن يعبِّرَ عن نفسه بـ(أنا)، وإن وجد نفسه عينَ أصله، لا يتيسّر له مجالُ إطلاق (أنا) على ذلك الأصل، ولا يقدر أن يقول: إنَّه عينُ الأصل، فإنَّ الأنانية قد زالت عنه، وقولُ: أنا الحقّ إنّما هو لعدم حصول هذه النِّسبة، وإجراءُ (سبحانِي) على اللسان لعدم

الوصول إلى هذه الدَّولة، ولكن ينبغي حملُ صدور أمثال هذه الألفاظ عن الأكابر على توسُّط أحوالهم واعتقاد كمالهم وراء هذا القيل والقال، والفناءُ الذي هو حقيقة الانمحاء والاضمحلال، وإن كانت منتهى تجلِّي الصِّفات، ولكن حصولُه من أشعَّة تجلِّي الذات، وما لم تتجلَّ الذاتُ لا تتيسّرُ دولةُ الفناء، بل لا يتمُّ تجلِّي الصِّفات أيضاً ما لم تجد لم تتخلَّصْ، ومن تجلِّي الذات تزولُ بقيَّةُ العارف التي ترى له كالجماد، وتلك البقيةُ هي العدمُ الذي هو أصلُ جميع الممكن، وقد حصل له من انعكاس صفات حضرة الوجوب تعالت وتقدست فيه امتيازٌ وتشخُّصٌ، وكان بهذه المرآتية ممتازاً من أعدامٍ أخرَ، ولما صارت تلك الظلالُ المنعكسةُ ملحقةً بأصولها لم يبق بين تلك الأعدام ما به الامتيازُ، وصار هذا العدمُ الخاصُّ أيضاً ملحقاً بالعدم المطلق، فحينئذٍ لم يَبْقَ من العارف اسمٌ ولا رسمٌ، ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٨]، كما أنَّ الوجودَ وتوابع الوجود ودَّعه وراح؛ كذلك هذا العدمُ فارَقَه أيضاً، ولحق بأصله واستراح، ينبغي أن يعلم أنَّ امتيازَ هذا العدم من أعدامٍ أخرَ الذي حصل بواسطة حصول ظلال الصِّفات فيه كان باعتبار التوهُّم، وفي الحقيقة لم يكن فيه ظلٌّ أصلاً مثل مرايا أخر؟ فإنَّ حصولَ الصور فيها باعتبار التوهُّم، فإذا كان حصولُ الظلال فيها باعتبار التوهُّم؛ يكون امتيازُه أيضاً وهميّاً، فكما أنَّ وجودَ الممكن باعتبار التوهُّم يكون عدمُه أيضاً باعتبار التوهُّم، فما أعطي في خارج دائرة الوهم موضع قدمٍ، فإنَّ الوجودَ والعدمَ في الحقيقة على صرافة إطلاقهما ما لذاك عرَض تنزُّلٌ، ولا لهذا حصل ترقٍّ، ومن كمال اقتدار الصانع تعالى خلق العالَمَ في مرتبة الوهم من ذاك وهذا وأتقنه، وجعل المعاملةَ الأبديّةَ والمجازاةَ السرمديةَ منوطةً به، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠]. وما قلت فيما سبق: إنَّ حصولَ دولة الفناء من أشعَّة تجلِّي الذات، يعني: أنَّ حصولَ نفس تجلِّي الذات بعد حصول دولة الفناء ما لم تتخلَّصْ لم تجد، والفرقُ بين أشعَّة التجلِّي ونفس التجلِّي كالفرق بين إسفار الصبح وطلوع الشمس، فإنَّ في وقت الإسفار ظهورَ أشعَّة تجلِّي الشمس، وبعد الطلوع نفسُ تجلِّي الشمس، وربَّما لا يشرّفُ البعضُ بنفس التجلِّي مع ظهور أشعَّة التجلِّي، ولا يوصل به إلى تلك الدَّولة القصوى بواسطة عروض بعض العوارض كما يدرك الإسفار، ولا يدرك الطلوعَ بعروض علَّةٍ سماويةٍ أو أرضيةٍ، وأيضاً لا حاجة في شهود الإسفار إلى كمال قوة الباصرة، وشهودُ الشمس هو الذي يستدعي كمالَ قوة الباصرة وحدّةَ النظر، ألا ترى أنَّ الخفاشَ قادرٌ على إدراك الإسفار، وعاجزٌ عن إبصار الشمس في النهار، وإبصارُ الشمس يستدعي أن يحصل له بصرٌ آخر؟ وربما يكون في السَّالك استعدادُ أشعَّة التجلِّي، ولا يكون فيه استعداد نفس التجلِّي، والخفاشُ فيه استعدادُ مشاهدة أشعَّة تجلِّي الشمس، وليس فيه استعدادُ نفس تجلِّي الشمس، ها أنا أقول كلاماً عالياً لعله يكون نافعاً، وبعد انصرام تجلِّي الصِّفات وبعد حصول فناء الصِّفات والذات يستقبلُ العارف تجلٍّ كأنَّه دهليزُ تجلِّي الذات، وكأنَّه برزخٌ بين تجلِّي الصِّفات وتجلِّي الذات، والذي يترقَّى من هذا التجلِّي له نصيبٌ من تجلِّي الذات بقدر استعداده، وهذا التجلِّي البرزخيُّ بزعم هذا الفقير أصلٌ لذاك التجلِّي الذاتِيّ الذي قال الشَّيخ ابن العربي قدس سره في حقّه هذه العبارةَ: والتجلِّي من الذات لا يكون إلا بصورة المتجلَّى له، فالمتجلى له ما رأى سوى صورته..

في مرآة الحقّ، وما رأى الحقَّ، ولا يمكن أن يراه، وقال لهذا التجلّي: منتهى التجلّيات، ولم يقل بمقامٍ فوقه، وقال: وما بعد هذا التجلّي إلا العدمُ المحضُ، فلا تطمعْ ولا تتعبْ في تحصيل العروج والترقّي فوقه، فلا مقامَ أعلى من هذه الدَّرجة في التجلّي الذاتيّ، والعجبُ أنَّ الوصولَ إلى المطلوب الحقيقيّ فيما وراء هذا التجلّي، والشَّيخ يخوِّفُ ويحذِّرُ عنه بقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] ويهدِّدُ، فلو لم نطمعْ نحن المهجورون المتحيرون فيه، ولم نتعب لحصوله؛ ماذا كنا فعلناه غير التسلي من الجوهر النفيس بقطعات الخزف.

غايةُ ما في الباب: أنَّ النصيبَ من كلِّ مرتبةٍ مناسبٌ لتلك المرتبة، فالنصيبُ الميسّرُ من اللا كيفيّ يكون لا كيفيّاً، لا سبيلَ للكيف إلى اللا كيفيّ، فالمعرفةُ التي تتعلّقُ بتلك المرتبة ليست كمعرفةٍ تتعلّقُ بالكيفيّ، فإنّه لا مجال لهذه المعرفة هناك، العلمُ في ذات الله سبحانه جهلٌ، أي: ليس علماً من جنس العلم المتعلّق بعلم الممكن، فإنّه من مقولة الكيف، ولا كيفَ ثمَّةَ، والمنعُ من التفكّرِ في ذات الله سبحانه إنّما هو بواسطة أنَّه تعالى وراء التفكُّر والتخيُّل، ووجد أنَّه تعالى إنّما يمكن به سبحانه لا بالفكر والخيال. ﴿رَبَّنَا اٰتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ اَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

وكان ينبغي للشيخ قدس سره أن يقول: وما بعد هذا التجلّي إلا الوجودُ الصرفُ، والنورُ المحضُ، وإنَّما قال: وما بعد هذا التجلّي إلا العدمُ باعتبار أنَّ العالمَ ظلُّ الصِّفات، والتفوقُ والترقّي من الصِّفات اجتهادٌ وسعيٌ في إعدام نفسه، وليس كذلك، فإنَّ العارفَ إذا لم يترقَّ من الصفة التي هي أصله، ولم يتفوَّق الشؤونُ والاعتباراتُ الذاتيّةُ ماذا يكون فعلُه؟ ولأيِّ شيءٍ يكون مجيئه؟ والفناءُ والبقاءُ اللذان تيسّرا له في كلِّ مرتبةٍ جرَّآه للتجاوز إلى ما فوق أصله، فتجاوَزَ ببقاء الأصل عن الأصل، ووصل إلى أصل الأصل: (شعر)

يُحْرَقُ بِالنَّارِ مَنْ يُمَسُّ بِهَا ... وَمَنْ هُوَ النَّارُ كَيْفَ يَحْتَرِقُ

فلو وصل الشَّيخ قدس سره إلى أصل ذلك الظلِّ؛ لما خاف من الترقّي إلى فوق، ولم يخوّف، ولكن حسنَ الظنِّ يقتضى ترقّي هذا الشَّيخ المعظم بفضل الله جل سلطانه من هذا المقام، وإدراكَه حقيقة الأمر، لا ينبغي وزنُ حاله العظيم بميزان قاله، ولعله قال ذلك في الابتداء والتوسُّط، ثم جاوَزَه بمراحل، «**مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ**»، والله سبحانه الموفق. وماذا أكتب من التجلّي الذاتيّ؟ وماذا أقدر أن أكتب؟ فإنه ذوقيٌّ، فمن ذاق عرف، ومن لم يذقْ لم يَدْرِ:

(ع) بَلَغَ الْيَرَاعُ إِلَى هُنَا فَتَكَسَّرَا

والقدرُ الممكنُ إظهارُه أنَّ التجلّي الذاتيَّ في حقِّ العارف الذي ذكر فناءه فيما سبق دائميٌّ، وما هو كالبرق لغيره على الدوام في حقِّه، بل التجلّي البرقيُّ ليس هو تجلّياً ذاتيّاً في الحقيقة، وإن قالوا له تجلّياً ذاتياً، بل هو تجلّي شأنٍ من شؤون الذات سريعُ الاستتار، فإنَّه متى ما حصل التجلّي الذاتيّ من غير ملاحظة الشؤون والاعتبارات؛ فالدوامُ لازمٌ له، والاستتارُ غيرُ متصوَّرٍ فيه، وتلويناتُ التجلّيات تنبئُ عن الصِّفات والشؤونات، وحضرةُ الذات منزَّهةٌ ومبرَّأةٌ من التلوينات، ولا مجالَ فيها للاستتار. ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالسَّبْعُونَ

إلى المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد مَعصومٍ في بيانِ عُلوِّ شأنِ العِلمِ، والمَرتبَة المقدَّسَة فَوقَه المُعبَّر عنها بالنُّور الصِّرف.

اعلم أنَّ شأنَ العلم وإن كان تابعاً لشأن الحياة، ولكن للعلم في مرتبة حضرة الذات تعالت وتقدست بعد سقوط اعتبار الصِّفات والشؤون شأنٌ ليس هو للحياة، فضلاً عن سائر الصِّفات..............................

والشؤون، وفي موطن التجرُّد عن جميع النسب مرتبةٌ لا تجوز إطلاقُ غير النور على نفسها، أظنُّ أنَّ للعلم أيضاً مجالاً فيها، لا ذاك العلم الذي يقال له حصولياً أو حضورياً، فإنَّه مع قسميه تابعٌ للحياة، بل هو لا كيفيٌّ ولا مثليٌّ كحضرة الذات تعالت وتقدست، وكلُّه شعورٌ لا كيفيٌّ بلا اعتبار العالم والمعلوم، وفوق تلك المرتبة مرتبةٌ أخرى لا مجال فيها للعلم كسائر الشؤون، لا شيءَ هناك غيرُ النور الذي هو أصلُ ذلك الشعور اللا كيفي واللا مثليّ، فإذا كان ظلُّ ذلك النور لا كيفيّاً ولا مثليّاً؛ ماذا نقول من لا كيفيَّة الأصل الذي هو عينُ النور؟ ماذا نقدر أن نقول؟ وجميعُ الكمالات وجوبيّةً وإمكانيّةً ظلالُ النور، وقائمةٌ بالنور، ووجودُ الكلّ صار وجوداً ومبدأً للآثار من النور، والمرتبةُ الأولى لَمّا كانت فيه رائحةُ الانحطاط من مرتبة حضرة النور الصرف والجامعُ للشعور هو النور قال المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام في حقّه: إنَّه مخلوقٌ، وعبر عنه أحياناً بالعقل، حيث قال: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ**»، وأحياناً بالنور، وقال: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ نُورِي**»، وكلاهما شيءٌ واحدٌ، فإنَّه نورٌ وعقلٌ وشعورٌ، وحيث نسب النبيُّ ﷺ إلى نفسه وقال: (نوري) يمكن أن نقول: إنَّ هذه المرتبةَ هي الحقيقةُ المحمديّةُ، والتعيّنُ الأوّلُ، لا تلك الحقيقةُ والتعيّنُ الأوّلُ المتعارفان، بل لو كان ذلك التعيّنُ ظلّاً من ظلال ذلك التعيّن؛ فهو أيضاً مغتنمٌ، كما أنَّ المرادَ من هذا العقل ليس هو ذاك العقل الذي قال الفلاسفة: إنَّه الصادرُ الأوّلُ من الواجب تعالى بطريق الإيجاب، وجعلوه مصدراً لصدور الكثرة، ينبغي أن يعلم أنَّ كلَّ موطنٍ فيه تعيّن فيه رائحةٌ من الإمكان، ومعه شوبٌ من العدم الذي صار باعثاً على تعيّن الوجود وتميُّزه، وبضدها تتبينُ الأشياءُ، وصفاتُ الواجب جل شأنه هي التي عرض لها التعيّنُ والتميزُ؛ فهي مع وجود قدمها ليست بواجبةٍ لذواتها، بل واجبةٌ لذات الواجب تعالى، وحاصلُ ذلك وجوبٌ بالغير الذي هو من أقسام الممكن، وإن كان التحاشي لازماً من إطلاق لفظ الإمكان في الصِّفات القديمة لكونه موهماً للحدوث، والمناسبُ هناك إطلاقُ الوجوب لمجيئها من ذات الواجب تعالى، ولكن للإمكان فيها مجالٌ في الحقيقة لعدم وجوبها لذواتها، بل لغيرها، وإن لم يقولوا بالغيريّة، وأرادوا بالغير الغيرَ المصطلحَ، ولكن الاثنينيّةَ مقتضيةٌ للغيرية، الاثنان متغايران قضيّةٌ مقررةٌ من قضايا أرباب العقول، والعجبُ أنَّ الشَّيخَ محيي الدين ابن العربي قال للاثنين من التعيّنات تعيّناً وجوبياً، وللثلاثة إمكانيّةً، وفي الحقيقة في كلِّ التعيّنات سمةُ الظلية، ورائحةُ الإمكان، وإن كان بين ممكنٍ وممكنٍ فرقٌ كثيرٌ، وكان أحدهما قديماً والآخرُ حادثاً، ولكنَّ الكلَّ غيرُ خارجٍ من دائرة الإمكان، وفي الكلّ رائحةٌ من العدم، وإياك وتخيُّلَ المرتبة الثّانية التي هي النور الصرف والمتعيّن باللاتعيّن ذاتاً بحتاً واحديّةً مجردةً مثل الآخرين، فإنَّه أيضاً حجابٌ من الحجب النورانية، «**إِنَّ للهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ**»، وإن لم يكن تعيّناً، ولكنَّه حجابُ المطلوب الحقيقيّ، وإن كان آخرَ الحجب، وهو تعالى وراء الوراء، وهذا النورُ الصرفُ لما لم يكن داخلاً في دائرة التعيّن كان منزَّهاً ومبرَّأً من ظلمة العدم، ولله المثل الأعلى، ومثلُ ذلك النور كمثل تشعشع نور الشمس الذي هو حاجبٌ لقرصها انتشر من عين القرص، وصار حجاباً لها، وفي الحديث: «**حِجَابُهُ النُّورُ**»، وهذه المرتبةُ العلياءُ فوق التجلّيات الذّاتيّة فضلاً عن تجلّيات الأفعال والصِّفات، فإنَّ التجلّي بلا شوب التعيّن غيرُ متصوَّرٍ، وهذا..

المقامُ فوق جميع التجلِّيات، ولكنَّ منشأَ التجلِّيات الذاتيّة هو هذا النورُ الصرفُ، والتجلِّي إنّما يتصوَّرُ بواسطته، ولولاه لما حصل التجلِّي، وحقيقةُ الكعبة الربانية أظنُّها حضرةَ ذلك النور الذي هو مسجودُ الجميع، وأصلُ جميع التعيّنات، فإذا كان ملاذُ التجلِّيات الذاتيّة وملجؤها ذلك النورَ ماذا يزيد في مدحه كونه مسجوداً للآخرين؟ فإذا شرف الله سبحانه بكمال فضله وعنايته عارفًا من ألوفٍ بالوصول إلى هذه الدَّولة، وخصَّه بالفناء والبقاء في هذا الموطن؛ يمكن أن ينال بقاء بهذا النور وحظًّا وافراً من الفوق وفوق الفوق، وأن يتجاوز من النور بالنور، فيصل إلى أصل النور. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. وهذه المعارفُ كما أنَّها وراء طور النظر والفكر وراءَ طور الكشف والشُّهود أيضًا، وأربابُ الكشف والشُّهود في فهم هذه العلوم كأرباب العلم والعقل، لا بُدَّ في الاهتداء إلى درك هذه الحقائق بمتابعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من نور فراسة النبوَّة، ينبغي أن يعلم أنَّ هذا النورَ حاشاه من أن تكون فيه شائبةُ الإمكان، فيكون ممكنًا، ومن جنس الجوهر والعرض، بل هو مرتبةٌ لا يمكن إطلاقُ شيءٍ عليها غير النور، وإن كان ذلك الغيرُ وجوبَ الوجود، فإنَّ الوجوبَ دونه.

تنبيهٌ: لا يتوهَّمْ أحدٌ من هذا البيان أنَّ خرقَ جميع الحجب عن الذات تعالت قد تحقّق في حق هذا العارف لكون هذا النور آخرَ الحجب على ما مرَّ، وهو ممتنعٌ؛ لحديث نقلوه: «**إِنَّ للهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ، لَوْ كُشِفَتْ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»؛ لأنَّ ثمة تحقّقٌ وبقاءٌ بالحجب التي كلٌّ منها معدٌّ للآخر، لا خرق الحجب، شتان ما بينهما. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب السابع والسبعون

إلى حضرة المخدومِ زاده الخواجه محمَّد سعيدٍ في أسرارِ حقيقةِ القرآنِ المجيدِ، مع بيانِ دقائقِ العجزِ والمعرفَة، وحقيقةِ الصَّلاةِ والكلمةِ الطَّيِّبة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وبعد مرتبة النور الصرف التي وجدها الفقيرُ حقيقةَ الكعبة الربانية، وبيَّنَّها مرتبة عالية جداً، وهي حقيقةُ القرآن المجيد السبحانيّ، والكعبةُ المعظمةُ إنّما صارت قبلةَ الآفاق، وتشرفتْ بدولة المسجوديّة للكلِّ بحكم القرآن المجيد الإمام قرآن، والمأمومُ الأوّلُ كعبةٌ معظمةٌ، وهذه المرتبةُ المقدسةُ مبدأٌ لوسعة حضرة الذات اللا كيفية. وأيضًا إنَّ مبدأَ امتياز تلك الحضرة اللا كيفيّ واللا مثليّ هو هذه الدَّرجةُ العليا، والوسعةُ في تلك الدَّرجة المقدسة ليست هي بحسب الطول والعرض، فإنَّ ذلك من سمات النقص والإمكان، بل هي أمر من لم يتحقّقْ به لا يدريه، وكذلك الامتيازُ في تلك المرتبة المقدسة ليس هو بالمزايلة والمباينة، فإنَّ ذلك مستلزمٌ للتبعُّض والتجزِّي اللذين من لوازم الجسم والجسمانيّ، تعالى الله سبحانه عن ذلك، ولا يتصوَّرُ في ذلك الموطن فرضُ شيءٍ غير شيءٍ، فإنَّ الغيريَّةَ تنبئُ عن الاثنينية، بل لا مجال فيه للفرض لكونه من قبيل فرض المحال، من لم يذق لم يدر.

وَمَا أُبْدِيكَ مِنْ طَيْرِي عَلَامَهْ ... وَأَضْحَى مِثْلَ عَنْقَاءٍ وَهَامَهْ

وَلِلْعَنْقَاءِ بَيْنَ النَّاسِ اسْمٌ   وَلَمْ يَكُ لِاسْمِ طَيْرِي اسْتِدَامَهْ

وكلُّ شيءٍ يفرض في ذلك الموطن وإن كان فرضَ المحال، ويتعمق النظرُ في ذلك الشيء لا يظهر فيه أمرٌ له اختصاصٌ بذلك الشيء المحقَّق، ولا يوجد في شيءٍ آخر مفروضٍ، ومع ذلك يكون الامتيازُ بين ذينك الشيئين المفروضين كائناً وبائناً، وتكون أحكامُ كلٍّ منهما متميِّزةً عن أحكام الآخر، فسبحان من لم يجعل للخلق إليه سبيلاً إلا بالعجز عن معرفته، والعجزُ عن المعرفة نصيبُ الأكابر الأولياء، وعدمُ المعرفة غيرُ العجز عن المعرفة، مثلاً: الحكمُ بعدم الامتياز في ذلك الموطن المقدس، ووجدانُ كلِّ كمالٍ ذاتيٍّ عين الآخر كما قالوا: إنَّ العلمَ عينُ القدرة، والقدرةَ عينُ الإرادة، عدمُ المعرفة بامتياز ذلك الموطن، والحكمُ بالامتياز في ذلك الموطن والاعترافُ بعدم وجدان كنه ذلك الامتياز عجزٌ عن معرفة امتياز ذلك الموطن، وعدمُ المعرفة جهلٌ، والعجزُ عن المعرفة علمٌ، بل العجزُ متضمِّنٌ للعلمين: علمُ الشيء والعلمُ بعدم وجدان كنه ذلك الشيء من غاية عظمة ذلك الشيء وكبريائه، فلو أدرجنا فيه علماً ثالثاً أيضاً لساغ، وهو علمُ الإنسان بعجزه وقصوره الذي هو مؤيِّدٌ لمقام عبديته وعبوديته، وفي عدم المعرفة التي هو الجهلُ ربّما يكون ذلك الجهلُ مركباً إذا لم يعرف جهلَ نفسه أنَّه جهلٌ، بل زعم أنَّه علمٌ، وفي العجز عن المعرفة نجاةٌ تامةٌ من هذا المرض، بل لا مجال فيه لهذا المرض لكونه معترفاً بعجزه، فلو كان عدمُ المعرفة والعجز عن المعرفة متساويين لكان الجهلاءُ كلُّهم عرفاءَ، وكان جهلُهم واسطةً لكمالهم، بل هناك كلُّ من كان أجهلَ يكون أعرفَ، فإنَّ المعرفةَ هناك في عدم وجدان المعروف، وفي العجز عن المعرفة، هذه المقدّمةُ صادقةٌ، فإنَّ كلَّ من يكون أعجزَ عن المعرفة يكون أعرفَ بالمعارف، والعجزُ عن المعرفة مدحٌ يشبه الذمَّ، وعدمُ المعرفة ذمٌّ صرفٌ ليست فيه رائحةُ المدح، رب زدني علماً بكمال العجز عن معرفتك سبحانك. فلو لاحظ الشَّيخُ محيي الدين ابن العربي قدس سره هذا الفرقَ الذي اهتدى إليه هذا الفقيرُ؛ لما ذكر العجزَ عن المعرفة بالجهل أصلاً، ولما عدَّه من عدم العلم قطعاً، حيث قال: منّا من علم، ومنا من جَهِلَ، فقال: العجزُ عن درك الإدراك إدراكٌ، وبعد ذلك بين علوم الشقّ الأوّل وباهى بها، واعتقدها من نفسه، وقال خاتمُ الأنبياء: يأخذ هذه العلوم من خاتم الولاية، وعنى بخاتم الولاية المحمدية: نفسه، فصار من هذه الجهة مورداً لمطاعن الخلائق، وشراح «الفصوص» صرفوا في توجيهات هذا الكلام هممهم، وعند الفقير يمكن أن يقال: إنَّ هذا الكلام في الحقيقة أدونُ من ذلك العجز، بل لا مناسبةَ لديه؛ لكونه مربوطاً بالظلال، والعجزُ في موطن الأصل، سبحان الله، إنَّ قائلَ هذا القول هو الصديقُ ﵁ كما قالوا، وهو رأسُ العرفاء، ورئيسُ الصديقين، فأيُّ علمٍ يسبق ذلك العجزَ؟ وأيُّ قادرٍ يكون أسبق قدماً من ذاك العاجز؟ نعم، إذا قال في حقِّ أستاذ الصديق - يعني: النبيّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام - ما قال كيف لا يقول ذلك في حقّ الصديق؟ والعجبُ أنَّ الشَّيخ بهذا القيل والقال، وبهذا الشطح من المقال يظهر في النظر من المقبولين، ويشاهد في عداد الأولياء المكرّمين:

(ع) لَا عُسْرَ فِي أَمْرٍ مَعَ الْكِرَامِ

نعم، ربّما يحصل التأذي من الدعاء، وربما يحصل السرورُ والابتهاجُ من الشتم والإيذاء، والذين يردُّون الشَّيخ في خطرٍ، والذين يقبلونه ويقبلون كلامه أيضاً في خطرٍ، ينبغي أن يقبل الشَّيخ، وينبغي أن لا يقبل كلماته المخالفة، هذا هو الطَّريقُ الوسطُ في قبول الشَّيخ وعدم قبوله الذي هو اختيارُ هذا الفقير. والله سبحانه أعلم.....................

بحقيقة الحال. ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: إنَّ هذه المرتبةَ المقدسةَ التي قلنا: إنَّها حقيقةُ القرآن لا مجالَ فيها لإطلاق النور أيضـًا، وبقي النورُ في الطَّريق كسائر الكمالات الذاتيّة لا يوجد هناك شيءٌ أصلاً غير الوسعة اللاكيفيَّة والامتياز اللا مثليِّ، فلو كان المرادُ من قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥] القرآنُ؛ يمكن أن ذلك باعتبار الإنزال والتنزيل كما يومئ إليه كلمة: ﴿جَآءَكُم﴾، وفوق هذه المرتبة المقدسة مرتبةٌ عاليةٌ جداً، وهي حقيقةُ الصلاة التي صورتها قائمةٌ في عالم الشهادة بالمصلين من أرباب النهاية، ولعلَّ فيما ورد في قصة المعراج في قوله ﷺ حكايةً: «**قِفْ يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ يُصَلِّي**»[(١)] إيماءً إلى حقيقة الصلاة هذه. نعم، إنَّ العبادةَ التي تكون لائقةً بمرتبة التنزه والتجرد لعلها تكون صادرةً عن مراتب الوجوب، وتظهر من أطوار القدم، فالعبادةُ اللائقةُ بجناب قدسه تعالى هي الصادرةُ من مراتب الوجوب لا غير، فهو العابدُ والمعبودُ، وفي هذه المرتبة المقدسة كمالُ الوسعة اللا كيفية والامتياز اللا مثليِّ، فإنَّ حقيقةَ الكعبة وحقيقةَ القرآن جزآها، والصلاةُ هي جامعةٌ لجميع كمالات مراتب العبادات، وكائنةٌ على نسبة أصل الأصل، فإنَّ المعبوديةَ الصرفةَ متحقّقةٌ فيها، وحقيقةُ الصلاة التي هي جامعةٌ لجميع العبادات عبادةٌ في هذه المرتبة للمرتبة المقدسة التي فوقها، واستحقاقُ المعبودية الصرفة ثابتٌ لها، فإنَّها أصلُ الكلّ وملاذُ الجميع، وتقصر الوسعةُ أيضـًا دون هذا الموطن، ويبقى الامتيازُ في الطَّريق، وإن كان لا كيفيّا ولا مثليـًا، ومنتهى أقدام الكُمَّل من الأنبياء وأكابر الأولياء عليهم الصلوات والتسليمات أولاً وآخراً إلى نهاية مقام حقيقة الصلاة التي هي نهايةُ عبادة العباد، وفوق ذلك المقام مقامُ المعبوديَّة الصرفة التي لا شركةَ فيها لأحدٍ بوجهٍ من الوجوه حتى يضع قدمه إلى فوق، وكلُّ مقامٍ فيه شوبُ عبادةٍ وعابدٍ فيه مجالٌ للقدم كالنظر، وإذا وقعت المعاملةُ إلى المعبودية الصرفة يقصر القدمُ، ويتم السَّيرُ، ولكن بحمد الله سبحانه لم يمنع من النظر فيها، بل له فيها مجالٌ بقدر الاستعداد:

(ع) لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا لَكَانَ بَلَاءَ

يمكن أن يكون في أمر: (قف يا محمد) إشارةً إلى قصور القدم هذا، يعني: قف يا محمد، ولا تضع قدمك فوق ذلك، فإنَّه لا مجال للقدم فوق مرتبة الصلاة التي هي صادرةٌ عن مرتبة الوجوب، ومرتبةُ تجرُّد حضرة الذات وتنزهها تعالت وتقدست. وحقيقةُ الكلمة الطيِّبة (لا إله إلا الله) تتحقّقُ في ذلك المقام، ونفيُ عبادة الآلهة الغير المستحقة للعبادة يتصوَّرُ في ذلك الموطن، وإثباتُ المعبود الحقيقيِّ الذي لا مستحقَّ للعبادة غيرُه يحصل في ذلك المقام، وكمالُ الامتياز بين العابديّة والمعبوديَّة يظهر ههنا، ويمتاز فيه العابدُ من المعبود كما ينبغي أن يمتاز، ويعلم أنَّ معنى (لا إله إلا الله) بالنِّسبة إلى حال المنتهيين: لا معبود إلا الله كما تقرر في الشرع أنَّه معنى هذه الكلمة، وملاحظةُ: لا مقصودَ ولا موجودَ بالنِّسبة إلى الابتداء والوسط، ولا مقصودَ فوق لا موجود، فإنَّه روزنةُ لا معبود إلا الله، ينبغي أن يعلم أنَّ الترقِّي في النظر في ذلك الموطن وحدّة البصر فيه مربوطةٌ بالصلاة التي هي شغلُ المنتهيين، وسائر العبادات لعلها تمدُّ في تكميل الصلاة، وتتلافى نقصها، ولعلَّه من هذا الوجه قالوا في حق الصلاة: إنَّها حسنٌ لذاتها كالإيمان، وسائرُ العبادات ليست حسنـًا لذواتها.

المَكتُوبُ الثَّامِنُ وَالسَّبعُونَ

إلى حَضرَة المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد سعيدٍ، والخواجه محمَّد مَعصومٍ في إظهارِ الاشتِياقِ إيَّاهُم، والإشفاقِ عليهم، مع ذِكرِ ثَمراتِ العَسكرِ.

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٦٧٣)، وأخرج الطبراني في «الأوسط» (١١٤)، و«الصغير» (٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال لجبريل: «هل يصلي ربك؟ قال: نعم، قلتُ: وما صلاته؟ قال: سبوح قدوس، سبقت رحمتي غضبي». قال الهيثمي (١٠/ ٢١٣): رجاله وُثِّقوا.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وإن كان الأولادُ الكرامُ مشتاقين إلينا ومريدين لدوام صحبتنا، ونحن أيضاً متمنين لحضورهم وملاقاتهم، ولكن ماذا نفعل لا يحصل جميع المتمنيات؟

(ع) تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْــتَهِي السُّــفُنُ

وإنّي أرى بقائي في العسكر على هذا الطور بلا اختيارٍ ولا رغبةٍ مغتنماً، وأعتقد ساعةً واحدةً في هذه العرصة أفضلَ من ساعاتٍ كثيرةٍ في سائر الأمكنة، وقد يتيسّرُ هنا ما لا يعلم تيسّرُ تمثاله في مواضعَ أخرى، ومعارفُ هذا الموطن ممتازةٌ من سائر المعارف، وأحوالُ هذا المجمع ومقاماتُه ليست مما ينالها كلُّ عارفٍ، والمنعُ الذي ورد من جانب السلطان أراه روزنةَ رضاء مولاي العزيز الشأن، وأظنُّ سعادتي في هذا الحبس، وخصوصاً في أيّام المشاجرة، هذه أمورٌ ومعاملةٌ عجيبةٌ، وفي أوقات التفرقة هذه غنجٌ ودلالٌ وملاطفةٌ غريبةٌ، ولكن كلّما تحصل دولةٌ جديدةٌ عجيبةٌ يوماً فيوماً يقع الأولادُ في الخاطر، ويضطرب الفؤادُ من ألم الهجر والبعاد وعدم نيل الملاقاة، وأظنُّ أنَّ شوقي أكثرُ وأزيدُ من شوقكم، وغالبٌ عليه، ومن المقرَّر أنَّ الولدَ لا يريد مثل ما يريد الوالد إياه، وإن كانت قضيةُ الأصالة والفرعية مقتضيةً عكس ذلك، فإنَّ الأصلَ لا احتياجَ له، والفرعَ محتاجٌ إلى الأصل من القدم إلى الرأس، ولكن جرت المعاملةُ على ذلك، وثبت أشدُّ الشوق للأصل:

(ع) در خانه به كدخداى مانـد همـه چـيز

الدهلي في جواركم، وآكره أيضاً قريبٌ منكم. والسلام.

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالسَّبْعُونَ

إلى حَضرَةِ المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد مَعصومٍ في أسرارِ ذاتِ العارِفِ المَوهوبَة اللَّاكَيفيَّة، وتَحقيقِ تَجلّي الذَّاتِ والرُّؤيَة الأُخرَويَّة، وما يُناسبُ ذلك.

فإذا ترقَّت معاملةُ العارف من الشؤون والصِّفات، وتعدَّت من وجوه اعتبارات الذات تعالت وتقدست، وحصل لها التفوُّقُ من المقام الذي عبَّرنا عنه بحقيقة الصلاة؛ يكون التوجّهُ والمتوجّهُ ثمّة بلا كيفٍ كالمتوجّه إليه، فإنَّه لا سبيل للكيفيّ إلى اللا كيفيّ، وذلك المتوجّهُ هو ذاتُ العارف بعد حذف جميع الوجوه والاعتبارات عنه، والكنهُ عبارةٌ عن هذه الذَّات المجرَّدة المتوجّهة إلى ذات معروفها، وكنهُه مطلوبُها بنفسها، لا بالوجه والاعتبار، وإنّما قلتُ: إنَّ الكنهَ عبارةٌ عن الذات المجرَّدة، فإنَّ كنهَ الشيء: هو ما يكون وراء جميع وجوه الشيء واعتباراته، وذاتُ الشيء أيضاً: ما يكون وراء جميع وجوه الشيء واعتباراته، فإنَّ كلَّما يلاحَظُ من وجوه الشيء واعتباراته توجدُ ذاتُ الشيء وراء ذلك كلّها، لا مجال لإثبات أمرٍ في مرتبة الذات أصلاً، وكلُّ شيءٍ يثبت ثمّةَ؛ فهو داخلٌ في الوجوه والاعتبارات، والذاتُ ما وراء ذلك لا يتصوَّرُ في ذلك المقام أمرٌ غيرُ النفي والسلب، فإن كان فيه علمٌ بالامتياز؛ فبالسلب، وإن كان تعبيرٌ وتفسيرٌ؛ فبالسلب أيضاً، وكلُّ شيءٍ لا مجالَ فيه للإثبات، ولا يمكن عنه التَّعبيرُ بغير السلب؛ فهو مجهولُ الكيفيَّة، وله نصيبٌ من اللا كيفيّ، والتوجّهُ الذي يثبت في مرتبة الذات يكون عينَ ذات المتوجّه، لا وجهٌ من وجوه الذات، ولا اعتبارٌ من اعتباراتها، فإنَّ جميعَ الوجوه والاعتبارات صارت مسلوبةً عنها، ولم يبق شيءٌ غير الذَّات الأحد، فيكون لذاك التوجّه الذي هو عينُ الذات نصيبٌ من اللا كيفيّ بالضَّرورة، فصحَّ أنَّ التوجّهَ والمتوجّهَ يكونان ثمّةَ بلا كيفٍ كالمتوجّه إليه، وإن كان بين لا كيفيّ ولا كيفيّ فرقٌ كثيرٌ،.....

ما للتراب ورب الأرباب، ولهذا أثبتنا في التوجّه والمتوجّه نصيباً من اللا كيفيّ، واللا كيفيُّ الحقيقيُّ: هو المتوجّهُ إليه فقط، فإذا كان ذاك الممكنُ وكُنْهُهُ مجهولَ الكيفية، ولا يمكن إثباتُ شيءٍ فيها؛ كيف تكون ذاتُ الواجب تعالى التي هي في كمال اللَّطافة والتقدُّس والتنزُّه مدركةً؟ وماذا يحصل منها؟ (شعر)

مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا خِبْرَةٍ عَنْ نَفْسِـــهِ   هَـلْ يَـقْـدِرُ الْإِخْـبَـارَ عَـنْ هَـذَا وَذَا

وأعطى أرحمُ الراحمين من كمال رأفته ورحمته الممكنَ الذي متَّصفٌ بالكيف بالتمام نصيباً من اللا كيفيّ ليحصل له حضورٌ وشعورٌ باللا كيفيّ الحقيقيّ:

(ع)   وَلِلْأَرْضِ مِنْ كَـأْسِ الْكِرَام نَصِـيـبُ

وما قيل من استحالة معرفة كنه الذَّات لعلَّهم أرادوا بالمعرفة: المعرفةَ المتعارفةَ التي من عالم الكيف، وتعلّقُها باللا كيفيِّ محالٌ، وأما إذا اتَّصل أمرٌ من عالمٍ لا كيفيٍّ بلا كيفيٍّ باتِّصالٍ لا كيفيٍّ، ونال من تلك الدَّولة العظمى حظّاً وافراً؛ لِمَ يكون محالاً؟

معرفةٌ غريبةٌ، ومسألةٌ دقيقةٌ عجيبةٌ قلَّما ظهرت إلى الآن من أهل الكشف والعرفان: إنَّ هذهَ الذَّات المجرَّدةَ التي لها نصيبٌ من اللا كيفيّ وبيّنت بالتَّفصيل مخصوصةٌ بعارفٍ تامِّ المعرفة، واصلٍ إلى حضرة الذات المجرَّدة تعالت وتقدست، وحصل له الفناءُ والبقاءُ في تلك الدَّرجة العليا، وهذه الدَّولةُ أثرُ ذلك البقاء الذاتِيّ، وسائرُ الممكنات سوى هذا العارف لا نصيبَ لهم من الذات أصلاً، وليست لهم ذاتٌ قطعاً حتى تكون صفاتُهم قائمةً بها، بل جميعُ وجودهم ظلالُ الأسماء والصِّفات، وعكوسُ الشُّؤون والاعتبارات قائمةٌ بأصولها التي هي الأسماءُ والصِّفاتُ، لا بأمرٍ يعبَّرُ عنه بالذات، واللطائفُ السبعُ للإنسان الذي هو أجمعُ جميع الممكنات - سواءٌ كانت خفيّاً أو أخفى - آثارُ الصِّفات، وجسمانيُّها وروحانيُّها ظلالُ الأسماء، واعتباراتُ الذات تعالت وتقدست ما أُودِعَ فيها شيءٌ من نفس الذات، وما جعل قيامها بتلك الذات.

فإن قيل: لا قيام للأسماء والصِّفات بأنفسها، بل قيامها بالذات تعالت وتقدست، فكيف يقوم الغير بها؟

قلت: إنَّ الغيرَ إنّما لا يقوم بها إذا كان موجوداً، وأما إذا حصل له ثبوتٌ واستقرارٌ في مرتبة التوهُّم؛ فلم لا يكون قائماً بهؤلاء؟ فإنَّه أضعفُ. وما قلتُ وكتبتُ: إنَّ ذاتَ الممكن عدمٌ؛ فهو كقولنا: الممكنُ لا ذاتَ له، ذاتُه عدمٌ ولا ذاتَ له كلاهما بمعنى واحدٍ، وإن أبدى التَّحقيقُ الفلسفيُّ تغايراً بين هذين المفهومين، ولكن لا مفهوم له، وفي الحقيقة مرجعهما ومآلهما واحدٌ، والعدمُ لا نفعَ فيه لنفسه، وماذا يجدي لغيره؟ ولا يقدر إمساكَ نفسه، فكيف يمسك غيرَه؟ وتحقيقُ المبحث: إنَّ عكوسَ الأسماء والصِّفات لَمّا ظهرت في مرآة العدم يرى قيامُها في الظَّاهر بتلك المرآة، وتتخيَّلُ المرآةُ كالذات لها باعتبار قيامها بها، وفي الحقيقة قيامها بأصلها لا تعلّقَ لها بالمرآة أصلاً، ولا شُغْلَ لها بمرآة العدم في غير التوهُّم، وأين المجالُ لجوهريَّة تلك المرآة وذاتيّتها ههنا؟ والعدمُ لا قابليَّة له لأن يكون عرضاً، فكيف يكون جوهراً؟ وهذا العارفُ تامُّ المعرفة الواصلُ إلى مرتبة الذات تعالت وتقدست الحاصلُ له البقاءُ بالذات الذي حكمُه حكمُ عنقاء المغرب في جميع الأوقات لكونه عزيزَ الوجود وغريبَ الوقوع أعطي بعد الفناء والبقاء ذاتاً يكون قيامُ ظلال الأسماء والصِّفات وعكوسها التي هي حقيقتُه بتلك الذات، كما أنَّ قيامَ أصولها التي هي الأسماءُ والصِّفاتُ بحضرة الذات يكون قيامُ ظلال تلك الأسماء والصِّفات بظلٍّ ....

تلك الذَّات التي أعطيها العارفُ، فيكون ذلك العارفُ مركَّبًا من الجوهر والعرض، ويكون سائرُ أفراد الممكن مجرَّدَ الإعراض، لا شائبةَ فيهم من الجوهرية. نعم، ما قال صاحب «الفتوحات المكية» من أنَّ العالمَ أعراضٌ مجتمعةٌ قائمةٌ بذاتٍ واحدةٍ، ولكن ذهل الشَّيخُ هنا عن دقيقتين: إحداهما: إنَّه لم يستثن العارفَ الأكملَ من هذا الحكم، وثانيتهما: إنَّه جعل قيامَه بالذات الأحد، والحالُ أنَّ قيامَه بأصله الذي هو الأسماءُ والصِّفاتُ، لا بالذات تعالت، وإن كان قيامُ الأسماء والصِّفات بالذات، فإنَّ لحضرة الذات كمالَ الاستغناء عن العالم، فكيف يمكن قيامُ العالم بتلك الدَّرجة العليا؟ وماذا يكون العالمُ حتى يكون فيه هوسُ القيام بتلك الذروة القصوى؟ (شعر)

ما تماشاكُنانِ كوته دست تو درختِ بلند بالايى

ومعاملةُ هذا العارف خارجةٌ عن معاملة العالم، وحكمُه مستثنىً من أحكام العالم، وهو بحكم «**اَلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» نال بالمحبّة الذاتيّة معيّةً بأصل الأصل متجاوزاً أصله، وأفنى نفسه في أصل الأصول، وأكرمه أكرم الأكرمين بمقتضى ﴿**هَلْ جَزَآءُ الْاِحْسَانِ اِلَّا الْاِحْسَانُ**﴾ [الرحمن: ٦٠] ببقاءه مكافأةً لفنائه، وجعله باقيًا بما قد فني فيه، وصيَّره مظهراً لذاته وأسمائه وصفاته، وجعله مرآةً جامعةً، فكان حكمُ سائر أفراد العالم في جنب هذا العارف العاشق حكمَ القطرة بالنِّسبة إلى البحر المحيط، فإنَّ الأسماءَ والصِّفات لا قَدْرَ لها في جنب حضرة الذات ولا مقدارَ، وللقطرة قدرٌ بالنِّسبة إلى البحر، وهؤلاء يمكن أن يقال: ليس لها ذلك في جنب تلك، ينبغي أن يقيس علمَ هذا العارف ومعرفتَه ودركَه وإدراكَه من ههنا بالنِّسبة إلى الآخرين، وأن يفهم ثمّةَ عِظَمَ شأنه، وعلوَّ منزلته، ﴿**ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الحديد: ٢١].

وهذا العارفُ الذي تشرف بالبقاء الذاتِيّ وأعطى ذاتاً يكون قيامُ صفاته مثل العلم والقدرة بها كما كان قيامُها أولاً بأصولها كسائر أفراد العالم، لا يعود إليه بوجود هذا البقاء الأكمل إطلاقُ كلمة (أنا) التي قد زالت عنه، ولا يقدر إطلاق (أنا) في مرتبةٍ من مراتب البقاء، فإنَّ البقاءَ الأكملَ متفرِّعٌ على الفناء الأتمّ الذي لم يترك من إطلاق كلمة (أنا) اسمًا ولا رسمًا، ولم يُبْقِ له مجالاً، (الزَّائلُ لا يعودُ) قضيّةٌ مشهورةٌ، والذي يعود فليس هو بزائلٍ، بل كان مغلوبًا ومستوراً، ثم قوي بعروضِ عارضٍ وغُلِبَ، فإنَّ المغلوب قد يُغلبُ. ينبغي أن يعلم أنَّ النَّصيبَ من مرتبة الذات تعالت وتقدست مخصوصٌ بهذا العارف الذي صار باقيًا بحضرة الذات، وقامت به الصِّفاتُ، وأيُّ قسمٍ من الفناء والبقاء حصَّله غيره؛ يكون نصيبُه من الأسماء والصِّفات، لا من الذات تعالت وتقدست، وإن لم يكن للأسماء والصِّفات انفكاكٌ عن الذات تعالت، ولكن النَّصيب من الذات غيرُ النصيب من الصِّفات، وإن أوقع عدمُ انفكاك الصِّفات عن الذات جماعةً في توهُّم اتحاد النصيب من الصِّفات وعينيته بالنصيب الحاصل من الذات، ولكن لكلٍّ منهما علاماتٌ وأماراتٌ على حدةٍ، وعلومٌ ومعارف مخصوصةٌ، لا يخفى ذلك لأرباب الوصول إلى هذه الدَّولة العظمى، ولكن لا يخفى عليك أنَّ التجلِّي الذاتِيَّ ليس بمخصوصٍ بهذا العارف، بل يجوز أن يتيسّر التجلِّي الذاتِيُّ لغيره أيضًا، ولكن لا يكون له نصيبٌ من نفس الذات، فإنَّ التجلِّي يستدعي نحواً من الظليَّة، فإنَّه ظهورٌ في مرتبةٍ ثانيةٍ، والنَّصيبُ من نفس الذات الذي مرَّ ذكرُه لا يتحمَّلُ شائبةً من الظليَّة، ويكون هاربًا عن نفس التجلِّي والظُّهور أيضًا، وظهورُ......

الذات بصفةٍ من الصِّفات هو أيضـًا ظهورُ الذات في مرتبةٍ ثانيةٍ، ولكنَّه ليس تجلِّيا ذاتيـًا، بل تجلِّي اعتبارٍ من اعتبارات الذات تعالت وتقدست، فإنَّ الذات عزَّ شأنها جامعةٌ لجميع الاعتبارات، بل منزَّهةٌ عن الجميع، فلا يكون تجلِّي اعتبارٍ من الاعتبارات تجلِّيـًا ذاتيـًا.

فإن قيل: إنَّ الشَّيخَ محيي الدين ابن العربي قدس سره وتابعوه قدس الله أسرارهم قالوا للتعيّن الأوّل تعيّنـًا ذاتيـًا، وهو ظهورُ الذات بالتعيّن العلميّ الجُمَلِيِّ الذي هو اعتبارٌ من اعتبارات الذات، وإن كانت له جامعيّةٌ.

أجيب: أنَّ معتقدَ هذا الدرويش هو أنَّ هذا الظهورَ العلميَّ الجمليَّ الذي عبَّروا عنه بالتعيّن الأوّل ليس هو أيضـًا تجلِّيـًا ذاتيـًا، بل هو تجلِّي شأنٍ من شؤونات الذات، والذاتُ جامعةٌ لجميع الشؤون والاعتبارات، بل فوق جميع الشؤون والاعتبارات، واعتبارُ العلم هناك كسائر اعتبارات الذات التي أيدي وصولها قاصرةٌ عن ذيل غنى تلك المرتبة المقدسة.

فإن قيل: إنَّ الظُّهورَ في مرتبةٍ ثانيةٍ مقصورٌ على العلم، فإنَّ في الخارج نفسَ الذات تعالت، فيكون ظهورُها في مرتبةٍ ثانيةٍ في موطن العلم، فإنَّ الظهورَ إما في العلم أو في الخارج، ولم يبيّن الشق الثّالث حتى يثبت فيه الظهورُ.

قلت: إنَّ القادرَ الذي ظهر بشأن العلم الذي هو اعتبارٌ من اعتبارات الذات يقدر أن يظهر على نهجٍ يكون ظهورُ اعتبار العلم بعضـًا من ذلك الظهور الجامع، بل يظهر على نهجٍ لا يكون لاعتبار العلم ولا لسائر الاعتبارات فيه مجالٌ، ويكون مرتبةُ ذلك الظهور الجامع ما وراء مرتبة الخارج ومرتبةِ العلم بأن يكون ظلاًّ للخارج، وأعلى من مرتبة العلم، وجعل تجلِّي الذات مقيداً بالتعيّن العلميّ من قبيل حصر بحرٍ في كوزٍ، بل من قبيل طلب الشراب من السراب، قال الشاعر: (شعر)

کسی در صحنِ کاچی قَلْيه جويد ... أَضَاعَ العُمْرَ فِي طَلَبِ المُحَالِ

نعم، إنَّ اعتبارَ العلم هو أجمعُ جميع اعتبارات الذَّات، وفيه من شمول كمالات الذَّات ما ليس في غيره من الاعتبارات، فلو قالوا للظُّهور العلميّ: ظهورَ الذَّات على سبيل التجوُّز، وأطلقوا عليه تجلِّيـًا ذاتيـًا؛ لساغ، وإن كان ذلك بعيداً عن إطلاقاتهم، ومستبعداً من مذاقهم كما لا يخفى على النَّاظرين في كلامهم.

فإن قيل: إنَّ الشَّيخَ محيي الدين ابن العربي قدس سره قال: تكون الرؤيةُ الأخرويَّةُ بصورةٍ لطيفةٍ جامعةٍ مثاليةٍ، فما اعتقادُك في هذه المسألة؟

قلت: إنَّ رؤيةَ الصُّورة الجامعة المذكورة ليست هي رؤية الحقّ سبحانه، بل رؤيةُ مظهرٍ من مظاهر كمالاته سبحانه حصل في عالم المثال: (شعر)

يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ كَيْفٍ ... وَإِدْرَاكٍ وَضَرْبٍ مِنْ مِثَالِ

والقولُ بكون رؤية الحقّ سبحانه بالصُّورة نفيُ رؤية الحقّ سبحانه في الحقيقة، وأيضـًا إنَّ الصورة التي تحصل في عالم المثال - وإن كانت جامعةً - تكون على مقدار عالم المثال، وعالمُ المثال وإن كانت له وسعةٌ، ولكنَّه واحدٌ من عوالمه تعالى المخلوقة، فكيف يكون للصورة الجامعة التي فيها مجالٌ لأن تكون جامعةً لجميع الكمالات الوجوبيَّة، وأن تضبط كلّها حتى تصير مرآةً لتلك المرتبة المقدسة، وتكون رؤيتُها رؤيَتَه تعالى؟ فإذا لم يكن في صفة العلم التي هي من الصِّفات الوجوبية وأجمع الصِّفات الذاتيّة مجالٌ لأن تكون جامعةً لجميع الصِّفات والاعتبارات الذاتيّة كما مر تحقيقُه، ماذا يكون عالم المثال الذي هو ممكنٌ ومخلوقٌ حتى يكون فيه صورةٌ جامعةٌ.........................

لجميع الكمالات الوجوبية؟ فلو سلّمنا فرضاً وتقديراً أنّها جامعةٌ تكون ظلّاً من ظلال تلك المرتبة المقدّسة، ورؤيةُ الظلِّ ليست هي في الحقيقة رؤيةَ الأصل، والمخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام شبّه الرؤيةَ الأخرويَّةَ برؤية القمر ليلة البدر، ولم يترك خافيةً أصلاً، ورؤيةُ الظلِّ هي كرؤية القمر في الطشت، وأربابُ الفطرة العليا لا يقبلون ذلك، والذي ندركه ونعلمه أنَّه يمكن أن يحصل لتلك المرتبة المقدسة ظهورٌ في خارج موطن العلم، ويكون له ثبوتٌ في ظلِّ مرتبة الخارج كما مرَّ، ويكون لهذا الظهور الجامع ظلٌّ جامعٌ في موطن العلم يعبِّرون عنه بالتعيّن الأوّل، ويكون لهذا الظهور الجامع ظلٌّ آخرُ في عالم المثال جامعٌ يكون مرآةً للظلِّ الجامع العلميِّ، وهذا الظلُّ الجامعُ المثاليُّ الذي يظهر بصورةٍ لطيفةٍ في عالم المثال يكون بصورة الإنسان الذي هو أجمعُ المخلوقات، وحديثُ «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» يمكن أن يكون وارداً بهذا الاعتبار، ولكن رؤيةَ الحقِّ سبحانه هي ما تكون وراء الظهورات والصُّوَر، وتكون من عالمٍ لا كيفيٍّ ولا مثليٍّ، ينبغي الإيمانُ بالرؤية الأخرويَّة دون أن يشتغل بكفيَّتها وكميَّتها ولمِّيَّتها، لا مناسبةَ لخلق الآخرة ووجودها بخلق الدنيا ووجودها أصلاً حتى تقاسَ أحكامُ إحداهما على أحكام الأخرى، والبصرُ هناك غيرُ البصر الذي هنا، والفهمُ والإدراكُ هناك غيرُ الفهم والإدراك اللذين هنا، لها الدوامُ والأبد، ولهذه الفناءُ والزَّوالُ، ولها كمالُ النَّظافة وتمامُ اللَّطافة، ولهذه غايةُ الخبث ونهايةُ الكثافة، والشَّيخُ قدس سره لا يُثْبِتُ للحق جل وعلا ظهوراً في خارج موطن العلم، ولا يجوِّزُ فيما وراء المجالي والمظاهر شهوداً ومشاهدةً ورؤيةً:

(ع) وَذَلِكَ رَأْيٌ غَيْرُ مَا هُوَ رَأْيُهُمُ

فماذا نفعل لا أحدَ في هذه العرصة غيرُ الشَّيخ قدس سره، فأحياناً نحاربُه، وأحياناً نصالحُه، وهو الذي أسَّس كلام المعرفة والعرفان وشرحه وبسطه، وهو الذي تكلّم من التَّوحيد والاتحاد بالتَّفصيل، وبين منشأ التعدُّد والتكثُّر، وهو الذي أعطى الوجودَ بالكليَّة الحقَّ جل وعلا، وجعل العالمَ موهوماً ومتخيلاً، وهو الذي أثبت للوجود التنزُّلات، وميَّز أحكامَ كلٍّ منها عن أحكام الآخر، وهو الذي اعتقد العالمَ عينَ الحق، وقال: كلُّه هو مع ذلك وجد مرتبةَ تنزيهِ الحق سبحانه وراء وراء العالَم، واعتقد الحقَّ سبحانه منزَّهاً ومبرّأً من الرؤية والإدراك، والمشائخ المتقدمون على الشَّيخ إن تكلّموا في هذا الباب تكلّموا بالإشارات والرموز، ولم يشتغلوا بالشرح والتَّفصيل، والذي جاؤوا من بعد الشَّيخ من هذه الطَّائفة اختار أكثرهم تقليد الشَّيخ، وساق الكلام على طبق اصطلاحه، ونحن المتأخرون العاجزون أيضاً استفضنا من بركاته، ونلنا حظّاً وافراً من علومه ومعارفه، جزاه الله سبحانه عنا خير الجزاء.

غَايَةُ مَا فِي البابِ: أنَّه لَمّا كان كلٌّ من مظانّ الخطأ ومجال الصواب مختلطاً بالآخر بحكم البشرية، والإنسانُ أحياناً مخطئٌ، وأحياناً مصيبٌ؛ فلا جرم كان اللازمُ جعل الموافقة لأحكام السواد الأعظم الذين هم أهل الحق علامةً للصواب، ومخالفتهم دليلاً للخطأ، أيّاً من كان القائلُ، وأيّاً ما كان المقولُ، قال المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «عَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ»، ومقرَّرٌ أيضاً أنَّ تكميلَ الصناعة بتلاحق الأفكار واختلاف الأنظار، وإن كان يمكن أن يقال لسيبويه: إنَّه باني أحكام علم النحو، ولكن النَّحوَ الذي حصل له بتلاحق أفكار المتأخرين واختلاف..............

أنظارهم كمالٌ وتنقيحُ شيءٍ آخر حيث حدث فيه زينةٌ أخرى، حتى يمكن أن يقال: إنَّه نوعٌ آخرُ، وعرض عليه أحكامٌ على حدةٍ. ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

المكتوب الثمانون

أيضاً إلى حضرةِ المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد مَعصومٍ سَلَّمه اللهُ في بيانِ استِنادِ الأشياءِ إلى ذَاتِ العارِفِ المَوهوبَة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. عليهم الصلوات والتسليمات.

اعلم أنَّ للظلِّ إلى أصله طريقاً سلطانياً، لا حائلَ بينهما مقدار تبنةٍ أصلاً، فإن كان بينهما حيلولةٌ؛ فإنَّما هي إقباله على نفسه، وإعراضه من الأصل، والظلُّ ليس إلا حاملَ أماناتِ الأصل، فإنَّ كلَّما فيه من حسن الوجود وكماله وتوابعه مستفادٌ من الأصل، ونصيبُه من غير توسُّط الأصل لعلَّه العدمُ، وهو لا شيءٌ محضٌ، ومجرَّدُ اعتبارٍ، وهذا الظلُّ نَسِيَ أصله من كمال جهالته، وزعم أماناته من قِبَل نفسه، فخان في الأمانة، وظنَّ نفسَه مع وجود قبحه الذاتِيّ حسناً وكاملاً، ولكن مع وجود إقباله على نفسه وإعراضه عن أصله له محبّةٌ وميلٌ طبيعيٌّ إلى أصله، عَرَفَ أو لم يعرف، بل محبّتُه لنفسه متعلّقةٌ في الحقيقة بأصله، فإنَّ الحسنَ والكمالَ الذين هما متعلَّقَا المحبّة من الأصل لا منه، فإنَّه ليس له شيءٌ غيرَ العدم والقبح حتى تتعلّق به المحبّةُ كما حُقِّقَ غيرَ مرّةٍ، فإذا زال عنه بكرم الله سبحانه مرضُ الأنانية والعُجْب، وتخلَّص من الجهل المركَّب الذي فيه، واعترف بكون الأمانة من أهل الأمانة، وحصل له الإعراضُ عن نفسه بدل الإقبال على نفسه، وتبدَّلَ إعراضه عن الأصل بالإقبال عليه؛ فحينئذٍ يستمسك بحبل السعادة بيده، ويحصل له رجاءُ الوصول إلى الأصل.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ العالمَ لَمّا كان ظلالَ الأسماء والصِّفات الواجبيَّة؛ كان أصولُها هي الأسماء والصِّفات، وهذه الظلالُ أعراضٌ قائمةٌ بأصولها التي هي الأسماءُ والصِّفاتُ، ليس بينها جوهرٌ حتى تكون قائمةً به، وقال النَّظَّامُ من المعتزلة بحكم (الكذوب قد يصدق) مطَّلعاً على هذا السرّ: العالَمُ بتمامه أعراضٌ لا جوهرٌ حتى يقوم به، ولكنَّه أخطأ في قوله بقيام هذه الأعراض بأنفسها، غافلاً عن أصولها التي تقوم بها، وقال الشَّيخُ محيي الدين ابن العربي قدس سره من الصوفيَّة: إنَّ العالمَ أعراضٌ مجتمعةٌ، وجعل قيامها بذات الله جل وعلا، لا بالأسماء والصِّفات التي هي أصولُها، فيا ليت شعري ما معنى القيام بالذات المجردة عن الوجوه والاعتبارات؟ ولا معنى للقيام ثمة إلا اختصاصُ الناعت بالمنعوت، ولا نعتَ ثمة، فلا قيامَ. وأيضاً إنَّ القيامَ من جملة الوجوه والاعتبارات المتعيّنة، فلا معنى لإثباته في تلك المرتبة المقدسة، فإذا كان أفرادُ العالم ظلالَ الأسماء والصِّفات؛ فلا جرم يكون وصولها إلى أصولها التي هي الأسماء والصِّفات، فلو وصل إلى أصول الأصول أيضاً لا يكون منتهياً إلى الذات المجردة المقدسة، ولا يقدر أن يتجاوزها، ولا مجال هناك للأصالة أيضاً، فإنَّ ثمة غنىً ذاتيّاً عن الكلّ، لا اسمَ فيه ولا صفةَ، ولا شأنَ ولا اعتبارَ، فلا يكون للعالم من مرتبة الذات المقدسة نصيبٌ غيرَ الحرمان، ولا يكون للوصل والاتِّصال فيه مجالٌ، ولكن قد جرت عادةُ الله سبحانه بأن يعطي بعد قرونٍ متطاولةٍ وأزمنةٍ متباعدةٍ من كمال رحمته ورأفته لصاحب دولةٍ بعد الفناء الأتمّ بقاءً أكملَ، وأنموذجاً من الذات الأقدس، فكما أنَّ قيامَه كان أولاً بأصله الذي هو الأسماءُ والصِّفاتُ؛ يكون الآن قائماً بذلك الأنموذج، ومجموعُ تلك الأعراض السابقة التي كانت تكون تلك الذاتُ الموهوبةُ حقيقتَها، وينتهي كمالُه الإنسانيُّ إلى........................

نهايته، وتتمُّ النِّعمةُ في حقِّه.

ها أنا أقول كلاماً ينبغي حسنُ الإصغاء: إنَّ القيامَ بتلك الذَّات الموهوبة ليس مخصوصاً بذلك العارف، بل قيامُ جميع أفراد العالم التي هي أعراضٌ مجتمعةٌ كما كان أوّلاً بالأسماء والصِّفات؛ جُعِلَ الآن مربوطاً بتلك الذَّات الموهوبة، وجعل الكلُّ قائماً بتلك الذات الموهوبة: (شعر)

لَـيْـسَ عَـلَـى اللهِ بِـمُـسْـتَـنْـكَـرٍ   أَنْ يَـجْـمَـعَ الْـعَـالَـمَ فِـي وَاحِـدِ

وسرُّ خلافة الإنسان التي جاءت في قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يتحقّقُ ههنا، وحقيقةُ خبر «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» تتَّضحُ ثمّة. وما قلت من أنَّه يعطي أنموذجاً من الذات الأقدس؛ فهو من ضيق ميدان العبارة، وإلا فأين المجالُ هناك للأنموذج؟ وأيُّ شيءٍ يظهر بصورته؟ وأين المجالُ ثمة للصورة؟ ينبغي أن يعلم أنَّ مثلَ هذا العارف لا يكون متعدّداً في عصرٍ واحدٍ، فإنَّه إذا ظهر بعد قرونٍ متطاولةٍ؛ كيف يتصوَّرُ تعدُّدُه في عصرٍ واحدٍ؟ فلو عيَّنَا مدَّةَ ظهور مثل هذه الدَّولة لَما صدقه غير الأقلين. ﴿رَبَّنَا اٰتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ اَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

ينبغي أن يعلم أنَّ العارفَ الذي شُرِّفَ ببقاء الذات تكون تلك الذاتُ الموهوبةُ لا كيفيّةً، وتكون وراءَ جميع الوجوه والاعتبارات، والذاتُ التي لها نصيبٌ من اللاكيفيّ لها طريقٌ سلطانيٌّ إلى الذات المجردة اللاكيفيَّة، وتكون الذاتُ الموهوبةُ هي كنهَ العارف، فإنَّ الكنهَ عبارةٌ عما هو وراء جميع الوجوه والاعتبارات، وهذه الذاتُ ما وراء جميع الاعتبارات، ولا كنهَ لسائر أفراد العالم، فإنَّ جميع وجودها وجوهٌ واعتباراتٌ، ولا ذاتَ لها ما وراء الاعتبارات حتى يقال لها كنهاً، فإذا لم يكن لها كنهٌ ماذا يكون لها نصيبٌ من كنه الأصل؟ والذي له سبيلٌ إلى الكنه هو الكنه، وأيُّ مناسبةٍ للوجه مع الكنه؟ وكأنَّ الكنهَ وقع محاذياً للكنه، وللوجه انحرافٌ من الكنه، فكيف يصل إلى الكنه؟ بل كلّما يكون حركتُه وسيرُه أكثرَ يقع من الكنه أبعد: (شعر)

لَنْ تَبْلُغَ الْكَعْبَةَ الْعَلْيَاءَ يَا بَدَوِي   إِنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي تَمْشِـي إِلَى الْخَتَنِ

وإطلاقُ محاذاة الكنهِ الكنهَ من ضيق مجال العبارة، وإلا كيف تتصوَّرُ المحاذاةُ في تلك الحضرة؟ ولكن تطلق المحاذاةُ على سبيل التجوُّز لتمثُّل ذلك المعنى اللا كيفيّ بصورةٍ مثاليةٍ متكيّفةٍ. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا اِنْ نَسِينَا اَوْ اَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

اسمع، إنَّه لَمّا حصل لأفراد العالم التي هي أعراضٌ مجتمعةٌ قيامٌ بذات العارف الموهوبة كما مرّ؛ حصلت لها أيضاً نسبةٌ بالذات الأقدس جل شأنها بتوسُّط ذات العارف المذكورة، وحصل لها نصيبٌ من تلك المرتبة المقدسة من هذه الحيثيَّة، فإنَّ ذاتَ هؤلاء هي عينُ ذات العارف، كأنَّها حصل لها بتوسُّطِ ذواتها ارتباطٌ لا كيفيٌّ بذاتٍ لا كيفيّةٍ، ومع ذلك انتسابُها إلى الذات الأقدس بتوسط العارف، فإنَّ تلك الذاتَ في الحقيقة هي ذاتُ العارف.

اسمع كلاماً غريباً: إنَّ كلَّ أحدٍ له انتسابٌ إلى الذات الأقدس بذاته ووصولٌ لا كيفيٌّ إلى تلك المرتبة المقدسة له أصالةٌ واستقلالٌ في أخذ الفيوض والبركات من تلك المرتبة المقدسة، ولا توسُّط في البين، والوسائطُ إنّما هي فيما دون تلك المرتبة المقدسة، ولكلِّ أحدٍ من الواصلين إلى تلك المرتبة المنزَّهة نصيبٌ بقدر استعداده بطريق الأصالة. والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور كلّها، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالثَّمَانُونَ

إلى الخواجه جَمالِ الدِّينِ الحسَينِ في تَعبيرِ واقِعتِه.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، ليعلم الولدُ الأعزُّ أنَّ الصحيفةَ الشَّريفةَ التي أَرْسَلْتَها قد وصلتْ، وحيث كانت متضمِّنةً لخبر العافية والجمعيَّة الصورية والمعنويَّة أورثت الفرحَ والسرورَ، وكتبتَ الواقعةَ التي ظهرتْ، وطلبتَ تعبيرها، وهي: إنِّي كنت مرَّةً في صدد التوضُّؤ، فسقطتُ مغشيّاً عليّ، وصرتُ كأنَّه خرج الروحُ من بدني، ولَمّا أفقتُ رأيتُ نوراً لامعاً كالشمس حتى غشي عليّ من غاية لطافته، كما إذا رأى شخصٌ محبوبه؛ فينمحي في أشعّة جماله، ولا يبقى منه اسمٌ ولا رسمٌ.

ليكن مكشوفاً لولدي ومعلوماً أنَّ الإنسانَ مركَّبٌ من لطائف سبعةٍ مشهورةٍ، ولكلِّ لطيفةٍ معاملةٌ على حدةٍ، وأحوالُ ومواجيدُ مختصّةٌ بها، وكانت أحوالُ ولدي وأذواقُه متعلّقةٌ بلطيفة القلب إلى الآن، وكان متلوِّناً بتلوينات القلب، والآن قد ورد هذا الواردُ القويُّ إلى لطيفة روحك، وأدخلها في تصرُّفه، ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]، ولما كانت الروحُ التي هي منشأُ الإدراك والشُّعور مغلوبةَ الوارد؛ كان الغشيُ نقدَ الوقت، ومعاملتُك في ذلك الوقت متعلّقةً بلطيفة الرُّوح، وقد وقع في حلقة هذا اليوم نوعُ إمدادٍ وإعانةٍ في تكميل هذه النِّسبة، وشوهد ظهورُ أثرها، وعلم أنَّه قد حصل لها وسعةٌ، وهي بعدُ في صَدَد السِّراية، رزق الله سبحانه إتمامها.

والواقعةُ الثّانيةُ التي كتبتَها: أنّك رأيت تلاقي الثريا ببنات نعشٍ في بيتي، تعبيرُ هذه الواقعة مناسبٌ لتعبير الواقعة الأولى، وحيث ظهر اجتماعُ نسبة القلب بنسبة الروح بتلاقي هذين القسمين من الكواكب، وحيث إنَّ في الثُّريَّا انتظامَ الكواكب؛ فهو مناسبٌ بالقلب، وحيث إنَّ في بنات النعش انتشاراً؛ فهو مناسبٌ بالروح، فإن ظهرت الواقعةُ الثّانيةُ بعد الواقعة الأولى؛ فصحيحةٌ ودالَّةٌ على اجتماع النسبتين، وإن ظهرت أولاً؛ فذلك أيضاً صحيحٌ، فإنَّه كثيرًا ما تحصل النسبةُ، ولا تظهرُ، فأريتَ أولاً حصولها، ثم ظهرت بواقعةٍ ثانيةٍ. والله سبحانه أعلم بالصواب، ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]. والسلام.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالثَّمَانُونَ

إلى حَضرةِ المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد سَعيدٍ، والخواجه محمَّد مَعصومٍ مُدَّ ظِلُّهما في إظهارِ آلامِ المُهاجَرة، مع بَعضِ البِشاراتِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. ليكن أولادي الكرام متحقّقين بالجمعيَّة الصورية والمعنوية، لا أجد في هذه الأسفار والمحن شيئاً من الآلام مساوياً لمفارقة أولادي الأعزة، وقلما أكون فارغاً عن تذكارهم، وكلَّما كان وصولُ النعم من المنعم الحقيقي أكثرَ؛ يكون تذكُّرُ الأحبة النائين أزيدَ وأوفرَ، والسوانحُ الجديدةُ تكتب يوماً فيوماً في المسودة، وتنقل إلى البياض، ولكن من الذي يدركها؟ ومن يحتظُّ بها؟ والخواجه محمد هاشم مغتنمٌ، فإنَّ فيه استعدادَ فهم الكلام، ويكون ملتذّاً في الجملة، ولكنَّه صار في سفر اجمير هذا من شدّة المحن من المخلصين الصحيحي الأعذار لا يرافقون إلا قليلاً، حسبنا الله ونعم الوكيل، الرفقاءُ قليلون، والأذواقُ أيضاً قليلةٌ، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] بلى. ثم إنِّي لَمّا كنت ليلةً محزوناً ومتألِّماً من مفارقتكم رأيتُ بعد صلاة التهجد أنّكما الأخوين ذهبتما مع واحدٍ من هؤلاء الأصحاب عند وكيل سلطانٍ لتكونوا ملازمين له، وتمييزُ من يصلح الملازمة مفوَّضٌ إلى ذلك الوكيل، فكلُّ من يراه قابلاً للملازمة..............

يأخذه ملازماً، ويكتبون لونَه وعلائمَه على ورقٍ، فكتبوا من بين الثلاثة لونكما وأخذوكما للملازمة، ولم يكتبوا لونَ الثّالث من الأصحاب، ولم يقبلوه للملازمة، وأنا أسألكما: إنَّه لِمَ لم يكتبوا لونه؟ فتقولان: إنّه قرب وجهه إلى وجهه وقت كتابة اللون، وتأمّل فيه تأمُّلاً تامّاً، فقال: إنَّ به سواداً، أو قال لفظاً قريباً من ذلك، فلم يكتب، حمداً لله سبحانه، قد اطمئنّ القلب من جانبكما حيث قبلوكما، ولكن بقي الخاطرُ متألِّماً من طرف هذا الثّالث من الأصحاب حيث لم يقبلوه، وليت يقبلونه لملازمة ملازمي السُّلطان، العاقبةُ بالخير.

المَكْتُوبُ الثَّالِثُ وَالثَّمَانُونَ

إلى حَضراتِ المَخدومِ الخواجه محمَّد سَعيدٍ، والخواجه محمَّد مَعصومٍ سَلَّمهما اللهُ

في بيانِ بَرَكاتِ كَونِه في العَسكرِ من غيرِ اختيارٍ.

ليكن أولادي الكرامُ على جمعيَّةٍ، إنَّ الناسَ ينظرون إلى مِحَنِنا في جميع الأوقات، ويطلبون مخلصاً من هذا المضيق، ولا يدرون أنَّ في عدم حصول المراد وعدم الاختيار وعدم نيل المقصود والمرام بلاءً حسناً وجمالاً، وأيُّ نعمةٍ تساوي لإخراج الإنسان من اختياره بلا اختياره، وإعطاء المعيشة له بلا اختيارٍ، وجعل أموره الاختياريّة تابعةً لعدم اختياره، وجعله كالميت بين يدي الغسال؟ وفي أيّام الحبس إذا تأمّلتُ أحياناً في اضطراري وعدم اختياري كنت أحتظُّ منه حظّاً عجيباً، وأجد منه ذوقاً غريباً. نعم، ماذا يجد أرباب الفراغ من أذواق أرباب البلاء؟ وماذا يدركون من جمال بلائه؟ والحظُّ عند الأطفال منحصرٌ في الحلاوة، والذي نال حظّاً وافراً من المرارة لا يشتري الحلاوةَ بشعرةٍ:

(ع) مرغِ آتش خواره، كى لذّت شناسد دانه را

والسلام على من اتبع الهدى

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالثَّمَانُونَ

إلى الحافِظ عبدِ الغَفورِ في بيانِ آدابِ هذه الطَّرِيقَة العَلِيَّة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. ينبغي لطالب هذا الطَّريق بعد تصحيح العقائد بموجب آراء أهل الحق شكر الله تعالى سعيهم وبعد تعلم الأحكام الفقهية والعمل بمقتضى العلم أن يصرف جميع أوقاته في ذكر الله جل شأنه بشرط أن يكون ذلك الذكرُ مأخوذاً من الشَّيخ الكامل المكمّل، فإنّه لا يحصل الكاملُ من الناقص، وينبغي تعميرُ الأوقات بالذكر على نهجٍ لا يشتغل بعد أداء الفرائض والسنن المؤكدة بشيءٍ غير الذكر أصلاً، حتى يترك تلاوةَ القرآن ونوافلَ العبادات أيضاً، ويشتغل بالذكر بالوضوء وبغير الوضوء قائماً وقاعداً، ولا يخلو عنه في مجيئه وذهابه، ووقت أكله ونومه: (شعر)

أَلَا فَاذْكُرُوا رَبَّ الْبَرَايَا فَإِنَّهُ ... جِلَاءُ الْقُلُوبِ وَالْغِذَاءُ لِأَرْوَاحِ

وليشتغل بالذكر على الدوام حتى لا يبقى في ساحة الصدر من غير المذكور اسمٌ ولا رسمٌ، ولا يخطر ما سوى المذكور في قلبه بطريق الخطرة أيضاً، فلو تكلّف في إحضار الغير لا يتيسّرُ له ذلك بواسطة نسيان القلب غير المذكور، وذلك النسيانُ - أعني: نسيان القلب جميع ما سوى المطلوب - مقدّمةُ حصول المطلوب، ومبشِّرٌ بالوصول إليه، وماذا أكتب من حصول المطلوب والوصول الحقيقيّ إلى المقصود؟ فإنَّ ذلك وراء الوراء: (شعر)

كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى سُعَادَ وَدُونَهَا ... قُلَلُ الْجِبَالِ وَدُونَهُنَّ حُيُوفُ

فإذا أتمَّ الأخُ الأعزُّ هذا الدرسَ بعناية الله سبحانه يطلب درساً آخرَ. والله سبحانه الموفق، ....

والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب الخامس والثمانون

إلى حضرةِ المَخدومِ الخواجه محمَّد مَعصومٍ في التَّحريضِ على حِفظِ الأوقاتِ.

أحوالُ هذه الحدود وأوضاعُها مستوجبةٌ للحمد، المسؤولُ من الله سبحانه سلامتُكم واستقامتُكم، فإذا تيسّرَ الوصولُ بمشيئة الله تعالى إلى أجمير، وحصلت النجاةُ من هذه العقبات الشّديدة والحرّ المفرط، أكتب لكم كتاباً، وأطلبكم إن شاء الله تعالى عليكم بالجمعيَّة، وصرف الهمة في مراضي المولى جلّ شأنه بالتمام، حذرَ الوقوع في الفراغ، واستيفاء حظّ النَّفس والمؤانسة التامّة بالأهل والعيال، فيقع الفتورُ في معاملةٍ مهمّةٍ، فلا يحصل شيءٌ غيرَ الحرمان والندامة، ولا يجدي الندامةُ شيئاً، وعليكم باغتنام هذه الصحبة وصرف الأوقات في أهمِّ الأمور، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤].

والمعارفُ الجديدةُ التي حُرِّرت كلُّها درسُكم بعد درس إياكم وسردها، بل ينبغي أن تجتهدوا في مطالعتها بالجدّ والجهد، فلعله تنكشف روزنةٌ من مكنوناتها، فتكون رأسَ مال سعادتكم، وقد وجدت بشارةً في مادتكم، وكتبتها في مكتوبٍ، وفوَّضته إلى الخواجه محمد هاشم الكشمي ليوصله إليكم، ولعلَّ الله سبحانه لا يضيعكم بكرمه ويقبلكم، ولكن عليكم بالخوف والإشفاق، وإياكم وصرفَ الأوقات في اللهو واللعب، فلا يبقى للصحبة تأثيرٌ، وكونوا ملتجئين ومتضرّعين إلى حضرة الحقّ سبحانه، وعليكم الاختلاط بأهل الحقوق بقدر الضَّرورة، واستمالة خواطرهم، وعاشروا الجماعةَ المستورةَ بالوعظ والنصيحة، ولا تبخلوا في حقِّهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورغِّبوا جميع أهل البيت في الصلاة والصلاح، وإتيان الأحكام الشَّرعيّة، فإنّكم مسؤولون عن رعيتكم، وقد أعطاكم الله سبحانه العلم، ونسألُه تعالى أن يرزقكم العمل على وفقه والاستقامة عليه. آمين.

المكتوب السادس والثمانون

إلى الدَّرويشِ حَبيبِ الخادِمِ في بيانِ سرِّ كَثرةِ ظُهورِ الخَوارقِ وقلته.

اعلم أنَّ ارتكابَ فضول المباحات باعثٌ على قلَّة ظهور الخوارق، خصوصاً إذا أفضى كثرةُ مباشرة الفضول إلى حدّ المشتبه، وأدَّت منه - عياذاً بالله سبحانه - إلى حوالي المحرم، فأين الكرامةُ حينئذٍ؟ وأين الخوارقُ؟ وكلّما يضيقُ دائرةُ مباشرة المباح، واكتفى منه بقدر الضَّرورة يكون مجالُ الكشف والكرامة أوسع، وطريقُ ظهور الخوارق أوضح، وظهورُ الخوارق من شرائط النبوَّة لا من شرائط الولاية، فإنَّ إظهارَ النبوَّة واجبٌ دون إظهار الولاية، بل السرُّ والإخفاءُ في هذه المرتبة أولى، فإنَّ هناك دعوةَ الخلق، وهنا قربُ الحق جلّ شأنه، ومعلومٌ أنَّ الإظهارَ لازمٌ للدعوة، والسترُ مناسبٌ للقرب، وكثرةُ ظهور الخوارق من وليٍّ لا يدلُّ على أفضليّته على غيره من الذين لم يظهر منهم من الخوارق مثلُ ما ظهر منه، بل يجوز أن يكون وليٌّ لا يظهرُ منه خارقٌ أصلاً أفضلَ من الأولياء الذين ظهرت منهم الخوارقُ كما حقّق شيخُ الشُّيوخ هذا المعنى في كتابه «العوارف»، فإذا لم يكن قلّةُ ظهور الخوارق وكثرتُه في الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ موجبة للأفضليّة والمفضوليَّة مع كونها شرطاً للنبوَّة، كيف تكون في الولاية موجبةً للتَّفاضل مع كونها غيرَ شرطٍ فيها؟ وأظنُّ أنَّ المقصودَ الأصليَّ من رياضات الأنبياء عليهم الصلاة......................

والسلام ومجاهداتهم وتضييقهم في مباشرة المباح على أنفسهم هو تحصيلُ ظهور الخوارق التي هي واجبةٌ عليهم، وشرطُ نبوَّتهم، لا الوصولُ إلى درجات القرب الإلهيّ جلّ سلطانه، فإنَّ الأنبياء عليهم الصلوات والتحيات مُجْتَبون، فيجرُّ بهم بسلسلة جذب المحبّة جرّاً جراً، ويوصل بهم إلى درجات القرب الإلهي جلّ شأنه بلا مشقّةٍ منهم، والطَّريقُ الذي يحتاج فيه للوصول إلى درجات القرب الإلهي جلّ سلطانه إلى الرياضات والمجاهدات هو طريقُ الإنابة والإرادة الذي هو طريقُ المريدين، وطريقُ الاجتباء هو طريقُ المرادين، والمريدون يذهبون بأرجلهم بالمشقَّة والمحنة، والمرادون يُحْمَلون إلى منزل المقصود بالإعزاز والإكرام، ويوصل بهم إلى درجات القرب بلا محنةٍ منهم. ينبغي أن يعلم أنَّ الرياضات والمجاهدات من شرائط طريق الإنابة والإرادة، وأنَّها ليست بشرطٍ في طريق الاجتباء، ومع ذلك هي نافعةٌ، مثلاً: إذا حصل حملُ شخصٍ جراً جراً، وهو مع ذلك الجرِّ يستعمل سعيه أيضـاً؛ فلا شكَّ أنَّه أسرعُ ذهابـاً من الذي لا يستعمل سعيه، وإن جاز أن يكون الجرُّ وحده أحيانـاً أقوى وأجدى من الجرِّ المركَّب المذكور، فالسعيُ والمشقّةُ لا يكون شرطَ كمال الوصول في طريق الاجتباء، كما أنَّه ليس بشرطٍ في نفس الوصول.

نعم، فيه احتمالُ النفع ولو في بعض المحالّ، وفوائدُ الرياضات ومنافعُ المجاهدات التي هي عبارةٌ عن الاقتصار على ضروريات المباح كثيرةٌ لأرباب الاجتباء أيضـاً بغير المعنى المذكور، مثل: دوام الجهاد الأكبر، وطهارة الباطن ونظافته من التلويثات الدنيويَّة، فإنَّ كلَّ حوائج ضروريةٍ ليست بداخلةٍ في الدنيا، وكلَّما هو فضولٌ؛ فداخلٌ في الدنيا، والنفعُ الآخرُ في الرياضة والاقتصارُ على الضَّرورة: قلّةُ المحاسبة والمؤاخذة الأخرويتين، وإنَّها سببٌ لارتفاع الدَّرجات الأخرويَّة، فإنَّ مسرَّةَ الآخرة تكون أضعافَ محنة الدنيا، فظهر لرياضات الأنبياء ومجاهداتهم عليهم الصلاة والسلام وجوهٌ أخرُ غيرَ الوجوه الذي ذكرناه آنفـاً، فاتَّضح أنَّ الرياضةَ والاقتصارَ على ضروريات المباح وإن لم تكن شرطـاً للوصول في طريق الاجتباء، ولكنَّها محمودةٌ في حدِّ ذاتها ومستحسنةٌ، بل بالنظر إلى الفوائد المذكورة ضروريةٌ ولازمةٌ. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب السابع والثمانون

إلى مولانا صالح الكُولَابِيِّ في بيانِ أسرارِ مُراديَّة حَضرَة شَيخِنا ومُريديَّته مُدَّ ظِلُّه العالي.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

أنا مريدُ الله ومرادُ الله أيضـاً، وسلسلةُ إرادتي متَّصلةٌ بالله تعالى بلا توسُّطٍ، ويدي نائبُ منابَ يد الله تعالى، وإرادتي متَّصلةٌ بمحمدٍ رسول الله ﷺ بوسائط كثيرةٍ، فبيني وبينه في الطَّريقة النقشبنديَّة إحدى وعشرون واسطةً، وفي الطَّريقة القادرية خمسٌ وعشرون واسطةً، وفي الطَّريقة الچشتية سبعٌ وعشرون واسطةً، وإرادتي بالله تعالى لا تقبل الوساطةَ كما مرَّ، فأنا مريدُ محمدٍ رسول الله ﷺ، ومجتمعٌ معه في مرشدٍ واحدٍ، أيضـاً مقتفٍ أثره ﷺ، وأنا وإن كنت طفيليـاً في خوان هذه الدَّولة، ولكنِّي ما جئت بلا دعوةٍ، وإنِّي وإن كنت تابعـاً، ولكنِّي لستُ خاليـاً من الأصالة، وإنِّي وإن كنت أمةً، ولكني شريكٌ في الدَّولة لا بالشرِّكة التي يقوم عنها دعوى المساواة، فإنَّ ذلك كفرٌ، بل شركةُ الخادم مع المخدوم،....

وما لم أُطلب لم أحضرْ في سُفْرة هذه الدَّولة، وما لم أُدْعَ لم أَمُدَّ يدي إلى هذه الدَّولة، وإنِّي وإن كنت أويسيّاً، ولكن لي مربٌّ حاضرٌ وناظرٌ، وإن كان شيخي في الطَّريقة النقشبنديَّة عبد الباقي رضي الله تعالى عنه، ولكنَّ المتكفِّلَ بتربيتي هو الباقي جلّ جلاله، وعمّ نواله، وإنِّي تربَّيتُ بالفضل، وذهبت من طريق الاجتباء، وسلسلتي سلسلةٌ رحمانيةٌ، وأنا عبد الرحمن، فإنَّ ربّي رحمن جل شأنه وعمّ إحسانه، ومربِّي أرحمُ الراحمين، وطريقتي طريقةٌ سبحانيةٌ؛ لأنِّي ذهبتُ من طريق التنزيه، ولم أُرِدْ من الاسم والصفة غير الذات الأقدس تعالت وتقدست، وهذا السبحانيُّ ليس هو ذاك السبحانيَّ الذي قال به البسطاميُّ، فإنَّه لا مساسَ له بهذا، فإنَّه ما تخلَّصَ من دائرة الأنفس، وهذا ما وراء الأنفس والآفاق، وهو تشبيهٌ كُسِيَ لباسَ التَّنزيه، وهذا تنزيهٌ لم يصبه غبار التَّشبيه، وذاك فائرٌ من منبع السُّكْر، وهذا منفجرٌ عن عين الصَّحْو، ولم يجعل أرحمُ الراحمين أسبابَ التَّربية في حقِّي غيرَ المعداة، ولم يجعل العلَّةَ الفاعليَّةَ في تربيتي غيرَ فضله واهتمامه تعالى وتقدس واعتناءه من كمال كرمه في حقّي، لا يجوز أن يكون لفعل الغير مدخلٌ في تربيتي، أو أن أكون أنا متوجّهاً في هذا المعنى إلى الغير، فأنا مربَّى الإله جل شأنه، ومجتبى فضله وكرمه اللا متناهيّ:

(ع) لَا عُسْــرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

الحمد لله ذي الجلال والإكرام والمنة، والصلاةُ والسلامُ على رسوله والتحيةُ أولاً وآخراً.

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالثَّمَانُونَ

إلى حَضرَة المَخدومِ زَادَه العالي المَرتَبة الخواجه محمَّد سعيدٍ سَلَّمه اللهُ تعالى في أسرارِ خُلَّة الخَليلِ، وإثباتِ التَّعيُّنِ الوُجوديِّ.

إنَّ الحقَّ سبحانه إذا شرَّف عبداً بدولة خلَّته التي هي بالأصالة مخصوصةٌ بحضرة إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وجعله ممتازاً بالولاية الإبراهيميّة؛ يجعله أنيسَه ونديمَه، ويورِدُ في البين نسبةَ الأنس والألفة التي هي من لوازم الخلَّة، ولَما حصلت في البين نسبةُ الخلَّة التي من لوازمها الأنسُ والألفةُ؛ ارتفع من النَّظر قبحُ أخلاق الخليل، وكراهةُ أوصافه، فإنَّه لو كان قبحٌ في النظر؛ لكان باعثاً على النفرة وعدم الألفة، وهي منافيةٌ لمقام الخلَّة التي هي ألفةٌ بالكليَّة.

فإن قيل: إنَّ ارتفاعَ قبح أوصاف الخليل عن النَّظر في مرتبة المجاز ظاهرٌ، فإنَّه يجوز أن يغلب نسبةُ الخلَّة في ذلك الموطن، فتستر قبحَ أوصاف الخليل، وأما في مرتبة الحقيقة التي فيها العلمُ بالأشياء كما هي؛ فلا يجوز فيها ظهورُ القبيح غيرَ قبيحٍ، وكونه مغلوبَ نسبةِ الخلة.

قلت: إنَّ في كلِّ قبيحٍ وجهاً من وجوه الحسن، فيمكن أن يرى ذلك القبيحَ حسناً بالنَّظَر إلى ذلك الوجه الحسن، ويحكم بحسنه، ينبغي أن يعلم أنَّ ذاك القبيحَ وإن لم يعرضْ له حسنٌ مطلقٌ، ولكن لَمّا كان وجهُه الحسنُ ملحوظاً ومنظوراً للمولى جلّ شأنه؛ كان بحكم ألا إن حزب الله هم الغالبون غالباً على سائر وجوهه القبيحة، وجعل كلّها في لونه، وصيَّرها مستحسنةً، ﴿أُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَاتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠].

اعلم – أرشدك الله تعالى سواء الصراط – أنَّ النِّسبةَ بين الخلَّة والمحبّة عمومٌ وخصوصٌ مطلقاً، فإنَّ الخلَّةَ عامَّةٌ، والمحبّةَ فردُها الكاملُ، فإنَّ إفراطَ الأنس والألفة هو المحبّةُ التي هي باعثةٌ على الهيمان، ومورثةٌ لعدم القرار وعدم الراحة، والخلّةُ بتمامها أنسٌ وألفةٌ واستراحةٌ، والمحبّةُ هي التي عرضتْ لها كيفيّةٌ أخرى، وصارت ممتازةً من سائر أفراد الخلَّة، وكأنّها صارت جنساً آخرَ، والخاصيّةُ التي...

امتازت المحبّةُ بها عن سائر أفراد الخلة: هي الحزنُ والألمُ، ونفسُ الخلة كلُّها عيشٌ في عيشٍ، وفرحٌ في فرحٍ، وأنسٌ في أنسٍ، ولعلَّه من هذه الحيثية أعطى الله سبحانه وتعالى خليله على نبينا وعليه الصلاة والسلام أجرَ عمله في الدنيا التي هي دارُ المحن، وفي الآخرة أيضـاً، قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فإذا كانت المحبّةُ منشأَ الألم والحزن؛ فكلُّ فردٍ تكون المحبّةُ فيه غالبـاً يكون الألمُ والحزنُ فيه أزيدَ، ومن ههنا قيل: كان رسولُ الله ﷺ متواصلَ الحزن، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ»، فإنَّ الفردَ الكاملَ من أفراد الإنسان في حصول المحبّة كان هو النبيَّ ﷺ، وإن كان هو عليه الصلاة والسلام محبوبـاً، ولكن لَمّا حصلت في البين نسبةُ المحبّة كان المحبوبُ كالمحب والهـاً ومشغوفـاً، وقد ورد في الحديث القدسيّ: «أَلَا طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي، وَأَنَا إِلَيْهِمْ لَأَشَدُّ شَوْقـًا».

وههنا سؤالٌ مشهورٌ، وهو أنَّ الشوقَ إنّما يكون إلى المفقود، ولا شيءَ مفقودٌ عن حضرته تعالى، فكيف يكون فيه الشوقُ؟ وما يكون أشدّ الشوق؟

والجواب: إنَّ مقتضى كمال المحبّة: هو رفعُ الاثنينيّة، واتّحادُ المحبّ مع المحبوب، وحيث إنَّ هذا المعنى مفقودٌ؛ فالشوقُ موجودٌ، ولَمّا كان تمنّي الاتحاد في جانب المحبوب؛ لأنَّ المحبّ لعله يقنع بمجرّد وصال المحبوب؛ كان أشدُّ الشوق في جانب المحبوب بالضّرورة، ويكون تواصلُ الحزن من صفة الحبيب.

فإن قيل: إنَّ الحقَّ سبحانه قادرٌ على جميع الأمور، وكلُّما يريده ميسَّرٌ له، فلا يكون شيءٌ مفقوداً في حقّه حتى يتحقّق الشوقُ.

أجيب: إنَّ تمني أمرٍ غيرُ إرادته، ومرادُه تعالى لا يتخلَّفُ عن إرادته، ولكن يجوز أن يوجد تمنّي أمرٍ ولا توجد الإرادةُ بحصوله، ولا يراد وجودُه:

(ع) وَكَمْ فِي الْعِشْـقِ مِنْ عَجَبٍ عَجِيبِ

وأحيانـاً يكون المطلوبُ في العشق مجرّدَ الألم، ولا يكون الوصلُ ملحوظا أصلاً، بل يراد الوصلُ، ويهرب من اتّصال المحبوب، وهذا قسمٌ من أقسام جنون العشق، بل من محاسن العشق، من لم يَذُقْ لم يَدْرِ.

ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: إنَّ الخلَّةَ مقامٌ عالٍ جداً وكثيرُ البركة، وكلُّ من فيه أنسٌ وألفةٌ وسكونةٌ واطمئنانٌ مع الآخر في عالم المجاز، كلُّ ذلك من ظلال مقام الخلَّة، وكذلك كلُّ حظٍّ ولذَّةٍ واطمئنانٍ بالصور الحسنة والمظاهر الجميلة ناشئةٌ من مقام الخلَّة، والمحبّةُ شيءٌ آخرُ، فإنَّ فيها كيفيَّةً أخرى، فلو لم يكن في البين خلّةٌ وأنسٌ وألفةٌ؛ لَمَا وجد مركَّبٌ أصلاً، ولا ينضمُّ جزءٌ بجزءٍ آخرَ، خصوصـاً إذا كانت بينهما نسبةُ التضادّ، بل لما ينضمُّ وجودٌ إلى ماهيةٍ ما أصلاً، بل لا يدخل شيءٌ من العالم تحت إيجاد الواجب تعالى، فإنَّ المحرِّكَ لسلسلة الإيجاد والباعث على وجود الأشياء هو الحبُّ، «فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ» حديثٌ قدسيٌّ، والحبُّ فردٌ كاملٌ من الخلة كما مرَّ، فلو لم تكن الخلّةُ؛ لَمَا وُجِدَ شيءٌ من الأشياء، ولا يجتمعُ شيءٌ بشيءٍ، ولا يحصل بين الشيئين ألفةٌ، ووجودُ العالم ونظامُه كلاهما مربوطان بالخلة، فلو لم تكن خلّةٌ؛ لكان النظامُ كالوجود مفقوداً، فكانت الخلّةُ أصلَ الإيجاد من جانب الموجد ومن الموجود، فإنَّ الذي جعل الممكنَ مأنوسـاً لقبول الوجود، وأورده في قيد الإيجاد هو الخلّةُ، بل العدمُ أيضـاً مطمئنٌّ ومستريحٌ في بيت خلوته بدولة الخلَّة، مؤانسٌ بلا شيئيَّته، بل مؤتلفٌ ومؤانسٌ بنقيضه أيضـاً، ولهذا صار مرآةً لكمالاته، وواسطةً لوجود الممكنات،.....

فكانت الخلَّةُ أكثرَ بركةً من جميع الأشياء، وكانت بركاتُها شاملةً للموجود والمعدوم، فإذا علمت معارفَ مقام الخلّة ودقائقَها وعمومَ بركاتها، وعلمتَ أيضاً أنَّ مقامَ الخلَّة بالأصالة مخصوصٌ بحضرة إبراهيم على نبينا وعليه الصلاةُ والسلامُ، وأنَّ ولايتَه ولايةٌ إبراهيميّةٌ؛ فاعلم أنَّه قد ظهر لهذا الفقير الآن بتوسُّط بركات هذه المعارف أنَّ التعيّنَ الأوّلَ هو تعيّنُ حضرة الذات تعالت وتقدست بحضرة الوجود، وذلك التعيّنُ الأوّلُ هو ربُّ حضرة الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولهذا كان هو إمام الكلّ، ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وصار سيدُ البشر مأموراً بمتابعته، ﴿اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وكلُّ نبيٍّ جاء بعده كان مأموراً بمتابعته، وسائرُ التعيّنات مندرجةٌ في ضمن هذا التعيّن الوجوديّ، سواءٌ كان تعيّناً علميّاً جمليّاً أو تفصيليّاً، ويمكن أن يكون من ههنا ذكرَ نبينا ﷺ إبراهيم عليه السلام بالأبوة، وذكر سائر الأنبياء على جميعهم الصلاة والسلام بالأخوّة، فلو ذكر سائرَ الأنبياء بالبنوّة لجاز، فإن تعيّناتهم مندرجةٌ في تعيّنه الذي هو التعيّن العلميُّ الجمليُّ على ما قالوا، وما ورد في الصَّلاة المأثورة من قوله ﷺ: «**كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**» يمكن أن يكون من جهة أنَّ الوصولَ إلى حضرة الذات تعالت وتقدست بدون توسُّط التعيّن الأوّل الذي هو التعيّنُ الوجوديُّ، وبلا إتمام الكمالات، الولايةُ الإبراهيميّةُ غيرُ ميسّر، فإنَّه هو العقبةُ الأولى لتلك المرتبة المقدسة، وهو الذي صار مرآةً لغيب الغيب، فأورد أبطن البطون إلى عرصة الظهور، فلا بُدَّ حينئذٍ لكلِّ أحدٍ من توسُّطه، وأمرَ اللهُ سبحانه خاتمَ الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام بمتابعته ليصل بتبعيته إلى ولايته، ثم يتبخترَ منها إلى حضرة الذات جل شأنه.

فإن قيل: لزم من هذا البيان: أن يكون إبراهيمُ أفضلَ من خاتم الرسل على جميعهم الصلاة والسلامُ، والحالُ أنَّ الإجماعَ على أفضليّة خاتم الرسل على جمعيهم، ولزم أيضاً أن يكون التجلِّي الذاتِيُّ نصيبُ حضرة الخليل بالأصالة، ويكون لغيره بتبعيته، ومن المقرَّر عند أكابر الصوفيَّة: أنَّ التجلِّيَ الذاتِيَّ بالأصالة مخصوصٌ بخاتم الرسل، ولغيره بتبعيته.

أجيب: إنَّ الوصولَ إلى الذات كتجلِّي الذات تعالت وتقدست على قسمين: باعتبار النظر، وباعتبار القدم، يعني: أنَّ الواصلَ: إما النظر أو الناظرُ بنفسه، والوصولُ النظريُّ نصيبُ الخليل عليه السلام بالأصالة، فإنَّ أقربَ التعيّنات إلى حضرة الذات هو التعيّنُ الأوّلُ الذي هو ربّه كما مرّ، وما لم يوصل إلى ذلك التعيّن لا ينفذُ النظرُ إلى ما وراءه، والوصولُ القدميُّ نصيبُ الحبيب بالأصالة، فإنَّه محبوبُ رب العالمين، ويوصِلُ بالمحبوبين إلى محلٍّ يعجز عنه الأخلَّاء، إلا أن يذهبوا فيه بتبعيَّته، واللائقُ بالخليل أن يصلَ نظرُه إلى مقامٍ يصل إليه رئيسُ المحبوبين عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وأن لا يقصِّرَ في الطَّريق. وبالجملة: إنَّ تجلِّي الذات من وجهٍ مخصوصٌ بالخليل، وغيرُه تابعٌ له، ومن وجهٍ مخصوصٌ بخاتم الرسل، وغيرُه تابعٌ له عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ولَمّا كان الوجهُ الثّاني أقوى وأدخلَ في مراتب القرب؛ كانت مناسبةُ التجلِّي الذاتِيّ بخاتم الرسل أكثرَ وأزيدَ، وكان هو ﷺ أفضلَ من الخليل، ومن سائر الأنبياء بالضَّرورة، فكان الفضلُ الكليُّ نصيبَ الحبيب والخليل من بين الأنبياء، وإن كان أحدهما أفضلَ من الآخر، ولَمّا كان موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام رئيسَ المحبين كما كان نبينا ﷺ رئيسَ المحبوبين؛ كان له بحكم «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» معيةٌ.........

بحضرة الذات بالضَّرورة ليست هي لغيره، وله أيضاً في تلك الحضرة منزلةٌ لا مدخلَ فيها لغيره، وإنَّما نال ذلك بواسطة محبَّته فقط، ولكنَّ هذا الفضلَ راجعٌ إلى جزئيٍّ، يمكن أن يقال: إنَّه عديلٌ للكليِّ، فإنَّ الجمَّ الغفيرَ من الأنبياء تابعون له في ذلك المقام، ومع ذلك الفضلُ الكليُّ هو ما كان نصيبَ الخليل والحبيب عليهما الصلاة والسلام، وإن كان كلٌّ منهما تابعاً للآخر من وجهٍ، حيث إنَّ الخليلَ أصلٌ في الوصول النظريِّ، والحبيبَ تابعٌ له فيه، وعكسُه في الوصول القدميّ، وفي الخاطر أن أكتبَ ما ظهر لي من الكمالات والفضائل المخصوصة بحضرة الكليم على نبينا وعليه الصلاة والسلام في ورقةٍ على حدةٍ إن شاء الله تعالى.

ينبغي أن يعلم أنَّ الأنبياءَ إذا وصلوا إلى حضرة الذات تعالت وتقدست بتوسُّط نبيٍّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يكون ذلك النبيُّ حائلاً بين حضرة الذات وبين هؤلاء الأنبياء، بل لهم من حضرة الذات نصيبٌ بالأصالة.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ وصولهم إلى تلك الدَّرجة مربوطٌ بتبعيَّة ذلك النبيِّ عليه وعليهم الصلاة والسلام، بخلاف أمَّةِ نبيٍّ وصلت بتوسُّطه، فإنَّ ذلك النبيَّ حائلٌ في البين، إلا أن يكون لفردٍ من أفراد الأمة نصيبٌ من حضرة الذات بالأصالة، فالحيلولةُ ثمَّةَ أيضاً مفقودةٌ، وتبعيَّتُه له موجودةٌ، وقليلٌ ما هم، بل أقلُّ.

فإن قيل: فعلى هذا التَّقدير ما يكون الفرقُ بين ذلك الفرد من الأمة وبين سائر الأنبياء، فإنَّ الحيلولةَ مفقودةٌ في كليهما، والتبعيّة موجودةٌ؟

أجيب: إنَّ تبعيةَ ذلك الفرد من الأمة باعتبار التَّشريع، فإنَّه ما لم يتَّبع شريعةَ نبيٍّ لا يصلُ، والتبعيّةُ في الأنبياء باعتبار أنَّ وصولَ النبيِّ المتبوع إلى تلك الدَّرجة أولاً وبالذات، ووصولَ غيره ثانياً وبالعرض، فإنَّ المطلوبَ من الدَّعوة هو المحبوبُ، وغيرُه إنّما يُدْعَى بتطفُّله، ويطلبُ بتبعيته، ولكن الكلَّ جلساءُ على سفرةٍ واحدةٍ، ومستوفون للتلذُّذات والتنعمات في مجلسٍ واحدٍ على تفاوت درجاتهم، والأممُ هم الذين ينالون من زلاتهم، ويأكلون من فضلاتهم، إلا أن يكون فردٌ من أفرادهم مخصوصاً بكرم الله جل شأنه، فيصير جليسَ مجلس الأكابر كما مرَّ:

(ع) لَا عُسْـرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

ومع ذلك الأمّة أمّةٌ، والنبيّ نبيٌّ، والأمةُ وإن حصل لها غايةُ الرفعة ونهايةُ العلوّ، ولكن لا يبلغ رأسُها قدمَ نبيٍّ من الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

فإن قيل: ما المرادُ من متابعة ملّة إبراهيم التي أمر نبينا ﷺ بها؟ وما يكون الأمرُ بالتبعية مع وجود استقلال شريعته ﷺ؟

أجيب: لا منافاة بين استقلال الشَّريعة وبين التبعيَّة، فإنَّه يجوز أن يكون نبيُّنا عليه وعلى آله الصلاة والسلام أخذ الشَّريعة بالأصالة، ولكنَّه يصير مأموراً بمتابعة الخليل عليه السلام في حصول أمرٍ من الأمور؛ لكون ذلك الأمر من خصائص ذلك المتبوع الذي أمر بمتابعته، ولكون حصوله مربوطاً بحصول المتابعة، كما إذا أدَّى شخصٌ مثلاً فرضاً من الفرائض، ومع ذلك ينوي المتابعةَ، ويقول: إنَّ هذا الفرضَ قد أدَّاه نبينا ﷺ، فأؤديه أنا أيضاً، فعلى هذا التَّقدير ينال ثواباً للمتابعة سوى ثواب أداء الفرائض، ويحصل له مناسبةٌ بالنبيِّ، فيستفيد من بركاته، وتفتيشُ أنَّ المرادَ من متابعة الملة هل هو متابعةُ تمام الملة أو بعضها؟ فإن كان متابعةَ تمام الملّة؛ فكيف يتصوَّرُ..........

متابعةُ الكلّ مع وجود نسخ بعض الأحكام؟ وإن كان متابعةَ البعض؛ فلا يخلو عن خدشةٍ أيضـاً، فقد حلَّه علماءُ التفسير فينبغي المراجعة ثمّة، فإنَّه من علوم علماء الظَّاهر، ومناسبتُه بعلوم الصوفية قليلةٌ.

سبحان الله، إنَّ المعارف التي تظهر منّي حتى يكاد أبناءُ الجنس يتنفَّرون عنّي بسبب غرابتها، ويصير المحاريم في مقام البغض، فيحرمونها، وأيُّ اختيارٍ لي في حصول تلك المعارف؟ وأيُّ غرضٍ لي في إظهارها؟ وقد أُعلمتُ أنَّ التعيّنَ الأوّلَ هو التعيّنُ الوجوديُّ، وأنّه ربُّ الخليل، ومبدأُ تعيّنه على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولم يسمع أحدٌ في مدّة ألف سنةٍ أنَّ التعيّنَ الأوّلَ هو التعيّنُ الوجوديُّ، وأنّه ربُّ خليل الرحمن على نبيِّنا وعليه الصلاةُ والسلامُ، فإنَّ هذه العباراتِ والاصطلاحاتِ لم تكن متعارفةً بين المتقدمين، ولم يكن للتعيُّن والتنزُّل مجالٌ عندهم، والمقرَّرُ عند المتأخّرين الذين صارت هذه الكلماتُ متعارفةً فيما بينهم: أنَّ التعيّنَ الأوّلَ هو التعيّنُ العلميُّ، وأنّه ربُّ خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاةُ والسلامُ، واليوم يظهر خلافُ ما هو المقرَّرُ من شخصٍ، فينبغي التخيُّل أنّه ماذا يرد على رأسه؟ وما يطلق عليه من الطعن والملامة؟ يظنُّون أنّه يفضِّل الخليلَ على الحبيب، ويجعل الحبيبَ جزءاً من الخليل، حيث يعتقد أنَّ سائرَ التعيّنات مندرجةٌ في التعيّن الأوّل، وإن دَفَعَ توهُّمَهم ذلك فيما مرّ، وأجاب جوابـاً شافيـاً، ولكن لا يعلم أنّهم يكتفون بذلك الدَّفْع، ويتشفون بذلك الجواب الشَّافي أو لا، ماذا نفعل؟ فإنَّه لا علاجَ للجهل والعناد والتعصُّب إلا أن يقلِّب مقلِّبُ القلوب بقدرته الكاملة قلوبهم، وصيّرهم قابلين لاستماع الحقّ، ينبغي أن يدرك علوُّ شأن حضرة الخليل من أمر ﴿اتَّبِعْ﴾ الذي صدر منه سبحانه إلى حبيبه، فإنَّه ما مناسبةُ المتبوع بالتَّابع؟

ولكنَّ المحبوبيَّةَ التي صارتْ نصيبَ خاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام رَجَحَتْ على جميع الفضائل ومراتب القرب، وجَعَلَتْهُ ﷺ أسبق قَدَمـاً من الكلّ، لا يساوي ألفُ مرتبةٍ من مراتب القرب لنسبةٍ واحدةٍ من نسب المحبوبيَّة، والمحبُّ يرى محبوبَه أعزَّ من نفسه، فأين للغير مجالُ دعوى المشاركة معه؟

فإن قيل: إنَّك كتبتَ في رسائلك: إنَّ ربَّ الخليل أيضـاً شأنُ العلم كما أنّه ربُّ الحبيب عليهما الصلاةُ والسلامُ، والفرقُ أنّه هناك بالتَّفصيل، وهنا بالإجمال.

أجيب: إنَّ تلك المعرفةَ إنّما كانت قبل الوصول إلى حقيقة ولاية الخلَّة هذه، ولَمّا تحقّقتُ بحقيقة هذه الولاية ظهرتِ المعاملةُ كما هي، وكأنَّ تلك المعرفةَ كانت متعلّقةً بظلِّ هذه الحقيقة، والله سبحانه الملهمُ للصواب.

فاتَّضح من هذا البيان: أنَّ الوجودَ ليس بعين الذات، بل تعيّنٌ أسبقُ من سائر تعيّنات الذات تعالت وتقدست، ومن قال بعينيَّة الوجود للذات؛ فقد ظنَّ التعيّنَ لا تعيّنـاً، وزعم غيرَ الذات ذاتـاً، والمناقشةُ في قول الغير لا حاصلَ فيها، فإنَّه جيء به لضيق ميدان العبارة.

فإن قيل: ما نسبةُ هذا التعيّن الأوّل الوجوديّ الذي وجدته بذاك التعيّن الأوّل العلميّ الجمليّ الذي وجده الآخرون؟ وهل بين هذين التعيّنين تعيّنٌ آخرُ أو لا؟

أجيب: إنَّ التعيّنَ الوجوديَّ فوق التعيّن العلميّ، وما قالوا: إنَّ فوق التعيّن العلميّ مرتبة حضرة الذات و باللاتعيّن هو هذا التعيّنُ الوجوديُّ، وجدوه عينَ الذات، وحكموا بعينيَّة الوجود للذات، وبين هذين التعيّنين شأنُ الحياة التي هي أقدمُ........................

جميع الشؤونات، وبعدها شأنُ العلم إجمالاً وتفصيلاً، وهو تابعٌ لها، ولكن لا يظهر مظهريّةُ هذا التعيّن المتوسّط في النظر، ومناسبته بحضرة الذات تعالت أزيدُ من الكلّ، والاستغناءُ الذاتيُّ واضحٌ فيه جداً، ولكن يفهم أنَّ فيوضَه وبركاته مستفاضةٌ خصوصاً على الروحانيين. والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال، ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

تنبيهٌ: إنَّ ما مرَّ فيما سبق من أنَّ الوصولَ النظريَّ نصيبُ الخليل بالأصالة، والوصولَ القدميَّ نصيبُ الحبيب عليهما الصلاة والسلام بالأصالة، لا بمعنى: أنَّ هناك شهودٌ ومشاهدةٌ، أو للقدم مجالٌ ثمة، فإنَّه لا مجالَ هناك لشعرةٍ فضلاً عن القدم، بل هو وصولٌ مجهولُ الكيفيّة، فإن ارتسم في الصورة المثالية بالنَّظَر؛ فوصولٌ نظريٌّ، وإن بالقدم؛ فوصولٌ قدميٌّ، وإلا؛ فالقدمُ والنظرُ كلاهما والهان ومتحيِّران في تلك الحضرة جل شأنها. والسلامُ على من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالثَّمَانُونَ

إلى القَاضي إسماعيلَ الفَريد آبادِيِّ في شَرحِ كَلامِ الشَّيخ روز بَهانَ البَقليِّ، مع بيانِ بعضِ دَقائِق التَّوحيدِ الوُجوديِّ.

قال الشَّيخُ الوليُّ روزبهان البقليُّ قدس سره في تبيين غلطات الصوفيَّة: وغلطٌ آخرُ: أنَّهم يقولون: الكلّ هو، ويريدون بجميع هذه الجزئيات المتفرِّقة الحادثة ذاتاً واحدةً، ويقول بعضهم ببعضٍ بالرمز: ما نحن إلا هو، فيكون لهؤلاء الكفار مائةُ ألفِ إلهٍ، وربُّ العالمين تعالى وتقدس منزَّهٌ من جميع المحدثات وتفرقتها، واحدٌ لا سبيلَ إليه للجزء، ولا يقبل الحلولَ، ولا يكون متلوِّناً، وهم كفارٌ بهذا القول، لا يعرفون الله، ولا يعرفون أنفسهم، فإن كان الإنسانُ حقّاً كيف يكون فانياً؟ وغلطُ القوم في روحٍ، وغلطُ هؤلاء في الجسم، قاتلهم الله سبحانه. انتهى.

لا يخفى أنَّ عبارة (الكلّ هو) وإن لم تكن متعارفةً فيما بين قدماء الصوفيَّة قدّس الله أسرارهم، ولكن كان بينهم مثلُ: أنا الحقّ، وسبحاني، وما في جبتي سوى الله، وأمثالها مما يَعْسُرُ تعدادُه، ومؤدّى هذه العبارات وتلك العبارة واحدٌ: (شعر)

إِذَا مَا تَعَدَّى الْمَاءُ عَنْ مَفْرِقٍ ... فَلَا تَفَاوُتَ فِي مِقْدَارِ رُمْحٍ وَأَرْمَاحِ

مَثَلٌ موزونٌ مشهورٌ، وهذه العبارةُ شائعةٌ ذائعةٌ فيما بين متأخري الصوفيَّة، ويقولون: الكلُّ هو بلا تكلّفٍ، ويُصِرُّون على هذا القول، إلا أنَّ القليلَ منهم لهم تردُّدٌ في هذه العبارة وأمثالها، بل يظهرون صورةَ الإنكار عليها، وما يفهمه هذا الفقيرُ من معنى قولهم: الكلُّ هو: أنَّ جميعَ هذه الجزئيات المتفرِّقة الحادثة ظهورُ ذاتٍ واحدةٍ تعالت وتقدست، كما إذا انعكستْ صورةُ زيدٍ في مرايا متعددةٍ، وظهرتْ فيها، فيقال: الكلُّ هو، يعني: أنَّ جميعَ هذه الصور التي ظهرت في مرايا متعددةٍ ظهورُ ذاتٍ واحدةٍ لزيدٍ، فهنا أيُّ جزئيةٍ واتحادٍ؟ وأيُّ حلولٍ وتلوُّنٍ؟ بل ذاتُ زيد مع وجود الصور كلِّها على صرافتها وحالتها الأصلية ما زادت هذه الصورُ فيها شيئاً وما نقصتْ، لا اسمَ للصور فيما فيه ذاتُ زيد ولا رسمَ حتى يحصل لها معها نسبةٌ من نسب الجزئيَّة والاتحاد والحلول والسريان، ينبغي أن يطلب سرّاً؛ لأنَّ كما كان في هذا المكان، فإنَّ مرتبتَه سبحانه وتعالى كما لم يكن للعالم فيها مجالٌ قبل الظُّهور لا يكون له فيها مجالٌ أيضاً بعد الظُّهور، فلا جرم يكون الآن كما كان، والعجبُ أنَّ كثيراً من أكابر متقدِّمي الصوفيَّة فهموا من هذه العبارة الممزوجة بشهد التَّوحيد معنى الحلول والاتِّحاد، وكفَّروا قائليها وضلَّلوهم، وبعضهم يوجِّه هذه العبارة.........................

على نهجٍ لا مناسبة له بمذاق قائليها بوجهٍ ولا نسبةٍ، قال صاحب «العوارف»: إنَّ صدورَ (أنا الحقّ) من الحلّاج، و(سبحاني) من أبي يزيد البسطاميّ كان بطريق الحكاية، يعني: من الحقّ سبحانه وتعالى، فلو لم يكن بطريق الحكاية، بل كان فيه شائبةُ الحلول والاتحاد؛ نردُّ قائلي هذه الأقوال كما نردُّ النَّصارى لقولهم بالحلول والاتحاد. وقد اتَّضح من التَّحقيق السَّابق: أنَّه لا حلولَ في هذه العبارة الشَّبيهة بالشَّطح والاتحاد، والحملُ فيها إنّما هو باعتبار الظُّهور والشُّهود، لا باعتبار الوجود كما فهموا، وحملوا على الحلول والاتحاد، وكان هذه المسألةُ - يعني: مسألةَ التَّوحيد الوجوديّ - لم تكن محرَّرةً وملخَّصةً فيما بين متقدمي الصوفيَّة كما ينبغي، وكلُّ من كان منهم مغلوبَ الحال؛ ظهر منه كلمةٌ في التَّوحيد شبيهةٌ بالقول بالاتحاد، وهو لم يطَّلع على سرِّها من غلبة السُّكر، ولم يَصْرِفْها من ظاهرها الذي يفهم منه شائبةُ الحلول والاتحاد، ولَمّا وصلت النَّوبةُ إلى الشَّيخ الأجلّ محيي الدين ابن العربيّ قدس سره شرح هذه المسألةَ الدَّقيقةَ من كمال المعرفة، وبوَّبها وفصَّلها ودوَّنها تدوين الصرف والنحو، ومع ذلك لم يفهم جمعٌ من هذه الطَّائفة مراده، فخطأوه، وطعنوا فيه، وأطلقوا عليه لسان الملام، والشَّيخ محقٌّ في أكثر تحقيقات هذه المسألة، والطاعنون فيه بعيدون عن الصواب، ينبغي أن يعرفَ جلالةَ شأن الشَّيخ، ووفور علمه من تحقيق هذه المسألة، لا أن يردّه ويطعنَ فيه، وكلَّما يمرُّ على هذه المسألة زمانٌ تصير واضحةً ومنقَّحةً بتلاحق أفكار المتأخرين، وتبعد عن شبهات الحلول والاتحاد، ألا ترى أنَّ النَّحوَ الذي صار الآن واضحاً ومنقَّحاً بتلاحق أفكار المتأخرين من النَّحويين لم يكن فيه ذلك التَّنقيحُ والوضوحُ في زمان سيبويه والأخفش؟ فإنَّ تكميلَ الصِّناعة بتلاحق الأفكار، وقد باحَثَ الإمامُ الأعظمُ والإمامُ أبو يوسف في مسألة خلق القرآن ستّةَ أشهرٍ، وجرى بينهما الردُّ والنقضُ، ثم استقرَّ رأيهما على أنَّ من قال: إنَّ القرآنَ مخلوق يصيرُ كافراً، وطولُ هذه المنازعة إنّما كان لعدم تنقيح هذه المسألة في ذلك الوقت، والآن حيث كانت منقَّحةً بتلاحق الأفكار نقول: لو كان محلُّ النِّزاع هو الحروفَ والكلمات الدالَّة على الكلام النَّفسيّ؛ فلا شكَّ أنَّها حادثةٌ ومخلوقةٌ، وإن كان المرادُ هو المدلولات؛ فقديمةٌ وغيرُ مخلوقةٍ، وهذا التنقيحُ من بركات تلاحق الأفكار.

ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: إنَّ لهذه العبارة معنىً آخر بعيداً عن الحلول والاتحاد، يعني: أنَّ الكلَّ معدومٌ، والموجودُ هو اللهُ تعالى، لا أنَّ الكلَّ موجودٌ ومتَّحدٌ معه تعالى، فإنَّ هذا الكلامَ لا يتكلَّمُ به أبله، فكيف يتصوَّرُ صدورُه عن الأكابر؟ ولكن إذا كان ما سوى المحبوب مستوراً عن نظر هؤلاء الأكابر عند غلبة المحبّة، ولم يَبْقَ غيره في شهودهم، وهم يقولون: الكلُّ هو، يعني: أنَّ جميع هذا الذي يرى ثابتاً موهومٌ ومتخيلٌ، والموجودُ هو الله تعالى؛ فعلى هذا التقدير ليست فيها شائبةُ الجزئية والاتحاد، ولا مظنَّة الحلول والتلون، ومع ذلك لا يستحسنُ هذا الفقيرُ أمثالَ هذه العبارة، وإن كانت مبرَّأةً من هذه المفاسد؛ لأنَّها ليست بلائقةٍ بمرتبة تقديسه وتنزيهه تعالى، وما مقدارُ هؤلاء الموجودات حتى تكون مظاهرَ له تعالى؟

فِـي أَيِّ مِـرْآةٍ يَـكُـونُ مُصَـوَّرَا

وأين فيها استحقاقُ أن تكون محمولةً عليه تعالى ولو باعتبار الظهور والشُّهود، فإن كانت مظهراً؛ فمظهرٌ لظلٍّ من ظلال كمالاته تعالى، ولعلَّ بين ذلك الظلِّ الذي صارت الموجودات مظهراً له وبين الذات تعالت وتقدست ألوفاً من الحجاب، ألم تسمع «إنَّ.................................

لله تعالى سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ»، فحملُ مظهر ظلّ من ظلال كماله سبحانه عليه تعالى من غير تحاشٍ، والقولُ بأنّه هو سوءُ أدبٍ وكمالُ جرأةٍ، ولكن لَمّا كان صدورُ ذلك في غلبة الحال واستيلاء السُّكر ليس بمذمومٍ جداً، وكذلك اعتقادُ مشهودهم عين الحقّ على التَّوجيه الثّاني، وحمله عليه تعالى بهذا الاعتبار أيضـًا سوءُ أدبٍ، بل خلافُ الواقع، فإنَّ ذلك المشهودَ أيضـًا ظلٌّ من ظلال كمالاته تعالى، وهو تعالى وراء الوراء، ثم وراء الوراء، وأيضـًا إنَّ كلَّما هو مشهودٌ ومستحقٌّ للنفي؛ فلا يكون الحقَّ جل وعلا، قال الخواجه النقشبند قدس سره: كلُّما يكون مسموعـًا ومرئيـًا ومدركـًا؛ فهو غيرُ الحقّ سبحانه ينبغي نفيُه بحقيقة كلمة (لا)، وما هو مختارُ هذا الفقير في هذه المسألة والمناسبُ لشأن التَّقديس والتَّنزيه عبارةُ (الكلّ منه)، لا بمعنى يقتصر عليه علماء الظَّاهر، ويقولون: إنَّ صدورَ الخلق كلّه منه، فإنَّ هذا وإن كان صادقـًا، ولكن مع ذلك هنا علاقةٌ أخرى أيضـًا لم يهتدِ العلماءُ إليها، وامتازت الصوفيَّةُ بإدراكها ووجدانها، وهي الارتباطُ بين الأصالة والظليَّة، يعني: أنَّ وجودَ الممكن ناشٍ من وجود الواجب تعالى، وظلٌّ لوجوده سبحانه، وكذلك حياتُه ناشئةٌ من صفة حياته سبحانه، وظلٌّ لتلك الحياة المقدسة، وعلى هذا القياس العلمُ والقدرةُ والإرادةُ وغيرها، فالعالمُ على رأي الصوفيَّة صادرٌ من الحق سبحانه، وظلٌّ لكمالاته، وناشٍ من تلك الكمالات المنزهة، مثلاً: الوجودُ الذي أعطيه الممكنُ ليس هو أمرٌ على حدةٍ مستقلّ برأسه، بل هو وجودُ الواجب تعالى، وكذلك الحياةُ والعلمُ وغيرهما مما أعطيه الممكنُ ليست أموراً ثبت لها الاستقلالُ من الواجب تعالى، بل هي مع وجود صدورها عن الواجب تعالى ظلالُ كمالاته سبحانه وصورُها وأمثالُها، والاهتداءُ إلى هذا الارتباط - يعني: ارتباط الأصالة والظلية - رفع معاملة الصوفيين إلى أعلى عليين، وأوصلهم إلى الفناء والبقاء، وجعلهم متحقّقين بالولاية الخاصَّة، ولما لم يتيسّرْ لعلماء الظَّاهر هذه الرؤيةُ والاهتداء لم يصبهم نصيبٌ من الفناء والبقاء، ولم يتحقّقوا بالولاية الخاصة، والصوفيَّةُ وجدوا كمالاتهم ظلالَ كمالات الواجب، وعلموا أنَّ الوجودَ وتوابعَ الوجود عكوسُ تلك الكمالات، فلا جرم لم يروا أنفسهم غير حاملي أمانات كمالاته سبحانه، ولم يجدوا أنفسهم سوى أن يكونوا مرايا لتلك الكمالات، فإذا أدُّوا هذه الأمانات بحكم ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ اَنْ تُؤَدُّوا الْاَمَانَاتِ اِلٰى اَهْلِهَاۙ﴾ [النساء: ٥٨] الآية إلى أهل الأمانات، وأعطوا هذه الكمالات بالتمام إلى الأصل ذوقـًا؛ يجدون أنفسهم معدومين ميتين، فإنَّه لما ذهب الوجودُ والحياةُ إلى الأصل بقوا معدومين وميتين، فتحقّقَ الفناءُ للمولويّ الروميّ رحمه الله: (شعر)

فَـإِذَا عَـرَفْـتَـهُ أَنْـتَ مَـنْ هُـوَ أَوَّلَا   وَنَسَـبْتَ نَفْسَـكَ نَحْوَ حَضْـرَتِهِ الْعُلَا

وَعَرَفْـتَ أَنَّـكَ ظِـلٌّ مَنْ يَـا مَنْ دَرَى   كُـنْ فَـارِغـًا حَـيًّـا وَمَـيْـتـًا مِـنْ مِـلَا

فمن تشرَّفَ بالبقاء بعد الفناء أعطي الوجودَ وتوابعَ الوجود من الصِّفات الكاملة مرّةً ثانيةً، ويتحقّقُ بالولادة الثّانية، لن يَلِجَ ملكوتَ السّموات من لم يولدْ مرتين:

(ع) هَـنِيـئـًا لِأَرْبَـابِ الـنَّـعِـيـمِ نَـعِـيـمُـهَـا

إلهي، قد أطلق من ضيق العبارة الألفاظُ التي لم يرد الشّرعُ بإطلاقها كالظليَّة وغيرها، وأقول: إنَّ وجودَ الممكن ظلُّ وجود الواجب تعالى، وصفاتِه ظلالُ صفاته الكاملة، وأنا خائفٌ وَجِلٌ من هذه الإطلاقات، وإذ قد سبق أولياؤك بإطلاق هذه العبارات..

نرجو العفوَ والمعافاةَ، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ينبغي أن يعلم أنَّه قد اتَّضح من التحقيق السابق: أنَّ الصوفيَّة القائلون بكلام: (الكلُّ هو) لا يعتقدون اتحادَ العالم بالحق جلّ وعلا، ولا يثبتون الحلولَ والسريانَ، والحملُ الذي يحصل من كلامهم هذا فإنَّما هو باعتبار الظهور والظلية، لا باعتبار الوجود والتحقّق، وإن تُوُهِّمَ من ظاهر عباراتهم الاتحادُ الوجوديُّ، ولكن حاشاهم من أن يكون مرادهم ذلك، فإنَّه كفرٌ وإلحادٌ، فإذا كان حملُ أحدهما على الآخر باعتبار الظهور والشُّهود لا باعتبار الوجود؛ كان معنى (الكلّ هو): الكلُّ منه، فإنَّ ظلَّ الشيء ناشٍ من ذلك الشيء، وإن كانوا يقولون وقت غلبة الحال: الكلُّ هو، ولكن يكون مرادُهم من هذه العبارة في الحقيقة: الكلُّ منه، فلا مجال في الطَّعْن في كلامهم، والحكمِ بتضليل قائليه وتكفيرهم.

اعلم أنَّ ظلَّ شيءٍ عبارةٌ عن ظهور الشَّيء في مرتبةٍ ثانيةٍ أو ثالثةٍ أو رابعةٍ، مثلاً: إنَّ صورةَ زيد المنعكسةَ في المرآة ظلُّ زيدٍ وظهوره في مرتبةٍ ثانيةٍ، وزيدٌ في الحقيقة في مرتبة وجوده الأصليّ أظهر نفسَه في المرآة بالظلِّ من غير أن يطرأ له في ذاته وصفاته تلوُّنٌ وتغيُّرٌ كما مرّ. ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب التسعون

إلى الفَقير هاشمٍ الكَشْمِيِّ في جوابِ سُؤالِه عن حَقيقَة مُشاهدةِ العُرَفاء الحق سُبحانَه بالقَلبِ، وتَحقيقِه.

قد سألتم: إنَّه قد أثبت بعضُ محقِّقي الصوفيَّة رؤيةَ الحقّ ومشاهدته تعالى ببصر القلب في الدُّنيا، قال الشَّيخُ العارفُ في كتابه «العوارف»: موضعُ المشاهدة بصرُ القلب... إلخ، وأورد الشَّيخُ أبو إسحاق الكلاباديُّ قدس سره الذي هو من قدماء هذه الطَّائفة ورؤسائهم في كتابه «التعرف»: وأجمعوا على أنَّه تعالى لا يُرَى في الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب إلا من جهة الإيقان، فكيف التَّوفيقُ بين هذين التَّحقيقين؟ وعلى أيِّ منهما يوافق رأيك؟ وما معنى الإجماع مع وجود الاختلاف؟

اعلم - أرشدك الله - أنَّ مختارَ هذا الفقير في هذه المسألة هو قولُ صاحب «التعرف» قدس سره، واعلم أنَّه لا نصيبَ للقلوب من تلك الحضرة في هذه النَّشأة غير الإيقان، سواءٌ ظنوه رؤيةً أو مشاهدةً، فإذا لم تكن للقلب رؤيةٌ ماذا يكون للأبصار؟ فإنَّ البصرَ معطَّلٌ في هذه المعاملة في هذه النَّشأة.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ المعنى المسماة بالإيقان الحاصل في القلب يظهر في عالم المثال بصورة الرُّؤية، والموقنُ به يظهر بصورة المرئيِّ، فإنَّ لكلِّ معنىً صورة في عالم المثال مناسبة له في عالم الشهادة، وحيث إنَّ كمالَ اليقين في عالم الشَّهادة في الرُّؤية يظهر الإيقانُ أيضاً في عالم المثال بصورة الرُّؤية، فإذا ظهر الإيقانُ بصورة الرُّؤية يظهر متعلّقُه الذي هو الموقنُ به بصورة المرئيِّ بالضَّرورة، فإذا شاهده السَّالكُ في مرآة المثال يذهل عن توسُّط المرآة، ويظنُّ الصورةَ حقيقةً، ويزعم أنَّه قد حصلت له حقيقةُ الرؤية، وظهر له المرئيُّ، ولا يدري أنَّ تلك الرؤيةَ هي صورةُ إيقانه، وذلك المرئيُّ صورةُ الموقن به، وهذا من أغلاط الصوفيَّة، وتلبسات الصور بالحقائق، فإذا غلبت هذه الرؤيةُ، وترشَّحت من الباطن في الظَّاهر؛ توقعُ السَّالكَ في توهُّم أنَّه قد حصل له رؤيةُ البصر أيضاً، وتحوَّل المطلوبُ من السَّماع إلى المعانقة، ولا يدرون أنَّ حصولَ.....................

هذا المعنى في الأصل الذي هو البصيرةُ أيضاً مبنيٌّ على التوهُّم والتلبُّس، فماذا يصيب للبصر الذي هو فرعٌ عليها في هذا النشأة؟ ومن أين تحصل لها الرؤيةُ؟ وفي الرُّؤية القلبيَّة وقع جمٌّ غفيرٌ من الصوفيَّة في التوهُّم، وحكموا بوقوعها، بخلاف الرؤية البصريَّة، فإنَّه لم يقع في توهُّم وقوعها إلا النَّاقصون من هذه الطَّائفة، وهو مخالفٌ لِمَا عليه أهلُ السنة والجماعة شكر الله تعالى سعيهم.

فإن قيل: إذا كان للموقن به صورةٌ في عالم المثال يلزم أنَّ للحقِّ سبحانه صورةً هناك.

أجيب: إنَّ الصوفيَّةَ قد جوَّزوا أن يكون للحقِّ سبحانه مثالٌ، وإن لم يكن له تعالى مثلٌ، وجوَّزوا ظهورَه سبحانه في المثال بصورةٍ كما قرَّر صاحبُ «الفتوح» قدس سره كونَ الرؤية الأخرويَّة أيضاً بصورةٍ جامعةٍ لطيفةٍ مثاليةٍ، وتحقيقُ هذا الجواب: إنَّ صورةَ الموقن به ليست هي صورةَ الحقِّ سبحانه في المثال، بل هي صورةُ مكشوفِ صاحب الإيقان الذي تعلَّقَ إيقانُه به، وذلك المكشوفُ بعضُ وجوه الحقِّ سبحانه واعتباراته، لا ذاتُه جلَّ وعلا، ولهذا إذا بلغت معاملةُ العارف الذاتَ لا يظهر له مثلُ هذه التخيلات، ولا يتخيّل رؤيةٌ ولا مرئيٌّ أصلاً، فإنَّه لا صورةَ لذاته الأقدس سبحانه في المثال حتى تظهر له، ويرى إيقانه بصورة الرؤية. أو نقول: إنَّ في عالم المثال صور المعاني، لا صورُ الذوات، وحيث إنَّ العالمَ بتمامه مظاهرُ الأسماء والصِّفات لا يكون له نصيبٌ من الذاتيّات كما حقَّقْتُه في مواضع متعددةٍ، فيكون بتمامه من قسم المعاني بالضَّرورة، وتكون له صورةٌ في المثال، وفي الكمالات الوجوبية كلُّ مرتبةٍ فيها الشأنُ والصفةُ التي قيامُها بالذات تعالت ومن قبيل المعاني لو كانت لها صورةٌ في المثال - ولو بالنَّقص - لساغ، وأما ذاتُه سبحانه؛ فحاشاها من أن تكون لها صورةٌ في مرتبةٍ من المراتب، فإنَّ الصورةَ مستلزمةٌ للتَّحديد والتَّقييد، وذا ليس بمجوَّزٍ في أيِّ مرتبةٍ كان، وأين المجالُ للمراتب التي كلُّها مخلوقةٌ لله تعالى أن يجعل الخالقُ سبحانه محدوداً ومقيداً؟ وكلُّ من جَوَّزَ المثالَ في حضرته سبحانه وتعالى، فهو باعتبار الوجوه والاعتبارات، لا باعتبار عين الذات تعالت، وإن كان تجويزُ المثال في وجوه الذات واعتباراتها أيضاً ثقيلاً على هذا الفقير، إلا أن يجوز ذلك في ظلٍّ من الظلال البعيدة، فاتَّضح من هذا البيان: أنَّ ارتسامَ الصور في المثال إنّما هو للمعاني والصِّفات لا للذات، فما مرَّ من صاحب «الفصوص» من تجويز كون الرؤية الأخرويَّة بصورةٍ مثاليةٍ ليست هي برؤية الحقِّ سبحانه، بل ليست برؤيةِ صورةِ الحقِّ، فإنَّه لا صورةَ له سبحانه حتى تتعلَّق بها الرؤيةُ، فإن كانت في المثال صورةٌ؛ فهي لظلٍّ من ظلاله البعيدة، فكيف تكون رؤيتُها رؤيةَ الحقِّ سبحانه؟ والشَّيخُ قدس سره لا يقصِّرُ في نفي الرؤية من المعتزلة والفلاسفة، بل يثبت الرؤيةَ على نهجٍ يستلزم نفيَ الرؤية، وهو أبلغُ في النَّفي من صريح النفي؛ لأنَّ الكنايةَ أبلغُ من الصَّريح قضيةٌ مقرَّرةٌ.

وإنَّما الفرقُ بينهما: أنَّ مقتدى تلك الجماعة عقولُهم العقيلةُ، ومقتدى الشَّيخ الكشفُ البعيدُ عن الصحَّة، ويشبه أن تكون أدلَّةُ المخالفين الغير التامَّة قد تمكَّنت في متخيَّلة الشَّيخ، فحرّفت كشفه أيضاً في هذه المسألة عن صوب الصواب، وجعلته مائلاً إلى مذهب المخالفين، ولكن لَمّا كان من أهل السنة أثبتها صورةً، واكتفى بهذا القدر، وظنَّها رؤيةً. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وتحقيقُ هذه المسألة الدَّقيقة محرَّرٌ أيضاً فيما كتبته لحلِّ بعض مواضع كتاب «العوارف».

وما سألتم من تحقّق الإجماع مع وجود الاختلاف؟...

فلعلَّ الخلافَ المعتدَّ به لم يكن وقت الإجماع، أو أنَّه أراد بالإجماع: إجماعَ مشائخ عصره. والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

المكتوب الحادي والتسعون

إلى مولانا طاهرٍ البدَخْشيِّ في جَوابِ سُؤالِه عنِ الفَرقِ بينَ المَعرفَة والإيمانِ الحَقيقيِّ، وغيرِ ذلك.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ صحيفةَ أخي الأعزِّ المرسلة صحبة الشَّيخ سجاول قد وصلتْ، الحمد لله سبحانه على سلامتكم وعافيتكم، وقد اندرجت فيها أسئلةٌ متعددةٌ، فكتبنا في جوابها ما خطر في الخاطر، ينبغي أن يلاحظه بالتوجّه الكامل.

السؤالُ الأوّلُ: ما الفرقُ بين المعرفة والإيمان الحقيقيّ؟

وجوابه: إنَّ المعرفةَ غيرُ الإيمان، فإنَّ المعرفةَ يعبَّر عنها بالفارسية بشناختن، والإيمانَ يعبَّرُ عنه بگرويدن، وربَّما تحصل المعرفةُ بالمعنى المذكور ولا يحصل الإيمانُ، ألا ترى أنَّ أهلَ الكتاب كانت لهم معرفةُ نبينا عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وعرفوا أنَّه نبيٌّ كما قال الله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠]، ولكن لَمّا لم يحصل لهم التَّصديقُ بواسطة العناد؛ لم يتحقّق الإيمانُ، والمعرفةُ أيضاً منقسمٌ إلى قسمين مثل الإيمان: صورةُ المعرفة كصورة الإيمان، وحقيقةُ المعرفة كحقيقة الإيمان، وصورةُ الإيمان هي ما اكتفى به الحقُّ سبحانه من كمال رأفته ورحمته في الشَّريعة للنَّجاة الأخرويَّة، وهو تصديقُ القلب مع وجود إنكار النَّفس الأمَّارة وتمرُّدها، وصورةُ المعرفة هي أيضاً كونُ المعرفة مقصورةً على تلك اللَّطيفة مع وجود جهل الأمَّارة، وحقيقةُ المعرفة هي خروجُ النَّفس الأمَّارة من جهالتها بالجبليَّة، وحصول المعرفة لها، وحقيقةُ الإيمان هي تصديقُ النَّفس بعد حصول المعرفة لها واطمئنانها بعد خروجها من الأمَّارية التي هي كانت طبيعيّةً لها.

فإن قيل: قد اعتبر في الشَّريعة التَّصديقُ القلبيُّ، فگرويدن هذا هل هو عينُ التَّصديق أو أمرٌ وراءَه؟ فإن كان وراءَه يلزم أن يعتبرَ في الإيمان ثلاثةُ أجزاء: الإقرارُ والتَّصديقُ وگرويدن، وهو خلافُ ما هو مقرَّرٌ عند العلماء، ويكون العملُ عند من اعتبره من الإيمان جزءاً رابعاً.

أجيب: إنَّ كرويدن هو عينُ التَّصديق، فإنَّ التَّصديقَ الذي هو الحكمُ عبارةٌ عن الإذعان المعبَّر عنه في الفارسية بگرويدن.

فإن قيل: إذا عرف أهل الكتاب نبينا ﷺ بعنوان النبوَّة؛ فقد حكموا بنبوته بالضَّرورة، وحصل لهم الإذعانُ المعبَّرُ عنه بگرويدن، فإنَّ الحكمَ على هذا التَّقدير عينُ هذا الإذعان، فلم لا يكون الإيمانُ متحقّقاً في حقِّهم؟ وبأيِّ علّةٍ لا يخرجون من الكفر؟

قلت: قد عرفوه بعنوان النبوَّة، ولكن لم يحصل لقلبهم الإذعانُ بواسطة التعصُّب والعناد حتى يحصل لهم الحكمُ بنبوته، فإنَّه ربّما يحصل المعرفةُ والتصوُّرُ، ولا يحصل الإذعانُ، حتى يوجد التصديقُ، ويتحقّق الإيمانُ، ويخرجون من الكفر، الفرقُ دقيقٌ، اسمع وارجع إلى وجدانك، ومع وجود العناد يمكن أنَّ نبيّ الله فعل كذا، ولا يمكن أن يقول: إنَّه نبيُّ الله ما لم يحصل الإذعانُ، فإنَّ في الصورة الأولى تصوُّراً فقط، وإحالةً إلى معرفةٍ مشهورةٍ، وفي الصورة الثّانية تصديقاً مبنيّاً على الإذعان، فإذا لم يوجد الإذعانُ كيف يتصوّرُ وجودُ التَّصديق؟ وأيضاً ليس المقصودُ في الصورة الأولى إثبات النبوَّة، بل إثبات الفعل، وفي الصورة الثّانية إثباتُ النبوَّة، والعنادُ لا يجتمعُ معه، فكيف يتصوَّرُ وجودُ الإذعان؟ فلو حصل التَّصديقُ والحكمُ فرضاً بلا حصول الإذعان؛ فهو أيضاً داخلٌ........

في التصورات وصورة التصديق، وما لم يحصل الإذعانُ لا تحصل حقيقةُ التَّصديق، فلا يحصل الإيمانُ. وهذه المسألةُ من أمّهات مسائل علم الكلام ودقيقةٌ جداً حتى عجز في حلّها فحولُ العلماء، وزاد بعضهم ركنا ثالثـًا في الإيمان بالاضطرار، وقال بزيادة گرويدن على التصديق، والذين قالوا بعينية التصديق بگرويدن لم يحلّ هذا المعنى كما ينبغي، بل اكتفى بالإجمال ومضى، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

اسمع أنَّ المركبَ التقييديَّ والمركبَ التوصيفيَّ مثل: نبي الله، وهذا النبيّ، وإن كانا متضمنين للحكم بأنَّه نبيٌّ، ومشتملين على معرفته بعنوان النبوَّة، ولكنَّ حصولَ التَّصديق بأنَّه نبيٌّ موقوفٌ على الإذعان الذي هو مثبتٌ للإيمان، غلامُ زيدٍ فعل كذا، ورجلٌ صالحٌ حَكَمَ بكذا كلاهما صحيحٌ بلا إذعانٍ، والمعرفةُ بعنوان الغلاميّة وعنوان الصلاحيّة ثابتةٌ في كليهما، ولكن لا إذعانَ فيهما حتى يحصل التَّصديقُ بالغلاميّة والصلاحيَّة؟

فإن قيل: إنَّك قلتَ: إنَّ إذعانَ النَّفس بعد إذعان القلب، وعبَّرت عن إذعان النَّفس بالإيمان الحقيقيِّ، والحالُ أنَّ الفلاسفةَ وأربابَ المعقول أخذوا في التَّصديق مطلقَ إذعان النَّفس، ولم يتكلّموا في إذعان القلب.

قلتُ: إنَّ أربابَ المعقول يريدون بالنَّفس في بعض الإطلاقات الروحَ، وفي بعض الإطلاقات القلبَ، وبالجملة إنَّ تدقيقاتهم الفلسفيّةَ في محالٍّ أخرَ، وأكثرها مما لا طائل فيه، وهم معطِّلون وعاجزون في هذه المسألة، وحكمُهم فيها حكمُ العوامّ، ونوبةُ التَّدقيق ثمّةَ انتهتْ إلى الصوفيَّة، فإنَّهم يتلبَّسون بأحكامِ كلِّ لطيفةٍ، ويترقَّون من جميع اللطائف بالسير والسُّلوك، ويفرِّقون النَّفسَ من القلب، والروحَ من السرِّ، ويميِّزون بين الخفيِّ والأخفى، ولا يعلم حصولُ نصيبٍ من هؤلاء لأرباب المعقول غير معرفةِ أساميها، وقد اعتقدت الفلاسفةُ النَّفسَ الأمَّارةَ شيئـًا عظيمـًا، وعدُّوها من المجردات، ولم يَجْرِ اسمُ القلب والروح على ألسنتهم، ولم يبد من السرِّ والخفيِّ والأخفى علامةُ أنَّ لله سبحانه ملكـًا يسوق الأهلَ إلى الأهل. وجوابٌ آخر: إنَّ أربابَ العقول إنّما ذكروا إذعانَ النَّفس نظراً إلى الأحكام العادية والعرفيَّة؛ لكونها قريبةً إلى فهمهم، وكلامُنا في تصديقات الأحكام الشَّرعيّة، وللنفس إنكارٌ عليها بالذات، فأين الإذعانُ؟ وهذا الإنكارُ إنكارٌ موصلٌ للمنكر إلى حدِّ عداوة صاحب تلك الأحكام، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. وقد ورد في الحديث القدسي: «**عَادِ نَفْسَكَ، فَإِنَّهَا انْتَصَبَتْ لِمُعَادَاتِي**»، وأرحم الراحمين لم يجعل إذعانَ النَّفس من كمال رأفته منظوراً في أوائل الحال، وجعل النجاةَ مربوطةً بإذعان القلب، فلو تيسّر إذعانُ النَّفس ثانيـًا بمحض كرمه سبحانه وتعالى؛ فهو نورٌ وسرورٌ ووصولٌ إلى درجات الولاية، وحصولُ حقيقة الإيمان.

وقد كتبتم: إنَّه ينبغي أن تكتبوا جوابـًا موافقـًا لفهم الفقير وإدراكه حتى يمكن لي فهمُه، ماذا أصنع؟ المسألةُ دقيقةٌ جداً، وحلُّها أيضـًا بلا دقّةٍ مشكلٌ، بل نفسُ الحلِّ يقتضي الدقّةَ، فما ذنبُ العبارة؟ وكان ينبغي لكم أن تتفكروا هذا أولاً حتى لا تجترؤوا على سؤال حلِّ مثل هذا المعمّى، فلا تلوموني، ولوموا أنفسكم.

السؤالُ الثّاني: أنَّ الزهادَ والعبادَ هل هم مشرَّفون بالإيمان الحقيقيّ أو لا؟

جوابُه: أنَّهم إن بلغوا مرتبة المقربين، وصارت نفوسهم مطمئنةً؛ فقد بلغوا مرتبةَ الإيمان الحقيقيِّ.

والسؤالُ الثّالثُ: أنَّ أصحابَ المعرفة الإجمالية التي منشؤها الكفرُ الحقيقيُّ كيف يمكن أن يقال لهم: العرفاء؟ لم يفهم معنى هذه العبارة كما ينبغي، وأنتم تكتبون العبارةَ مغلقةً، وتمنعون.........................

الآخرين من ذلك، فإن كان المقصودُ: أنَّ كافرَ الطَّريقة بأيِّ معنىً يقال له: إنَّه عارفٌ؟ فجوابُه: إنَّ كافرَ الطَّريقة أيضاً عرف الحقَّ سبحانه بالوحدانية، وجعل ما سواه ممحوّاً ومتلاشياً، فهو عارفٌ، ولكنه ليس بعارفٍ مطلقاً؛ لأنَّه خرج من دائرة التَّميز، فإذا رجع إلى التَّمييز يصير عارفاً مطلقاً، ويكون مشرَّفاً بالإيمان الحقيقيِّ. والسلام.

المكتوبُ الثَّاني والتِّسعُونَ

إلى الفَقيرِ هاشمٍ الكَشْمِيِّ في جَوابِ سُؤالِه عن سَماعِ الصُّوفيَّة كلامَ الحقِّ سُبحانَه، ومُكالَمتِهم معه تعالى.

قد سألتم: أنَّه ما معنى ما قاله بعض العرفاء من أنَّا نسمع كلامَ الحقّ سبحانه، أو تقع بيننا وبينه مكالمةٌ كما نقل عن الإمام الهمام جعفر الصادق ﵁ أنَّه قال: ما زلت أردِّدُ الآية حتى سمعتُها من المتكلّم بها، ويفهم ذلك أيضاً من «الرسالة الغوثية» التي هي منسوبةٌ إلى حضرة الشَّيخ عبد القادر الجيلانيِّ قدس سره؟ وما تحقيقُ ذلك عندك؟

اعلم - أرشدك الله تعالى - أنَّ كلامَ الحقِّ سبحانه وتعالى كذاته وسائر صفاته لا كيفيٌّ ولا مثليٌّ، وسماعُ الكلام اللا كيفيِّ أيضاً لا كيفيٌّ، فإنَّه لا سبيل للكيفيِّ إلى اللا كيفيِّ، فلا يكون ذلك السَّماعُ مربوطاً بحاسة السَّمع، فإنَّها متكيِّفةٌ بالكيف بالكلّية، فإن كان هناك للعبد سماعٌ؛ فهو بتلقٍّ روحانيٍّ، فإنَّ لها - يعني: الروح - نصيباً من اللا كيفيِّ، وبلا توسُّط الحروف والكلمات، وأيضاً لو كان الكلامُ من العبد؛ فهو أيضاً بإلقاءٍ روحانيٍّ بلا حروفٍ وكلماتٍ، ويكون لهذا الكلام نصيبٌ من اللا كيفيِّ، حيث يكون مسموعاً للا كيفيِّ، مع أنَّا نقول: إنَّ الكلامَ اللفظيَّ الذي يصدر عن العبد يسمعه الحقُّ سبحانه وتعالى بسماعٍ لا كيفيٍّ بلا توسُّط الحروف والكلمات، وبلا تقديمٍ وتأخيرٍ؛ إذ لا يجري عليه تعالى زمانٌ يسع فيه التَّقديمُ والتأخيرُ، فلو كان في ذلك الموطن من العبد سماعٌ؛ فهو سامعٌ بكليته، وإن كلامٌ؛ فمتكلّمٌ بكليَّته، فالعبدُ بتمامه سمعٌ، وبتمامه لسانٌ، وقد سمعت الذَّراتُ المخرجةُ - يعني: من ظهر آدم - قولَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] يومَ الميثاق بكليتهم من غير واسطةٍ، وأجابوه، وكانوا بتمامهم أسماعاً، وبتمامهم ألسناً، فإنَّه لو كان السمعُ متميِّزاً من اللسان لَمَا يحصل السماعُ والكلامُ اللا كيفيين، ولا يكون لائقاً بارتباط المرتبة اللاكيفيَّة، **(لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه)**.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ ذلك المعنى المتلقَّى الذي أخذه من طريق الروحانيَّة يتمثَّل ثانياً في عالم الخيال الذي هو في الإنسان تمثالُ عالم المثال بصورة الحروف والكلمات المرتبة، ويرتسم ذلك التلقِّي والإلقاء بصور السماع والكلام اللفظيِّ، فإنَّ لكلِّ معنىً صورة في ذلك العالم، وإن كان ذلك المعنى منزَّهاً عن الكيف، ولكن يكون ارتسامُ المنزَّه عن الكيف أيضاً هناك بصورةٍ مكيَّفةٍ بكيفٍ، فإنَّ الفهمَ والإفهامَ المقصودين من الارتسام مربوطان بها، فإذا وجد السَّالكُ المتوسِّطُ في نفسه حروفاً وكلماتٍ مترتّبةٍ، وأحسَّ سماعَ الكلام اللفظيِّ؛ يتخيَّلُ أنَّه قد سمع هذه الكلمات من الأصل، وأخذه من هناك بلا تفاوتٍ، ولا يدري أنَّ هذه الحروفَ والكلماتِ صورٌ خياليةٌ لذلك المعنى المتلقَّى، وذلك السَّماعُ والكلامُ اللفظيُّ تمثالُ ذلك السَّماع والكلام اللا كيفيّ، والعارفُ التامُّ المعرفة ينبغي أن يميِّزَ حكمَ كلِّ مرتبةٍ عن الأخرى، ولا يلبِّس حكمَ إحداهما بحكم الأخرى، فسماعُ هؤلاء الأكابر وكلامهم المربوطين بمرتبةٍ لا كيفيّةٍ من قبيل التلقّي والإلقاء الروحانيين، وهذه الكلماتُ والحروفُ التي يعبَّرُ بها عن ذلك المعنى المتلقى من عالم الصور المثالية، والذين يظنون أنَّهم يسمعون الحروفَ........................

والكلماتِ من الله سبحانه فريقان: فريقٌ يقولون: إنَّ هذه الحروفَ والكلماتِ الحادثةَ المسموعةَ دوالُّ على الكلام النَّفسيّ القديم، وهؤلاء أحسنُ حالاً من الفريق الثّاني، والفريقُ الثّانيُ يطلقون القولَ بسماع كلام الحقِّ جل شأنه، ويعتقدون الحروفَ والكلماتِ المرتبةَ المسموعةَ كلامَ الحقِّ جل وعلا، ولا يفرِّقون بين ما هو لائقٌ بجناب قدسه تعالى وبين ما هو ليس بلائقٍ به، وهم الجهالُ البطالُ لم يعرفوا ما يجوز عليه وما لا يجوز عليه تعالى. ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ اِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، والصلاة والسلام على خير البشر، وآله وأصحابه الأطهر.

المكتوبُ الثّالثُ والتّسعون

إلى حَضرَة المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد سعيدٍ في تَحقيقِ التَّعيُّن الأوَّل الوجوديِّ، وبيانِ الفَرقِ بينَ مَبادئِ تعيُّنات الحَبيب والخَليل والكَليمِ عليهم الصَّلَواتُ والتَّسليماتُ.

والذي صار مكشوفاً في الآخر بكرم الله وفضله سبحانه وتعالى هو أنَّ التعيّنَ الأوّلَ لحضرة الذات تعالت وتقدست هو تعيّنُ حضرة الوجود، والمحيطُ بجميع الأشياء، والجامعُ لجميع الأضداد، والخيرُ المحضُ، وكثيرُ البركة، حتى إنَّ الأكثرين من مشائخ هذه الطّائفة قالوا: إنَّه عينُ الذات، ومنعوا كونَه زائداً على الذات تعالى، وفيه غايةُ الدقَّة، وكمالُ اللطافة، بحيث لا يكاد بصرُ كلِّ شخصٍ يدركه، ولا يقدرُ تمييزُه من الأصل، ولهذا بقي تعيّنُه مختفياً إلى هذه المدَّة، ولم يتميَّزْ من المتعيّن، وعبده جمٌّ غفيرٌ بزعم أنَّه هو اللهُ، ولم يطلبوا معبوداً ومطلوباً ما وراءه، واعتقدوا أنَّه هو المبدأ للآثار الخارجيَّة، وظنُّوا أنَّه المكوِّنُ للحوادث اليومية، وهذا التَّمييزُ - أعني: تمييزَ الحقّ عما دون الحقّ - كان دولةً مدَّخرةً لهذا المسكين العاجز المتأخِّر، ونفي مشاركة غير المعبود مع المعبود سبحانه وتعالى كان حصّةً باقيةً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مختبيةً لملتقطِ ما سقط من موائدهم هذا، ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدٰينَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ اَنْ هَدٰينَا اللّٰهُۚ لَقَدْ جَٓاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقد صار مكشوفاً أنَّ هذا التعيّنَ الأوّلَ الوجوديَّ هو ربُّ خليل الرحمن على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ومبدأُ تعيّنه وتعيّن خلَّته، وصار مكشوفاً أيضاً أنَّ مركزَ هذا التعيّن الذي هو جزؤه الأشرفُ، وفيه نسبةُ الأقربية بالأصل من بين الأجزاء الأخر هو ربُّ حبيب الله، ومبدأُ تعيّنه وتعيّن محبَّته عليه وعلى جميع الأنبياء الصلوات والتسليمات.

فإن قيل: إذا كان التعيّنُ الأوّلُ ربَّ الخليل، فما معنى قول نبينا عليهما الصلاة والسلام: **«أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ نُورِي»**؟

قلت: إنَّ مركزَ الدائرة أسبقُ أجزاء الدّائرة، وأيضاً إنَّ للجزء تقدُّماً على الكلّ، فيكون مبدأُ تعيّنه ﷺ الذي عبّر عنه بـ(نوري) أسبق من الكلّ بالضّرورة، ومركزُ الدّائرة وإن كان جزءاً من الدّائرة، والدائرةُ كلاًّ له، ولكنَّه جزءٌ نشأ منه سائر أجزاء الكلّ، فإنَّ جميعَ أجزاء محيط الدّائرة ظلالُ ذلك الجزء الذي هو مركزُ تلك الدّائرة، فلو لم يكن ذلك الجزءُ لَمَا كان من الدّائرة اسمٌ ولا رسمٌ، فاتّضح أنَّ ربَّ حضرة الخليل ومبدأَ تعيّنه هو التعيّنُ الأوّلُ، ومنشأُ التعيّن الأوّل الذي هو الجزءُ والمركزُ، وأشرفُ أجزاء تلك الدائرة ربّ حضرة خاتم الرسل وعليهم الصلاة والسلام، ومبدأُ تعيّنه، فيكون أسبق الكلّ هو حقيقة خاتم النبوَّة، ويكون منشأُ ظهور الآخرين أيضاً هي، ومن ههنا ورد في الحديث القدسي في شأن حبيب الله: «**لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ**»، ولما أظهرت ....

الربوبيّة، فإذا كان مبدأُ تعيّن خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام مركزَ دائرة التعيّن الأوّل الذي هو مبدأُ تعيّن الخليل عليه السلام؛ فلا جرم تكون الولايةُ المحمديّةُ التي منشؤها المحبّةُ مركزَ الولاية الخليليَّة التي منشؤها الخلّةُ، والولايةُ الخليليّةُ مع وجود أوَّليتها لا تكون حائلةً وحاجزةً بين الولاية المحمدية وبين حضرة الذات تعالت وتقدست، فإنَّ لمركز الدَّائرة سبقةً ذاتيّةً على الدَّائرة، فلا يكون الخلفُ حائلاً للسلف، بل الأمرُ بالعكس.

ووجهٌ آخرُ لسبق هذا المركز وقربه اسمع: إنَّه كلَّما يتعمّقُ في السَّير في هذه النُّقطة التي هي المركزُ يتميَّزُ المحبُّ من المحبوب من تلك النُّقطة التي حاصلها المحبّةُ، وتظهر صورةُ دائرةٍ مركزها المحبوبيَّةُ، ومحيطُها المحبّةُ، وتلك المحبّةُ هي مبدأُ الولاية الموسويّةُ، والمحبوبيَّةُ هي مبدأُ الولاية المحمديّة على صاحبها الصلاة والسلام، فهذا المركزُ الذي هو المحبوبيَّةُ أسبقَ من ذاك المركز الذي هو المحبّةُ، وصار دائرةً، وأقربَ إلى حضرة الذات، فإنَّ للمركز سبقةً وقرباً ليسا للدَّائرة، فكانت الولايةُ المحمديّةُ أسبقَ من الولاية الموسويَّة أيضاً وأقربَ.

ووجهٌ آخرُ لسبقة الولاية المحمديَّة وقربها اسمعْ: إنَّه كلَّما يتعمَّقُ في السَّير في هذا المركز الذي هو المحبوبيَّةُ بفضل الله سبحانه وتعالى تَعْرِضُ لهذا المركز أيضاً صورةُ دائرةٍ يرى مركزُها محبوبيَّةً صرفةً، ويظهر محيطُها محبوبيَّةً ممتزجةً بالمحبيّة، وهي نصيبُ فردٍ من أفراد أمَّته بتبعيَّته عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ، بل بتبعية الولاية الموسويَّة على صاحبها الصلاة والسلام التي لها مناسبةٌ بمحيط الدَّائرة.

ومن ههنا قيل: إنَّ الولايةَ المحمديّةَ مركزٌ في جميع الأوقات، وكيفيّةُ المحبيّة أيضاً من بركات تلك الولاية، فإنَّ المركزَ الثّاني إنّما صار دائرةً بامتزاجها به، وظهر منه مركزٌ آخر، ينبغي أن يعلم أنَّ هذا المركزَ الثّالثَ أورث للمعاملة ترقّياً كثيراً، وجعلها أقربَ من الأقرب:

(ع) لَا عُسْـرَ فِي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

وما أُظهرُ زيادةً على ذلك من هذه الأسرار والدقائق؟ وماذا يقال ويبيَّنُ مما وراء التعيّن الأوّل أكثرَ من ذلك؟ وإن لم يكن وراء التعيّن الأوّل لكونه جزءَه أو جزءَ جزئه بواسطةٍ أو بواسطتين، ولكنَّه بعيدٌ عن التعيّن الأوّل في النَّظر الكشفي بمراحلَ، وأقربُ منه إلى المطلوب بمنازل.

فإن قيل: إنَّ كلَّ كمالٍ ميسَّرٌ للجزء ميسَّرٌ للكلِّ، فإنَّ الكلَّ عبارةٌ عن ذلك الجزء مع أجزاء أخرَ، فما وجهُ حصول السبقة والقرب للجزء دون الكلّ؟

قلت: إنَّ الكمالَ الذي يحصل للجزء بالأصالة يحصل ذلك للكلِّ بتبعيَّته للجزء، لا بالأصالة، ولا شكَّ أنَّ للأصالة سبقةً ليست هي للتَّبعيّة، وللأصل قربٌ ليس هو للفرع، فلو كان مركزُ الدَّائرة أسبقَ قدماً من الدَّائرة في كمالاته المخصوصة به لساغ. والتَّحقيق في الجواب: أنَّ كمالَ الجزء إنّما يسري في الكلّ إذا كان ذلك الكمالُ ناشئاً من ماهية الجزء الأصليَّة، وأما إذا كان الكمالُ عارضاً للجزء بعد انقلاب ماهيته لا يلزم أن يسري ذلك الكمالُ في الكلّ، فإن ذلك الجزء لم يَبْقَ جزء لذلك الكلّ بعد انقلاب ماهيَّته حتى يسري الكمالُ فيه، مثلاً: إذا جعل جزءٌ من الورق بعمل الإكسير ذهباً، وانقلب من ماهية الورق إلى ماهية الذَّهب؛ لا يمكن أن يقال: إنَّ كمالات هذا الجزء الذهبيَّة تسري في الفضة التي هي كلُّه، فإنَّ ذلك الجزءَ لم يبقَ جزءاً لها بعد الانقلاب حتى تسري كمالاته. فافهم، وقس عليه معرفة ما نحن فيه.

فإن قيل: إنَّ التعيّنَ الأوّلَ الوجوديَّ هل له وجودٌ في الخارج أو ثبوتٌ علميٌّ فقط؟ وكلُّ واحدٍ.........

من هذين الشقين غيرُ صحيحٍ، فإنّه لا موجودَ في الخارج عند هؤلاء الأكابر غيرُ ذات واحدة تعالت، ولا اسمَ في ذلك الخارج من التعيّنات والتنزلات ولا رسمَ، ولو قلنا بالثبوت العلميّ يلزم أن يكون التعيّنُ العلميُّ سابقاً عليه، وهو خلافُ المقرَّر.

أجيب: إنَّه ثابتٌ في نفس الأمر، فلو قيل بالثبوت الخارجيّ بمعنى: أنَّ له ثبوتاً فيما وراء العلم أيضاً؛ لساغ. والله سبحانه الملهم للصواب.

المكتوب الرابع والتسعون

إلى حَضرةِ المَخدومِ زادَه الخواجه محمَّد مَعصومٍ سَلَّمه اللهُ في بيانِ دَقائِق الكَمالِ والجَمالِ الذَّاتيَّين، ومَرتَبةٍ مُقدَّسةٍ فوقَ مَرتَبتِهما، ونَصيبِ تَعيُّنات الحَبيب والخَليلِ والكَليم عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن تَينِك المَرتَبتينِ، وحظِّ حَضرةِ شَيخِنا منها.

إنَّ الحقَّ سبحانه جميلٌ في حدّ ذاته، والحسن والجمال الذاتيّين ثابتان له، لا ذلك الحسنُ والجمالُ اللذان ندركهما ونتعقَّلما ونتخيَّلهما، ومع ذلك في تلك الحضرة مرتبةٌ أقدسُ لا يمكن الوصولُ إلى تلك المرتبة من غاية عظمتها وكبرياءها، ولا يمكن توصيفُها بالحسن والجمال، والتعيّنُ الأوّلُ الذي هو التعيّنُ الوجوديُّ تعيّنُ ذلك الكمال والجمال الذاتيّين وظلُّهما الأوّل، وتلك المرتبةُ الأقدسُ التي لا مجالَ فيها للحُسْن والجمال أيضاً ليس فيها تعيّنٌ أصلاً، فإنَّها - من غاية عظمتها وكبريائها - لا تكون متعيّنةً بتعيّنٍ أصلاً:

(ع) فِـي أَيِّ مِـرْآةٍ يَـكُـونُ مُصَـوَّرَا

ومع ذلك أُودِعَ في مركز دائرة التعيّن الأوّل سرٌّ وكيفيّةٌ من تلك المرتبة الأقدس، وعُبِّيَتْ فيه علامةٌ من تلك المرتبة المقدسة المنزَّهة عن العلامة، فكما أنَّ التعيّنَ الأوّلَ منشأُ الولاية الخليليَّة؛ كذلك ذلك السرُّ والكيفيّةُ المودعين في مركز دائرة التعيّن منشأٌ للولاية المحمديّة على صاحبهما الصلاة والسلام والتحية، ولذينك الحسن والجمال الذاتيّين الذين التعيّنُ الأوّلُ ظلُّهما شباهةٌ بالصباحة التي هي في عالم المجاز من قبيل حسن الخدّ وجمال الخال، ولذلك السرِّ والكيفيَّة المودعين في المركز مناسبةٌ بالملاحة التي هي وراء رشاقة القدّ وصباحة الخدّ، ووراءَ حُسْن العين وجمال الخال، وإنَّما هو أمرٌ ذوقيٌّ، من لم يُعْطَ ذوقاً لا يدركه، قال الشاعر: (شعر)

بِي ظَبْيَـةٌ فِيـهَا الْـمَلَاحَـةُ كُلُّـهَا   مَنْ لِي بِوَصْـفِ جَمَـالِهَا وَدَلَالِهَا

فاعرف التَّفاوتَ بين هاتين الولايتين من هذا البيان، وإن كان كلتاهما ناشئتين من قرب الذات تعالت وتقدست، ولكنَّ مرجعَ إحداهما كمالاتُ الذات، ومعادَ الأخرى صرفُ الذات تعالت، فإذا كانت الملاحةُ فوق الصَّباحة؛ فالوصولُ إلى الملاحة إنّما يتصوَّرُ بعد طيِّ جميع مراتب الصباحة، وما لم يتيسّر الوصولُ إلى جميع مراتب الولاية الإبراهيميَّة لا يتيسَّرُ الوصولُ إلى حقيقة هذه الولاية التي هي ذروةُ الولاية المحمديَّة العليا على صاحبيهما الصلاةُ والسلامُ. ويمكن أن يكون كونُ نبينا ﷺ مأموراً بمتابعة ملَّة إبراهيم عليه السلام؛ لأن يصل بواسطة تلك المتابعة إلى حقيقة ولايته، ثم يترقّى منها إلى حقيقة ولاية نفسه التي وقع التعبيرُ عنها بالملاحة، ويتحقّقَ بها، وحيث كان لنبينا ﷺ مناسبةٌ ذاتيّةٌ بمركز ولاية الخلَّة التي هي أقربُ إلى حضرة إجمال الذَّات، ومناسبتُه بمحيط الدَّائرة أقلَّ لكون..........

وجهها إلى تفصيل كمالات الذات، فما لَمْ يتحقّقْ بكمالات محيط تلك الدَّائرة أيضـًا لا تتمُّ ولايةُ الخلَّة، ومن ههنا ورد في الصلاة المأثورة: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»؛ ليتيسّر له كمالاتُ ولاية الخلّة بالتّمام كما كانت ميسَّرةً لصاحب تلك الولاية على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولَمّا كان المكانُ الطبيعيُّ للولاية المحمديَّة نقطةَ مركز دائرة الولاية الخليليَّة عليهما الصلاةُ والتحيةُ، وسيرُه ﷺ أيضـًا مقصوراً على مركز تلك الدَّائرة؛ تعسَّرَ خروجُه منه، ودخولُه في محيط الدَّائرة، واكتسابُ كمالاته بالضَّرورة لكون ذلك خلافَ مقتضى طبيعته، فاقتضى الحالُ أن يكون متوسِّطٌ من أفراد أمته عليه وعلى آله الصلاة والسلام يكون بتبعيته ﷺ في عين ذلك المركز، وتكون له مناسبةٌ بمحيط تلك الدائرة من وجهٍ آخر حتى يكتسب كمالات تلك المرتبة، ويتحقّق بحقيقتها، وبحكم: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا» يتحقّقُ نبيُّه المتبوعُ بتلك الكمالات أيضـًا، ويتمُّ مراتبُ الولاية الخليليَّة، وبيان سرِّ هذا المعمى على ما ظهر لهذا الفقير: أنَّ نقطةَ مركز دائرة ولاية الخلَّة التي امتازت عن سائر نقطها بالمحبّة وإن كانت بسيطةً، ولكن لما كانت متضمِّنةً لاعتبار المحبيَّة والمحبوبيَّة ظهرت منها صورةُ دائرةٍ محيطها اعتبار المحبيّة، ومركزُها اعتبارُ المحبوبيَّة، ومنشأُ الولاية الموسويّة اعتبارُ المحبيّة التي هي محيطُ الدَّائرة، ومنشأُ الولاية المحمديّة اعتبارُ المحبوبيَّة التي هي مركزُ الدائرة، ينبغي أن يتصوّرَ حصولُ الولاية المحمدية ههنا. وبعد مضيّ ألف سنةٍ عرضتْ لمركز هذه الدائرة الثّانية التي الحقيقةُ المحمديّةُ مربوطةٌ بها وسعةٌ أيضـًا، وظهر فيه اعتباران، فظهر في صورةِ دائرةٍ مركزُها المحبوبيَّةُ الصِّرفةُ، ومحيطُها المحبوبيَّةُ الممتزجةُ بالمحبيّة، ومنشأُ الولاية الأحمديَّة مركزُ هذه الدائرة، و(أحمد) اسمٌ ثانٍ للنبي ﷺ، وهو عليه الصلاة والسلام معروفٌ فيما بين أهل السّموات بهذا الاسم كما قالوا، ويمكن أن تكون بشارةُ عيسى عليه السلام الذي صار من أهل السّموات بقدوم النبيِّ ﷺ باسم أحمد لذلك، ولهذا الاسم المبارك قربٌ كثيرٌ من الذَّات الأحد، وأقربُ إليها من ذاك الاسم الثّاني - يعني: الاسم المبارك محمد - بمرحلةٍ واحدةٍ كما بيِّن، وهذا الاسمُ امتاز من الاسم المبارك (أحد) بحلقة ميم واحدةٍ، وهي مبدأُ المحبّة التي صارت باعثةً على الظهور والإظهار، وأيضـًا الميمُ الذي اندرج في (أحمد) من مقطَّعات الحروف القرآنية المنزلة في أوائل السور، ومن الأسرار الغامضة، ولحرف الميم هذا خصوصيّةٌ خاصّةٌ به ﷺ، وتلك الخصوصيّةُ صارت باعثةً على محبوبيّته ﷺ، وجعلته فائقـًا على الكلّ.

ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: إنَّ محيطَ تلك الدَّائرة التي هي عبارةٌ عن المحبوبيَّة الممتزجة بالمحبية منشأُ ولاية فردٍ من أفراد أمته عليه وعلى آله الصلاة والسلام كان له مناسبةٌ بمحيط الدَّائرة مع حصول الولاية المحمديَّة والمركزيَّة، وأنَّه اكتسب كمالاته، وعلم أنَّ هذه الدَّولةَ الثّانيةَ - يعني: مناسبته بمحيط الدائرة واكتساب كمالاته - حصلت له من طريق الولاية الموسويَّة، وكان هو بتطفُّل هاتين الولايتين جامعـًا لكمالات المركز والمحيط، ومن المقرَّر أنَّ كلَّ كمالٍ حاصلٍ للأمة حاصلٌ لنبيِّ تلك الأمة أيضـًا بحكم «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً» الحديث، فتيسَّرَ له ﷺ بتوسُّط هذا الفرد كمالاتُ محيط تلك الدَّائرة أيضـًا، وتمَّت ولايةُ الخلَّة في حقه عليه الصلاة والسلام، واقترن دعاءُ «اللَّهُمَّ صَلِّ ....

عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ» بعد ألف سنةٍ بالإجابة، وكان المسؤولُ مستجاباً، ومعاملتُه ﷺ بعد تمام ولاية الخلة مع ذاك السرِّ الذي أودع في المركز الذي عبِّر عنه بالملاحة، وأرجع ذلك الفردُ من ذلك المقام إلى العالم لحراسة أمته، واختلى بنفسه الكريمة مع المحبوب في حجرة غيب الغيب: (شعر)

هَنِيئـاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا ... وَلِلْعَاشِقِ الْمِسْكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

ينبغي أن يعلم أنَّ محيطَ المركز الثّالث وإن كان يُرَى أصغرَ بالنِّسبة إلى محيط مركز التعيّن الأوّل، ولكنَّه أجمعُ، فإنَّ كلّما هو أقربُ إلى حضرة الذات يكون أجمعَ، ينبغي أن يعلم صغرُه كصغر الإنسان، فإنَّه مع وجود الصِّغَر فيه أجمعُ جميع أصناف العالم، وأيضاً إنَّ الشَّخصَ الذي تحقَّقَ بكمالات هذا المحيط وخرج من إجمال المركز إلى تفصيل المحيط؛ زال عنه عدمُ المناسبة بالمحيط والتَّفصيل الذي كان فيه أولاً، وذهب من تفصيلٍ إلى تفصيلٍ من غير تكلّفٍ، وتحقّق بكمالات ذاك التَّفصيل أيضاً.

اسمع أنَّه مع وجود كمال الاقتدار لَمّا كان نظامُ العالم منوطاً بالحكمة لا بُدَّ في تربية المحبوبين أيضاً من وجود الأسباب، وإن لم يكن وجودُ السَّببِ غيرَ العلل، وسوى نقاب القدرة، ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣].

تنبيهٌ: اعلم أنَّ النبيَّ وإن حصَّل بعضَ الكمالات بتوسُّط فردٍ من أفراد أمته، ووصل إلى بعض المقامات بتوسُّله، ولكن لا يلزم من ذلك نقصُ ذاك النبيِّ، ومزيّةُ ذلك الفرد عليه، فإنَّ ذلك الفردَ إنّما نال ذاك الكمال بمتابعة ذاك النبيِّ، ووصل إلى هذه الدَّولة بتطفُّله، فذاك الكمالُ في الحقيقة من ذلك النبيِّ، ونتيجةُ المتابعة له، وما مثلُ ذلك الفرد إلا كمثل خادمٍ يصرف الخرجَ من خزائن مخدومه، ويهيِّئُ له ألبسةً مزيّنةً لتكون باعثةً على مزيد حسنه وجماله وزيادة حشمته وجلاله، فأيُّ نقصٍ ثمّةَ في المخدوم؟ وأيُّ مزيّةٍ للخادم عليه؟ والإمدادُ إنّما يكون نقصاً إذا كان من الأقران، وأما إذا وقع من الخدَّام والغلمان؛ فهو عينُ الكمال، وموجبٌ لازدياد الجاه والجلال، والنَّاقصُ من يخلط أحدهما بالآخر، ويقع في توهُّم المنقصة، ألا يرون أنَّ الملوكَ يأخذون البلاد والأملاك بإمداد الخدم والحشم، ويفتتحون القلاع، ولا يعلم من هذا الإمداد غيرُ حصول العظمة والأبَّهة للملوك، ولا يظهر أيضاً شيءٌ من شرف الخدم والحشم وعزتهم؟ والأممُ خدَّام الأنبياء عليهم السلام وغلمانُهم، فيحصل الإمدادُ منهم إلى هؤلاء الأكابر، فكيف يتوهَّمُ منه منقصتُهم؟ وما يقولونه: إنَّ هؤلاء الأكابر ليسوا محتاجين إلى إمدادٍ أصلاً، وجميعُ مراتب الكمال حاصلٌ لهم بالفعل؛ مكابرةٌ صريحةٌ، فإنَّ هؤلاء الأكابر أيضاً عبادُ الله سبحانه يرجون دائماً من فيوض فضله، وبركات رحمته، ويريدون الترقِّي على الدَّوام، وقد ورد في الحديث: «مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ»، وقال ﷺ: «سَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ»[1]، وورد أيضاً في الأحاديث الصحاح: كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين، وهذه كلُّها طلبُ إمدادٍ وإعانةٍ، والذين لا يجوِّزون إمدادَ الأمم وإعانتهم في حقِّ هؤلاء الكبراء، نظرُهم واقعٌ في عظمة الأنبياء وعلوِّ درجاتهم، فلو وقع نظرُهم إلى عبوديتهم أيضاً، وصار احتياجُهم إلى مولاهم معلوماً لديهم، لَما أنكروا إمداد الأمم ولا يستبعدون إعانة الخدام والغلمان. ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ.........

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه في حديث إجابة المؤذن.

لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَاۚ اِنَّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، والصلاة والسلام على نبينا وعلى جميع الأنبياء العظام والملائكة الكرام.

المكتوب الخامس والتسعون

إلى مولانا صَالِحِ الكُولَابِيِّ في بيانِ الأسرارِ المَخصوصَة بِولايَة حَضرَة شَيخِنا مُدَّ ظِلُّه العالي.

ولايةُ هذا الفقير وإن كانت مربّاة الولاية المحمديَّة والولاية الموسويَّة على صاحبيهما الصلاةُ والتحيةُ، ومركَّبةً من نسبة المحبوبيَّة ونسبة المحبيَّة بتطفُّلهما، فإنَّ رئيسَ المحبوبين محمدٌ رسول الله ﷺ، ورئيسَ المحبين كليمُ الله عليه السلام، ولكن فيها أمرٌ آخرُ، وربطتْ بها معاملةٌ على حدةٍ، وأصلُ هذه الولاية وإن كانت ولايةَ نبيّه التي هي الولايةُ المحمديّةُ على صاحبها الصلاة والسلامُ التي هي بالأصالة ناشئةٌ من المحبوبيّة الصِّرفة، ولكن لَمّا انضمّتْ إلى هذه الولاية كيفيّةٌ من الولاية الموسويّة التي هي بالأصالة ناشئةٌ من المحبية الصِّرفة، وصارت منصبغةً بصبغها أيضاً؛ عرضت لها هيئةٌ أخرى، بل يمكن أن يقال: إنَّها صارتْ حقيقةً أخرى، وأثمرت ثمرةً أخرى، وأنتجت نتيجةً أخرى، ونِعْمَ ما قال: (شعر)

از اين افيون كه ساقى در مَى افـگند　　　حريفان را نه سر مـاند و نــه دستــار

﴿رَبَّنَآ اٰتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ اَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام على من اتبع الهدى.

فصلٌ بالخير: فلو أظهرتُ شمّةً من تلك المعاملة التي هي مربوطةٌ بتلك الولاية قُطِعَ البلعومُ، وذُبِحَ الحلقومُ، فإذا قال أبو هريرة ﷺ في إظهار بعض العلوم الذي أخذه من رسول الله ﷺ: (قطع البلعومُ)(١) ماذا يقال في حقِّ غيره؟ وقد جعل اللهُ سبحانه غوامضَ الأسرار الإلهيّة بينه وبين أخصِّ الخواصِّ من عباده، ولم يترك الأجانبَ أن يحوموا حواليها، وحضرةُ خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام الذي هو رحمةٌ للعالمين أظهرَ هذه الأسرارَ المصونةَ من كمال معرفته ووفور رأفته لأبي هريرة وغيره، وآثرهم بهذه الدُّرر المكنونة لَما عرف قابليَّتهم لتميُّز الشرِّ من خيره، وأنا المفلسُ القليلُ البضاعة خائفٌ وَجِلٌ من تذكُّر تلك الأسرار وخطورها، ولا أجد في نفسي مع سوء حالي هذا وعدم استعدادي مناسبةً بتلك المطالب العليا، ولكني أعرف وأعترف بأنَّه:

(ع) لَا عُسْــرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

نعم، ينبغي لله أن يكون هكذا، وهذا الكرمُ يليق به سبحانه وكرمه تعالى لنا ليس في هذا اليوم فقط، بل لَمّا أخذ قبضةَ التراب الذي خلقنا منه من الأرض جعله خليفةَ نفسه، وصيَّره قيُّومَ الأشياء نيابةً عن نفسه، وعلَّمه أسماء جميع الأشياء بلا واسطةٍ، وجعل الملائكةَ الذين هم عبادُه المكرّمون تلامذتَه، وأمرهم مع جلالة شأنهم بسجوده، وطرد إبليسَ الذي كان ملقّباً بمعلِّم الملكوت، وكان له شأنٌ عظيمٌ في العبادة والطّاعة، وأبعده عن عزِّ حضوره؛ لامتناعه عن سجوده، وعدم تعظيمه وتوقيره، وجعله ملعوناً وملوماً ومطعوناً، وأعطى لذاك التُّراب قدرةً وهمّةً تحمل بها ثقلَ الأمانة التي أَبَت السّموات والأرضُ والجبالُ أن يحملنها وأشفقنَ منها، وأعطاه أيضاً قوّةَ قابليَّةٍ لرؤية خالق السّموات والأرض الذي هو منزَّهٌ عن الكيف، ومتعالٍ عن المثال، مع كونه مكتنفاً بالكيف والمثال، مع أنَّ الجبلَ صار قطعاً قطعاً مع صلابته بتجلٍّ واحدٍ منه سبحانه، وصار رماداً، فذلك اللهُ الذي هو قديمُ الإحسان وأرحمُ.......

(١) أخرج البخاري (١٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: (حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخرُ؛ فلو بثثتُه قطعَ هذا البلعومُ).

الراحمين قادرٌ على أن يبلِّغَ أمثالنا العاجزين درجاتِ السَّابقين، ويجعلَنا شركاءَ دولتهم بتطفُّلهم، (شعر)

فَإِذَا أَتَى بَابَ الْعَجُوزِ خَلِيفَةٌ　　إِيَّاكَ يَا صَاحِ وَنَتْفَ سِبَالِكَا

تنبيهٌ: اعلم أنَّ حضرةَ الحقِّ سبحانه على تنزيهه وتقديسه دائماً منزَّهٌ عن صفات الحدوث، ومبرَّأٌ من سمات النُّقصان، ولا سبيل للتبدُّل والتغيُّر إلى حضرته جل سلطانه، ولا مجالَ هناك للاتِّصال والانفصال، وتجويزُ الحالية والمحليَّة ثمّة كفرٌ، والحكمُ بالاتحاد والعينية عينُ الإلحاد والزندقة، وإن حصل لخواصِّ عباده سبحانه وتعالى قربٌ ووصل إلى تلك الحضرة، ولكن ليس ذلك من قبيل قُرْبِ الجسم بالجسم، ولا من جنس اتِّصال الجوهر بالعَرَض، فلو كان هناك قربٌ؛ فهو منزَّهٌ عن الكيف، وإن كان وصلٌ؛ فمبرأٌ أيضاً عن الكمّ والأين، وجميعُ معاملات هؤلاء الأكابر في تلك الحضرة من العالم اللا كيفيّ، ونسبةُ العالم الكيفيّ إلى العالم اللا كيفيّ كنسبة القطرة إلى البحر المحيط، كيف لا، فإنَّ ذلك ممكنٌ، وهذا واجبٌ تعالى، وذاك كائنٌ في ضيق المكان والزَّمان، وهذا منزَّهٌ عن ضيق الزَّمان والمكان؟ نعم، ميدانُ العبارة متَّسعٌ في ذاك العالم، وضيِّقٌ في هذا العالم؛ لعلوِّه من العبارة، وبعده عن الإشارة، وقد أعطى أرحمُ الراحمين خواصَّ عباده نصيباً من العالم اللا كيفيِّ، وسيراً فيه، وشرَّفهم بمعاملاتٍ لا كيفيةٍ، فلو عبّر عن ذاك اللا كيفيّ بالكيفيّ فرضاً؛ لكان أبعدَ من تعبير البالغين عن لذّة الجماع للأطفال بلذّة العسل والسُّكر، فإنَّ كلتا هاتين اللَّذتين من عالمٍ واحدٍ، وذاك المعبَّرُ به والمعبَّرُ عنه من العالمين المتباينين، فمن عبَّر عن اللا كيفيِّ بالكيفيّ، وأجرى أحكامَ الكيفيّ على اللا كيفيِّ؛ حق له أن يكون مورداً للطعن والطَّرد، وأن يُتَّهَمَ بالإلحاد والزندقة بالضَّرورة، فكون تلك الأسرارُ دقيقةً وغموضةً إنّما جاء من جهة العبارة والتَّعبير، لا من جهة التَّحقّق والحصول، فإنَّ تحقّقَ الإنسان بتلك الأسرار كمالُ الإيمان، والتَّعبيرَ عنها بعبارة كيفيةٍ عينُ الكفر والإلحاد، ينبغي أن يستعمل (من عرف الله كَلَّ لسانه) في هذا المقام. ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، الحمدُ لله أوّلاً وآخراً، والصلاةُ والسلامُ على رسوله دائماً وسرمداً.

المكتوب السادس والتسعون

إلى الفقيرِ هاشمٍ الكَشْمِيِّ في الأسرارِ المُتَعلِّقة باسمَيه ﷺ.

اعلم أنَّ نبيَّنا عليه وعلى آله الصلاة والسلام مسمّى باسمين، وكلٌّ من هذين الاسمين المباركين مذكورٌ في القرآن المجيد، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [محمد: ٢٩]، وقال سبحانه أيضاً حكايةً عن بشارة روح الله: ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، ولكلٍّ من هذين الاسمين المباركين ولايةٌ على حدةٍ، فالولايةُ المحمديّةُ وإن كانت ناشئةً من مقام محبوبيته عليه الصلاة والسلام، ولكن ليست هناك محبوبيَّةٌ صرفةٌ، بل مزجت فيها كيفيَّةُ المحبيّة أيضاً، وإن لم يكن ذلك المزجُ ثابتاً له ﷺ بالأصالة، ولكنّه مانعٌ لمحبوبيته الصرفة، والولايةُ الأحمديّةُ ناشئةٌ من المحبوبيَّة الصرفة ليست فيها شائبةُ المحبية، وهذه الولايةُ أسبق قدماً من الولاية السابقة، وأقربُ منها إلى المطلوب بمرحلةٍ واحدةٍ، ورغبةُ المحبِّ فيها أكثرُ، فإنَّ المحبوبَ كلّما كان أتمَّ في المحبوبيَّة يكون ....

استغناؤه ودلالُه أتمَّ، ويكون في نظر المحبّ أحسنَ وأملحَ، ويكون جذبُه للمحبِّ إلى نفسه، وجعله مشغوفاً ووالهاً به أكثرَ وأزيدَ: (شعر)

لَيْسَ افْتِتَانِي مِنْ جَمَالِهِ وَحْدَهْ ... بَلْ كُلُّ ذَا مِنْ غُنْجِهِ وَدَلَالِهْ

والمرادُ بالافتتان: إفراطُ العشق الذي هو مطلوبُ العاشق. سبحان الله، إنَّ (أحمد) اسمٌ عجيبٌ سامٍ مركَّبٌ من الكلمة المقدسة (الأحد) ومن حلقة حرف الميم الذي هو من غوامض الأسرار الإلهيّة في العالم اللا كيفيّ، ولا يمكن التَّعبيرُ عن ذلك السرِّ المكنون في العالم الكيفيِّ بغير حلقة الميم، فلو أمكن لعبَّر به الحقُّ سبحانه، والأحدُ هو الأحدُ الذي لا شريكَ له، وحلقةُ الميم هو طوقُ العبودية الذي ميّز العبد من المولى، فالعبدُ هو حلقةُ الميم، ولفظُ (الأحد) إنّما ورد لتعظيمه وإظهار اختصاصه عليه وعلى آله الصلاة والسلام:

وَمَنْ كَانَ هَذَا اسْمُهُ صَاحِ فَاعْلَمَنْ ... يَكُونُ مُسَمَّاهُ أَعَزَّ وَأَكْرَمَا

وبعد مضي ألف سنةٍ انجرَّت معاملةُ تلك الولاية إلى هذه الولاية، وانتهت الولايةُ المحمديّةُ إلى الولاية الأحمديَّة، وبقيت معاملةُ طوقي العبودية إلى طوقٍ واحدٍ، وتمكَّن في مكان الطوق الأوّل حرفُ الألف الذي هو رمزٌ إلى ربه ﷺ، وصار محمدٌ أحمدَ عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ، فإن لمضيّ الألف تأثيراً في تغيُّر الأمور العظام. بيانُه: إنَّ طوقي العبودية عبارةٌ عن حلقتي الميمين المندرجين في الاسم المبارك (محمد)، ويمكن أن يكون هذان الطَّوقان إشارةً إلى تعيّنَيْه عليه الصلاة والسلام: أحدهما: تعيّنُه الجسديُّ البشريُّ، وثانيهما: تعيّنُه الروحيُّ الملكيُّ، وتعيّنُه الجسديُّ وإن وقع فيه الفتورُ بواسطة عروض الموت، وقوي تعيّنُه الروحيُّ، ولكن كان بَقِيَ أثرُ ذلك التعيّن، فلزم مضيُّ ألف سنةٍ حتى يزول ذلك الأثرُ أيضاً، ولا يبقى رسمٌ من ذلك التعيّن، فلما مضى ألفُ سنةٍ، ولم يَبْقَ أثرٌ من ذاك التعيّن، وانقطع طوقٌ واحدٌ من طوقي العبودية، وطرأ عليه الزَّوالُ والفناءُ، وقعد ألف الألوهيَّة الذي يمكن أن يقال له: إنَّه كالبقاء بالله؛ صار محمدٌ أحمدَ بالضَّرورة، وانتقلت الولايةُ المحمديّةُ إلى الولاية الأحمديَّة، فـ(محمد) عبارةٌ عن التعيّنين، و(أحمد) كنايةٌ عن تعيّنٍ واحدٍ فحسب، ويكون هذا الاسمُ أقربَ إلى حضرة الإطلاق، وأبعدَ من العالم.

فإن قيل: ما معنى الفناء والبقاء الذين قرَّرهما المشائخ، وجعلوا الولايةَ مربوطةً بهما؟ وما معنى هذا الفناء والبقاء اللذين ذكرتهما في التعيّن المحمديِّ؟

أجيب: إنَّ الفناءَ والبقاءَ اللذين الولايةُ مربوطةٌ بهما الفناءُ والبقاءُ الشُّهوديّان، فإن كان هناك فناءٌ وزوالٌ؛ فباعتبار النظر، وإن بقاءٌ وثباتٌ؛ فهما أيضاً باعتبار النظر، وهناك استتارُ الصِّفات البشريَّة لا زوالُها، وفناءُ هذا التعيّن ليس كذلك، بل هنا تحقّقُ الزوال الوجوديّ للصفات البشرية والانخلاع من الجسمانية إلى الروحانية، وفي جانب البقاء أيضاً وإن لم يكن العبدُ حقّاً، ولم تنفكَّ عنه العبوديّةُ، ولكنَّه يقع إلى الحقِّ سبحانه أقربَ، وتحصل له زيادةُ المعية، ويكون عن نفسه أبعدَ، ويكون ارتفاعُ الأحكام البشرية عنه أزيدَ، ينبغي أن يعلم أنَّ هذا العروجَ المحمديَّ الذي هو مربوطٌ بانتفاء الصِّفات البشرية وإن رقَّتْ معاملتُه عليه وعلى آله الصلاة والسلام إلى الذَّروة العليا، وخلَّصته من جذبات الغير والغيريَّة، ولكن صارت المعاملةُ إلى أمَّته ﷺ أضيقَ، وقلَّ نورُ هدايته الذي كان بواسطة المناسبة ......

البشريَّة، وقَلَّ أيضاً توجّهُه إلى أحوال هؤلاء المتأخرين العاجزين، وتوجّه بكليّته إلى القبلة الحقيقيَّة، ويل لرعايا لا يلتفت السلطانُ إلى حالهم، ويكون بكليَّته متوجّهاً إلى محبوبه، ومن ههنا استولت ظلماتُ الكفر والبدعة بعد ألف سنةٍ، ونقص نورُ الإسلام والسنَّة. ﴿رَبَّنَا أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨].

المَكتُوبُ السَّابِعُ وَالتِّسعُونَ

إلى صُوفي قُربانَ الجَديدِ في سرِّ كَونِ العالَم مَوهوماً.

قال الصُّوفيَّةُ: العالمُ موهومٌ، لا بمعنى: أنَّه محضُ مخترعِ الوهم ومنحوته، فإنَّ ذلك مذهبُ السوفسطائيّة الحمقى، بل هو موهومٌ بمعنى: أنَّه مخلوقٌ بخلق الله سبحانه في مرتبة الوهم، وحصل له في تلك المرتبة بصنعه سبحانه ثبوتٌ واستقرارٌ، ولكنَّ الخيرَ والكمالَ اللذين فيه مستعارٌ من حضرة الوجود تعالى وتقدَّس، وظلٌّ من ظلال كمالات تلك المرتبة الأقدس، والشرَّ والنَّقصَ اللذين فيه مستعارٌ من العدم، وظلٌّ من ظلال الشُّرور والنَّقائص المخزونة في ذلك العدم الذي هو منشأُ جميع الشرّ والنقص، فإذا أدَّى السَّالك المستعدُّ للمسالك بحكم تربيته تعالى هذه الأمانات إلى أهلها، بأن رَدَّ الخيرَ والكمالَ إلى أهلهما، وأحال الشرَّ أيضاً إلى صاحبه؛ يصيرُ متحقّقاً بدولة الفناء بالضَّرورة، ولا يبقى منه رسمٌ، لا يكون فيه أثرٌ من الخير، ولا يتوقَّعُ له ضررٌ من الشرِّ، فإنَّ جميعَ ما فيه من الخير والشرِّ كان مستعاراً من الوجود والعدم، فإنَّه ما جاء من بيت أبيه بشيءٍ، وما كان عمله غيرَ حمل الأمانة، فإذا ردَّ الأمانات إلى أهلها بالتمام؛ فلا جرم يتخلَّص من مزاحمة (أنا) و(نحن)، ويكون ملحقاً بالفناء والعدم.

المَكتُوبُ الثَّامِنُ وَالتِّسعُونَ

إلى الحاجِّ عبدِ اللَّطيفِ الخَوارِزميِّ في بيانِ ضررِ الالتِذاذِ مِنَ الحُسنِ الصُّوريِّ.

اعلم أنَّ كُلّاً من الخير والكمال والحسن والجمال في أيِّ مكانٍ كان أثرُ الوجود الذي هو خيرٌ محضٌ، ومخصوصٌ بواجب الوجود جل سلطانه، فكما أنَّ الوجودَ منعكسٌ في الممكن من تلك الحضرة بطريق الظلية؛ جاء الحسنُ والجمالُ أيضاً من تلك المرتبة بطريق الظلية، وذاتُ الممكن بواسطة عدمه الذاتِي شرٌّ محضٌ وقبحٌ ونقصٌ، ولكنَّ هذا الحسنَ والجمالَ اللذين مشهودين في الممكن وإن جاء من الوجود، ولكن لَمّا ظهرا في مرآة العدم أخذا حكم المرآة، ونالا نصيباً من القبح، وعرض لهما النقصُ، ولما كان في الممكن قبحٌ ذاتِيٌّ لا يجد من الحسن الخالص لذّةً مقدارَ ما يجد من هذا الحسن مع كون ذاك مبدأً لهذا، فإنَّ مناسبتَه بهذا أزيدُ ككنَّاسٍ يجد من الرائحة المنتنة بواسطة أنسيَّته وألفته بها لذَّةً لا يجد مثلَها من الرائحة الطيِّبة، كما ورد في قصةٍ مشهورةٍ: أنَّ كنَّاساً مرَّ مرَّةً من محلَّة العطارين، فسقط مغشياً عليه من فرط الرائحة الطيِّبة، فمرَّ به واحدٌ من الأكابر، فلما اطَّلع على سرِّ معاملته أمر بأن يحشو في أنفه قطعةَ روثٍ، ففعلوا، فأفاق، وقام، ومضى لسبيله.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالتِّسعُونَ

إلى جَنابِ السَّيِّد المِير مُؤمنِ البَلْخِيِّ في إظهارِ شُكرِ النِّعَمِ الظَّاهريَّة والباطنيَّة، المُفاضَة من بَركاتِ أكابِر ما وَراءَ النَّهرِ رَحمَهم اللهُ تعالَى.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل: ٥٩]. «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ»، إنَّ حقوقَ علماء ما وراء النهر ومشائخها شكر الله تعالى سعيهم في ذمَّة أمثالنا العاجزين المتأخرين - بل في ذمة.............

كافة أهل الإسلام في بلاد الهند - ليست مما يدرج بيانُها في ضمن التَّقرير، وحيِّز التَّحرير، فإنَّا قد اكتسبنا الاعتقادَ الصَّحيحَ على وفق آراء أهل السنة والجماعة كثَّر الله أمثالهم في الأمصار من تحقيقات هؤلاء الأكابر، وحصَّلنا صحَّةَ العمل بموجب أقوال العلماء الحنفيّة رضي الله تعالى عنهم من تدقيقاتهم، وسلوكُ طريقة الصوفيَّة العليّة قدس الله أسرارهم في هذه الدِّيار أيضـاً مستفادٌ من بركات تلك البقعة الشَّريفة، وتحقيقُ مقام الجذبة والسُّلوك والفناء والبقاء والسَّير إلى الله والسَّيْرِ في الله التي كلُّها مربوطةٌ بمرتبة الولاية الخاصَّة مفاضةٌ من فيوض أكابر هذه العرصة المتبركة، وبالجملة: ما به صلاحُ الظَّاهر وفلاحُ الباطن مأخوذٌ من هناك: (شعر)

شُكرِ فيضِ تو چمن چون كند اى ابرِ بهار 	 كه اگر خار و اگر گل، همه پروردهٔ تُست

حرسها الله سبحانه وأهاليها من الآفات والبليات، بحرمة سيد السَّادات، عليه وعلى آله الصلاة والتسليمات. والأصحابُ الذين يَرِدُون من تلك الدِّيار العليا إلى هذه الديار السُّفلى لحاجةٍ ما يُظهِرون ألطافَ الحضرات ذوي البركات القاطنين هناك بالنِّسبة إلى هذا الحقير، خصوصـاً إشفاقَ ملازمي حضرة معدن الإرشاد والهداية، ومنبع الإفادة والإفاضة سلمه الله تعالى، ويقولون: إنَّ لجنابه العالي حسنَ ظنٍّ بك، وإنَّه طالَعَ بعض علومك ومعارفك المحرَّرة، واستحسنها، ومثلُ هذه البشارات من الأكابر يكون باعثـاً على ازدياد الرَّجاء، والجراءة على تحرير بعض الأذواق والمواجيد. ولَمّا ورد الشَّيخُ أبو المكارم الصوفِيُّ في هذه الأيّام، وأظهرَ أنواعَ ألطافكم وأصنافَ إشفاقكم اجترأنا على التَّصديع بكلماتٍ اعتماداً على كرمكم، وحيث إنَّ الأخَ محمد هاشم الذي هو من الأحباب المخلصين أرسل بعضَ نقول مسودَّات هذا الفقير في صحبة الصوفِيِّ المشار إليه؛ اكتفينا بذلك، ولم نُدرِجْ في هذه الصَّحيفة حرفـاً من علوم هذه الطَّائفة العليّة ومعارفهم، ونرجو من عناية الحضرة وإشفاقه أن لا يجعله منسيّـاً من الدُّعاء بسلامة الخاتمة. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. ونخصُّ كُلّاً من الحضرات العالية الدَّرجات: جناب النقيب النجيب ملاذ أهل الله السيد ميرك شاه، وجنابَ علامة الورى مولانا حسن، وجناب ناصر الشَّريعة وحافظ الملة القاضي تولك أدام الله بركاتهم بالدَّعوات، ويسلّم أولادُ الفقير أيضـاً إلى مخاديمنا الكرام، ويلتمسون منهم الدُّعاءَ.

المَكتُوبُ المِائَةُ

إلى الشَّيخ نور الحقِّ في كشفِ سرِّ مَحبَّة يَعقوبَ لِيوسُفَ عليهما السَّلام، مع بيانِ بَعضِ أسرارٍ عجيبةٍ، وعلومٍ غَريبةٍ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

قد استفسر أخي الأعزُّ الشَّيخُ نورُ الحقّ عن محبّة يعقوب ليوسف على نبينا وعليهما الصلوات والتسليمات بالاهتمام والشَّوق التامّ، وكان شوقُ انكشاف هذا المعنى في هذا الفقير أيضـاً منذ مدّةٍ، ولَمّا كان شوقُه علاوةً على شوق هذا الفقير؛ صرتُ متوجّهـاً بكليَّتي إلى كشف هذه الدَّقيقة بلا اختيارٍ، فظهر في بادئ النَّظر أنَّ خلقتَه وحسنَه وجمالَه على نبينا وعليه الصلاة والسلام ليست من جنس خلقة النَّشأة الدنيويَّة وحسنها وجمالها، بل إنَّ جمالَهُ من جنس جمال أهل الجنة، وصار مشهوداً أنَّ صباحتَه مع كونها في هذه النَّشأة لها مشابهةٌ بحسن الحور والغلمان. ثم كتبتُ ما كان مفاضـاً في هذا الباب بعد...

ذلك بكرم الله وفضله تعالى بالتَّفصيل، وأرسلته إليكم، ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]: (شعر)

أَقُولُ مَا قَالَ لِي أُسْتَاذِيَ الْأَزَلِي وَأَمْسَكُونِي وَرَى المَرْأَى كَدُرَّتِهِمْ

فإن قيل: ما وجه إفراط محبّة يعقوب ليوسف عليهما السلام وقد قال الله تعالى في حقّه وحق آبائه الكرام: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧]؟ فكيف يكون التعلّقُ بما دون الحق جلّ وعلا مناسباً لشأن الأنبياء أولي الأيدي والأبصار؟ وكيف يَسَعُ المصطفين المخلصين محبّةُ المخلوقين؟

لا يقال: إنَّ ذلك ليس بتعلّقٍ بما دون الحقِّ تعالى، فإنَّ المخلوقَ ليس إلا مرآةَ حسنه وجماله تعالى كما قالت الصوفيَّةُ، وجوَّزوا شهودَ الوحدة في مرآة الكثرة، وأثبتوا المشاهدات والمكاشفات في مجالي صُوَر الممكنات ومظاهرها في هذه النَّشأة سوى الرؤية الأخرويَّة؛ لأن أمثال هذا الكشف والشُّهود مما يظهر للسَّالكين في هذه النَّشأة الفانية وقت غلبات التَّوحيد، وخواصُّ الأمَّة يكادون يستنكفون عنها ويتحاشون، فإذا كانت معاملةُ خواصِّ الأمَّة هكذا؛ فكيف يحتمل ثبوتُ هذه الأحوال في حقِّ الأنبياء المصطفين الأخيار؟ بل تَصَوُّرُ هذا المعنى في حقِّهم عينُ الوبال.

قلتُ: إنَّ جوابَ هذا السُّؤال مبنيٌّ على مقدّمةٍ، وهي: إنَّ حسنَ الآخرة وجمالها - وكذلك التلذذاتُ والتنعماتُ في ذلك الموطن ليست كحسن الدنيا وجمالها، ولا كالتلذذات والتنعمات فيها، فإنَّ ذاك الحسنَ والجمالَ خيرٌ في خير، وذاك التلذُّذُ والتنعُّمُ مرضيٌّ عند المولى جل شأنه ومقبولٌ، وكلُّ هذا الحسن والجمال شرٌّ ونقصٌ، وجميعُ هذا التلذُّذ والتنعُّم غير مقبولٍ وغيرُ مستحسنٍ، ولهذا كانت دارُ الآخرة دارَ الرضا، ودارُ الدنيا دارَ غضب المولى.

فإن قيل: إذا كان الحسنُ والجمالُ في الممكن مستعاراً من مرتبة حضرة الوجوب تعالت وتقدست، ولم يكن الممكنُ شيئاً غير أن يكون مرآةً ومظهراً لذلك الحسن والجمال، فإنَّ الممكنَ ليس له شيءٌ، بل كلُّما فيه مستعارٌ من حضرة الوجوب، فمن أين جاء التَّفاوتُ بين الموطنين؟ ولِمَ كان أحدُهما مرضيّاً ومقبولاً والآخرُ غيرَ مقبولٍ وغيرَ مستحسنٍ؟

قلتُ: جوابُ هذا مبنيٌّ على مقدّماتٍ:

المقدّمةُ الأولى: إنَّ العالمَ بتمامه مجالي أسماء الواجب ومظاهر صفاته جل شأنه ومرايا كمالاته الأسمائية والصِّفاتية.

المقدّمةُ الثّانيةُ: إنَّ صفات الواجب وإن كانت داخلةً في دائرة الوجوب، ولكن لَمّا ثبت لها الاحتياجُ في الوجود والقيام إلى حضرة الذات تعالت؛ كانت فيها رائحةٌ من الإمكان، والوجوب الذاتِيّ غير مقطوعٍ في حقِّها، فإنَّ وجوبَها ليس لنفسها، بل لذات الواجب، وإن لم يقولوا لها غيرَ الذَّات، ولكن لا بُدَّ من الغيريَّة، فإنَّ الاثنينيَّةَ كائنةٌ بينهما، (الاثنان متغايران) قضيّةٌ مقرَّرةٌ من قضايا أرباب المعقول، ومع ذلك لا ينبغي إطلاقُ الإمكان في حقِّها؛ لكونه موهماً للحدوث؛ لأنَّ كلَّ ممكنٍ حادثٌ عندهم، ولا ينبغي تجويزُ الوجوب بالغير أيضاً في ذلك الموطن؛ لأنّه مُوهِمٌ لانفكاكها عن حضرة الذَّات تعالت وتقدست.

المقدّمةُ الثّالثةُ: إنَّ كلَّما فيه رائحةُ الإمكان فيه مجالٌ للعدم في حدِّ ذاته، وإن كان حصولُه محالاً، فإنَّ استحالتَهُ ما جاءت من نفسه، بل من محلٍّ آخرَ.

المقدّمةُ الرّابعةُ: إنَّ أسماءَ الواجب وصفاته تعالى كما أنَّ لها في جانب وجودها حسناً وجمالاً؛ كذلك لها في جانب احتمالها للعدم أيضاً حسنٌ وجمالٌ، وإن كان ثبوتُ هذا الحسن في مرتبة الوهم........................

والحسّ ومناسباً للعدم، وكان مستعاراً من الجوار؛ لأنَّ العدمَ لا نصيبَ له في حدِّ ذاته غير الشرِّ والقبح، والوجودُ هو الذي بكليَّته خيرٌ وكمالٌ، وبتمامه حسنٌ وجمالٌ.

ينبغي أن يعلم أنَّ الحسنَ الذي يحسُّ في العدم كحنظلٍ غُلِّفَ بالسُّكر، وأوهم أنَّه حلوٌ.

المقدّمةُ الخامسةُ: إنَّه قد لاح بكرم الله تعالى بالنَّظر الكشفيّ أنَّ جانبَ عدم الممكن قد حصلت له التَّربيةُ في هذه النَّشأة بكمال الاقتدار، وثبت له في مرتبة الحسِّ والوهم بالصنع الكامل ثباتٌ واستقرارٌ، وجعل مظهراً لحسن الصِّفات وجمالها الكائنين في جانب احتمالها للعدم، واتَّضح أيضاً أنَّ جانبَ وجود الممكن يرجح في النَّشأة الأخرويَّة، ويجعل مظهراً لحسن الصِّفات وجمالها الكائنين في جانب وجودها. فإذا عَلِمْتَ هذه المقدّمات الخمسَ؛ صار التَّفاوتُ بين حسن هذه النُّشأة وجمالها وبين حسن تلك النشأة وجمالها واضحاً، وكان حسنُ إحدى النَّشأتين وقبحُ الأخرى لائحاً، وصار المرضيُّ متميزاً من غير المرضيِّ، ومن هذه التحقيقات انحلَّ هذا السؤالُ، واتَّضحت المقدّمةُ التي كان السؤالُ الأوّلُ مبنيّاً عليها كما لا يخفى على الفطن المتأمِّل.

فإذا اتَّضحت هذه المقدّمة أقولُ في جواب السؤال الأوّل بفضل الله جل شأنه: إنَّه قد صار معلومًا بالكشف الصَّريح أنَّ وجودَ يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام وإن ظهر في هذه النشأة، ولكنَّ وجودَه من النَّشأة الأخرويَّة على خلاف وجود سائر موجودات هذه النَّشأة، وأنَّه قد رجح جانبُ وجوده، وجعل مظهراً للحسن والجمال المتعلّقين بوجود الأسماء والصِّفات، وانتفى عنه تعلّقُ شائبة العدميّة بنفسه أو بأصله، وجعل هو وأصله طاهراً من علَّة العدم الذي هو منشأُ كلِّ قبحٍ ونقصٍ، ولم يُتْرَكْ فيه غيرُ استيلاء نور جانب الوجود الذي هو نصيبُ أهل الجنَّة، فكان التعلّقُ بحسنه وجماله كالتعلّق بحسن الجنَّة وجمالها، وحسنُ أهلها وجمالُهم محموداً بالضَّرورة، ونصيباً للكلِّ، وكلَّما كان المحبُّ أكملَ؛ يكون تعلُّقُه بحسن تلك النَّشأة وجمالها أزيد، ويكون قَدَمُه في مراضي المولي جل شأنه أسبقَ، فإنَّ التعلُّقَ بتلك النَّشأة ومحبَّتها عينُ التعلّق بصاحب تلك النشأة ومحبَّته، فإنَّ تلك النَّشأةَ ليست إلا طلسمَ حكمته، ونقابَ جماله كرداء الكبرياء، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] نصٌّ قاطعٌ في هذا الأمر، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧] حجَّةٌ واضحةٌ لهذا المعنى، والذي جعل التعلّقَ بالآخرة كالتعلّق بالدنيا مذموماً، وجعله مغايراً للتعلّق بالمولى جل شأنه؛ فهو لم يعلم حقيقة الآخرة كما هي، وقاس الغائبَ على الشَّاهد مع وجود الفارق البيِّن، فلو اطَّلعت رابعةُ المسكينةُ على حقيقة الجنَّة كما هي؛ لَمَا كانت في فِكْرِ إحراق الجنَّة، ولَمَا اعتقدت التعلّقَ بها مغايراً للتعلّق بمولاها، وقال آخر: إنَّ في آية: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] شكايةً من الفريقين، أعطاهم الله سبحانه الإنصافَ، كيف يُتصوَّرُ أن يدعو الله تعالى إلى الجنَّة، ثم يشكوَ ممن يجيب دعوتَه؟ فلو كان التعلّقُ بذلك الموطن المقدَّس مذموماً، أو كانت فيه شائبةُ الذمِّ؛ لَمَا كانت الجنَّةُ دارَ الرضا، والرضا هو نهايةُ مراتب القبول، بل كانت مثلَ الدنيا مغضوباً عليها، وعلّةُ الغضب وباعثُ الذمّ: العدمُ الذي هو أصلُ كلِّ قبحٍ ونقصٍ، وصار نصيباً للدنيا، وسبباً لكونها ملعونةً، ولما حصل التبرِّي من العدم؛ زالت شائبةُ الذمّ والقبح، وكان عدمُ الرضا وعدمُ المقبوليَّة نصيبَ الأعداء، ولم يَبْقَ غيرُ الرضا والقبول، والوجود والنور، وغيرُ الوصل...

والوصول، والراحة والسرور أصلاً، قال المخبر الصادق عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**إِنَّ الْجَنَّةَ قِيعَانٌ، وَإِنَّ غِرَاسَهَا قَوْلُكَ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ**»، والمعنى التنزيهيُّ الذي ظهر ههنا في كسوة الحروف والكلمات يتمثَّل هناك بصورة الشَّجر، ويكون التعلّقُ بذلك الشَّجر والتلذُّذُ منه عينَ التعلّق والتلذُّذ بالمعنى التنزيهيِّ، وعلى هذا القياس. وما بيَّنه الصوفيَّةُ العليّةُ من الأسرار والدَّقائق في التَّوحيد والاتِّحاد، ونزلوا على المظاهر الجميلة في هذه النَّشأة وعَشِقُوها، وأثبتوا في ضمن ذلك شهوداً ومشاهدةً، واعتقدوا حسنَ تلك المظاهر وجمالَها عينَ حسن المولى وجماله، حتى قال بعضهم: **ذُقْتُك** في كلِّ طعامٍ لذيذٍ، وقال الآخرُ: (شعر)

امروز چون جمال تو بی پرده ظاهر است　　　در حیرتم که وعدهٔ فردا برای چیست

وقال الثّالثُ: (الثالث)

مَا هَمَّ قَوْمٌ بِشُــرْبِ الْمَاءِ مِنْ عَطَشٍ　　　إِلَّا رَأَوْا مَا هُوَ الْمَقْصُــودُ فِي قَدَحِ

صِدْقُ أمثال هذه الكلمات بعيدٌ عن فهم هذا الفقير ووجدانه في هذه النَّشأة، ولا أَجِدُ هنا طاقةً تحمل هذه الدَّقائقَ، ولا أراها قابلةً لقبول هذه الدَّولة، فلو كانت فيها طاقةٌ وقابليَّةٌ؛ لما كانت مغضوبـًا عليها، ولما قال النبي ﷺ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ**»، واللائقُ بالكرامات والقابلُ لهذه المقامات هو الجنّة، (ذقتك في كل طعام لذيذٍ) صادقٌ على طعام الجنَّة، لا على طعام الدنيا الذي هو مخلوطٌ بماء العدم المسموم، ولهذا لم يستحسن ارتكابُ ذلك، وعند هذا الفقير جنّةُ كلِّ شخصٍ عبارةٌ عن ظهور الاسم الإلهيِّ الذي هو مبدأُ تعيّن ذلك الشَّخص، وظهر ذلك الاسمُ بصورة الأشجار والأنهار، وبصورة الحور والقصور، وبصورة الولدان والغلمان، فكما أنَّ في الأسماء الإلهيّة تفاوتـًا باعتبار العلوِّ والسفل، وباعتبار الجامعيَّة وعدمها؛ كذلك في الجنات أيضـًا تفاوتٌ بمقدارها، فلئن أثبت الشُّهودُ والمشاهدةُ في ضمن ذلك الظهور؛ فهو حسنٌ ومستحسنٌ، ووضعُ شيءٍ في موضعه، وأما إطلاقُ أمثال هذه الكلمات في غير هذا الموضع؛ فجراءةٌ ووضعُ شيءٍ في غير موضعه. وكأنَّ الصوفيَّةَ العليّةَ – من فرط محبتهم للمطلوب وكمال اشتياقهم إليه – اغتنموا كلَّما وصل إلى مشامِّ أرواحهم من رائحة المطلوب، وظنوه – من استيلاء سكر المحبّة – عينَ المطلوب والمقصود، وعاملوا معه معاملةَ العشاق التي تليق بنفس المطلوب، واحتظوا منه بحظوظٍ وافرةٍ، وأثبتوا المشاهدةَ والمكاشفةَ، قال واحدٌ من الأكابر: (شعر)

به بُويِ تو از جا، جَهَم مست و بيخود　　　ز هر سُو كـه آواز پـايـى بـرآيــــــد

نعم، أمثالُ هذه المعاملات مجوَّزةٌ في العاشقيَّة، وعدم القرار والاستراحة من غلبة المحبّة، بل مستحسنةٌ؛ لأنَّها لأجل الله سبحانه وتعالى، وناشٍ من شوق لقاء المطلوب المتفرِّد، ولخطأهم حكمُ الصَّواب، ولسُكْرِهم حكمُ الصَّحو، وورد في الخبر: «**سِينُ بِلَالٍ عِنْدَ اللهِ شِينٌ**»: (شعر)

بر «اَشهدِ» تو خنده زند «اَسهَدِ» بـلال

ينبغي أن يعلم أنَّ مكشوفَ هذا الفقير هو أنَّ رؤيةَ كلِّ شخصٍ جنتي في الجنَّة أيضـًا على مقدار ذلك الاسم الإلهيِّ الذي هو مبدأُ تعيّنه وتشخصه، ويظهر ذلك الاسمُ في كسوة الأشجار والأنهار والحور والغلمان، بمعنى: أنَّ تلك الأشجارَ والأنهارَ وغيرَها مما كان مظاهرَ ذلك الاسم..

المقدس يكون حكمُها زماناً بكرم الله تعالى حكمَ النَّاظور، وتصير وسيلةً إلى رؤية ذلك الشَّخص الغير المتكيِّفة، ثم تعود إلى حالتها الأصليَّة، وتشغله بأنفسها، وهكذا إلى أبد الآبدين، كالتجلِّي البرقيّ الذاتيّ الذي أثبتوه في هذه النَّشأة، فإنَّ تجلِّيَ الذَّات في حُجُب الأسماء والصِّفات دائميٌّ في حقِّ المستعدين لتلك الدَّولة، وبعد مدَّةٍ ترتفع حجبُ الأسماء والصِّفات، وتتجلى حضرةُ الذات بلا حجب الأسماء والصِّفات، وحيث إنَّ ذلك الاسمَ الإلهيَّ اعتبارٌ من اعتبارات الذات تعالت؛ يكون متعلّقُ رؤية كلِّ شخصٍ ذلك الاعتبار الذاتيّ الذي هو ربُّ ذلك الشَّخص بالضَّرورة، ولا يتوهّم هنا أحدٌ تبعُّضاً وتجزّياً، فإنَّ الذاتَ تعالت بتمامها ذلك الاعتبارُ، لا أنَّ بعضَ الذات ذلك الاعتبارُ، وبعضٌ آخرُ منها اعتبارٌ آخرُ، فإنَّ ذلك علامةُ النَّقص والحدوث، تعالى الله عن ذلك. قالوا: إنَّ ذات الله تعالى تمامها علمٌ، وتمامُها قدرةٌ، وتمامُها إرادةٌ، وإن كان كلُّ اعتبارٍ تمامَ الذات، ولكنَّ المرئيَّ هو ذلك الاعتبار لا اعتباراتٌ أخر، ينبغي أن يطلب سرُّ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] من ههنا.

لا يقال: إذا لم يكن تميُّزٌ بين الاعتبارات، وكان كلُّ واحدٍ منها عينَ الذات؛ فما معنى جعل متعلّق الرؤية اعتباراً من بين اعتباراتٍ كثيرةٍ؟ لأنّا نقول: إنَّ هذه الاعتبارات وإن كانت عينَ الذات، بل كلُّ واحدٍ منها عينُ الآخر، وليس بينها التميُّزُ والامتيازُ الكيفيين المعتبرين عند مأسوري عالم الكيف، ولكن بينها امتيازٌ لا كيفيٌّ، والذين تخلَّصوا من العالم الكيفيّ واتَّصلوا بالعالم اللا كيفيّ باتِّصالٍ لا كيفيٍّ لا يخفى عليهم هذا الامتيازُ اللا كيفيُّ، بل هو واضحٌ عندهم، ويجدونه كامتياز الأُذُن من العين. نعم، من كان مبدأُ تعيّنه اسمٌ جامعٌ؛ فله من جميع اعتبارات الذات تعالت وتقدست نصيبٌ على سبيل الاعتدال على تفاوت الدَّرجات ولو على سبيل الإجمال، ورؤيتُه متعلّقةٌ بجميعها، ولكن لَمّا كان ضيقُ جامعيَّة الإجمال الذي هو نصيبُه لازماً له دائماً يكون الإدراكُ والإحاطةُ مفقودين في حقِّه، ويكون ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] صادقاً، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

ينبغي أن يعلم أنَّه إذا شرَّف الله سبحانه عبداً بدولة الفناء الأتمّ بكرمه، وخلَّصه من قَيْد العدم الذي كان هو ماهيَّته، ولم يترك منه عيناً ولا أثراً؛ يَهَبُ له بعد مثل هذا الفناء وجوداً شبيهاً بوجود النَّشأة الأخرويَّة، ومتعلّقاً بترجيح جانب وجود الممكن، ويكون مظهراً لكمالات جانب وجود الأسماء والصِّفات الإلهيّة، وقد ذكر تحقيقُ وجه ذلك فيما سبق. وكان يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام مشرَّفاً بهذه الدَّولة بوجوده الأوَّل، وهذا العارفُ تشرَّفَ بها بوجوده الثّاني بالولادة الثّانية، ولَمّا كان ذاك جِبِلّياً أعطاه الحسنَ الظَّاهرَ أيضاً، وهذا لما حصل بعد تجشُّم الكسب اكتفى فيه بنور الباطن، وادّخر له الحسنُ الظَّاهرُ في الآخرة، ومثلُ هذا العارف بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عزيزُ الوجود وأقلُّ قليلٍ، ومثلُ هذا العارف وإن لم يكن نبياً، ولكن له بتبعيَّة الأنبياء شركةٌ في دولةٍ خاصّةٍ بالأنبياء عليهم الصلوات، وهو وإن كان طفيليّاً، ولكنَّه جالسٌ على سفرة نعمتهم، وإن كان خادماً، ولكنَّه جالسٌ مع المخدومين، وإن كان تابعاً، ولكنَّه مصاحبٌ بالمتبوعين، وربَّما يمنح أسراراً يغبطه الأنبياءُ عليهم السلام فيها، كما أخبر به المخبر الصادق عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ولكنَّ مثلَ هذه المعاملة داخلٌ في فضلٍ جزئيٍّ، والفضلُ الكليُّ إنّما هو للأنبياء عليهم السلام، وهذا الفضلُ أيضاً لَمّا تيسّرَ له بسبب متابعته إياهم كان منهم، وليس العارفُ غيرَ حامل أماناتهم، وآية:........................

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] نصٌّ قرآنيٌّ: رَفَعَ شأنَ هؤلاء الأكابر فوق شأن غيرهم، ونصرهم على الكلِّ، وجعلهم غالبين.

فإن قيل: إنَّ هذا العارفَ الذي وهب له هذا الوجودُ بعد الفناء الأتمِّ هل هو بهذا الوجود أيضاً في مرتبة الحسّ والوهم كسائر موجودات هذه النشأة، أو خرج من هذه المرتبة؟ فإن خرج؛ فهل عرض له وجودٌ خارجيٌّ أو لا؟ ومن المقرَّر عند القوم أنَّه لا موجودَ في الخارج غيرُ الحقِّ سبحانه وتعالى.

قلت: إنَّ ما هو صار معلوماً في آخر الأمر: أنَّه خرج وصار منسوباً إلى نفس الأمر ومرتبة الوهم، وإن كان حكمُها حكمَ نفس الأمر باعتبار الثبات والتقرُّر، ولكنَّها في الحقيقة لم تكن نفس الأمر، فإنَّ نفسَ الأمر وراء تلك المرتبة، وكأنَّ هذه المرتبةَ برزخٌ بين الوهم والخارج، وموجوداتُ النَّشأة الأخرويَّة كلُّها كائنةٌ في مرتبة نفس الأمر، بل الصِّفاتُ الواجبيةُ سوى الصِّفات الثمانية الحقيقية كلُّها في تلك المرتبة، ولا موجودَ في مرتبة الخارج غيرُ الذات الأقدس وغيرُ صفاته الثمانية، فظهر للموجودات ثلاثُ مراتب: مرتبةُ الوهم التي هي نصيبُ أكثر أفراد هذه النشأة، والأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام خارجون بأجمعهم عن هذه المرتبة، وكذلك الملائكةُ الكرام عليهم السلام، فإنَّ وجودَهم مناسبٌ لوجود النشأة الأخرويَّة، وصار أقلُّ أولياء العظام مشرَّفاً بهذه الدَّولة أيضاً، وتخلَّص من مرتبة الوهم، وصار ملحقاً بنفس الأمر. المرتبةُ الثّانيةُ: مرتبةُ نفس الأمر، وفيها صفاتُ الواجب وأفعالُه تعالى، والملائكةُ الكرامُ أيضاً موجودون في تلك المرتبة، ووجودُ النَّشأة الأخرويَّة أيضاً ثابتٌ في تلك المرتبة، وكذلك الأنبياءُ والأقلُّ من الأولياء أيضاً خرجوا إلى تلك المرتبة، وإنَّما الفرقُ: أنَّ صفات الواجب جلَّ شأنه في مركز ذلك المقام الذي هو أشرفُ أجزائه، وسائرُ الموجودات في أطراف ذلك المركز وأكنافه على حسب الاستعداد. والمرتبةُ الثّالثةُ: مرتبةُ الخارج، والموجودُ هناك الذاتُ وصفاتُ الواجب الثَّمانية، فإن كان فرقٌ؛ فإنَّما هو باعتبار المركز وغير المركز، فإنَّ الأشرفَ أنسبُ بالأقدس.

فإن قيل: ما مزيَّةُ الخروج من مرتبة الوهم إلى مرتبة نفس الأمر؟ وأيُّ قربٍ مربوطٌ به؟

قلت: إنَّ منشأَ كلِّ خيرٍ وكمالٍ وحسنٍ وجمالٍ هو الوجودُ، وكلَّما يكون حصولُ القوَّة والاستقرار للوجود أزيدَ؛ تكون تلك الصِّفاتُ أكملَ، ولا شكَّ أنَّ وجود النَّفس الأمريَّ أقوى وأثبت من الوجود الوهميّ؛ فيكون الخيرُ والكمالُ فيه أتمَّ وأكملَ بالضَّرورة، وأيُّ كلامٍ في قرب من كان موجوداً في مرتبة صفاته وأفعاله تعالى، وحصل له جوارُ صفات الخالقية والرازقية وغيرهما؟ ينبغي أن يعلم أنَّ ثبوتَ العدم - وكذلك ثبوتُ الكمالات التي ملحوظٌ فيها شائبةُ العدم - وإن كانت تلك الكمالاتُ من الكمالات الصِّفاتية كله في مرتبة الحسّ والوهم، فإنَّه ما لم يحصل التبرِّي من العدم بالكليَّة، ولم يَزُلْ عينُ العدم وأثره؛ لا يكون لائقاً بالوصول إلى مرتبة نفس الأمر، وإن كان في الثُّبوت الوهميّ باعتبار القوَّة والضعف درجاتٌ، فإنَّه كلَّما كان العدمُ أقوى؛ يكون التعلّقُ بمرتبة الوهم أتمَّ، وإذا ضعف يكون التعلّقُ أقلَّ، وكثيرٌ من الأولياء الذين جاوزوا مراتب العدم، ولم يبق فيهم شيءٌ من العدم غير الأثر، وإن لم يكونوا داخلين في مرتبة نفس الأمر ما دام هذا الأثرُ باقياً، ولكنَّهم يتجاوزون مرتبة الوهم، ويصلون إلى نقطتها الأخيرة، ....

ويصيرون من نظّار مرتبة نفس الأمر، ويحصّلون نصيباً من هذا المقام، ويكون محسوساً أنَّ الأنبياءَ الكرامَ والملائكةَ العظامَ عليهم الصلاة والسلام - وكذلك بعضُ متابعي الأنبياء وإن كان أقلَّ - وصلوا إلى نهاية مرتبة نفس الأمر، ولكلٍّ منهم هناك موطنٌ خاصٌّ ومقامٌ على حدةٍ على تفاوت درجاتهم، ويشاهد الحروف والكلمات القرآنية أيضاً هناك، ويرى مقامُ هؤلاء فوق مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكأنَّها خرجت من هذا المقام، وصارت برزخاً بين هذا المقام وبين مقامٍ فوقه قبل الوصول إليه، واختارت الإقامةَ هناك، فإنَّ المقامَ الفوقانيَّ مخصوصٌ بذات الواجب وصفاته تعالى، ولا موجودَ في الخارج غيرُه سبحانه وتعالى، ولما كانت في هذه الحروف والكلمات سماتُ الحدوث ليست فيها قابليَّةُ الوصول إلى ذلك المقام، ولكنها أسبقُ قدماً من جميع موجودات تلك المرتبة، ولها تمسُّكٌ بأذيال مدلولاتها، والكبراءُ الذين يقيمون في منتهى مرتبة نفس الأمر ناظرون إلى مرتبةٍ فوقانيّةٍ، وكأنّهم بكليّتهم صاروا أبصاراً من كمال شوقهم إليها، والعجبُ أنَّ هؤلاء الأكابر مع وجود هذا التوطُّن والإقامة لهم بحكم «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» معيَّةٌ مع محبوبهم مجهولةُ الكيفية، وهم معه بلا أنفسهم، ومأنوسون ومألوفون به بلا اتِّحاد الاثنينيَّة، ولَمّا لوحِظَ في ذلك الأثناء معيَّةُ الحروف والكلمات القرآنية بتلك المرتبة المقدَّسة؛ عُلِمَ أنَّه لا نسبةَ لهذه المعية بمعية الآخرين، وأنّها عاليةٌ جداً، لا يمكن إدراكها؛ لكونها مربوطةً بأبطن البطون، وأين المجالُ هناك لفهم المخلوقين؟ ومن عُلُوِّ شأن هذه الحروف والكلمات المقدَّسة ورد «**الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ**»[1]، ويعلم أنَّ الكلامَ النَّفسيَّ هو هذه الحروفُ والكلماتُ كما حقَّقه القاضي عضد، وقال: إنَّ هذه الحروفَ والكلماتِ هي الكلامُ القديمُ النَّفسيُّ بلا تقديمٍ وتأخيرٍ، وجعل التقديمَ والتأخيرَ عائداً إلى قصور الآلات الحادثة.

فإن قيل: لو كانت هذه الحروفُ والكلماتُ كلاماً نفسياً ينبغي أن تكون داخلةً في مرتبة الخارج، وقد مرَّ آنفاً: أنّها لا تكون داخلةً في ذلك المقام، فما وجه ذلك؟

قلت: إنَّ هذه الحروفَ والكلماتِ حيث كانت مركوزةً في الأذهان بالتَّقديم والتَّأخير يظهر بهذه الملاحظة في النَّظر الكشفيِّ عدمُ دخولها في مرتبة الخارج بالضَّرورة، ولَمّا لوحظتْ مرّةً ثانيةً بلا ملاحظة التَّقديم والتَّأخير؛ شوهدت داخلةً فيها وملحقةً بأصلها، بل متَّحدة بها، فأيُّ نسبةٍ لمعيتها بمعية الآخرين؟ فإنَّ فيها اتحاداً، ولا مجالَ للاتحاد في معية الآخرين، سبحان الله، إذا كان هذه الحروفُ والكلماتُ القرآنيّةُ نفسَ الكلام القديم السبحاني؛ يكون ظهورُه في هذه النشأة بخلاف سائر الصِّفات القديمة بنفسه، فإنَّ الحروفَ والكلماتِ على هذا التَّقدير نفسُه، وليس له نقابٌ غيرَ التَّقديم والتأخير العارضين من جهة قصور آلة التكلّم، فأقربُ الأشياء إلى جناب قدس الحق جل وعلا الذي هو القرآنُ المجيدُ أجلى وأظهر في عالم الظلال بأصالته من غير أن يصيبه غبارُ الظليَّة، وجعل التقديمُ والتأخيرُ حجاباً لعيون المحجوبين، ولهذا كان أفضلُ العبادة تلاوةَ القرآن المجيد، وكانت شفاعتُه أسرعَ قبولاً من شفاعة الآخرين، سواء كانت شفاعةَ ملكٍ مقرَّبٍ أو نبيٍّ مرسلٍ، ولا يمكن تفصيلُ النتائج والثمرات المترتبة على تلاوة القرآن، وكثيراً ما توصل التالي إلى محلٍّ لا مجال فيه لذرةٍ.

فإن قيل: هل هذه الدَّولةُ مخصوصةٌ بالحروف والكلمات القرآنية، أو اشتركت معها في هذه الدَّولة حروف سائر الكتب المنزلة وكلماتها، وكانت كلاماً قديماً نفسياً كمثلها؟

قلت: للكلِّ شركةٌ في هذه الدَّولة، والفرقُ الذي ....

---

(١) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٤٦٦٩) من حديث ابن مسعود ﵁.

يتمثَّل في نظرٍ كشفيٍّ: هو أنَّ القرآنَ المجيدَ كأنَّه مركزُ الدائرة، وسائرُ الكتب المنزلة - بل جميعُ ما يقع به التكلّمُ من الأزل إلى الأبد - كأنَّه محيطُ تلك الدائرة، فكان القرآنُ أصلَ الكلِّ، وأشرفَ جميع الكتب، فإنَّ المركزَ أشرفُ أجزاء الدائرة، وأصلُ جميع نقط الدائرة، وسائرُ النقط كأنَّها تفصيلُه، وهو إجمالها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

فإن قيل: قد علم من التَّحقيق السَّابق أنَّ الشُّهودَ والمشاهدةَ في ضمن المظاهر الجميلة كما قالوا غيرُ واقعٍ في هذه النَّشأة، ولا قابليَّةَ في هؤلاء لمظهريَّة تلك المرتبة المقدسة، فهل لها تحقّقٌ في هذه النشأة في غير هذه المظاهر أو لا؟

قلت: إنَّ معتقدَ هذا الفقير: هو أنَّ نصيبَ هذه النَّشأة الإيقانُ فقط، والرؤيةُ البصريَّةُ والمشاهدةُ التي هي عبارةٌ عن الرؤية القلبيَّة على تفاوت الدَّرجات نتيجةُ ذلك الإيقان وثمراتُه المربوطةُ بالآخرة، نقل صاحبُ «التعرف» الذي هو من أكابر هذه الطَّائفة العليّة في كتابه إجماعَ المشائخ في هذا الباب، وقال: وأجمعوا على أنَّه تعالى لا يرى في الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب إلا من جهة الإيقان.

فإن قيل: إنَّ من المقرَّر عند هذه الطَّائفة العليّة أنَّ لليقين مراتب ثلاثـًا: علمُ اليقين، وعينُ اليقين، وحقُّ اليقين، وقالوا: إنَّ علمَ اليقين عبارةٌ عن الاستدلال بالأثر على المؤثِّر، كيقينٍ حاصلٍ بوجود النار مثلاً من طريق الاستدلال بالعلم بوجود الدخان، وعينُ اليقين عبارةٌ عن رؤية النار نفسها مثلاً، وحقُّ اليقين عبارةٌ عن التحقّق بالنار مثلاً، فإذا فقدت الرؤيةُ القلبيَّةُ أيضـًا كيف يتحقّقُ عينُ اليقين؟ وكيف يصدقُ إجماعُ المشائخ على عدم الرؤية مطلقـًا؟

قلت: لعلَّ مراده بالإجماع: إجماعَ المشائخ المتقدمين، والمتأخرون حكموا على خلاف ذلك، وجوَّزوا الرؤيةَ القلبيَّةَ، وهذا الحكمُ لم يثبتْ عند هذا الفقير، وهذه الدَّرجاتُ الثلاثُ التي بيَّنوها لليقين كلُّها داخلةٌ في علم اليقين لم تخرج بعدُ من الاستدلال، ولم تتحوَّلْ من العلم إلى العين، وما قالوا في تمثيل عين اليقين من رؤية النار ليس هو رؤيةَ النار، بل رؤية الدخان التي استدلوا بها على وجود النار، فكما أنَّه كان في علم اليقين استدلالٌ من العلم بوجود الدخان على وجود النار؛ كذلك هنا استدلالٌ من رؤية الدخان على وجود النار، وهذا اليقينُ الثّاني أتمُّ من اليقين الأوّل لقوة دليله، فإنَّ هناك علمـًا بالدليل، وهنا رؤيةُ الدليل، وكذلك في حقِّ اليقين تحقّقٌ بالدخان لا بالنار، واستدلالٌ به على النار، وهذا اليقينُ أتمُّ من كلٍّ من اليقينين السابقين وأكملُ، فإنَّه استدلالٌ بنفسه الذي صار دخانـًا على وجود النار، وبين الأنفس والآفاق فرقٌ واضحٌ، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ اٰيَاتِنَا فِى الْاٰفَاقِ وَفِى اَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ اَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَفِى الْاَرْضِ اٰيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَۙ ۞ وَفِى اَنْفُسِكُمْۜ اَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، وكلُّما يرى في الآفاق والأنفس آياتُ المطلوب لا نفسُ المطلوب، فكان المرئيُّ في الآفاق والأنفس هو الدخان الذي هو آية النار لا النار، فتكون المعاملةُ في الآفاق والأنفس هي الاستدلال الذي هو حقيقةُ علم اليقين، وأما حقُّ اليقين؛ فينبغي تشخيصُها فيما وراء الآفاق والأنفس، سبحان الله، كيف قرَّر الأكابرُ وجدانَ المطلوب في الأنفس، واعتقدوا خارج الأنفس مما لا حاصل فيه؟ قال واحدٌ منهم: (شعر)

لَا تَطُفْ فِي كُلِّ صَوْبٍ مِثْلَ أَعْـ ـمَى فَإِنَّ الْكُلَّ مَعَكَ فِي الْعَبَا

وقال الآخر: (شعر)

چون جلوۀ آن جمال بيرون زتو نيست پا در دامان و سر به جيب اندر كش

وقال الثّالث: (شعر)

فَلَوْ سَـعَـتْ ذَرَّةٌ فِي عُمْرِهَـا طَلَبـاً خَيْراً وَشَـرّاً تَرَى فِي نَفْسِـهَـا اكْتَمَنَا

قال صاحبُ «الفصوص»: التجلّي من الذات لا يكون إلا بصورة المتجلى له، وقال غيره من الأكابر: إنَّ أهلَ الله كلّما يرون بعد الفناء والبقاء يرونه في أنفسهم، وكلّما يعرفون يعرفونه في أنفسهم، وحيرتُهم في وجود أنفسهم، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وعند هذا الفقير الأنفسُ أيضًا كالآفاق مما لا حاصلَ فيه خاليةٌ عن وجدان المطلوب فيها، ولا نصيبَ منه لها، والذي في الآفاق والأنفس هو الاستدلالُ على المطلوب، والدلالةُ على المقصود، والوصولُ إلى المطلوب مربوطٌ بما وراء الآفاق والأنفس، ومنوطٌ بما سوى السلوك والجذبة، فإنَّ السلوكَ سيرٌ آفاقيٌّ، والجذبةَ سيرٌ أنفسيٌّ، فيكون السلوكُ والجذبةُ والسيرُ الآفاقيُّ والأنفسيُّ كلُّها داخلةً في السَّير إلى الله، وما قالوا: إنَّ السلوكَ والسيرَ الآفاقيَّ في السَّير إلى الله والجذبة، والسيرَ الأنفسيَّ في السَّير في الله، ماذا نصنع، ظهر لهم كذلك، وظهر لي هكذا، ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، وأين القدرةُ لمثلي المسكين الآكل من فضلتهم أن يتكلّم على خلاف مذاقهم؟ ولكن لما ترقَّت المعاملةُ من التقليد قال ما ناله، خالف القوم أو وافقهم، والتزامُ أبي يوسف بعد ترقِّيه من التقليد موافقةَ أبي حنيفة الذي هو أستاذه خطأٌ. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فإن قيل: إذا كان هذه الدَّرجاتُ الثلاثُ من اليقين داخلةً في علم اليقين، فما يكون عين اليقين عندك؟

قلت: إنَّ عينَ اليقين عبارةٌ عن تلك الحالة التي هي للدخان مع النار، فإذا انتهى المستدلُّ إلى منتهى درجة الدَّليل الذي هو الدخانُ؛ تحدث فيه أيضًا حالةٌ ثابتةٌ للدخان مع النار، وعند هذا الفقير هذه الحالةُ معبَّرٌ عنها بعين اليقين، فإنَّه فوقَ علم الاستدلال، ووراءَ الآفاق والأنفس، ولَمّا ارتفع حجابُ الاستدلال من البين الذي هو نهايةُ مرتبة العلم؛ خرج الأمرُ من العلم إلى الكشف بالضَّرورة، وانجرَّ من الغيب إلى الشُّهود والحضور، ينبغي أن يعلم أنَّ الشُّهودَ والحضورَ غيرُ الرؤية والإحساس، ألا ترى أنَّ شهودَ الشمس لضعيف البصر وقت انتشار شعاعها حاصلٌ بخلاف الرؤية، فإنَّها غيرُ متحقّقةٍ؟

تنبيهٌ: إنَّ للتحقّق بالدخان درجتين، وإنَّه شاملٌ لعلم اليقين وعين اليقين على التَّحقيق الذي ذكرناه، فإنَّه ما لم يطو جميع نقط الدخان في التحقّق به، ولم ينته إلى نقطته الأخيرة؛ فهو علمُ اليقين، فإنَّ كلَّ نقطةٍ بقيت حجابٌ مستلزمٌ للاستدلال، فإذا تحقّق بجميع النقط، وانتهى إلى النقطة الأخيرة؛ خرج من الاستدلال؛ لأنَّ الحجبَ قد ارتفعت بالتمام، وثبت له عينُ اليقين، كنفس الدخان. فافهم.

وماذا أكتب من حق اليقين؟ فإنَّ كمالَ تحقّقه مربوطٌ بالنشأة الأخرويَّة، فإن كان منه نصيبٌ في الدنيا؛ فهو مخصوصٌ بأخصِّ الخواصِّ الذي كان السَّيرُ الأنفسيُّ الذي له مشابهةٌ بحقِّ اليقين داخلاً عنده في علم اليقين، وكان الأنفسُ لديه في حكم الآفاق، وصار علمُهُ الحضوريُّ المتعلّقُ بالأنفس علماً حصوليّاً، وحصل له عينُ اليقين فيما وراء الآفاق والأنفس، وقليلٌ ما هم.

خاتمةٌ حسنةٌ في بيانِ الحسنِ والجمالِ المحمَّديَّينَ على صاحبهما الصَّلاة والسَّلام الذين هما متعلَّقُ محبَّة ربِّ العالمين، وأنَّه ﷺ كان بذلك الجمال محبوبَ ربِّ العالمين جلَّ شأنه.

اعلم أنَّ يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام وإن كان بالصَّباحة التي كانت فيه محبوبَ يعقوب عليه السلام، ولكن نبيَّنا خاتمُ الرسل عليه وعليهم الصلاة ....

والسلام بالملاحة التي هي فيه محبوبُ خالق الأرض والسّموات، وخلق الأرض والسماء والمكان والزمان بطفيليَّته ﷺ كما ورد.

ينبغي أن يعلم أنَّ الخلقَ المحمديَّ ليس كخلق سائر أفراد الإنسان، بل لا مناسبةَ له بخلق فردٍ من أفراد العالم، وهو ﷺ مع وجود النَّشأة العنصريَّة خلق من نور الحق جل وعلا، كما قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**خُلِقْتُ مِنْ نُورِ اللهِ**»، وهذه الدَّولة لم تتيسّرْ لغيره ﷺ، وبيانُ هذه الدَّقيقة: هو أنَّه قد مر فيما سبق أنَّ الصِّفاتِ الثمانيةَ الحقيقيَّةَ الواجبيَّةَ وإن كانت داخلةً في دائرة الوجوب، ولكن فيها بواسطة احتياجها إلى حضرة الذات رائحةُ الإمكان، فإذا كان في الصِّفات الحقيقيَّة القديمة مجالٌ لرائحة الإمكان يكون في الصِّفات الإضافيَّة الواجبيَّة ثبوتُ الإمكان بالطَّريق الأَوْلى، وعدمُ قِدَمها أوَّلُ دليلٍ على الإمكانيَّة فيها، وقد علم بالكشف الصَّريح أنَّ خلقتَهُ ﷺ ناشئةٌ من الإمكان الذي هو متعلّقٌ بالصِّفات الإضافية، لا الإمكانُ الذي هو كائنٌ في سائر أفراد العالم، وكلَّما يطالَعُ صحيفةُ ممكنات العالم بدقَّة النظر لا يشاهَدُ وجودُهُ ﷺ فيها، بل يكون منشأُ خلقته وإمكانه ﷺ في عالم الممكنات، بل يكون فوق هذا العالم، فلا جرم لا يكون له ظلٌّ، وأيضاً إنَّ ظلَّ كلِّ شخصٍ في عالم الشهادة ألطفُ من ذلك الشَّخص، فإذا لم يكن ألطف منه ﷺ في العالم؛ كيف يتصور له ظلٌّ؟

اسمع، إنَّ صفةَ العلم من الصِّفات الحقيقية، وداخلةٌ في دائرة الموجود الخارجيّ، فإذا عرضت لها الإضافةُ، وانقسمت بها على العلم الإجماليِّ والعلم التَّفصيليِّ مثلاً؛ تكون تلك الأقسامُ من الصِّفات الإضافية، وداخلةً في مرتبة نفس الأمر التي هي مقرُّ الصِّفات الإضافيَّة، ويشاهد أنَّ العلمَ الإجماليَّ الذي صار من الصِّفات الإضافيَّة نورٌ ظهر في النَّشأة العنصريَّة بعد الانصباب من الأصلاب إلى الأرحام المتكثرة بمقتضى حكم ومصالح بصورة الإنسان الذي هو على أحسن تقويمٍ، وصار مسمّىً بمحمد وأحمد.

ينبغي أن يستمع كمال الاستماع، إنَّ هذا القدرَ من الإجمال وإن جعل العلمَ المطلقَ مقيداً، وأخرجه من الحقيقة إلى الإضافة، ولكن لم تحصل منه زيادةٌ في المقسم أصلاً، ولم يقيِّدْه شيءٌ قطعاً، فإنَّ إجمالَ العلم نفسُ العلم، لا أنَّه أمرٌ زائدٌ منضمٌّ إلى العلم، بخلاف تفصيل العلم، فإنَّه يقتضي جزئياتٍ متكثرةً حتى يتصورَ التَّفصيلُ، والعجب من قيدٍ كان مظهراً للإطلاق، والعجبُ من مقيَّدٍ صار نفسَ المطلق، ينبغي أن يلاحظ مثلُ هذه اللطافة في مطلق العلم بالنِّسبة إلى الذات، فإنَّه يمكن أن يكون العلمُ نفسَ العالم ونفسَ المعلوم، كما أنَّه كائنٌ في العلم الحضوريِّ، بخلاف صفاتٍ أخر، فإنَّها ليست فيها هذه القابليَّةُ، فإنه لا يمكن أن يقال: إنَّ القدرةَ عينُ القادر وعين المقدور، والإرادةَ عينُ المريد وعينُ المراد، فللعلم اتِّحادٌ مع ذات العالم واضمحلالٌ فيه ليس ذلك لغيره، ينبغي أن يدرك من ههنا قربُ أحمد من الأحد، فإنَّ الواسطةَ بينهما صفةُ العلم التي له اتِّحادٌ بالمطلوب، فكيف يكون للحجابيَّة فيها مجالٌ؟

وأيضاً في العلم حسنٌ ذاتِيٌّ ليس هو لغيره من الصِّفات، ولهذا أحبُّ صفات الواجب عند الحق جلَّ وعلا بزعم هذا الفقير هو صفةُ العلم، وحيث إنَّ في حسنه شائبة اللاكيفيَّة؛ فالحسُّ قاصرٌ عن إدراكه، وإدراكُ ذاك الحسن على وجه التمام مربوطٌ ....

بالنشأة الأخرويَّة التي هي موطنُ الرؤية، فإذا رأوا اللهَ عز وجل يدركون جمالَ محمد ﷺ، وإن أعطي يوسفُ عليه السلام في هذه النشأة ثلثي الحسن، وقسم الثلث الباقي للكلّ، ولكنَّ الحسنَ في النَّشأة الأخرويَّة هو الحسنُ المحمديُّ، والجمالَ هو الجمالُ المحمديُّ عليه الصلاة والسلام، فإنَّه محبوبُ الحقِّ جلَّ سلطانه، وكيف يكون لحسن الآخرين مشاركةٌ بحسن صفة العلم، فإنَّ حسنَها بواسطة اتِّحادها بالمطلوب عينُ حسن المطلوب؟ ولما لم يكن هذا الاتحادُ لغيرها ليس فيه هذا الحسنُ، فالخلقةُ المحمديَّةُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام مع وجود الحدوث مستندةٌ إلى قِدَم الذات تعالت، وكانت أحكامُها أيضـًا منتهيةً إلى وجوب الذات، وكان حسنُه حسنَ الذات من حيث إنَّه ليس فيه شائبةٌ غيرَ الحسن، فلما كان كذلك صار متعلّق المحبّة الجميل المطلق، وكان محبوبَه، «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»(١).

فإن قيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿**يُحِبُّهُمْ**﴾ [المائدة: ٥٤] يدلُّ على أنَّ محبّةَ الحق سبحانه متعلّقٌ بغيره ﷺ أيضـًا، ويكون الآخرون أيضـًا محبوبيه سبحانه وتعالى، فما وجهُ تخصيصه ﷺ مع كونها موجودةً في غيره؟

قلت: المحبّةُ قسمان: قسمٌ يتعلّق بذات المحبِّ، وقسمٌ يتعلّق بغير ذاته، والقسمُ الأوّلُ محبّةٌ ذاتيّةٌ، وهي أعلى أقسام المحبّة، فإنَّه لا يحبُّ أحدٌ شيئـًا مثلَ حبِّه لنفسه، وأيضـًا هذا القسمُ من المحبّة أحكمُ وأوثقُ، فإنَّها لا تزول بعروضِ عارضٍ، وأيضـًا متعلّقُ هذا القسم محبوبٌ صرفٌ ليست فيه شائبةُ المحبيَّة، بخلاف القسم الثّاني، فإنَّها عرضيةٌ وقابلة للزوال، ومتعلّقُه وإن كان من وجهٍ محبوبـًا، ولكن فيه محبيَّةٌ أيضـًا من وجوهٍ متعددةٍ، وحيث كان حسنُ خاتم الرسل وجمالُه عليه الصلاة والسلام مستندين إلى حسن حضرة الذات تعالت وجمالها كما مرَّ؛ يكون القسمُ الأوّلُ الذي هو متعلّق بالذات متعلّقـًا به عليه وعلى آله الصلاة والسلام بالضَّرورة، ويكون ﷺ بتعلّق المحبّة كالذات محبوبـًا صرفـًا، ولما لم تكن هذه الدَّولةُ ميسَّرةً لغيره، وقلَّ نصيبُهم من الحسن الذاتِيّ يتعلّقُ بهم من المحبّة القسم الثّاني، ويجعلهم محبوبـًا من وجهٍ، والمحبوبُ المطلقُ هو النبيُّ ﷺ، فإنَّه كذات المحبِّ محبوبٌ دائمـًا، ويكون محسوسـًا أنَّ غلبةَ المحبّة التي هي في موسى للحقِّ سبحانه، وكان هو بتلك المحبّة رئيسَ المحبين مثلها في الحق سبحانه لحضرة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، وكلَّما يغوص هذا الفقيرُ في بحر هاتين المحبتين ليدرك التفاوُتَ بينهما قوَّةً وضعفـًا، ويجدَ المحبّةَ التي هي في الخالق أشدّ من محبّة المخلوق بحكم ألا إن حزب الله هم الغالبون لا يظهر التفاوتُ أصلاً، وكأنَّ هاتين المحبتين وزنت بميزان العدالة متساويتين، ولم يقع بينهما تفاوُتٌ بالزيادة والنقصان مقدارَ شعرةٍ.

فإن قيل: إنَّ الصوفيَّةَ العليّةَ حكموا بكون تمام أفراد العالم مظاهرَ الأسماء الإلهيّة ومجاليها، ووجدوا حقائقَ الأشياء عين تلك الأسماء، واعتقدوا أنَّ الأشياءَ ظلالُ الأسماء، فجعلوا تمامَ العالم ظهورَ الأسماء الإلهيّة، فما وجهُ تخصيص ظهور بعض الأسماء بخلقته ﷺ كما مرَّ؟

قلت: إنَّ حقائقَ الأشياء عند الصوفيَّة هي الأعيانُ الثَّابتةُ التي هي عبارةٌ عن الصور العلميَّة للأسماء الإلهيّة، لا الأسماءُ الإلهيّةُ أنفسها، وقالوا: إنَّ هذا العالمَ هو ظهورُ تلك الصور العلمية، وإن قالوا: إنَّه ظهورُ الأسماء أيضـًا على سبيل التجوّز، بل الصورةُ العلميةُ للشيء عندهم عينُ ذلك الشيء، لا شبحُ ذلك الشيء ومثالُه، وما قاله هذا الفقير في خلقته ﷺ ظهورُ نفس الاسم الإلهي جل..

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

شأنه، لا ظهورُ الصورة العلمية لذلك الاسم، شتان ما بين نفس الشيء وبين صورته العلمية، ألا ترى أنَّ النارَ إذا تصورت في الأذهان أين لها الإشراقُ والإضاءةُ؟ وقد كان كمالُ النار وجمالها هو الإشراقَ والإضاءةَ، وليس في صورتها العلمية غير شبحها ومثالها، قَبِلَه أرباب المعقول أو لا، بل قالوا: إنَّها عين النار، ولكنَّ كَشْفَنا الصريحَ مكذِّبٌ لقول من قال بالعينيَّة، وصورةُ النار العلميَّة ليست غيرَ شبح النار الموجودة في الخارج، ويكون محسوساً أنَّ كلَّما هو ظهورُ الصور العلميّة للأسماء إمكانُه ووجودُه من قبيل إمكان العالم ووجوده الذي تحقَّق له ثباتٌ وتقرُّرٌ بصنع الله تعالى في مرتبة الوهم، وما هو ظهورُ الاسم الإلهي كما مرَّ في خلقته ﷺ إمكانُه من قبيل إمكان الصِّفات الإضافيَّة، ووجودُهُ أيضاً مثلُ وجود تلك الصِّفات في نفس الأمر، ولا يقع النَّظرُ على أحدٍ يكون ظهوراً للاسم الإلهيِّ جلّ سلطانه غيرَ النبيِّ ﷺ إلا القرآنُ المجيدُ، فإنَّه أيضاً ظهورُ نفس اسمٍ إلهيٍّ كما ذكرتُ شمّةً منه فيما سبق.

غَايَةُ ما فِي البابِ: إنَّ منشأَ الظهور القرآنيِّ من الصِّفات الحقيقية، ومنشأَ الظهور المحمديِّ من الصِّفات الإضافيَّة، فبالضَّرورة قالوا لذلك: قديماً وغيرَ مخلوقٍ، ولهذا: حادثاً ومخلوقاً. ومعاملةُ الكعبة الربانيَّة أعجبُ من هذين الظهورين الاسميين، فإنَّ هناك ظهورَ معنى تنزيهيٍّ بلا كسوة الصور والأشكال، فإنَّ الكعبةَ التي هي مسجودٌ إليها لجميع الخلائق ليست بعبارةٍ عن الحجر والمدر، وليست هي أيضاً سقفاً وجدراً، فإنَّه لو لم تكن هذه فرضاً تكون الكعبةُ كعبةً باقيةً على حالها ومسجوداً إليها، فهناك ظهورٌ ولا صورةَ أصلاً، وهذا من أعجب العجائب.

اسمع اسمع، إنَّه وإن لم يكن لأحدٍ شركةٌ في هذه الدَّولة الخاصة المحمدية[1]، ولكن يدرك هذا القدر أنَّه قد بقيتْ بقيّةٌ من تلك الدَّولة، وهي الخاصَّة به بعد تخليقه وتكميله عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ، فإنَّ الزيادةَ والفضلةَ من لوازم خِوَان ضيافة الكرماء لتكون نصيباً للخَدَمة وحصّةً، فأعطيها واحدٌ من أمّته ﷺ، وجُعِلَتْ خميرَ طينته، وجعل بتبعيَّته ووراثته شريكَ دولته الخاصَّة به عليه وعلى آله الصلاة والسلام:

(ع) لَا عُسْـــرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

وهذه البقيّةُ كبقيَّة طينة آدم عليه السلام، حيث كانت نصيباً لخلقة النَّخلة، كما قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ بَقِيَّةِ طِينَةِ آدَمَ**»، بلى:

(ع) وَلِلْأَرْضِ مِنْ كَـأْسِ الْكِرَامِ نَصِـيـبُ

فإن قيل: قد جعل الشَّيخ محيي الدين ابن العربي وأتباعه الحقيقةَ المحمديَّةَ عبارةً عن حضرة إجمال العلم، وقالوا له تعيّناً أولاً وتجلّياً ذاتيّاً، واعتقدوا ما فوقه باللاتعيّن الذي هو حضرةُ الذات البحت، وأنت جعلته قسماً من العلم، وأدخلته في الصِّفات الإضافيَّة التي هي دون الصِّفات الحقيقيَّة، فما وجهُ ذلك؟

قلت: إنَّ الشَّيخ محيي الدين ابن العربي لا يقول بوجود موجودٍ في الخارج غيرَ أحديَّة الذات المجرَّدة، ولا يُثْبِتُ الوجودَ للصفات - ولو كانت حقيقيَّةً - في غير العلم، فيكون التعيّنُ الأوّلُ عنده بالضَّرورة علماً إجماليّاً، ويتصوَّر ثبوتُ الصِّفات بعده، فإنَّ ثبوتها فرعُ ثبوت العلم، فإنَّه لا يقول بثبوتها في غير العلم، فيكون العلمُ أسبقَ من الكلّ، وجامعاً لجميع الكمالات، والذي صار مكشوفاً لدى الفقير هو أنَّ الصِّفاتِ الحقيقيَّةَ الثمانيةَ كالذات موجودةٌ في الخارج، والتفاوتُ إنّما هو باعتبار المركزية وعدم المركزية كما مرَّ، وهذا القولُ موافقٌ لآراء علماء أهل السنَّة والجماعة شكر الله ....

(١) قوله: «في هذه الدولة الخاصة المحمدية... » إلخ الإشارةُ إلى ما سبق ذكره هنا، وهو كونُ خلقته ﷺ ظهور الاسم الإلهيِّ دون أن تكون ظهورَ صورة ذلك الاسم العلمية كخلقة من سواه، وليس المرادُ بها: النبوةَ والرسالةَ أو خاتميتهما كما زعم المعاندون، فإنَّها لا مدخل لها هنا، ولا خطرت ببال الإمام هنا قطعاً كما لا يخفى على المنصف. من المعرِّب.

سعيهم، حيث قالوا: إنَّ وجودَ الصِّفات زائدةٌ على وجود الذات، وعلى هذا التَّقدير لا معنى لجعل التعيّن الأوّل عبارةً عن العلم الإجماليِّ، بل لا مجال لإطلاق التعيّن أيضاً، وأسبقُ جميع الصِّفات صفةُ الحياة، وصفةُ العلم تابعةٌ لها، فتقديمُ العلم عليها غيرُ متصوَّرٍ، خصوصاً إذا انضمَّ قيدٌ إلى العلم، فإنَّه أَدْوَنُ من مطلق العلم، وداخلٌ في الإضافيَّة كما مرَّ. نعم، إذا قالوا للعلم الإجماليّ: إنَّه تعيّنٌ أولٌ للعلم؛ فله مساغٌ، ويكون تعيّنُه الثّاني علماً تفصيليّاً.

فإن قيل: إنَّ الشَّيخ محيي الدين قال للعلم الإجماليّ: إنَّه حقيقةٌ محمديَّةٌ، واعتقد هذه النشأةَ العنصريّة ظهورَه، فهل مرادُه من الظهور ظهور نفس الاسم كما قلت أنت، أو ظهور صورة ذلك الاسم كما هو في سائر الممكنات؟

قلت: مرادُه: ظهورُ صورة الاسم، فإنَّ التعيّنَ الأوّلَ عنده قدس سره تعيّنٌ علميٌّ، فإنَّه قال للتعيّنين الأوّلين: تعيّناً علمياً، وللتعيّنات الثلاثة الأخيرة: تعيّناً خارجياً، والتعيّنُ العلميُّ هو صورةُ شأن العلم الذي قال: إنَّه عينُ الذات في الخارج، وأثبت صورته في العلم، وتلك الصورةُ العلميَّةُ التي هي الحقيقةُ المحمديَّةُ ظهرت في النَّشأة العنصريَّة بصورةٍ إنسانيَّةٍ محمديَّةٍ. وبالجملة: إنَّ كلَّ مقامٍ فيه ظهورٌ؛ فهو ظهورُ الصورة العلمية عند الشَّيخ، وإن كانت صفاتُ الواجب جلَّ شأنه، فالصِّفاتُ لا وجود لها عنده في غير العلم، ولا موجودَ عنده في الخارج غير الذات البحت.

فإن قيل: في تلك المرتبة اتِّحادُ العلم والعالم والمعلوم، وحاصلُ ذلك هو العلمُ الحضوريُّ، فلا يكون لصورة الاسم هناك مجالٌ؛ لأنَّ حصولَ الصورة إنّما هو في العلم الحصوليِّ، والحاضرُ في العلم الحضوريِّ هو نفسُ المعلوم لا صورتُه.

قلت: إنَّ تلك المرتبة ليست هي مرتبة الذات البحت، ولهذا قال لها: تعيّناً وتنزلاً، فلا تكون موجودةً في الخارج، فإذا لم تكن موجودةً في الخارج لا بُدَّ لها من الثبوت العلميِّ، ولهذا قال لها: تعيّناً علمياً، ولا بُدَّ للثبوت العلميِّ من صورة المعلوم، فلزم من هذا البيان أنَّ في العلم الحضوريِّ أيضاً صورةً للمعلوم مع وجود حضور نفس المعلوم، وأنَّ الحاضرَ ليس هو المعلوم الخالص، بل تطرَّق إليه الاعتبارُ، وأخرجه من النَّفس إلى الصورة، ولا يدرك فهم كلِّ أحدٍ هذه الدقَّة، ومن لم يصل إلى الذات البحت بوصولٍ لا كيفيٍّ لا يدرك هذه الدقيقةَ، سبحان الله، أيّ قدرةٍ واستطاعةٍ لمثلي الفقير العاجز المتأخر أن يتكلّم بمعارف أكابر الأنبياء أولي العزم بعد ألف سنةٍ من بعثة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، ويبين دقائق كمالات المبدأ في شفير المعاد؟ (شعر)

وَلَكِنْ سَيِّدِي أَعْلَى مَقَامِي ... فَحُقَّتْ لِي مُبَاهَاتِي الْهِلَالَ

كَأَنِّي تُرْبَةٌ فِيهَا سَحَابُ الـ ... رَّبِيعِ مُمْطِرٌ مَاءً زُلَالَا

فَلَوْ لِي أَلْفُ أَلْسِنَةٍ وَأُثْنِي ... بِهَا مَا ازْدَدْتُ إِلَّا انْفِعَالَا

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقد كان في خاطري أن أكتب شمَّة من بيان الصباحة والملاحة الواردتين في الحديث النبوي: «**أَخِي يُوسُفُ أَصْبَحُ، وَأَنَا أَمْلَحُ**»، وأن أتكلّم في هذا الباب بالرمز والإشارة، ولكن رأيت أنَّ الرمزَ والإشارة قاصرٌ في أداء المقصود، والمستمعون عاجزون عن فهمه، ومقطعاتُ الحروف القرآنية كلُّها رموزٌ وإشاراتٌ إلى حقائق الأحوال، ودقائق الأسرار الكائنة بين المحبّ والمحبوب،...

ولكن من الذي يدركها ويفهمها؟ والعلماء الراسخون الذين حكمهم حكمُ خُدَّام حبيب رب العالمين وغلمانه وإن كان لهم اطِّلاعٌ عليها لِمَا أنَّه يجوز أن يكون للخدام اطلاعٌ على بعض أسرار مخاديمهم الخفية، بل يجوز أن تكون بين الخادم والمخدوم معاملةٌ بطريق تبعيته للمخدوم، وأن يكون الخادمُ شريكـًا له في دولته الخاصَّة به بتطفُّله، ولكنَّهم لو أظهروا شمَّةً من هذا البيان يكونون خونةً، ومهلكين أنفسهم، ويصدق في حقهم قطعُ البلعوم الذي قاله أبو هريرة ﷺ ﴿يَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء: ١٣] نقدُ الوقت. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله وأصحابه البررة التقى.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالمِائَة

إلى الشَّيخ عَبد اللهِ في المَنع مِن تَفسيرِ آياتِ القرآنِ وتَأويلها على طِبقِ مَذاقِ الفَلاسفَة.

سلمكم الله سبحانه وعافاكم عن البليات، قد أرسلتَ كتاب «تبصرة الرحمن» الذي كنتم أرسلتموه، وقد طالعتُ بعض مواضعها، فوجدت أنَّ لمصنفه ميلاً عظيماً إلى مذهب الفلاسفة، بحيث يكاد يجعل الحكماءَ مساوين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووقع النَّظَر على آيةٍ في سورة هود قد فسَّرها على طرز الحكماء خلاف طور الأنبياء، وسوَّى بين قول الحكماء والأنبياء عليهم السلام، وقال في بيان معنى هذه الآية: ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ﴾ [هود: ١٦] باتِّفاق الأنبياء والحكماء، ﴿إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦] الحسيُّ أو العقليُّ.. إلخ، وأين المجالُ لاتفاق الحكماء مع وجود إجماع الأنبياء؟ وأيُّ اعتبارٍ في قولهم في العذاب الأخرويِّ خصوصـًا إذا كان مخالفـًا لقول الأنبياء عليهم السلام؟ ومقصودُ الفلاسفة من إثبات العذاب العقليِّ هو رفعُ العذاب الحسيِّ الذي وقع إجماعُ الأنبياء على ثبوته، وبيَّن الآيات القرآنية موافقـًا لمذاق الحكماء في مواضعَ أُخَرَ أيضـًا، وإن لم يكن مخالفـًا للمذهب المبيّن؛ فمطالعةُ هذا الكتاب لا يخلو عن مضراتٍ خفيةٍ، بل جليّةٍ. واعتقدنا إظهارَ هذا المعنى لازمـًا، وكتبنا في ذلك كلماتٍ وإن كانت تصديعـًا. والسلام.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالمِائَة

إلى جَنابِ المِير محمَّد نُعمانَ في التَّرغيبِ في المُجاهَداتِ والانزواءِ، وتَربيَة طَالِبي الحقِّ جلَّ وعَلا.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ أحوالَ هذه الحدود وأوضاعَها مستوجبةٌ للحمد، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ دائمـًا وعلى كلِّ حالٍ، ولم أطَّلع على أحوالكم من مدة مديدةٍ، والمرجوُّ أنَّكم قلبتم ذلك الورقَ، وبدَّلتم الكسلَ بالعمل، وتوجّهتم من الفراغ إلى المجاهدة، فإنَّ الوقتَ وقتُ العمل والاشتغال، لا موسمُ الأكل والمنام، ينبغي إعدادُ نصف الليل للنوم، والنصف الآخر للطاعة والعبادة، فإن لم يكن قدرةُ اختيارِ هذه الهمة؛ ينبغي أن يلتزم ثلث الليل من النصف إلى السدس، ينبغي أن يسعى؛ لئلا يقع فتورٌ في دوام هذه الدَّولة، وينبغي أن يختلط بالناس، وأن ينبسط إليهم مقدار ما تؤدَّى به حقوقُهم، الضَّرورةُ تقدَّرُ بقدرها، والانبساط إلى الخلائق زيادة على قدر الحاجة من الفضول، وداخلٌ فيما لا يعني، وربما يتفرَّع عليه مضراتٌ كثيرةٌ، ويصير داخلاً في محظورات الشَّريعة والطَّريقة، والشَّيخُ الذي يفرِّطُ في الانبساط إلى المريدين يخرجهم من الإرادة بالضَّرورة، ويوقع الفتورَ في طلبهم عياذاً ....

بالله سبحانه من ذلك، ينبغي أن يدرك قبحَ هذا المعنى، وأن يسلك بالطالبين على وجهٍ يكون سبباً لأنسهم وألفتهم، لا موجباً لنكرتهم ونفرتهم، والانزواءُ من الخلائق ضروريٌّ، فإنَّ الاختلاطَ والائتلافَ معهم بلا داعٍ ولا حاجةٍ سمٌّ قاتلٌ، وهذا المعنى ميسَّرٌ لكم بتوفيق الله تعالى بالسهولة، وماذا يصنع أرباب الابتلاء، فإنَّهم مشغولون مع أرباب التفرقة دائماً، ينبغي لكم أن تعرفوا قدرَ هذه النعمة والعمل بمقتضاها، وعليكم بكمال الاستخبار عن حال الطالبين، وبالتوجّه إلى تربيتهم ظاهراً وباطناً، وما أكتب أزيد من ذلك؟

المَكْتُوبُ الثَّالِثُ وَالمِائَةُ

إلى الشَّيخِ حَميدِ الأحمَديِّ في التَّرهيبِ عن قُصورِ الأحوالِ، والتَّرغيبِ في حُصولِ التَّكميلِ والكَمالِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد سرَّ مكتوبُ أخي الأعز الشَّيخ حميد بوصوله، ما أعظم نعمةَ حصولِ الرغبة في جناب قدس الحق جل سلطانه، والبرودةِ عما سواه تعالى لجماعةٍ في صحبة شخصٍ في مثل هذا الزمان المملوء من الفتن، ومع ذلك لا يغترُّ ذلك الأخ بهذه الدَّولة، ولا يكون فارغاً عن شغله، (هنوز دهلي دور است) مثلٌ مشهورٌ، يعني: الدهلي بعيد بعد، ولا يعلم هل تمَّ واحدٌ من المائة أم لا، وهذه الأحوالُ التي تحصل للطَّالبين في الابتداء وتُورثُهم ذوقاً ولذَّةً من قبيل تمرين الأطفال بتعليم ألف وبا، والأمرُ أن يجاوزَ التهجِّي، والوصول إلى مرتبة المولوية، والترقِّي من الأذواق والالتذاذات، والدخول إلى الولاية الخاصَّة: (شعر)

وَذَا إِيـوَانُ الِاسْـتِـعْـلَاءِ عَـالٍ   فَـإِيَّـاكُـمْ وَأَخْـطَـارَ الْـوِصَـالِ

وعليكم بتعمير الأوقات والتحلي بالشَّريعة والطَّريقة ظاهراً وباطناً، واعلم أنَّ تكميلَ الغير فرعُ كمال الإنسان نفسه، وهو درجةُ الولاية الخاصَّة، ولكن إذا ظهر في الصُّحبة رشدٌ في الطالبين، وحصلت لهم أحوالٌ ومواجيدُ؛ فهي أيضاً غنيمةٌ، وإن لم يبلغوا حدَّ الفناء والبقاء، وحكمُها في هذا الوقت حكمُ الكبريت الأحمر إن فعل ذلك أيضاً، ولكنَّ تعليمَ الطَّريقة أيّاً من كان بعد الاستخارات والتوجّهات مناسبٌ، بل لازمٌ، وينبغي أن تكونوا على خوفٍ وخشيةٍ من هذا العمل حذراً من تسلُّط الشيطان من هذه الجهة، أعاذنا الله سبحانه من شره. فإن أتممتم العددَ الذي أمرتكم به؛ اشتغلوا بضِعْفِه، ثم أخبروني بعد ذلك حتى يصدر الإعلامُ بما يناسب الحال، وسلموا منا على الأصحاب عندكم. ووصلت أيضاً الصحيفةُ الشَّريفةُ التي كتبها السيدُ يحيى، حمداً لله سبحانه على كون قلوب الناس منجذبةً إلى حضرة الحق سبحانه وتعالى، وكونهم والهين مشتاقين إلى ذلك الجناب الأقدس جلَّ سلطانه في مثل هذا الوقت الذي له كمالُ القرب من القيامة، وقد ورد في الخبر: «**وَتَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَشْرَارِ النَّاسِ**»(١)، والتوقُّعُ من الأحبَّة الدُّعاءُ على ظهر الغيب بسلامة الخاتمة. ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]. والسلامُ أولاً وآخراً.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالمِائَةُ

إلى الحضَراتِ ذَوي البَركاتِ حَضرةِ المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد سعيد، وحَضرةِ المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد مَعصومٍ في بشارَتِهما بالوُصولِ إلى بَعضِ المَراتِبِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. لم يكتب الأولادُ الكرامُ منذ مدَّةٍ شيئاً من أحوالهم...

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٣٥٩) وصححه ووافقه الذهبي من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً.

الظَّاهرة والباطنة، ولعلَّ ذلك بسبب طروِّ النِّسيان والذُّهول عن حال المهجورين بواسطة تمادي أيام المفارقة، ولنا أيضـًا أرحم الراحمين، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] مورثُ التسلي للغرباء المحرومين، والعجبُ أنَّ الخاطر متوجّهٌ إلى أحوالكم دائمـًا مع عدم التفاتكم هذا كلّه ومريدٌ لكمالكم، وقد كنت أمس عقدت مجلس السلوك بعد صلاة الصبح، فظهر أنَّ الخلعةَ التي كانت لي انفصلت عني، وتوجّهت إلى خلعةٍ أخرى مكانها، فوقع في الخاطر أنَّ هذا الخلعةَ الزائلةَ هل يعطاها شخصٌ أم لا، وكنت أتمنى أنَّها أعطيها ولدي الأرشدُ محمد معصوم، فرأيتُ بعد لمحة أنَّ ولدي قد أعطيها، وألبسها بالتمام، وكانت تلك الخلعةُ الزائلةُ كنايةً عن معاملة القيوميَّة التي تتعلّق بالتربية والتكميل، وكانت هي الباعثةَ على ارتباط هذه العرصة المجتمعة، فإذا انتهت معاملةُ هذه الخلعة الجديدة إلى آخرها، وصارت مستحقَّةً للخلع؛ نرجو من كمال الكرم أن يعطيها ولدي الأعز محمد سعيد، وهذا الفقيرُ يسأل ذلك بالتضرّع على الدوام، ويفهم أثرَ الإجابة، ويجد ولدي مستحقـًا لهذه الدَّولة:

(ع) لَا عُسْـــرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

والاستعداد أيضـًا من عطائه سبحانه وتعالى: (شعر)

مَـا جِـئْـتُ مِـنْ بَـيْـتِـي بِشَــيْءٍ أَولاً وَمَـنَـحْـتَـنِـي مَـا بِـي وَإِنِّـي بَـعْـضُ ذَا

قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، واعلموا أنَّ الشكرَ عبارةٌ عن صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه من الجوارح والقوى الظَّاهريَّة والباطنيَّة إلى ما خلقها الله وأعطاه لأجله، لولاه لما حصل الشُّكْرُ، والله الموفقُ، ومثلُ هذه العلوم من الأسرار الخفية، وإن قلناه جهاراً، ولكنه لازمُ الإخفاء لئلا يفتتن الناسُ، ثم إنَّ ذاك المشكلَ الذي كان في من أنَّ تلك المعاملةَ لعلَّها في عالم المثال قد انحلَّ في هذه الأيّام، ولم يبقَ فيه خفاءٌ أصلاً، ولعل لروحانية الخواجه معين الدين أيضـًا مدخلاً في هذا المعنى، ولعلَّ ذلك المشكلَ باقٍ في خاطر محمد معصوم.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالمِائَةُ

إلى الشَّيخ حسنٍ البَرْكِيِّ في جَوابِ كِتابِه الذي كَتَبَه لبَيانِ أحوَالِه، وفي الحَثِّ على إحياءِ السُّنَّة، والتَّحذيرِ عن ارتِكابِ البِدعَة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد سرت صحيفةُ أخي الأعز الشَّيخ حسن أحسن الله حاله بوصولها، وقد اندرج فيها من العلوم والمعارف، فزادت مطالعتُها فرحـًا على فرحٍ، حمداً لله سبحانه كلّه علومٌ صحيحةٌ، ومعارفُ صادقةٌ مطابقةٌ للكتاب والسنة، موافقةٌ لاعتقاد الفرقة النَّاجية، رزق الله سبحانه الاستقامةَ، وأوصل إلى منتهى المقاصد العليّة، وكتبتَ من رفع البدع شمّةً، يا لها من نعمةٍ عظيمةٍ لو وُفِّقَ شخصٌ لرفع بدعةٍ من البدع في مثل هذا الوقت الذي تراكمت فيه ظلمات البدعة، وأحيى سنَّةً من السنن، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة: «**مَنْ أَحْيَى سُنَّةً مَيِّتَةً؛ فَلَهُ ثَوَابُ مِائَةِ شَهِيدٍ**»، فليعلم درجةُ هذا العمل من ههنا، ولكن ينبغي أن يراعى دقيقة، وهي أن لا ينجرَّ الأمرُ إلى إيقاظ الفتنة، وأن لا تكون الحسنةُ الواحدةُ باعثةً على سيئاتٍ كثيرةٍ، فإنَّ الزمانَ آخرُ الأزمان، وأوانُ ضعف الإسلام والإيمان، وحصل الأفراحُ والمسراتُ أيضـًا من مطالعة الرسالة التي أرسلتها، الحمدُ لله سبحانه الموافقةُ في العلوم لهذا الفقير كثيرةٌ، وفي الكشف مطابقةٌ، والأنظارُ أيضـًا عاليةٌ، وقد كنت فوَّضت كتابك..........................

الذي كان متضمناً للأحوال والعلوم والاستفسارات إلى أخي محمد هاشم الكشمي ليحضره وقت تحرير الجواب، فأضاعه اتفاقاً، ولهذا وقع التوقفُ في تفصيل الأجوبة، وما بقي منها في الخاطر كتبت جوابه، ومجملها أنَّها أحوالٌ مستحسنةٌ وعلومٌ صحيحةٌ. ثم إنَّه ينبغي لكم السعيُ البليغُ في تربية أولاد المرحوم المغفور له مولانا أحمد وتعليمهم، ورعاية الهداية بالآداب الظَّاهرية والباطنيَّة، وعليكم بدلالة سائر الأصحاب الفقراء، بل جميع أهل الإسلام الكائنين في تلك البقعة على الشَّريعة والتزام السنة وتهديدهم وتحذيرهم عن ارتكاب البدعة، والله سبحانه الموفقُ.

وقد أرسل إليكم الخواجه محمد هاشم نقول: بعض مكاتيب الجلد الثّالث نفعكم الله بها، وأوقاتُ الفقير مختلفةٌ، فأحياناً تظهر الرغبةُ في تسويد العلوم والمعارف بلا اختيارٍ، وفي بعض الأوقات تظهر النفرةُ من الكتابة مع إفاضة الأسرار الغريبة بحيث لا يستطاب أخذُ القلم باليد، فبناءً على ذلك يقع الفتورُ في تفصيل جواب كتبكم التي وصلت، ولا أقدر أن أكتب شيئاً بالتكلّف، وبقيةُ الأحوال مستوجبةٌ للحمد، وقد تيسّر التخلصُ بعناية الله سبحانه من رفاقة العسكر، أدام الله لنا الاستقامة ولجميع الأصحاب الكائنين هناك دعواتٌ مخصوصةٌ، والسلام.

المَكتُوبُ السَّادِسُ وَالمِائَةُ

إلى حضَراتِ المَخاديمِ سلَّمهُم الله سُبحانَه في بيانِ واقِعتِه التي رَأى فيها النَّبيَّ ﷺ، ونالَ منه البشاراتِ العُليا.

قد وصلت الصحيفةُ الشَّريفةُ من أولادي الكرام حمداً لله سبحانه على ما كانوا على الصحة والعافية، وأكتب المعاملةَ التي ظهرت اليوم جديدةً، ينبغي استماعها بكمال الإصغاء، كنت البارحةَ التي هي ليلة السبت ذهبت إلى مجلس السلطان، فلما رجعت منه بعد مضيِّ مقدار ثلاث ساعاتٍ من الليل، وسمعت من الحافظ ثلاثةَ أجزاءٍ من القرآن، ومضى من الليل أزيدُ من ست ساعاتٍ تيسّر النومُ، وحيث كان بي تعبُ الليل نمتُ بعد حلقة الصبح، فرأيتُ النبي ﷺ قد كتب الإجازةَ للفقير كما هو عادةُ المشائخ من كتابة الإجازة للخلفاء، وواحدٌ من أصحابي المخلصين متَّصدٍ لهذه المعاملة، فظهر في تلك الأثناء أنَّ في إمضاء الإجازة نحواً من الفتور، ووجهُ الفتور أيضاً معلومٌ في ذلك الوقت، فحمل الذي هو متصدٍ لهذه الخدمة من أصحابي تلك الإجازة إلى ملازمته ﷺ مرةً ثانيةً، وكتب النبي ﷺ على ظهرها إجازةً أخرى، أو أمر الغيرَ بكتابتها، لم أقدر على تشخيص ذلك، ولكنه بالنِّسبة إليه ﷺ معلومٌ، وبعد الكتابة زيَّنها بختمه عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ، ومضمونُ تلك الإجازة هو أنَّه قد أعطيت إجازةَ الآخرة عوضاً عن إجازة الدنيا، وأعطيت نصيباً من مقام الشفاعة، والكاغدُ أيضاً طولانيٌّ، وكتب فيه سطورٌ كثيرةٌ، وأنا أسأل من المتصدِّي لتلك الخدمة، أنَّ أيّاً منهما الأولى وأيّاً منهما الثّانية، وأنا أجدني في ذلك الوقت في محلٍّ واحدٍ مع النبي ﷺ، وأعاشره كالولد مع الوالد، وليس حضورُه وحضورُ أهل بيته غريباً لي، وأنا أخذت ذلك الكاغد بيدي، ولففته، وكنت داخلاً في حرمه الشَّريف كالأولاد المحاريم، وتأمرني أمهات المؤمنين في حضوره ﷺ ببعض الخدمات بالاهتمام التامِّ، وتقول: كنت منتظرةً لك ينبغي ....

أن تفعل كذا وكذا، فعرضت الإفاقةُ في تلك الأثناء، وارتفع من الخاطر وجهُ ذلك الفتور، وبالقدر اليسير من فتح العين زالت خصوصياتُ تلك الواقعة من الخاطر معاينةً، ولعله بقي في خاطركم أنّي قد كنت ذكرت كلاماً في هذا الباب أكثر من ذلك من أنَّ العجبَ أنَّ هذه النِّسبة العليا لا تظهر على مقدارها، وكان يخطر في الخاطر أنَّ ظهورها لعلَّه يكون ذخيرةً لأجل الآخرة ويتيسّر، نِعْمَ البدلُ، فحصل من هذه الواقعة التشفي من تلك الترددات، الوقتُ وقتُ قرب القيامة، ووقتُ تراكم الظلمات، فأيُّ خيريَّةٍ فيه وأيُّ نورانيَّةٍ إلا أن يروِّجها الحضرةُ المهديُّ عليه الرضوان مؤيداً بالخلافة الظَّاهرية، وقد أمرت اليوم شكراً للنعمة بطبخ أطعمةٍ متنوعةٍ لروحانيَّته ﷺ، وأن يعقدوا مجلسَ السُّرور، ولعلَّ رافعي الكتب أيضاً يأكلون من تلك الأطعمة، ثم إنِّي قد كنت كتبت في مكتوبٍ في بيان واقعة ظهرت أنَّه لم يقبل واحدٌ من الأصحاب معكما لملازمة السلطان، ثم ظهر بعد زمانٍ أنَّه قد قَبِلَ هو أيضاً بمحض الكرم، وظهر آثارُ القبول، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ على ذلك وعلى جميع النعماء. وفي هذه الأيَّام تظهر معارفُ غريبةٌ وعلومٌ عجيبةٌ، وكأنَّ ذلك الورقَ صار مرقوماً، وظهرت المعاملةُ للآخر الأولاد بعيدون، ومعاملةُ العمر قريبةٌ، وإلى ما ينجرُّ الأمرُ، ونصبر قائلين: الخير فيما صنع الله. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب السابع والمائة

إلى الخواجه محمَّد أشرَف في بيانِ سَببِ وُقوعِ الفُتورِ في نِسبَة الرَّابطَة والالتِذاذ بالطَّاعَة.

بعد الحمد لله والصلاة وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّه قد وصلت صحيفةُ أخي الأعزِّ، حمداً لله سبحانه على ما كانوا على الصحة والعافية، وقد سألتم: أنَّه ما السببُ في أنَّه إذا طرأ الفتورُ في نسبة الرابطة لا يوجد الالتذاذُ بسائر الطاعات؟

اعلموا أنَّ الوجهَ الذي صار سبباً لفتور نسبة الرابطة مانعٌ عن الالتذاذ بالطاعات، وسببُ الفتور أحياناً يكون قبضاً، وأحياناً كدورة طارئة بواسطة ارتكاب زلاتٍ، وإن كانت قليلةً، والوجهُ الأوّلُ ليس بمذمومٍ، بل هو من لوازم سلوك الطَّريقة، وينبغي تداركُ عروض الوجه الثّاني بالتوبة والاستغفار إلى أن يرتفع أثرُه بكرم الله سبحانه، وحيث إنَّ التَّمييزَ بين القبض والكدورة يستدعي دقَّةَ النظر؛ فالتوبةُ نافعةٌ على كلِّ حالٍ، أدام الله سبحانه استقامتكم. والسلام.

المكتوب الثامن والمائة

إلى المُلَّا طاهرِ الخادمِ في بيانِ المُعامَلاتِ المُتعلِّقة بأصلِ الأصلِ، وهذه المَعرفَة منقولَة بالمَعنَى.

إنَّ المعاملةَ التي تتعلّقُ بأصل الأصل على نوعين: نوعٌ يمكن معرفتها بصورةٍ مثاليةٍ أو بأمرٍ آخرَ، وهذه المعاملةُ مؤقتةٌ بوقت كون السَّير في مقاماتٍ لها مناسبةٌ أو مشاكلةٌ بالعالم ولو بالوجه والاسم، وذلك إلى نهاية مقام الرضا، فإذا تيسّر السَّيرُ لشخصٍ فوق مقام الرضا؛ لا يكون له شيءٌ معلوماً لا بصورةٍ مثاليةٍ ولا بأمرٍ آخرَ، فحينئذٍ يكون لذلك العارف علمٌ بمحض حصول مقاماتٍ فوقانيةٍ من غير أن يكون له شيءٌ منها معلوماً، حتى إنَّ اسمَ النبوَّة والرسالة وأمثالهما أيضاً مفقودةٌ في هذه المقامات، وأظنُّ أنَّ الحقَّ سبحانه سيعطي في دار الخلد علمَ تلك المقامات، ونهايةُ هذا.........................

السَّير إلى مرتبةٍ مخصوصةٍ لا تخفى على أربابها. والسلام.

المكتوب التاسع والمائة

إلى حَضرَة المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّد مَعصوم سَلَّمَه اللهُ سُبحانَه في بيانِ أنَّ إيجادَ العالَمِ في مَرتَبة الوَهمِ، ولكنَّه بواسِطة الاستِقرارِ وتعلُّقِ الإيجادِ به صار مَنسوباً إلى نَفسِ الأمرِ، وهذه المَرتَبة وَرَاء مَرتَبةِ العِلمِ والخارِجِ، وبيانِ أنَّ الوَحدَة والكَثرَة كِلتَيهما في نَفسِ الأمرِ، وتَحقيقِ أنَّ فَناءَ السَّالكِ مع وُجودِ الثَّباتِ والاستِقرارِ بأيِّ مَعنىً يَكونُ.

وهذا المَكتوبُ بَقيَ غيرَ تامٍّ بواسِطة حَوادثِ الأيَّام.

اعلم أنَّ مرتبةَ الوهم عبارةٌ عن مرتبةٍ يكون فيها ظهورٌ بلا وجودٍ، كما أنَّ صورةَ زيد مثلاً إذا كانت متوهمةً في المرآة؛ فهناك ظهورٌ بلا وجودٍ؛ لأنَّه لا صورةَ في المرآة أصلاً، وليس لها ثبوتٌ فيها غيرَ الظهور الوهميِّ، وقد لاح بالكشف الصَّحيح والشُّهود الصَّادق أنَّ الحقَّ سبحانه خلق العالمَ من كمال اقتداره في تلك المرتبة، وأعطاه بصنعه الكامل ظهوراً محضاً، وإن كان في تلك المرتبة ظهوراً بلا كونٍ ووجودٍ، ولكن لَمّا صار العالمُ مخلوقاً في تلك المرتبة كان ظهوراً مع وجودٍ، فإنَّ إيجادَه تعالى يكون مثبتاً وموجداً، ولما كان ظهوراً مع وجودٍ؛ كان في مرتبة نفس الأمر، وترتَّبت عليه أحكامٌ وآثارٌ صادقة، ومرتبة الوهم هذه وراء مرتبة العلم والخارج، ومشابهتُها ومناسبتُها بمرتبة الخارج أزيدُ من مناسبة مرتبة العلم بها، وثبوتُها شبيهٌ بثبوتٍ خارجيٍّ، بخلاف الثبوت العلميِّ الذي يقال له: وجوداً ذهنياً، فإنَّه في الطرف المقابل للوجود الخارجيِّ.

والظهورُ الذي هو في مرتبة الوهم له أيضاً شبهٌ تامٌّ بالظهور الخارجيِّ، بخلاف مرتبة العلم، فإنَّ هناك بطوناً وكموناً، وكأنَّه وقع في مرتبة الوهم ظلٌّ من مرتبة الخارج، فأوجد العالمَ فيها بظلِّ الخارج، فلا يكون في نفس الخارج موجودٌ غيرَ الذات الأحديَّة، ويكون العالمُ مع هذا التعدُّد والتكثُّر موجوداً في ظلِّ الخارج بإيجاد الله تعالى بوجودٍ ظليٍّ، وفي خارج نفس الأمر وحدةٌ، وفي ظلِّ خارج نفس الأمر كثرةٌ، كما أنَّ المطابقَ لنفس الأمر في العلم أيضاً كثرةٌ، فتكون الوحدةُ والكثرةُ كلتاهما في نفس الأمر، ويكون لكلٍّ منهما اعتبارٌ على حدةٍ، ولا محذورَ فيه، كما أنَّ هذا الخارجَ والوجودَ للعالم ظليان كذلك سائر صفاته من الحياة والعلم والقدرة وغيرها أيضاً ظلال صفات الواجب جل سلطانه، بل النَّفسُ الأمرُ الذي يثبت في إثبات العالم أيضاً ظلُّ نفس الأمر الكائن في مرتبة الخارج: (شعر)

مَـا جِئْـتُ مِـنْ بَيْتِـي بِشَـيْءٍ أَوَّلاً   وَمَنَحْتَنِي مَـا بِـي وَإِنِّي بَعْـضُ ذَا

قال الله تعالى وتقدس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥].

فإن قيل: إنَّك كتبت في رسائلك: أنَّ ما في الظلِّ كلَّه من الأصل، وليس في يد الظلِّ شيءٌ غير حمل أمانات الأصل، فإذا ردَّ السَّالك المستعد جميعَ ما في يده من الخير والكمال والوجود وتوابع الوجود بحكم الظليَّة إلى أصله، ووجد نفسه خالياً من جميع الكمالات؛ يصير متحقّقاً بالفناء والاضمحلال بالضَّرورة، ولا يبقى منه اسمٌ ولا رسمٌ، فما حاصلُ هذا الكلام؟ وما معنى ردِّ الكمالات إلى الأصل؟ وبأيِّ اعتبارٍ يكون فناءُ السَّالك واضمحلالُه مع وجود ثباته واستقراره؟

قلت: إنَّ هذا الفناءَ يشبه حالَ شخصٍ لبس أثواب العارية، ويعلم أنَّها ليس له، بل لغيره، وإنَّما لبسها بطريق العارية، فإذا غلبت هذه الرؤيةُ واستولت استيلاءً تاماً يمكن أن يعطي تلك الأثواب مع وجود التلبس بها لصاحبها، ....

ويجد نفسه عرياناً حتى ينفعل ويستحيي من جلسائه بسبب عريِّه من الثياب، ويجرَّ نفسه إلى زاويةٍ، وحيث إنَّ السَّالكَ صار مخلوقاً في مرتبة التوهُّم والتخيُّل يكفيه الفناءُ التخيليُّ أيضاً، فإنَّ استيلاءَ هذا التخيُّل يوصله إلى اليقين القلبيِّ، ويجعله ذوقياً وجدانياً، فيوجد ما هو المقصودُ من الفناء والاضمحلال؛ لأنَّ المقصودَ من الفناء زوالُ التعلّق بالظلِّ، وحصولُ التعلّق بالأصل، ولما صار رجوعُ الظلِّ إلى الأصل يقيناً وذوقيّاً ووجدانيّاً؛ زال التعلّقُ بالظلِّ بالضَّرورة، وجاء مكانه التعلّقُ بالأصل، فلو لم يحصل هذا التخيُّلُ لما تيسّرَت دولةُ زوال التعلّق بالظلِّ، بل مدارُ سلوك هذا الطَّريق على التوهُّم والتخيُّل، والأحوالُ والمواجيدُ التي هي المعاني الجزئيَّةُ في هذا الطَّريق إنّما تدرك بالوهم، والتجلّياتُ والتلويناتُ إنّما تشاهد للسالكين في مرآة الخيال، فلولا الوهمُ لقصر الفهمُ، ولولا الخيالُ لاستتر الحالُ، لم يوجد في هذا الطَّريق شيءٌ أنفعُ من الوهم والخيال، وجاء أكثرُ إدراكهما وانكشافهما مطابقاً للواقع، والذي يقطع مسافة خمسين ألف سنة كائنةً بين العبد والرب في مدةٍ قليلةٍ بكرم الله تعالى، ويوصل العبد إلى درجاتٍ عاليةٍ هو الوهمُ، والذي يجعل دقائقَ غيب الغيب، وأسراره منكشفة في مرآته، ويطلع السَّالك المستعدّ عليها هو الخيالُ، ومن شرافة الوهم اختار الحقُّ سبحانه خلق العالم في تلك المرتبة، وجعلها محلاً لظهور كمالاته، ومن جلالة الخيال جعله الله أنموذجاً لعالم المثال الذي هو أوسعُ جميع العوالم حتى قالوا بوجود صورةٍ فيه لمرتبة الوجود أيضاً، وحكموا بأنَّ اللهَ سبحانه ليس له مثلٌ، ولكن له مثالٌ، ولله المثل الأعلى، والذي يحسُّه العارفُ في مرآة خياله ويترقّى بذوق وجدانه هو صورُ الأحكام الوجوبيَّة.

فإن قيل: قد اتَّضح من التَّحقيق السَّابق أنَّ الفناءَ باعتبار التخيُّل وإن كان موصلاً إلى يقينٍ قلبيٍّ، وجعله ذوقيّاً ووجدانيّاً، وترتَّبت عليه أحكامٌ صادقةٌ لا باعتبار التحقّق، وأنت بنفسك كتبت في بعض رسائلك أنَّ هذا الفناءَ باعتبار الوجود، وأنّه زوالُ العين والأثر، فما حقيقةُ هذه المعاملة؟

قلت: لَمّا كان رجوعُ وجود الظلِّ إلى الأصل يقينيّاً وذوقيّاً ووجدانيّاً حكم بزوال الوجود أيضاً بالضَّرورة، وقيل بارتفاع العين والأثر.

فإن قيل: إنَّ هذا الحكمَ بالفناء الوجوديّ مع ثبوت الفاني واستقراره هل هو صادقٌ أو كاذبٌ؟

المكتوبُ العاشِرُ والمائةُ

إلى المَخدومِ زَادَه محمَّد مَعصومٍ أيضاً سَلَّمه اللهُ في بيانِ أنَّ مُعاملةَ العارِفِ تبلُغ مبلغاً لا تحصلُ فيه صورةُ مَعلومٍ أصلاً، فحينَئذٍ تكونُ له كلُّ ذرَّةٍ منَ الذَّرَّات طريقاً سُلطانيّاً إلى المَطلوبِ، وبيانِ أنَّ حبَّ مثل هذا العارفِ يَنجرُّ إلى حبِّ الحقِّ، وبُغضَه إلى بغضِه سُبحانَه، وهكذا حُكمُ تَعظيمِ آلِ النَّبيِّ ﷺ وإهانَتهم بالنِّسبَة إليهِ ﷺ. وهذه المَعارفُ نُقلَت بالمَعنَى.

إذا بلغ العارفُ معاملتَه إلى الأصل بعد طيِّ مقامات الظلِّ؛ يكون حينئذٍ علمُه المتعلّقُ بالأشياء مبرَّأً من قيد الظليَّة، يعني: تكون الأشياءُ معلومةً له من غير أن يحصل فيه منها شيءٌ، فإنَّه كلَّما حصل فيه شيءٌ؛ يكون ظلُّ ذلك الشَّيء في العقل وصورته، لا عين ذلك الشيء، كما قيل في تعريف العلم: هو حصولُ صورة الشيء في العقل، لا شكَّ أنَّ الصورَ الحاصلةَ من الشيء في العقل شبحٌ ومثالٌ لذلك الشيء لا عينُه كما يشهد به الكشفُ الصريحُ والإلهامُ الصحيحُ، فحينئذٍ لا يُثْبِتُ هذا العارفُ للعالم نسبةً بالحقِّ..

سبحانه سوى نسبة الصانعيَّة والمصنوعيَّة، ويتحاشى من القول بالظليَّة والعينيَّة والمرآتيَّة، وهذه المعاملةُ مربوطةٌ بالكمالات الذاتيّة، فإنَّ للذَّات غِنىً ذاتيّاً عن العالم، ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، بخلاف بعض مراتب الأسماء والصِّفات، فإنَّ هذه النِّسبةَ متصوَّرةٌ فيها، فما لم يتعدَّ العارفُ من تلك المقامات، ولم يصل إلى أصل الأصل؛ ليس له نصيبٌ من هذه النِّسبة، وكلُّ ذرةٍ من الذرات تكون للعارف في هذا المقام طريقاً سلطانياً إلى جناب قدس الحق جل شأنه، بخلاف العلم الحصوليّ، فإنَّ العالمَ في تلك الصورة يجذب كلَّ شيءٍ إلى جانب نفسه، ويصير بنفسه مرآةً لجميع الأشياء، وكذلك في صورة الظلية والمرآتية يجذب كلَّ شيءٍ صاحب ذلك العلم إلى نفسه، ولا يترك نظرَ بصيرته ينفذ إلى ما وراءه، فإذا تخلَّصَ بكرم الله سبحانه عن قيد حصول الظليَّة تصير له كلُّ ذرَّةٍ من ذرات الموجودات - عرضاً كانت أو جوهراً، آفاقيّةً كانت أو أنفسيّةً - بابَ غيب الغيب. ينبغي أن يعلم أنَّ ذلك الشَّخص كما أنَّه كان سابقاً مرآةً لجميع الأشياء، وكلُّما فعل فعله لأجل نفسه، وكلُّما صدر عنه كان راجعاً إليه بالضَّرورة نوى أو لم ينو، ولَمَا منع الآن مرآةَ نفسه عن المرآتيَّة، وامتنع من التَّقيُّد بالظلِّ، وصار مثلَ صندوق الرحى كلُّما يلقى فيه لا يبقى؛ فلا جرم كلُّما يفعل لا يفعله لنفسه، بل يفعله لأجل الحقِّ سبحانه، نوى أو لم ينوِ، فإنَّ النيةَ إنّما هي في أمرٍ محتملٍ، لا في أمرٍ متيقَّنٍ، فحينئذٍ ينجرُّ حبُّ هذا العارف إلى حبِّه تعالى، وبغضُه إلى بغضه سبحانه، وكذلك تعظيمُه وتوقيرُه تعظيمٌ وتوقيرٌ للحقِّ سبحانه، وإهانتُه وإساءةُ الأدب معه تنجرُّ إلى إهانة الله سبحانه وإساءة الأدب معه، وكانت هذه النِّسبةُ لأصحاب النبي ﷺ معه ﷺ على تفاوت درجاتهم، حيث إنَّ حبَّهم وبغضَهم مثمران لحبِّه وبغضه ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ أَحَبَّهُمْ؛ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ؛ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ**»، وهذه النِّسبةُ أيضاً ثابتةٌ في آل النبيِّ معه ﷺ، ولكنَّ ظهورَ هذه النِّسبة في عليٍّ المرتضى وفاطمة الزهراء والحسنين ﵃ أتمُّ، ويشاهد سرايتها في بقية الأئمة الاثنى عشر أيضاً، ولا يحسُّ هذه النِّسبةُ فيما وراءهم. والسلام.

المكتوب الحادي عشر والمائة

إلى الشَّيخ نُور محمَّد التَّهارِيِّ في بيانِ بعضِ الأسرارِ المُتعلِّقة بمَقامِ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنٰى﴾، وبيانِ سرِّ عَدمِ وجدانِ العارِف الكامِلِ شِمالَهُ، وهذه المعَارفُ أيضاً مَنقولَة بالمَعنَى.

اعلم أنَّ في معاملة ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ في الظَّاهر لوناً من المظهر، وذلك لعدم حصول ذهاب العين والأثر من السَّالك للسالك، بخلاف معاملة ﴿اَوْ اَدْنٰى﴾، فإنَّه لا يبقى فيها حكمٌ ولا أثرٌ من المظهر أصلاً، فيكون المظهرُ في هذه المرتبة الثَّانية أمراً مستفاداً من مرتبة الوجوب بالضَّرورة، وهو خلقٌ للعارف خاصٌّ به أعطيه بعد إتمام معاملة الأصل، ويمكن أن يعبَّر عنه بإفاضة الصُّورة أيضاً، وهذا سرٌّ غامضٌ جداً، ولعلَّ تفصيله يثبتُ في موضعٍ آخرَ إن شاء الله تعالى، فيكون المظهرُ في هذه المعاملة أمراً لم يتطرَّقْ إليه رائحةٌ من العدم، وليس لشائبة الإمكان فيه مجالٌ، فلو أثبتنا انفعالاً في تلك المرتبة يكون ذلك من نفسه لنفسه لا من الغير، فإنَّه لم يَبْقَ فيها رسمٌ من الغير: (شعر)

وَلِـوَجْـهِـهِ مِـنْ وَجْـهِـهِ قَـمَـرٌ وَلِـعَـيْـنِـهِ مِـنْ عَـيْـنِـهِ كُـحْـلُ

وإن كان الانفعالُ الذي يثبت في مرتبة ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أيضاً حقّاً، والظهورُ فيها ظهورَ الأصل، ولكنَّه ليس خالياً من شائبة الظليَّة، ولائقاً بتلك المرتبة العليا، والانفعالُ الذي يليقُ بتلك المرتبة المقدَّسة هو ما لا يكون لرائحة الظليَّة إليه سبيلٌ، ولا يكون للغير مدخلٌ في البين بوجهٍ من الوجوه، فإنَّ الغيرَ غيرُ خالٍ عن لَوْثِ العدم ونقصِ الإمكان، فلو كانت انفعالاتُ مراتب الظلال لذلك؛ لساغ فيما هنالك. ينبغي أن يعلم أنَّ في معاملة ﴿اَوْ اَدْنٰى﴾ الذي ذكرت شمة منها لا يجد العارفُ الكاملُ شمالَه، وسرُّه أنَّ شمالَه أخذ حكمَ اليمين؛ لأنَّ الشمالَ كان من مقتضيات العدم، فلما زالت أحكامُ العدم ما بقي إلا الوجودُ الصرفُ، وليس ثمَّةَ شمالٌ، بل كلتا يديه سبحانه يمينٌ. فافهم ولا تقع في الزندقة.

فإذا عرفت هذه الأسرار الغامضة والمعارف الغريبة فاسمع، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّٰى﴾ [النجم: ٨]، اعلم أنَّ تحقيقَ هذا الدنوِّ بعد تحقيق أسرار ﴿اَوْ اَدْنٰى﴾ الذي ذكر فيما سبق، فإنَّه ما بقي حكمٌ وأثرٌ في العارف، ولم يتبرأْ من لوث العدم ليست له لياقةٌ بهذا الدنوِّ، وبعد تحقّق هذا الدنوِّ تدلٍّ، وهو متوجّهٌ إلى النزول، فإذا تحقّق التدلّي ورجع العارفُ إلى الخلق؛ فحينئذٍ تظهرُ صورةُ قوسين، وإن لم يبقَ من القوس الأوّل أثرٌ وحكمٌ، ولكن لما تشرَّف بالتدلي يتوهَّم في ذلك الوقت صورة القوسين، وإنَّما قال(١) بعد التدلي: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩] باعتبار أنَّ الثابتَ حينئذٍ صورةُ القوسين لا حقيقتهما، ﴿اَوْ اَدْنٰى﴾: بل أدنى؛ إذ ما بقي من القوس الثّاني هناك أثرٌ ولا حكمٌ، فليس قوسين ههنا حقيقة، وهذه المعارفُ من أسرار الله سبحانه يظهرها على أخصِّ الخواص من عباده. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والسلام والبركات العلى.

المَكْتُوبُ الثَّانِي عَشَرَ وَالمِائَةُ

إلى القاضِي أسلَم في بيانِ أنَّ صِفاتِه تعالى لا عَينُ ذاتِه سُبحانَه ولا غَيرُ ذاتِه.

﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلَامٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفٰى﴾ [النمل: ٥٩]. ما أحسن ما قال علماء أهل السنة شكر الله تعالى سعيهم من أنَّ الصِّفات الثمانيةَ الحقيقيَّةَ لواجب الوجود لا هو ولا غيرُه، وهذه المعرفةُ وراء طور العقل، وإنَّما وجدوها بنور الفراسة، وببركة متابعة الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ، وأربابُ المعقول يفهمون من هذه العبارة ارتفاعَ النقيضين، ولم يعلموا أنَّ اتحادَ المكان والزمان من شروط حصول التَّناقض، فإذا لم يكن للزمان والمكان مجالٌ في تلك الحضرة كيف يتصوَّرُ فيها التناقضُ؟ وما تصرَّفَ العلماءُ في لفظ الغير لدفع التناقض، وأرادوا بالغير معنى خاصاً لا حاجةَ إليه أصلاً، بل النَّظرُ الكشفيُّ يمنع هذا التَّخصيصَ، ويثبت نفيَ الغيرية بأيِّ معنىً كانت، ونجد أنَّ صفاته تعالى كما أنَّها ليست عينَ ذاته الأقدس بل زائدةٌ ليست غيرَ ذاته أيضاً، ولو كانت زائدةً، وثبتت نسبةُ الاثنينية بينها وبين الذات، وقد تخلَّف هنا القضيةُ المقررةُ لدى أرباب المعقول من أنَّ الاثنين متغايران، ونقضت أصولهم. وما قلت من أنَّه وراء طور العقل بمعنى: أنَّ العقلَ لا يهتدي إليه قاصرٌ عن إدراكه، لا أنَّه يحكم بخلافه، كيف يحكم بخلافه وهو لم يتصوَّره بعدُ؟ بل هو خارجٌ عن حيطة إدراكه، فكيف يتصوَّرُ حكمه بإثباته ونفيه؟ ﴿رَبَّنَا اٰتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ اَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

(١) مقول القول: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، يعني: وإنَّما قال الله تعالى في القرآن العظيم في حق نبيه الكريم: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ بعد تحقُّق التدلي حيث قال قبله: ﴿ثُمَّ دَنٰى فَتَدَلّٰى﴾ باعتبار... إلخ. من المعرِّب.

المكتوب الثالث عشر والمائة

إلى المُلَّا سُلطان السَّرْهَنْدِيِّ، في بيانِ أنَّ صِفاتِه تعالى متَّصفةٌ بالحَياةِ والعِلمِ وسائِر الكَمالاتِ، وفي تَحقيقِ مَعنَى قِيامِ الصِّفاتِ بذاتِه جلَّ سُلطانُه.

اعلم أنَّ صفاتِ واجب الوجود التي هي قائمة بذاته سبحانه مثل الحياة والقدرة والعلم وغيرها لا مناسبةَ لها من كمال التقدُّس والتنزُّه بصفات الممكن أصلاً، فإنَّ صفاتِ الممكن أعراضٌ قائمةٌ بالجواهر، وصفاتِ الواجب جل سلطانه مقوماتُ الجواهر، فإنَّ قيامَ الجواهر إنّما هو بها، وأيضاً إنَّ صفاتِ الممكن جمادٌ محضٌ حكمُها حكمُ الميت ليس لها نصيبٌ من الحياة والعلم وغيرهما، ولكنَّ الممكنَ يصير بتوسُّطها حياً وعالماً وقادراً، وأما هي أنفسها؛ فليست بحيّةٍ ولا عالمةٍ ولا قادرةٍ، بخلاف صفات واجب الوجود تعالى وتقدس، فإنَّها في نظر هذا الحقير الكشفيّ حيةٌ عالمةٌ كموصوفها، ومدركةٌ لكمالاتها المندرجة فيها، ومشغوفةٌ بها، ولكنَّ علمَها يفهم من قبيل العلم الحضوريِّ لا العلم الحصوليِّ، وكذلك كلُّ صفةٍ وشأنٍ تثبت في مرتبة الوجوب تنكشف كلُّها بثبوت الحياة والعلم لها وتظهر في النظر نوراً صرفاً، وكأنَّ ذلك النورَ بتمامه حياةٌ، وبتمامه علمٌ وانكشافٌ، وهاتان الصفتان الكاملتان بينتان وواضحتان هناك، بخلاف صفاتٍ أخرَ من القدرة والإرادة وغيرهما، فإنَّها لا تنكشف هناك بهذا الوضوح. نعم، إنَّ ما هو اللازمُ في ذلك الموطن هو انكشافُ الكمالات، وهو متعلّقٌ بصفة العلم، ولما كان العلمُ تابعاً للحياة لا بُدَّ من صفة الحياة أيضاً، والقدرةُ والإرادةُ مربوطتان بالمقدور والمراد، ويمكن الاكتفاءُ من السمع والبصر بالعلم، والمقصودُ من الكلام هو الإفادةُ، والتكوينُ إنّما هو للمكوَّنات، ومع ذلك لما كانت كلُّ صفةٍ جامعةً كانت هذه الصِّفاتُ الكاملةُ فيها ثابتةً ظهرت أو لم تظهر.

لا يقال: يلزم من هذا البيان قيامُ المعنى بالمعنى، فإنَّ الصِّفات إذا كانت حيةً وعالمةً لا بدَّ من قيام الحياة والعلم بها؛ لأنا نقول: كلتاهما قائمتان بذات الواجب تعالى: إحداهما بالأصالة، والأخرى بالتبعية، كما قال العلماء في بقاء الأعراض: إنَّ العرضَ وبقاءَ العرض كليهما قائمان بمحمل العرض، وتحقيقُ هذا المبحث: أنَّ قيامَ صفات الواجب بذاته الأقدس ليس هو كقيام العرض بالجوهر، كلا، بل هو شبيهٌ بقيام المصنوع بالصانع، فإنَّ الصَّانع قيومُ المصنوع وإن كان هناك اتصافٌ، وفقد ذلك الاتصافُ هنا، لا، بل هو كقيام الشَّيء بذاته، وإنَّما الفرقُ: أنَّ هناك زيادة، والزِّيادةُ غيرُ متصوَّرةٍ هنا، ولكنَّ تلك الزيادةَ غيرُ موصلةٍ إلى حدِّ الغيريَّة، فإنَّهم قالوا: ولا غيرُه، فكان التَّغايُرُ الاعتباريُّ ثابتاً في الموضعين، والقيامُ متحقّقاً، وحصولُ الاتصاف هنا من قبيل اتصاف الإنسان بالإنسانية، واتصافِ الجوهرية بالجوهر، بل أقول: إنَّ مرتبةَ الذات الأقدس والصِّفات الحقيقية المقدسة القائمة بها ليست فيها ملاحظةُ الصِّفات والاتصاف أصلاً، لا في حضرة الذات ملاحظة الموصوفيَّة، ولا في الصِّفات ملاحظة الصِّفاتية، فإذا لم يكن للوجود ووجوب الوجود مجالٌ في تلك الحضرة كيف يكون للصِّفة والاتصاف فيها مجالٌ، فإنَّها فرعُ الوجود؟ لا مجال في ذلك الموطن المقدس لشيءٍ غير النور، وهو أيضاً لا كيفيٌّ، فإن كان فيه حياةٌ؛ فهو نورٌ، وإن كان علمٌ؛ فهو أيضاً نورٌ، وعلى هذا القياس، فلو أثبت لهذا النور الأقدس اللا كيفيِّ ظهورٌ في مرتبةٍ ثانيةٍ بلا تغيُّرٍ وانتقالٍ لا يكون القابلُ لمظهريته شيءٌ غير الوجود، ولهذا كان التعيّنُ الأوّلُ عند هذا........................

الحقير هو التعيّنَ الوجوديَّ، وسائرُ التعيّنات تابعةٌ لهذا التعيّن الأوّل، وإن لم يكن لإطلاق لفظ التعيّن ههنا مجالٌ بمقتضى علوم هذا الفقير، ولكن لما صار هذا اللفظُ متعارفـًا فيما بين القوم نحن أيضـًا جرينا على اصطلاحاتهم، واخترنا المساهلةَ في إطلاقه. ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨].

المكتوبُ الرابعَ عشرَ والمائة

إلى محمَّد هاشِمٍ الكَشْمِيِّ في تَحقيقِ صِفاتِ الواجِب تعالى، وبيانِ كيفيَّة تعلُّق عِلمِه تعالى بكَمالاتِه، وبيانِ أنَّه لا بُدَّ للمَعنَى منَ القِيامِ بالعَينِ، ولكن لا يَحتاجُ فيه إلى إثباتِ المحلِّ، وبيانِ التَّعيُّن الوُجوديِّ، ومَبادئِ تعَيُّناتِ الأنبياءِ المَتبوعينَ والأنبياءِ التَّابعينَ والـمَلائكةِ الكرامِ على الأنبياءِ وعلَيهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومبادئِ تعيُّناتِ الأولِياءِ وعَوامِّ المؤمِنينَ والكفَّار، ومَوجوداتِ النَّشأةِ الأُخرَويَّة.

إنَّ الصِّفاتِ الحقيقيَّةَ التي نُثْبِتُها في مرتبة حضرة الذات لا يحدث من ذلك الإثبات تعيّنٌ ولا تنزُّلٌ في تلك الحضرة تعالت وتقدست، ولا تثبت مرتبةٌ أخرى وراء المرتبة الأولى، ولا يتصوَّرُ انفكاكُها منها بوجهٍ من الوجوه، وما لم تتحقَّقْ مرتبةٌ ثانيةٌ، ولم يحصل انفكاكٌ بوجهٍ من الوجوه؛ لا يتصوَّرُ تعيّنٌ ولا تنزُّلٌ، وكأنَّ حضرةَ الذات والصِّفات في مرتبةٍ واحدةٍ، وكأنَّ الصِّفات مع وجود الزِّيادة عينُ الذات تعالت وتقدست، وهذه الصِّفاتُ وإن كانت تفصيلَ الكمالات المندرجة في حضرة الذات، ولكنَّ حكمَها ممتازٌ عن حكم سائر الإجمال والتَّفصيل، فإنَّ الإجمالَ إنّما يكون في مرتبةٍ ليس فيها تفصيلٌ، بل مرتبةُ التَّفصيل دون مرتبة الإجمال، وهذا المعنى مفقودٌ في تلك الحضرة، فإنَّ التَّفصيلَ فيها في عين مرتبة الإجمال، وهذه المعرفةُ وراء طور العقل، وإنَّما اهتدى إليه النظرُ الكشفيُّ، وعلمُ الواجب الذي تعلّقَ بهذه الصِّفات في تلك المرتبة كعلمه بذاته وبكمالاته المندرجة في ذاته علمٌ حضوريٌّ، وهذه الصِّفات مع وجود زيادتها عينُ العالم، وحضورُهما كحضور نفس العالم، ومن كمال اتِّحادهما بحضرة الذات قال جمٌّ غفيرٌ من الصوفيَّة بعينيَّة الصِّفات بالذات، وأنكروا على زيادة الصِّفات، ومنعوا قولهم: لا هو، وأثبتوا قولهم: لا غيره، والكمال هو أن يثبت لا غيره مع وجود التَّصديق بلا هو، وأن يسلب الغيريَّةَ مع وجود الزيادة، وهذا الكمالُ موافقٌ لعلوم الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، ومطابقٌ لآراء الفرقة النَّاجية أهل السنة والجماعة شكر الله سعيهم.

ينبغي أن يعلم أنَّ الانكشافَ الذاتِيَّ في المرتبة التي يتعلّق بحضرة الذات والصِّفات المقدسة من قبيل العلم الحضوريّ، فإنَّ للصفات المقدَّسة أيضـًا حكمَ حضرة الذات كما مرَّ، وإنَّما قلت: إنَّه من قبيل العلم الحضوريِّ، فإنَّ العلمَ الحضوريَّ عبارةٌ عن حضور نفس العالم، وحيث إنَّ الصِّفاتِ ليست عينَ العالم ينبغي أن لا يكون علمُها علمـًا حضوريـًّا، ولكن لما لم تنتزعْ منها صورةٌ وحضورُ أنفُسِها كائنٌ؛ كان علمُها من قبيل العلم الحضوريِّ، والانكشافُ الذي يتعلّقُ بصفة العلم من قبيل العلم الحصوليِّ. وإنَّما قلت: من قبيل العلم الحصوليِّ، فإنَّ العلمَ الحصوليَّ عبارةٌ عن صورةٍ حاصلةٍ من المعلوم في العقل، وقد صار محقّقـًا عند هذا الفقير ومكشوفـًا أنَّه لا انتقاشَ لصورةِ شيءٍ من الأشياء في علم الواجب جلَّ سلطانه، وأنَّ علمَه تعالى ليس محلاًّ لصورةٍ من صور ....

المعلومات، فكيف يتصوَّرُ حصولُ الصورة في ذات العالم تعالى، بل لعلمه سبحانه تعلّقٌ بمعلومٍ، وانكشافُه له تعالى من غير أن تثبت صورةٌ من معلوم في العلم، وموطنُ العلم خالٍ من النُّقوش، ومصفّىً من الصور العلمية، ومع ذلك لا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، ولكن يكون مكشوفاً أنَّ علمَه تعالى إذا تعلّق بمعلومٍ تنتزع منه بسبب هذا التعلّق صورةٌ تقوم بعلمه تعالى من غير أن يحدث في العلم شيءٌ من الحلول والحصول، فلما انتزع من المعلوم بسبب التعلّق صورةٌ، وقامت بالعلم، بل بالعالم؛ صحَّ كونُه من قبيل العلم الحصوليِّ، فإذا تعلّقت صفةُ العلم بكمالاته المندرجة في ذاته تعالى تنتزعُ بهذا التعلّقُ من تلك الكمالات صورٌ علميَّةٌ، وتقومُ بالعلم، وإن لم يثبت حلولُها وحصولُها في العلم.

فإن قيل: قد أثبت لهذه الصُّور العلميَّة قياماً بصفة العلم، ولكن لم يعلم ما محلُّ ثبوت هذه الصور، فإنَّ المعنى كما أنَّه لا بُدَّ له من القيام بالعين لا بُدَّ له من محلية العين أيضاً.

قلت: نعم، لا بُدَّ للمعنى من القيام بالعين، ولكن لا حاجة إلى إثبات المحلِّ له أصلاً، فإنَّ المقصودَ من إثبات المحلِّ للمعنى إنّما هو إثباتُ قيامه، لا أنَّه أمرٌ زائدٌ على القيام، فإذا قيل في الجواهر المجرَّدة الممكنة التي هي كالظلال لتلك الصور العلمية، وتلك الصور مبادئ تعيّناتِ تلك الجواهر أنَّها لم يثبت لها محلٌّ ولا مكانٌ، بل لا حاجة إليه أصلاً؛ فلا مجالَ للتعجب إن لم يكن لأصول تلك الجواهر المجرَّدة محلٌّ. إياك وتصوُّر هذه الصور العلمية كالأعراض التي تقوم بالغير، فيذهب بك الوهمُ في إثبات المحال لها على قياس الأعراض، فإنَّ هذه الصورَ العلميَّةَ أصولُ تلك الجواهر التي بها تقوم الأعراضُ، بل مبادئُ تعيّناتها، فكيف تقاس هي على الأعراض بل نقول في الأعراض أيضاً: إنَّ المقصودَ من إثبات المحلِّ لها إنّما هو لإثبات قيامها بالمحلِّ، لا أنَّ المحلَّ مقصودٌ بالاستقلال، وتحقيقُ ذلك: أنَّ هذه الصورَ العلميَّةَ كائنةٌ في مرتبة الوجوب، ولا مجالَ للمحلِّ والمكان هناك، ولا يتصوَّرُ فيها غيرُ القيام، ألا ترى أنَّ صفاته تعالى الحقيقية قائمةٌ بحضرة ذاته الأقدس، ولا حاليةَ هناك ولا محليةَ؟ وما قالوا من الثبوت الذهنيِّ والخارجيِّ، فإنَّما هو منقسمٌ عليهما في مرتبة الإمكان، فإنَّه لا مجال في تلك الحضرة للخارج ولا للعلم، فإذا لم يكن للوجود فيها مجالٌ كيف يكون للذهنيِّ والخارجيِّ اللذين هما من أقسامه فيها مجالٌ؟ وكيف يتصوَّرُ فيها ظرفيَّةُ العلم والخارج للوجود؟ فهذه الصورُ العلميَّةُ تكون ثابتةً وقائمةً بصفة العلم، ولا يكون شيءٌ من الثبوت العلميِّ والخارجيِّ متحقّقاً فيها، بل يكون ثابتةً وقائمةً بصفة العلم، ولا يكون شيءٌ من الثبوت العلميِّ والخارجيِّ متحقّقاً فيها، بل يكون الوجودُ العلميُّ والخارجيُّ عارياً عليها لكونه من صفات الإمكان وسمات الحدوث، فإنَّ كلَّ ممكنٍ حادثٌ عندهم، والوجودُ وإن كان ثابتاً في مرتبة الوجوب، ولكن لم تثبت ظرفيةُ العلم والخارج لذلك الوجود؛ لأنَّه لا مجال فيها للظرفية والمظروفيَّة.

استمع استماعاً كاملاً، إنَّ صورةَ المعلوم عبارةٌ عن نفس العلم، فما يكون معنى حصولها وحلولها في العلم؟ وقال المتأخرون من الصوفيَّة العليّة: إنَّ الصورَ العلميَّةَ التي هي عبارةٌ عن الأعيان الثابتة، وحقائق الممكنات ثبوتُها في العلم فقط، وفي خارج العلم لم تصل إليها رائحةٌ من الوجود، ولكن لما وقعت عكوسُ تلك الصور العلميَّة في مرآة ظاهر الوجود الذي لا موجودَ في الخارج غيرُه صارت تتوهَّم أنَّها موجودةٌ في الخارج، كما أنَّ الصورةَ إذا انعكست في المرآة تتوهَّم أنَّها في المرآة، فيا ليت شعري ما مرادُ هؤلاء الكبراء؟ وما معنى حصول الصور في العلم؟ وما الصورُ في الشاهد الأنفس العلم؟

وفي الغائب علمُه تعالى أزليٌّ قديمٌ بسيطٌ وحدانيٌّ، تعلّق بمعلوماتٍ متكثرةٍ، حصلت من تعلّقه صورٌ متعددةٌ متميزةٌ لتلك المعلومات، من غير أن يثبت حصولُها وحلولُها في ذلك العلم الأزليّ، كيف تحصل الصورُ المتعددةُ فيه؟ وهو يستلزم التبعُّض والانقسامَ للمحلّ وفرض شيءٍ فيه غير شيءٍ، وهو يوجب التركيبَ المنافي للقدم والأزلية، والعجبُ أنَّ أربابَ المعقول أثبتوا الصورةَ الحاصلةَ من المعلوم في الذهن، واعتقدوا حلولها في الذهن لا في العلم، فإنَّ تلك الصورةَ عندهم عينُ العلم، لا أنَّها حالَّةٌ في العلم، والمتبادرُ من عبارة متأخري الصوفيَّة حصولُ تلك الصورة في العلم الذي يقولون له: باطنُ الوجود، وهو سبحانه أعلم، ينبغي أن يعلم أنَّ تلك الصورَ العلميةَ التي ثبتت من تعلّق صفة العلم بكمالاته تعالى الذاتيّة تلوح في النظر الكشفيّ أنَّ لها حياةً وعلماً، والانكشافُ المناسبُ للعلم الحضوريّ بالنِّسبة إلى الكمالات المندرجة فيها ثابتٌ لها كما بينا تحقيق هذا المبحث في مكتوبٍ بالتَّفصيل، فإذا بقي خفاءٌ من غرابة هذه المعرفة، واحتيج إلى الاستكشاف والاستفسار؛ فليراجع هناك. فإذا اتضح من البيان السابق: أنَّ ذاته تعالى الأقدس وصفاته المقدسة في مرتبةٍ واحدةٍ، وأنَّه لم تحدث في تلك الحضرة من كون وجود الصِّفات زائداً على وجود الذات تنزُّلٌ وتعيّنٌ أصلاً؛ فاعلم أنَّ لهذه المرتبة المقدسة التي هي مرتبة حضرة الذات مع الصِّفات ظهوراً أولاً في مرتبة ثانيةٍ بلا تبديلٍ ولا تغييرٍ، وهو عند هذا الحقير على وجه الكشف والشُّهود حضرةُ الوجود الذي هو خيرٌ محضٌ، وكمالٌ صرفٌ، وفيه قابليَّةُ ظهور جميع الكمالات بطريق الظلية، وهذه الدَّولةُ لم تتيسّرْ لغير الوجود، ولهذا لو تعلّقَ بهذه المرتبة المقدسة علمٌ، وانتزعت كمالاتها كما مرَّ يكون أوَّلُ شيءٍ ينتزع من تلك الحضرة حضرةَ الوجود ألبتة، والكمالاتُ الأخر تكون توابعَه، ومن ههنا اعتقد الجمُّ الغفيرُ من الصوفيَّة وغيرهم أنَّ الوجودَ عينُ الذات، وظنُّوا تعيّنَ الوجود لا تعيّناً، وثبوتَ هذا التعيّن الأسبق ما وراء العلم والخارج كما بيّن تحقيقُ هذا المعنى في مواضع متعددةٍ، وحضرةُ الوجود هذا جامعٌ لجميع الكمالات الذاتيّة والصِّفاتية بطرق الظلية إجمالاً، ولهذه المرتبة الجامعة الإجمالية تفصيلٌ يمكن أن يقال له: تعيّناً ثانوياً، وأوَّلُ شيءٍ ظهر في مرتبة التَّفصيل صفةُ الحياة التي هي أمُّ جميع الصِّفات، وصفةُ الحياة هذه كأنَّها ظلُّ صفة الحياة التي في مرتبة حضرة الذات تعالت، ولا هو ولا غيره صادقٌ في حقِّها، بخلاف هذا الظلّ، فإنَّه لما ظهر في مرتبة وراء مرتبة حضرة الذات لا يكون ((لا غيره)) ثابتاً في حقه ألبتة، بل يكون متّسماً بسمة الغيرية، وبعد صفات الحياة صفةُ العلم بطريق الظلية كما مرَّ في صفة الحياة، وهذه الصفةُ جامعةٌ لجميع الصِّفات، وصفةُ القدرة والإرادة وغيرهما مع وجود استقلالها كالأجزاء لها، فإنَّ لهذه الصفة نوعَ اتحادٍ بحضرة الذات، وليس ذلك الاتحاد لغيرهما؛ لأنَّ في صورة العلم الحضوريّ اتحادَ العالم والمعلوم، والقدرةُ لم تتَّحد بالمقدور والقادر قطُّ، وهذا الاتحادُ ليس هو أيضاً في الإرادة التي هي تخصيصُ أحد المقدورين، وعلى هذا القياس، وعند هذا الحقير مبدأُ تعيّن الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام التعيّنُ الأوّلُ الذي هو التعيّنُ الوجوديُّ، ومركزُ هذا التعيّن الذي هو أشرفُ أجزائه مبدأٌ لتعيّن خاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام بالأصالة كما ذكر تحقيق هذا المبحث في مكتوب...

بالتَّفصيل، وحيث إنَّ ولايةَ الخليل عليه السلام ولايةٌ إسرافيليّةٌ يكون مبدأُ تعيّن إسرافيل عليه السلام هو هذا التعيّن الوجوديّ ألبتة، ومبدأُ تعيّن كلِّ نبيٍّ ورسولٍ بالأصالة حصَّةٌ من حصص هذا التعيّن الأوّل الوجوديّ، فلو كان لشخصٍ من الأمم نصيبٌ من هذا التعيّن الوجوديّ ببركة متابعته للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكانت حصَّةٌ من حصص ذلك التعيّن أو نقطةٌ من نقطه مبدأَ تعيّنه؛ فهو مجوَّزٌ، بل واقعٌ، وما لم يكن في هذا التعيّن مبدأُ تعيّنٍ لا يكون للوصول إلى حضرة الذات بالأصالة مجالٌ، ومبادئُ تعيّنات الملائكة العليّة الذين هم مقرَّبوا حضرة الذات أيضاً في هذا التعيّن الوجوديّ، فإنَّ الوصولَ إلى حضرة الذات مربوطٌ به.

ينبغي أن يعلم أنَّ صفةَ العلم التي ظهرت في مرتبة تفصيل التعيّن الوجوديّ وإن كانت حصَّةً من حصص ذلك التعيّن الوجوديّ، ولكن لما كانت لها جامعيَّةٌ؛ صارت كأنَّها نفس الوجود جامعةً لجميع حصص ذلك التعيّن، ولها أيضاً إجمالٌ وتفصيلٌ، والإجمالُ له حكمُ مركز الدائرة، والتَّفصيلُ له حكمُ المحيط، فمركزُ هذا التعيّن العلميِّ الذي هو إجمالٌ كأنَّه ظلُّ مركز ذلك التعيّن الأوّل الوجوديّ، وبهذه العلاقة تيقَّن جماعة أنَّ مبدأَ تعيّن خاتم الرسل على نبينا وعليه الصلاة والسلام إجمالُ حضرة العلم، وليس كذلك، بل هذا الإجمالُ ظلُّ مبدأ تعيّنه عليه وعلى آله الصلاة والسلام الذي هو مركزُ التعيّن الأوّل الوجوديّ كما مرَّ، وأيضاً اعتقدوا إجمالَ العلم هذا تعيّنا أولاً، واعتقدوا المرتبةَ الفوقانيةَ لا تعيّناً، وظنوها عينَ حضرة الوجود. نعم، إنَّها عينُ الوجود، ولكنَّها منسوبةٌ إلى التعيّن كما مرَّ.

لا يخفى أنَّ التعيّنَ الأوّلَ وإن كانت حصَصُه المندرجةُ فيه مبادئَ تعيّنات الأنبياء الكرام والملائكة العليين العظام عليهم الصلاة والسلام، ولكن لما كان الإجمالُ كائناً في تلك المرتبة لا يعلم مبادئ كلٍّ منهم بالتَّفصيل على حدةٍ، ولا تكون مسماةً باسمٍ، ولما عرض التَّفصيلُ عليها صارت مبادئ كلٍّ متميزةً، وصار كلُّ مبدأٍ مسمّىً باسمٍ على حدةٍ. مثلاً: حصّةٌ من ذلك التعيّن الأوّل الوجوديّ سميت باسم الحياة، وحصَّةٌ أخرى باسم العلم على هذا القياس، وصار مشهوداً أنَّ اسمَ الحياة باعتبار جامعيتها مبدأٌ لتعيّن الملائكة العليين العظام عليهم السلام، ولما كان لروح الله على نبينا وعليه الصلاةُ والسلامُ مناسبةٌ بالملإ الأعلى كان له نصيبٌ من هذا المقام، وحيث إنَّ للمهدي عليه الرضوان مناسبةٌ خاصَّةٌ بروح الله؛ فهو أيضاً راجٍ من هذا المقام.

ينبغي أن يعلم أنَّ كلَّ واحدٍ من الصِّفات الثمانية التي عرض لها التَّفصيلُ في مرتبة التعيّن الثّاني مبدأٌ لكلِّ نبيٍّ ذي شأنٍ مقتدىً به، فالعلمُ مثلاً مبدأُ تعيّن خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، والقدرةُ مبدأُ تعيّن عيسى عليه السلام، والتكوينُ مبدأُ تعيّن آدم عليه السلام، وجزئياتُ هذه الأسماء الكلية المقدّسة مبادئُ تعيّنات سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكلُّ طائفةٍ من هؤلاء الكبراء لها مناسبةٌ باسمٍ خاصٍّ، وبنبيٍّ مقتدىً به، كان جزئياتُ ذلك الاسم مبادئَ تعيّناتهم، ومبادئُ تعيّنات الأولياء الذين هم على قدم نبيٍّ من الأنبياء المقتدى بهم عليهم الصلاة والسلام جزئياتٌ لجزئيات الاسم الذي هو مبدأٌ لتعيّن ذلك النبي عليه السلام، وكذلك تعيّنُ سائر المؤمنين جزئياتٌ لجزئيات الاسم الذي هو مبدأٌ لتعيّن نبي كان هؤلاء على قدمه، ومبادئُ تعيّنات الكفار متعلّقةٌ باسم المضلِّ، وممتازةٌ من التعيّنات المذكورة.

فإذا علمت مبادئَ تعيّنات ....

الممكنات فاعلم أنَّ تماميَّةَ دائرة الوجوب بانتهاء هذه التعيّنات إلى منتهاها، والشروعُ بعد ذلك في دائرة الممكنات، ولما أراد الحقُّ سبحانه من كمال كرمه وإحسانه أن يفيض فيوضاته وإنعاماته على الغير، وأن ينشر خزائنه خلقَ الخلقَ، ووهب لهم من كمالات وجوده وتوابعه من غير أن ينفكَّ من هناك شيءٌ، ويلحق هنا، فإنَّ ذلك من سمات النقص، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والمقصودُ من الخلق: إفاضةُ الإنعام والإحسانُ عليهم، لا تكميلُ الكمالات الأسمائية والصِّفاتية وتتميمُها بالتوسُّل بهم، حاشاه سبحانه من ذلك وكلا، فإنَّ صفاته تعالى كاملةٌ في حد ذاتها، لا احتياج لها إلى ظهورٍ ومظهرٍ أصلاً، وكلُّ كمالٍ حاصلٌ في تلك الحضرة جلَّ شأنها بالفعل لا بالقوَّة حتى يكون حصولُه مربوطـًا بأمر، فإن كان في حضرته سبحانه شهودٌ ومشاهدةٌ؛ فهما من نفسه لنفسه تعالى، وإن كان علمٌ ومعلومٌ؛ فهو سبحانه بنفسه عالمٌ وبنفسه معلومٌ، وكذلك هو سبحانه متكلّمٌ في نفسه، وسامعٌ بنفسه، وجميعُ الكمالات مفصَّلةٌ هناك ومتميزةٌ، لكن بعنوان اللاكيفيَّة، فإنَّه لا سبيل للكيفيِّ إلى اللا كيفيِّ، وما هو الخلقُ حتى يكون مرآةً لكمالاته سبحانه؟

(ع) فِـي أَيِّ مِـرْآةٍ يَـكُـونُ مُصَـــوَّرَا

وما يكون العالمُ حتى يفصِّل ذلك الإجمالُ وحضرته سبحانه تفصيلٌ في عين الإجمال، ووسعةٌ في عين الضيق، ولما كان التَّفصيلُ والوسعةُ هناك لا كيفيين يتوهم أنَّ الإجمالَ لا بُدَّ له من التَّفصيل، وهو مربوطٌ بخلق العالم، وأنَّ تكميلَ ذلك الإجمال بهذا التَّفصيل، والحقُّ أنَّ هناك إجمالاً وتفصيلاً كما مرَّ، والله واسع عليم.

ينبغي أن يعلم أنَّ خلقَ هذا العالم واقعٌ في مرتبةٍ لا مزاحمةَ بينها وبين تلك المرتبة المقدسة أصلاً ولا مدافعةَ، ووجودُ أحد الموجودين وإن كان مقتضيـًا لتحديد وجود الآخر، لكنَّ هذه القاعدةَ مفقودةٌ هنا، فإنَّ وجودَ العالم لم يحدث تحديداً ولا نهايةَ لذلك الوجود الأقدس، ولم يثبت فيه نسبةٌ ولا جهةٌ أصلاً، ألا ترى أنَّ صورةَ زيد المتوهمة في المرآة ثبوتها كائنٌ في مرتبةٍ لا مزاحمةَ بين هذا الثبوت وثبوت زيد الذي هو أصلُ تلك الصورة أصلاً ولا مدافعةَ، وثبوتُ هذه الصورة لم يحدث في ثبوت أصلها تحديداً ولا نهايةً، ولم يورث له نسبةً أصلاً ولا جهةً، ووجودُ العالم كوجود تلك الصورة كائنٌ في مرتبة الوهم لا مزاحمةَ بينه وبين أصله الموجود في الخارج، ولم يحدث من هذا الثبوت الوهميِّ تحديدٌ ولا نهايةٌ ولا جهةٌ في الأصل، ولله المثل الأعلى. وقد فهم من هذا التَّحقيق حقيقةُ ما قالوا: إنَّ العالمَ ثابتٌ في مرتبة الوهم، يعني: أنَّ العالمَ خلق في مرتبةٍ شبيهةٍ بمرتبة الوهم الثابتة للصورة المنعكسة في المرآة بالنِّسبة إلى أصلها الذي هو موجودٌ في الخارج، بل يمكن أن يقال: إنَّ إطلاقَ الوجود الخارجيِّ في تلك المرتبة المقدسة أيضـًا من قبيل التشبيه والتنظير، فإنَّه لا مجالَ هناك للخارج، فإذا تقاصر الوجودُ عن تلك المرتبة الأقدس ماذا يكون الخارجُ فإنَّه فرعُه وقسمُه؟

خاتمةٌ حسنةٌ: إنَّ جميعَ مبادئ التعيّنات المذكورة هذه، سواء كان تعيّنـًا وجوديّـًا إجماليـًا أو تفصيليّـًا بالنِّسبة إلى ممكنات هذه النَّشأة الدُّنيوية، ووجودُ موجودات هذه النشأة وتشخصاتها مربوطٌ بتلك المبادئ العالية، وأما الموجوداتُ الأخرويَّةُ؛ فقد تشاهد أنَّها ليست منوطةً بتلك المبادئ المذكورة، بل مبادئُ تعيّناتها أمورٌ أخرُ، وتلك الأمورُ عند هذا الفقير كمالاتٌ ذاتيّةٌ، لم يصب ذيلَها المطهَّرَ غبارٌ من الظلية، ومندرجةٌ في تلك المرتبة الأقدس مفصَّلةٌ ومتميزةٌ في تلك المرتبة المقدسة بتفصيلٍ.......................................

وتميزٌ لا كيفيين، وكلُّ واحدٍ من تلك الكمالات المفصلة الذاتيّة المقدسة مبدأُ تعيّن موجودٍ من موجودات تلك النشأة الأخرويَّة، ووجودُ أهل الجنة كأنَّه لا مساسَ له بتلك التعيّنات الوجوديّة الإجمالية والتَّفصيلية التي تتعلّق بالنشأة الدنيوية، وموجوداتُ تلك النشأة كأنَّها مواجهةٌ لتلك المرتبة المقدسة على عكس موجودات هذه النشأة، فإنَّها قليلةُ النصيب من المواجهة، وماذا أبين من موجودات تلك النشأة الدائمة؟ فإنَّ لها نصيباً وحظاً من تلك المرتبة المقدسة لا يمكن وصفُه:

(ع) هَنِيئـاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا

شعر:

وَمَا كَتْمُهُ أَحْظَى لَدَيَّ وَأَجْمَلُ ... وَمِنْ بَعْدِ هَذَا مَا يَدِقُّ صِفَاتُهُ

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ الخَامِسَ عَشَرَ وَالمِائَةُ

إلى الخواجه أبي المَكارِم في التَّحريضِ على خِدمَة خلقِ اللهِ تعالى.

رزق الله سبحانه الاستقامةَ على حدِّ الاعتدال ومركز العدالة، ومن الدَّولة العظيمة جعل الله سبحانه عبداً مخصوصاً ببعض الفضائل والمزايا، فيُحِيلُ مفتاحَ حوائج جماعةٍ من عباده إلى يد تصرُّفه، ويجعله ملاذاً وملجأً لتلك الجماعة، ومن نِعَمِه سبحانه جعل جمع من الخلائق الذين هم عيالُه تعالى مرتبطين به، فيفوِّضُ تربيتَهم إليه، والسَّعيدُ من يقومُ بحمد هذه الدَّولة، والعاقلُ من يؤدِّي شكرَ هذه النِّعمة، ويعدُّ الخدمةَ بمال صاحبه سعادةَ نفسه، ويعتقد تربيةَ عبيد مولاه وإمائه شرفَ رأسه، حمداً لله سبحانه على أنَّ أهلَ تلك البقعة رَطْبُ اللِّسان بذكره الخير، والجاري على ألسنتهم أحاديثُ كرمه لا غير.

المَكْتُوبُ السَّادِسَ عَشَرَ وَالمِائَةُ

إلى مولانا الشَّيخ غُلام محمَّدٍ في بيانِ مَعنَى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ الآية، وبيانِ اعتِراضَاتٍ أُخَر.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]. قال الشَّيخُ الأجلُّ قدس سره في كتابه «العوارف» في الباب الثَّاني منه في بيان معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، قال الواسطيُّ: أي: لذكرى لقومٍ مخصوصين، لا لسائر النَّاس، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال الواسطيُّ أيضاً: المشاهدةُ تذهلُ، والحجبةُ تفهم؛ لأنَّ الله تعالى إذا تجلَّى لشيءٍ؛ خضع له وخشع. قال الشَّيخُ: وهذا الذي قاله الواسطيُّ صحيحٌ في حقِّ أقوامٍ، وهذه الآيةُ تحكمُ بخلاف هذا الأمر لأقوامٍ آخرين، وهم أربابُ التَّمكين، يجمع لهم بين المشاهدة والفهم.

لا يخفى أنَّ ما قاله الواسطيُّ أوَّلاً يدلُّ على أنَّ الذِّكرى لأهل التَّمكين خصوصاً؛ لأنَّهم الذين أحياهم الله بعد الموت، أي: أبقاهم بعد الفناء، وأهلُ التَّلوين لا فناءَ لهم ولا بقاءَ، فلا حياةَ لهم موهوبة ثانيةً؛ لأنَّهم في وسط الطَّريق، والفناءُ والبقاءُ من أحوال الانتهاء، وقولُه الثَّاني: إنَّ ذكرَه في بيان الآية يدلُّ على أنَّ الذِّكرى لأهل التَّلوين في حال الاحتجاب والاستتار، لا في وقت المشاهدة والمكاشفة؛ لأنَّه أوانُ الذُّهول، فينافي هذا القولُ قولَه الأوّلَ، وإن ذكر هذه المعرفة في توسُّط حاله في موضعٍ آخرَ، لا في بيان هذه الآية، فلا منافاةَ. ولا اعتراضَ للشَّيخ قدس سره بأنَّ ما قاله الواسطيُّ صحيحٌ في أقوامٍ، أي: لأهل التَّلوين، وهذه الآيةُ تحكمُ بخلاف هذا الأمر لقومٍ آخرينَ، وهم أربابُ التَّمكين؛ لأنَّ الواسطيَّ بيَّن في معنى الآية: أنَّ الذِّكرى مخصوص بأرباب التَّمكين؛ ....

لأنَّهم هم الأحياءُ بعد الموت، لا أهلُ التَّلوين.

غايةُ ما في البابِ: أنَّه ذكر ثانياً معرفةً برأسها في بيان أحوال أهل التَّلوين لا تعلّقَ لها ببيان الآية، فلا اعتراضَ عليه بأنَّها تخالِفُ حكمَ الآية؛ لأنَّ الآيةَ وردت في حقِّ قومٍ، وهذه المعرفةُ بيانٌ لأحوال قومٍ آخرين، ولو أنَّ الواسطيَّ لم يخصَّ الذِّكرى بأهل التَّمكين أوّلاً، وأثبت الذِّكرى لأهل التَّلوين أيضاً في حال احتجابهم بقوله الثّاني؛ لَمَا حصل المنافاةُ بين قوليه، ولَمَا ورد اعتراضُ الشَّيخ عليه. والظَّاهرُ عندي: أنَّ الآيةَ الكريمةَ بيانُ حال الفريقين، فمن كان له قلبٌ هم أربابُ القلوب الذين تلوَّنت أحوالُهم، وهم أصحابُ التَّلوين، وقولُه تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] بيانُ حال أهل التَّمكين، فإنَّهم ألقوا سمعَهم للفهم في حال عين الشُّهود، إلا أنَّ الذِّكرى للقوم الأُوَل في بعض الأوقات، وللثَّاني في جميع الأحوال كما ترى، ولو قال الشَّيخُ قدس سره: وهذه الآيةُ تحكم بخلاف هذا الأمر لقومٍ آخرين أيضاً؛ لكان أنسبَ، وكلمةُ (أو) لمنع الخلوِّ، فلا ينافي الجمعَ بين الفريقين في الذِّكرى.

ثم قال الشَّيخُ بعد ذلك: فموضعُ الفهم محلُّ المحادثة والمكالمة، وهو سمعُ القلب، وموضعُ المشاهدة بصرُ القلب، فمن هو في سُكْر الحال يغيبُ سمعُه في بصره، ومن هو في حال الصَّحْو والتَّمكين لا يغيب سمعُهُ في بصره؛ لتملُّكه ناصيةَ الحال، ويفهم بالوعاء الوجوديّ المستعدِّ لفهم المقال؛ لأنَّ الفهمَ موردُ الإلهام والسَّماع، والإلهامُ والسَّماعُ يستدعيان وعاءً وجوديّاً، وهذا الوجودُ يكون موهوباً مُنْشَأً إنشاءً ثانياً للمتمكِّن في مقام الصَّحْو، وهو غيرُ الوجود الذي يتلاشى عند لَمَعَان نور المشاهدة لمن جاوَزَ على ممرِّ الفناء إلى مقارِّ البقاء. انتهى.

قوله: فموضعُ الفهم محلُّ المحادثة والمكالمة، أي: مع الله عزَّ وجلَّ يغيب سمعُه في بصره، أي: لا يفهم وقتَ المشاهدة، وهو حالُ أهل التَّلوين، يذهل عند المشاهدة كما قاله الواسطيُّ، لا يغيب سمعُه في بصره، أي: يفهم في عين المشاهدة، وهو حالُ أهل التَّمكين يجمع لهم بين المشاهدة والفهم ما مرَّ، لمن جاوَزَ متعلّقٌ بقوله: موهوباً، أي: موهوباً لمن جاوَزَ الفناءَ، ووصل إلى البقاء. لا يخفى أنَّه ما معنى المشاهدة في أهل التَّلوين والمشاهدةُ إنَّما تكون في الذَّات كما قالوا، وهو غيرُ واصلٍ بعدُ إلى الذَّات، فالأَوْلى في حقِّه المكاشفةُ بالصِّفات المتخيَّلة المتلوِّنة، وما هو في الذَّات لا تلوينَ له ولا تغيُّرَ، وليس في تلك الحضرة المقدَّسة تارةً الذُّهولُ وأخرى الشعورُ، بل شعورٌ في عين الذُّهول، وفهمٌ في نفس الشُّهود، والظَّاهرُ من كلام الشَّيخ قدس سره جوازُ وقوع المشاهدة في الدُّنيا ببصر القلب، وصاحبُ «التعرف» قدس سره - وهو إمامُ الطَّائفة - منع رؤيتَه تعالى في الدُّنيا بالبصر وبالقلب معاً، وادَّعى الإجماعَ عليه، وقال: وأجمعوا على أنَّه تعالى لا يُرَى في الدُّنيا بالأبصار وبالقلوب إلا من جهة الإيقان، وما قاله صاحبُ «التعرف» قدس سره أقربُ إلى الصَّواب عندي، بل هو الصَّوابُ؛ لأنَّ ما يتخيَّل أنَّه سبحانه يرى؛ فإنَّما هو رؤيةُ خيالٍ، أي: كشف صورةٍ في الخيال للإيقان الذي حصل للقلب، وللموقن به أيضاً صورةٌ كوشفتْ للقلب، فإنَّهم جوَّزوا المثالَ للحقِّ سبحانه وإن لم يكن له تعالى مثلٌ، فللّه المثل الأعلى، وإنَّما ارتسمَ في الخيال صورةُ الإيقان وصورةُ الموقن به وإن لم يكن له تعالى صورةٌ في الواقع؛ لأنَّ المعاني الحاصلةَ للقلب ولسائر اللَّطائف بل كلَّما وجد ويوجد لها صورةٌ في الخيال الذي هو تمثالُ المثال الذي هو أوسعُ العوالم كلِّها، فليس ههنا إلا إيقانٌ للقلب، وصورةُ إيقانٍ، وصورةُ موقنٍ به، تمثَّل في الخيال بصورةِ رؤيةٍ ومرئيٍّ، ولا رؤيةَ في الحقيقة للقلب له تعالى، فضلاً عن أن يكون للبصر، ....

وإنَّما هي رؤيةٌ مثاليةٌ للقلب تمثَّل إيقانُه بصورة الرُّؤية، وتمثَّل الموقنُ به بصورة المرئيِّ، فظنَّ منه أنَّه رآه حقيقةً، وما هي إلا رؤيةٌ خياليَّةٌ. بل نقول: إنَّ صورةَ الموقن ليست صورةً مثاليةً للحقِّ سبحانه، بل صورة كشف تعلّق الإيقان به، وظهرتْ في الخيال، وحاشا لله أن يكون له تعالى صورةٌ ولو في الخيال، وإنَّما هو صورةٌ لبعض مكشوفات قلب السَّالك من الوجوه والاعتبارات التي لها تعلّقٌ بالذات تعالت، ولهذا إذا وصل العارفُ إلى الذات تعالت لا يتخيَّل له مثلُ هذا الخيال، فليس لذاته تعالى صورةٌ ولو في المثال والخيال، وليس له تعالى مثالٌ عندي، كما لا مثلَ له سبحانه؛ إذ الصُّورةُ تستلزم الحدَّ والنِّهايةَ ولو في مرتبةٍ من المراتب، وهو سبحانه منزَّهٌ من التَّحديد والتَّقييد، وجميعُ المراتب مخلوقةٌ له تعالى. فافهم.

الحمد لله الذي أعطانا سلطانَ الخيال، وجعله مرآةً لحصول صور معاني الكمال، ولولا الخيالُ لَمَا أدركنا درجاتِ الاتِّصال عن دركات الانفصال، ولَمَا علمنا وارداتِ الأحوال، فإنَّ لكلِّ معنىً وحالٍ صورةً فيه، إن كوشفت يدركُ به ذلك المعنى والحال، فشأنُ اللطائف السَّبع السَّيرُ والسلوكُ والانتقالُ من حالٍ إلى حالٍ، وشأنُ الخيال إراءتُه درجاتِ السَّير والسلوك الحاصلة للسالك بصورها المرتسمة فيه، وإراءة مزيد الرَّغبة إلى الفوق، وأيضًا بإراءته يحصل السَّيرُ على بصيرةٍ، ويتيسّرُ السلوكُ على معرفةٍ، وبسلطانه يخرج السَّالكُ عن الجهل، ويكون من أهل العلم، فللّه سبحانه درُّهُ، والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب السابع عشر والمائة

إلى مَولانا عَبدِ القادِرِ الأَنْبالِيِّ.

قال الشَّيخُ ﷺ في الباب الثَّاني من كتابه «العوارف» في بيان الحديث المرفوع إلى رسول الله ﷺ: «**مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، وَلِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ، وَلِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ**»، ويخالج سرِّي: أن يكون المطلعُ ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السرِّ في الآية، ولكنَّ المطلعَ أن يطلع عند كلِّ آيةٍ على شهود المتكلّم بها؛ لأنَّها مستودعُ وصفٍ من أوصافه، ونعتٍ من نعوته، فتجدّد له التجلِّياتُ بتلاوة الآيات وسماعها، وتصيرُ مرايا منبئةً عن عظيم الجلال.. إلى آخر ما قال في تأييد هذا التَّوجيه وشرحه.

ويخطر ببالي بكرم الله المتعالي: أنَّ الظَّهرَ: نظمُ القرآن البالغ إلى حد الإعجاز، والبطنَ: تفسيرُهُ وتأويلُه على اختلاف صفاء الفهم على دقيق المعاني وغامض السرِّ، والحدّ: نهايةُ مراتب الكلام، وهو شهودُ المتكلّم بها، وهو التجلِّي النَّعتيّ المنبئ عن عظيم الجلال، والمطلع: ما هو فوق ذلك التجلِّي النعتيِّ، وهو التجلِّي الذَّاتيُّ المُعْرَى عن النِّسب والاعتبارات، أثبت لحدِّ الكلام ونهايته مطلعـًا، فيكون المطلعُ وراء الكلام ووراء نهايته، والكلامُ صفتهُ تعالى، وشهودُ المتكلّم في مرآة تلك الصِّفة تجلٍّ لتلك الصِّفة، ونهايةٌ لمراتب كمالها، والاطلاعُ على وراء تلك التجلِّي يكون بالترقِّي منه إلى التجلِّي الذاتيِّ لا محالةَ، فالوصولُ إلى الذَّات ههنا يكون بتوسُّط صفة الكلام، وبتوسُّل تلاوة النَّظم القرآنِيِّ الدالِّ على تلك الصِّفَة، فلا بدَّ من الخطوتين: خطوةٌ من النظر الدَّالِّ إلى المدلول الذي هو الصفةُ، والخطوةُ الثَّانيةُ من الصِّفة إلى الموصوف، قال العارف قدس سره: خطوتان وقد وصلتُ، وما ذكر الشَّيخ قدس سره إلا الخطوةَ الأولى، وأتمَّ بها هذا السَّير، وقيَّد فائدةَ التلاوة بها لا غير. ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقال الشَّيخ قدس سره بعد ذلك: إنَّه قد نقل..

عن جعفر الصادق ﷺ وعن آبائه الكرام أيضاً: أنَّه خرَّ مغشياً عليه وهو في الصلاة، فسئل عن ذلك، فقال: ما زلت أردِّدُ الآيةَ حتى سمعتها من المتكلّم بها، فالصوفِيُّ لما لاح له نورُ ناصية التَّوحيد، وألقى سمعه عند سماع الوعد الوعيد وقلبُه بالتخلُّص عما سوى الله تعالى صار بين يدي الله تعالى حاضراً شهيداً يرى لسانه أو لسان غيره في التلاوة كشجرة موسى عليه السلام، حيث أسمعه الله تعالى منها خطابَه إياه بأني أنا الله، فإذا كان سماعُه من الله واستماعُه إلى الله؛ صار سمعُه بصرَه، وبصرُه سمعَه، وعلمُه عملَه، وعملُه علمَه، وعاد آخرُه أوَّلَه، وأوَّلُه آخرَه.. إلى أن قال: فإذا تحقّق الصوفِيُّ بهذا الوصف صار وقتُه سرمداً، وشهودُه مؤبَّداً، وسماعُه متواليًا متجدداً.

قوله: فالصوفِيُّ لما لاح له نورُ ناصية التَّوحيد بيانٌ لقول الإمام ﷺ، وشرحٌ لسماعه من المتكلّم بأنَّ الصوفِيَّ لما غلب عليه حالُ التَّوحيد، وزال عن نظره شهودُ الغير؛ صار بين يدي الله حاضراً شهيداً، يجد كلَّما سمع كلاماً من نفسه أو من غيره أنَّه سمعه من الله سبحانه، ويرى لسانَه ولسانَ غيره كشجرة موسى عليه السلام، فالإمامُ كلَّما كرَّر الآيةَ سمعها من نفسه ومن لسانه، إلى أن لاح له في أثناء التّكرار حالُ التَّوحيد، فسمعها من المتكلّم بها وإن كان صدر منه ومن لسانه، فإنَّه وجد لسانه حينئذٍ كالشجرة الموسويَّة، فالكلامُ الظَّاهرُ من اللسان كالكلام الظَّاهر من تلك الشجرة في أنَّه كلامُ الله سبحانه.

أقول وبالله سبحانه العصمةُ والتوفيقُ: إنَّ المسموعَ من الشجرة الموسوية كان كلامَ الله سبحانه لا محالةَ، حتى لو أنكره أحدٌ كان كافراً، والمسموعُ من الألسنة ليس في الحقيقة كلامَ الله، وإن تخيَّل الصوفِيُّ في غلبة التَّوحيد أنَّه كلامُ الله، حتى لو أنكره أحدٌ لا يكون كافراً، بل يكون محقّاً صادقاً؛ لأنَّه حصل من حركة اللِّسان واعتماد المخارج، ولا كذلك في الشجرة، فأين أحدُ الكلامين من الآخر؟ فإنَّ الأوّلَ تحقيقيٌّ، والآخرَ تخييليٌّ، والعجبُ من الشَّيخ الأجلِّ قدس سره أنَّه بالَغَ ههنا في التَّوحيد حتى جعل التخييليَّ تحقيقيّاً، وجعل الكلامَ الصادرَ من العبد في غلبة الحال صادراً من الحقِّ سبحانه، وقد أنكر في موضعٍ آخر من كتابه الأقوالَ الصادرةَ في التَّوحيد من أربابه في غلبة الحال، وحَمَلَها على الحكاية من الله سبحانه فراراً من شائبة توحيد الحلول والاتحاد، وما فَرَّ هنا من شوب الحلول، بل حكم بالاتحاد والعينية، والحقُّ في هذا المقام: أنَّ الحكمَ بالاتحاد والعينيَّة في غلبة الحال تخييليٌّ لا تحقيقيٌّ، سواء كان الاتحادُ في الذات أو في الصِّفات أو في الأفعال، فسبحان من لا يتغيَّرُ بذاته ولا بصفاته ولا في أسمائه بحدوث الأكوان، ولا يتَّحد معه أحدٌ، ولا يتَّحد صفاتُ أحدٍ مع صفاته تعالى، ولا أفعالُ أحدٍ مع أفعاله سبحانه، فهو سبحانه هو هو، والممكنُ ممكنٌ حادثٌ في الذَّات وفي الصِّفات والأفعال، الحكمُ بالاتحاد بين القديم والحادث من تلوينات العشق، وغلبات المحبّة والسُّكر، فلا يؤاخَذُ عليهم بشائبة الحلول، ومظنَّة الاتحاد المستلزمة للكفر والإلحاد، فإنَّها غيرُ مرادةٍ لهم، حاشا لله سبحانه أن يكون مرادُهم ما هو غيرُ لائقٍ بجناب قدسه تعالى، فإنَّهم أولياءُ الله وأحبَّاؤه سبحانه المحفوظون من تجويز ما لا يجوز على الله، والذين تشبَّهوا بهم من غير حالٍ وبدون صدق المقال، وتكلّموا بكلماتهم، وفهموا منها غيرَ مراداتهم، فوقعوا في الإلحاد والزَّندقة حتى أثبتوا الحلولَ والاتحادَ مع الله سبحانه، وحكموا بصيرورة الممكن واجباً؛ فهم ....

الزنادقةُ الخارجةُ من المبحث، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]. ولا يخفى أنَّ ما ذكره الشَّيخُ قدس سره في بيان قول الإمام ﷺ وإن صدق في حقِّ قومٍ من أهل التَّلوين الذين استولى عليهم السُّكرُ، وغلب عليهم التَّوحيدُ، ولكنِّي - لحسن ظنِّي بشأن الإمام - لا أجوِّزُ صدقَه في حقِّه ﷺ؛ لأنَّه عندي من أكابر أرباب التَّمكين والصَّحو، لا يلتبس عنده المتخيَّلُ بالمتحقَّق، والسماعُ من الغير بالسَّماع من الحقِّ سبحانه، فليطلب لكلامه محملٌ حسنٌ مناسبٌ لحاله غيرَ هذا الوجه، وهو أنَّه يمكن أن يسمع العبدُ كلامَ الرب العالي بلا كيفٍ، كما سمع موسى عليه السلام في الطور.

فإن قلت: ما معنى سماع الكلام من الله تعالى، ولا يسمع إلا ما هو حرفٌ وصوتٌ؟

قلت: ممنوعٌ، ألا يرى أنَّ الله تعالى يسمع كلامه بلا حرفٍ وصوتٍ؟ فجاز أن يكون العبدُ إذا صار متخلقاً بأخلاقه تعالى يسمع بلا حرفٍ وصوتٍ، والاستحالةُ ببديهة الوهم الناشئة من قياس الغائب على الشاهد مع وجود الفارق، كيف يقاس والشاهدُ في مضيق الزمان المقتضي للترتُّب والتقدُّم والتأخُّر؟ والغائبُ لا يجري عليه زمانٌ، ولا تقدُّمٌ، ولا تأخُّرٌ، ولا ترتُّبٌ، فجاز في الغائب ثبوتُ أشياء لا يجوز في الشاهد، فليفهم، والله سبحانه أعلم بالصواب.

والتحقيقُ: أنَّ السماعَ إن كان بحاسَّة السَّمع؛ فلا بُدَّ أن يكون المسموعُ حرفاً أو صوتاً، وأما إذا كان السماعُ لكلِّ جزءٍ من أجزاء السَّماع غيرَ مخصوصٍ بالحاسَّة؛ فجاز أن يحصل بلا حرفٍ وصوتٍ من المسموع، فإنا نسمع بكليَّتنا وبكلِّ جزءٍ من أجزائنا كلاماً ليس من جنس الحروف، وإن كان يتخيَّلُ في الخيال بالحروف والأصوات الخياليَّة، فعلم أنَّ الكلامَ المأخوذَ المسموع بكليتنا كان أوَّلاً مجرداً عن الحرف والصوت، وتلبَّس ثانياً في الخيال بالحرف والصوت الخياليِّ ليقرب من الفهم والأفهام، على أنَّا نقول ما هو أعجبُ منه، وهو: إنَّ الله تعالى يسمع كلامنا المركَّبَ من الحروف والكلمات المترتبة المتقدمة المتأخرة، لكنَّ سماعَهُ تعالى إنّما يكون بلا توسُّطِ حرفٍ وكلمةٍ، وبلا ترتُّبٍ وتقدُّمٍ وتأخُّرٍ؛ لأنَّ الكلامَ المركَّبَ المترتِّبَ المتقدِّمَ المتأخِّرَ يقتضى زماناً، ولا يجري عليه سبحانه زمانٌ، وهو تعالى خلق الزمانَ، فلما جاز سماعُ الكلام المركَّب من الحروف والكلمات بلا توسُّط حرفٍ وكلمةٍ؛ فأَوْلى أن يجوز سماعُ كلامٍ ليس من جنس الحروف والأصوات. فافهم ولا تكن من القاصرين، ولا من العقلاء الجاهلين، والله سبحانه الملهم للصواب.

والذي ألهمت به ثانياً بعد تسويد هذا المسطور في تحقيق هذا الكلام: أنَّ فهمَ العبد المستعدِّ لخاطبه تعالى، وأخذه منه سبحانه إنّما يكون أوّلاً بتلقّي روحانيٍّ بلا توسُّط صوتٍ ونداءٍ، ثم يتمثَّلُ هذا المعنى المتلقَّى في سلطان الخيال الذي فيه ارتسم صورُ الأشياء كلِّها بصورة حرفٍ وصوتٍ؛ لأنَّ الإفادةَ والاستفادةَ في عالم الشَّهادة لا تكون إلا بتوسُّط الألفاظ والحروف، ويجوز أن يطلق على هذا التَّلقي سماعٌ بلا كيفٍ أيضاً؛ لأنَّ الكلامَ بلا كيفٍ، فلا بُدَّ أن يكون سماعُه أيضاً بلا كيفٍ؛ إذ لا سبيل لكيفٍ إلى ما لا كيفَ فيه، فصحَّ أن يجوز أن يسمع كلامَه تعالى المجرَّد من الحرف والصوت بلا كيفٍ، ثم بعد ذلك يتمثَّلُ ذلك الكلامُ في الخيال بصورة حرفٍ وكلمةٍ؛ ليحصل الإفادةُ والاستفادةُ في عالم الأجسام أيضاً، ومن لم يطَّلع على هذه الدَّقيقة يزعمُ بعضٌ منهم - وهم أحسنُ حالاً - أنَّهم يسمعون كلامه تعالى، لكن بتوسُّط حروفٍ وكلماتٍ حادثةٍ دالَّةٍ عليه، وبعضهم أطلقوا القولَ بأنَّهم يسمعون كلامَه تعالى، ولم يفرِّقوا بين ما يليق بشأنه تعالى وما لا يليقُ، وهم الجهال البطالون، لم يفرِّقوا ....

ما يجوز على الله تعالى عما لا يجوز، والحقُّ ما حقّقتُ بفضل الله سبحانه وإحسانه تعالى.

قوله: صار سمعُه بصرَه، وبصرُهُ سمعَه، إلى أن قال: وعاد آخرُه أوّلَه، وأوّلُه آخرَه، أي: أخذ سمعُه حكمَ بصره، وبصرُه حكمَ سمعه، أي: سمع بكليَّته، وبَصُرَ بكليته، وعَلِمَ بكليته، لا أنَّه سمع ببعضه، وبصر ببعضه الآخر مثلاً، فحينئذٍ لا يكون السمعُ غيرَ البصر، ثم بيَّن قوله: وعاد آخرُه أوّلَه وأوّلُه آخرَه لخفائه، وحاصلُه: أنَّ الله سبحانه خاطب الذرَّ بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فسمعتِ النداءَ بلا واسطةٍ على غاية الصفا، ثم لم تزل الذراتُ تتقلَّبُ في الأصلاب، وتنتقل في الأرحام، حتى برزت إلى أجسادها، فاحتجبت بالحكمة عن القدرة، وتراكم ظلماتُها بالتقلُّب في الأطوار، فإذا أراد اللهُ بالعبد حسنَ الاستماع بأن يصيِّره صوفياً صافياً؛ لا يزال يرقيه في رتب التزكية والتحلية حتى يخلصَ إلى فضاء القدرة، ويزال عن بصيرته النافذة حجابُ الحكمة، فيصير سماعُه بـ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ كشفاً وعياناً، وتوحيدُه وعرفانُه تبياناً وبرهاناً، حيث أخذ لسانُه ولسانُ غيره في حقِّه حكمَ شجرة موسى، يسمع منه كلامه تعالى كما سمع موسى من تلك الشجرة، فصحَّ أنَّه عاد آخرُه أوّلَه وأوّلُه آخرَه، حيث سمع كلامه تعالى آخراً كما سمع أوّلاً، وعلى هذا حمل قولُ البعض: إنَّه قال: أنا أذكر خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، أي: كان ذلك الخطابُ الذي أسمع الآن منه تعالى على الألسنة، ولا يخفى عليك أنَّ الخطابَ الأوّلَ منه تعالى كان تحقيقاً، وسماعَ الذرِّ منه تعالى كان على سبيل الحقيقة، وهذا الخطابُ المأخوذُ المسموعُ من الألسنة إنّما يكون خطابَ الله تعالى على سبيل التَّخيُّل والتوهُّم كما مرَّ، فأين أحدهما من الآخر؟ فالعجبُ كلّ العجب أنَّ الشَّيخَ - مع جلالة قدره - جعل أحدهما عينَ الآخر، ولم يفرِّقْ بين المتحقّق والمتخيَّل، وما هو إلا عينُ السُّكر وصرفُ التَّوحيد، مثلُه مثلُ قول: أنا الحقُّ، وسبحاني، وليس في جبتي سوى الله. وأعجب من هذا ما قال بعد ذلك: فإذا تحقّق الصوفيُّ بهذا الوصف صار وقته سرمداً.. إلخ، لا يذهب عليك أنَّ الصوفيَّ في هذا المقام ما تحقّقَ إلا بالتجلّي المعنويِّ الصِّفاتِيِّ كما مرَّ، وهو مقامُ التَّلوين لا غير، فمن أين صار وقتُه سرمداً ومشهودُه مؤبَّداً، وما الدَّوامُ والسَّرمدُ للوقت إلا في الوصول إلى الذَّات تعالت؟ والتجلّي الذاتِيُّ - وكذلك الشُّهودُ والمشاهدةُ - لا يكون إلا بالوصول إلى الذَّات تعالت كما قالوا، وما حصل في مرتبة الصِّفات يسمَّى بالمكاشفة، فالشُّهودُ ودوامُه هو نصيبُ أرباب التَّمكين الواصلين إلى الذَّات، لا أهل التَّلوين المقيَّدين بالصِّفات، فإنَّهم أربابُ القلوب وأصحابُ التقلُّب، ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

المكتوب الثامن عشر والمائة

إلى الشَّيخ مَودود محمَّدٍ.

قال الشَّيخ قدس سره في الباب التاسع من كتاب «العوارف» في ذكر من انتمى إلى الصوفيَّة: من جملة أولئك: قومٌ يقولون بالحلول خذلهم الله سبحانه، ويزعمون أنَّ الله تعالى يحلُّ فيهم، ويحلُّ في أجسامٍ يصطفيها، ويسبق إلى فهومهم معنىً من قول النصارى في اللَّاهوت والنَّاسوت، ومنهم من يستبيح النَّظرَ إلى المستحسنات إشارةً إلى هذا الوهم، ويتخايل له أنَّ من قال كلماتٍ في بعض غلباته كان مضمراً لشيءٍ مما زعموه، مثل قول الحلاج: أنا الحقُّ، وما يحكى عن أبي يزيد من قوله: سبحاني، حاشا نعتقد في أبي يزيد أنَّه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى، وهكذا ينبغي أن نعتقد في قول الحلاج ذلك، ولو علمنا أنَّه ذكر ذلك القولَ مضمراً لشيءٍ من الحلول؛ رددناه كما نردهم. انتهى.

فيا ليت شعري، ما معنى الحكاية عن الله تعالى؟ وما وجهُ تخصيص.........................

أرباب السُّكر بمثل هذا القول على معنى الحكاية؟ اللهم إلا أن يقال: إنَّه قدس سره أراد أنَّ القائلَ بمثل هذا القول إن كان هو العبدَ كما هو الظَّاهرُ عند الأكثر؛ فلا بُدَّ أن يكون حكايةً من الله تعالى، فإنَّ العبدَ لا يصير ربّاً، لكنَّ القائلَ به في الحقيقة هو الربُّ سبحانه، ولسانُ العبد مثلُ الشجرة الموسويَّة، فلا اعتراضَ على الحلاج، ولا تعرُّض على أبي يزيد قدس الله تعالى أسرارهما، والظَّاهرُ من عبارة الشَّيخ: أنَّه لو لم يحمل على معنى الحكاية يفهم منه الحلولُ، وليس كذلك؛ إذ يجوزُ أن يقول ذلك عند غلبات التَّوحيد، واستتار ما سوى الواحد المشهود عند لمعان نور الشُّهود بلا شائبة حلولٍ واتحادٍ، فمعنى قوله: أنا الحقُّ عند اختفائه عن نظره: لستُ أنا بشيءٍ، وإنَّما الموجودُ الحقُّ، لا أنّي متَّحدٌ مع الحقِّ، أو حالٌّ في الحقِّ، فإنَّه كفرٌ ومنافٍ للتَّوحيد الشُّهوديّ، فإنَّ المشهودَ فيه ليس إلا الواحدَ الأحدَ، وعلى تقدير الحلول والاتحاد المشهودُ متعدِّدٌ ولو على صفة الاتحاد والحالية.

قوله: ومنهم من يستبيح النظرَ إلى المستحسنات إشارةً إلى هذا الوهم، أي: الحلول، والعجبُ من الشَّيخ الأجل أنَّه يفهم من أمثال هذه العبارات الاتحادَ والحلولَ، والحالُ أنَّ المتبادرَ من هذه الأقوال الظهورُ، وهو وراءَ الحلول؛ لأنَّ الحلولَ: كينونةُ نفس شيءٍ في شيءٍ مثلَ كينونة نفس زيدٍ في البيت، والظهورَ: كينونةُ عكس شيءٍ مثل كينونة عكس زيدٍ في المرآة، والأوّلُ محالٌ في مرتبة الوجوب، ونقصٌ لتلك المرتبة المقدَّسة، والثّاني لا مَنْعَ لثبوته، ولا نقصَ عند أصوله، فإنَّ الأوّلَ يستلزمُ التغيُّرَ المنافي للقِدَم، والثّاني لا يستلزم كما لا يخفى، فلو ظهرت الكمالاتُ الوجوبيَّةُ في مرايا الأعدام والإمكان؛ لم يلزم منه حلولُ تلك الكمالات في تلك المرايا ولا تغيُّرُها ولا انتقالُها المنافي للقدم، وإنَّما هو ظهورٌ وإراءةُ كمالٍ في مرآةٍ، فتجويزُ شهود كمالاته تعالى في مرايا الإمكان ليس تجويزاً لحلول تلك الكمالات فيها، بل هو تجويزٌ لظهور الكمال في المرآة، ولا نقصَ فيه، وإن كان المجوِّز لمثل هذا الشُّهود صاحبَ نقصٍ وغيرَ مستقيمٍ على الجادة، لكنَّ المقصودَ دفعُ تهمة الحلول عنه، لا إثباتُ كماله، وكونه على شيءٍ، والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور كلِّها.

المكتوب التاسع عشر والمائة

إلى المِير مَنصورٍ في بيانِ اختيارِ العُزلَة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

وقد أطاب الوقتَ صحائفُ أخي الأعزِّ بورودها متعاقبةً، حمداً لله سبحانه لم يتطرَّق الفتورُ والتَّلوينُ إلى محبَّتكم للفقراء وارتباطكم بهم مع وجود أسباب عدم المناسبة، بل زادت قوَّةً في ذلك الارتباط، رزق الله سبحانه الاستقامةَ على محبّة هذه الطَّائفة التي هي رأسُ بضاعة السَّعادة.

أيُّها المشفقُ، قد غَلَبَ شوقُ الانزواء في هذه الفرصة، فاخترتُ القعودَ في زاويةٍ حتى لا أذهبَ إلى المسجد لغير صلاة الجمعة، وجماعةُ الأوقات الخمسة تنعقدُ في تلك الزَّاوية، وصار طريقُ ملاقاة الناس مسدوداً، وتمرُّ الأوقاتُ على جمعيَّةٍ تامةٍ، وكأنَّ متمنّى جميع العمر تيسَّرَ الآن، حمداً لله سبحانه على ذلك، وبقيَّةُ الأحوال الصُّورية أيضاً مقرونةٌ بالعافية، والأولادُ وسائرُ المتعلّقين على جمعيَّة. وقدم الخواجه عبد الله على دهلي قبل شهر رمضان المبارك، حمداً لله سبحانه، قد حصَّل الخواجه في مجيئه هذا فوائدَ كثيرةً، وقلَّب الورقَ بالتَّمام، وتخلَّصَ من غلبات التَّوحيد، وخاض في بحر التنزيه، ومتوجِّهٌ إلى العمق والقعر، وذاهبٌ من الظَّاهر إلى الباطن، بل إلى أبطن البطون. وتفصيلُ الأحوال لَمّا.................

قدم الحافظ بهاء الدين هناك أحلناه إليه.

المكتوب العشرون والمائة

إلى الميرزا حسام الدين أحمد في حل عبارات مكتوب متضمن للأسرار.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

قد تشرَّفت بمطالعة الصَّحيفة الشَّريفة المرسلة إلى هذا الفقير على وجه الشَّفقة والرأفة، وقد اندرج فيها أنَّ لواحدٍ من الأعزَّة اعتراضاتٍ على عبارات المكتوب الذي كتبته من اجمير، فينبغي كتابةُ شيءٍ في حلِّها، ولَمّا كتب بعضُ الأصحاب بتعيين مواضع الاشتباه؛ كتبنا في حلِّها مقدّماتٍ بمقياس التَّعيين، والله سبحانه الهادي إلى سبيل الرشاد.

أيُّها المخدومُ المكرَّمُ، إنَّ السَّيرَ المراديَّ والسيرَ المريديَّ كلٌّ منها أمرٌ يتعلّقُ بوجدان صاحب ذلك السَّير، لا أنَّه إلزامُ أمرٍ يتعلّقُ بالغير، فلا مجالَ إذاً لطلب الحجَّة والبرهان على إثباته، ومع ذلك إذا أعطى الله سبحانه شخصاً قوَّةً قدسيةً، ولاحَظَ في أحوال صاحب ذلك السَّير وأوضاعه ملاحظةً تامَّةً، وشاهد الفيوضَ والبركاتِ والعلومَ والمعارفَ الإلهيّةَ التي هو ممتازٌ بها؛ يمكن أن يحكم بكون سيره سيراً مرادياً من غير احتياجٍ إلى دليلٍ أصلاً، كما يحكم بكون نور القمر مستفاداً من نور الشمس بعد ملاحظة قرب القمر من الشمس وبعده عنها ومقابلته بها واجتماعه معها، وإن لم يكن هذا المعنى حجَّةً لغير أرباب الحدس. وأيضاً قال حضرة شيخنا قدس سره في أوائل حال سير هذا الفقير: إنَّ سيرَه سير مرادي، ولعلَّ الأصحابَ أيضاً سمعوا منه هذا الكلامَ، وأنشد هذين البيتين من «المثنوي» معتقداً بأنَّهما مطابقان لحال هذا الفقير:

عِشْقُ عُشَّاقٍ بِطَبْلٍ وَنَفِيرْ   عِشْقُ مَعْشُوقٍ خَفِيٌّ وَسِتِّيرْ

عِشْقُ مَعْشُوقٍ مَزِيدٌ فِي السِّمَنْ   غَيْرَ أَنَّ الثَّانِيَ مُضْنٍ لِلْبَدَنْ

وكلُّ من وصل من المرادين؛ كان سيرُه على طريق الاجتباء، وطريقُ الاجتباء ليس مخصوصاً بالأنبياء عليهم السلام، صرَّح بذلك صاحبُ «العوارف» قدس سره في بيان المجذوب السَّالك والسَّالك المجذوب، وقال لطريق المريدين: طريق الإنابة، ولطريق المرادين: طريق الاجتباء، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. نعم، إنَّ طريقَ الاجتباء بالأصالة مخصوصٌ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وللأمَّة كسائر الكمالات بتبعيتهم، لا أنَّه مخصوصٌ بالأنبياء مطلقاً لا نصيبَ منه للأمَّة أصلاً، فإنَّه غيرُ واقعٍ.

أيُّها المخدومُ، إنَّ وصولَ الفيض إلى السَّالك بتوسُّط خير البشر وحيلولته عليه الصلاة والسلام إنّما هو قبل أن تنطبق حقيقةُ السَّالك المحمدي المشرب على الحقيقة المحمدية، وقبل أن تتَّحدَ بها، فإذا حصل الاتحادُ بين هاتين الحقيقتين في مقامات العروج بكمال متابعته، بل بمحض الفضل؛ ارتفع التوسُّطُ من البين، فإنَّ التوسُّطَ إنّما هو حين المغايرة، وفي الاتحاد لا متوسِّطَ ولا متوسّطَ له، ولا حاجبَ ولا محجوبَ، بل المعاملةُ في مقام الاتحاد بالشركة، ولكن لما كان السَّالكُ تابعاً وملحقاً وطفيليّاً؛ لزم أن تكون تلك الشركةُ من قبيل شركة الخادم بالمخدوم. وما قلت من أنَّه يحصل لحقيقته انطباقٌ على حقيقته ﷺ، وأنَّها تتَّحد بها، بيانُه أنَّ الحقيقةَ المحمديَّةَ جامعةٌ لجميع الحقائق، ويقال لها: حقيقةُ الحقائق، وحقائقُ الآخرين..

كالأجزاء لها أو كالجزئيات؛ لأنَّ السَّالكَ لو كان محمديَّ المشرب؛ فحقيقتُه كالجزئيِّ لتلك الكليَّة ومحمولةٌ عليها، وإن كان غيرَ محمديِّ المشرب؛ فحقيقتُهُ كالجزء بالنِّسبة إلى الكلّ، وغيرُ محمولةٍ عليها، فإن عرضَ لحقيقةٍ غير محمدي المشرب اتحادٌ في أثناء العروج إنّما يكون ذلك بحقيقةِ نبيٍّ هو على قدمه، وتكون محمولةً على تلك الحقيقة، وتحصل له شركةٌ معه في الكمالات المناسبة به، ولكن تكون تلك الشركةُ من قبيل شركة الخادم بالمخدوم كما مرَّ، فإذا حصل لذلك الجزئيِّ بعلاقة كمال المتابعة - بل بمحض الفضل - محبّةٌ خاصةٌ لكليه، وأخذ شوقُ الوصول إليه بيده؛ يشرع القيدُ الذي جعل الكليَّ جزئياً بفضل الله تعالى في الزوال، وبعد زواله بالتدريج يحصل لذلك الجزئيِّ انطباقٌ على ذلك الكليِّ، وإلحاقٌ به. وما قلت من أنَّه إذا حصل له محبّةٌ خاصةٌ؛ فهي كما حصلت لهذا الفقير بمحض الفضل، حتى قلتُ في غلبات تلك المحبّة: إنَّ محبَّتي لحضرة الحقِّ سبحانه إنّما هي من جهة كونه تعالى ربَّ محمد ﷺ، وتعجَّب الميان تاج وغيره من الأصحاب من هذا الكلام، وأظنُّ أنَّه لم يخرج من خاطركم أيضاً، وما لم يحصل مثل هذه المحبّة كيف يتصوَّرُ اللحاقُ والاتحادُ؟ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. ولنبيِّنْ حقيقةَ التوسط وعدم التوسط، ينبغي أن يسمع بحسن الاستماع.

اعلم أنَّ في طريق الجذبة لَمّا كان الجذبُ والجرُّ من جانب المطلوب، وكانت العنايةُ الإلهيّةُ متكلّفةً لحال الطالب؛ لا يقبل الوساطةَ بالضَّرورة، وفي طريق السلوك لما كانت الإنابةُ من طرف الطالب لا بُدَّ فيه من وجود الوسائط، والوسائطُ وإن كان لا يحتاج إليها في نفس الجذبة، ولكن تماميَّةَ الجذبة منوطةٌ بالسلوك، فإن لم ينضمَّ السلوكُ الذي هو عبارةٌ عن إتيان الأحكام الشَّريعة من التَّوبة والزّهد وغيرهما إلى الجذبة؛ فتلك الجذبةُ غيرُ تامَّةٍ، بل أبترُ، وقد رأيتُ كثيراً من الهنود والملاحدة فيهم جذبةٌ، ولكن لما لم يكونوا متحلِّين بمتابعة صاحب الشَّريعة عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية ليس لهم نصيبٌ غيرَ صورة الجذبة، وحالُهم خرابٌ وأبترُ.

فإن قيل: إنَّ حصولَ الجذب يستدعي نحواً من المحبوبيَّة، فكيف يجوز في حقِّ الكفار الذين هم أعداءُ الله كونُ نصيب من الجذبة؟

قلت: يمكن أن يكون في بعض الكفار نحو من معنى المحبوبيَّة، ويكون ذلك باعثاً لحصول الجذب، ولكن لَمّا لم يكونوا متحلين بمتابعة صاحب الشَّريعة عليه الصلاة والسلام؛ بقوا خاسرين مخذولين، ولم تزدهم تلك الجذبةُ غيرَ الحجَّة عليهم، حيث آذنتْ باستعدادهم، ولم يخرجوه من القوَّة إلى الفعل بسبب الجهل والعناد، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

فإذا تيسّر الوصولُ إلى المطلوب في طريق الجذبة بمتابعة صاحب الشَّريعة التي هي عبارةٌ عن السُّلوك يكون بلا واسطةٍ وبلا حيلولةِ أمرٍ، قالوا: لو دليتم بدَلْوٍ؛ لوقعتم على الله[1]، يعني: لو انجذبتم وانجررتم إلى حضرة الحقّ سبحانه، ووصلتم إلى أبطن البطون لا يكون بينكم وبين الحق جلّ وعلا حيلولةُ أمر وحجابيّته. ولعلَّه بقي في خاطركم الشَّريف أيضاً ما قاله حضرة شيخنا قدس سره: إن تيسّر الوصولُ للعبد إلى الحق سبحانه من طريق المعية بينه وبينه تعالى يكون بلا توسُّط أمرٍ ألبتة؛ فإنَّه هو المناسبُ للمعيَّة، والواسطةُ إنّما هي في سلسلة التَّربية التي هي عبارةٌ عن السُّلوك، وطريقُ المعيَّة واحدٌ من طرق الجذبة، وحديثُ «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» أيضاً يؤيِّدُ ذلك، فإنَّه لما ثبتت المعيَّةُ بين شخصٍ وبين محبوبه؛ فقد ارتفعت الواسطةُ.

اسمع: إنَّ لكلِّ ظلٍّ طريقاً واضحاً إلى..

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ ضمن حديث طويل، وفيه: «والذي نفس محمد بيده، لو أنكم دلَّيتم بحبلٍ إلى الأرض السفلى لهبط على الله».

أصله، ولا حائلَ بينهما أصلاً، فلئن حصل للظلِّ - بعناية الله جل شأنه - ميلٌ إلى أصله، وحصل له انجذابٌ إليه ولحوقٌ به؛ يكون ذلك بلا حيلولةِ أمرٍ ألبتة، وحيث إنَّ ذلك الأصل اسمٌ من الأسماء الإلهيّة لا يكون بين الاسم وبين مسماه حائلٌ ألبتة، ويكون وصولُ الظلِّ من هذا الطَّريق إلى أصل الأصل الذي هو مسمَّى ذلك الاسم بلا توسُّطِ أمرٍ، وأيضاً إنَّ كلَّ من كان واصلاً إلى حضرة الذات تعالت بوصولٍ لا كيفيٍّ؛ فتوسُّطُ أمرٍ وحيلولتُه مفقودٌ في حقِّه، فإذا ارتفعت حيلولةُ صفات الواجب وحجابيَّتُها في صورة الوصول إلى حضرة الذات، فكيف يكون لحيلولة غير الصِّفات وحجابيته مجالٌ؟

فإن قيل: إذا لم يجز انفكاكُ الصِّفات عن الذات، فما معنى ارتفاع حيلولة الصِّفات من بين الواصل والموصول إليه؟

قلت: إذا حصل للسالك وصولٌ إلى أصله الذي هو اسمٌ من الأسماء الإلهيّة، والسَّالكُ ظلُّه، وتحقّق السَّالكُ به لا يكون بينه وبين حضرة الذات تعالت توسُّطٌ وحيلولةٌ ألبتة، كما لا حيلولةَ بين الاسم ومسماه، فعلى هذا لا يلزم ارتفاعٌ ولا انفكاكٌ، وقد مرَّ مثلُ هذا التحقيق آنفا في بيان اتحاد حقيقة السَّالك بالحقيقة المحمدية، وقد مرَّت أيضاً شَمَّةٌ من هذا البيان عند بيان وصول الظلِّ إلى أصله.

تنبيهٌ: ولا يظنَّ أبله من عدم التوسُّط الذي ذكر في طريق الجذبة وغيرها الاستغناءَ عن تبعية خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام، فإنَّ ذلك كفرٌ وزندقةٌ وإنكارٌ على الشَّريعة الحقَّة، وقد مرَّ آنفًا: الجذبةُ بلا انضمام السلوك إليه الذي هو عبارةٌ عن إتيان الأحكام الشَّريعة غيرُ تامَّةٍ وأبترُ، ونقمةٌ ظهرت في صورة النعمة، وأتمَّت الحجَّةَ على صاحبها. وبالجملة: قد بلغ مرتبةَ اليقين بالكشف الصحيح والإلهام الصريح أيضاً أنَّه لا يتيسّر دقيقةٌ من دقائق هذا الطَّريق، ولا معرفةٌ من معارف القوم بلا وساطته ووساطة متابعته عليه الصلاة والسلام، وفيوضُ هذا الطَّريق وبركاته لا تحصل للمنتهي كالمبتدئ والمتوسِّط بلا تبعيَّته وتطفُّله ﷺ:

وَمِنَ الْمُحَالِ الْمَشْيُ فِي طُرُقِ الصَّفَا ... يَا سَعْدُ مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعِ الْمُصْطَفَى

وزعمَ أفلاطون الأبله نفسه مستغنياً عن الأنبياء عليهم السلام بسبب الصفاء الذي حصل لنفسه من الرياضات والمجاهدات، وقال: نحن قومٌ مهذَّبون لا حاجة بنا إلى من يهذبنا. ينبغي أن يعلم أنَّ هذا الصفاءَ الذي يحصل بالرياضات بلا توسُّط متابعة الأنبياء حكمُه حكمُ نحاسٍ أسود طُلِيَ بالذهب أو سمٌّ غلِّف بالسُّكر، والذي يقلب حقيقةَ النحاس ذهباً خالصاً ويخرج النَّفسَ من الأماريَّة إلى الاطمئنان هو متابعةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والحكيمُ المطلقُ جلَّ وعلا إنّما قرَّر بعثةَ الأنبياء ووضع شرائعهم لتعجيز النَّفس الأمَّارة وتخريبها، ولم يجعل تخريبَها - بل إصلاحها - في غير متابعة الأنبياء عليهم السلام، فمن ارتكب ألوفاً من الرياضات والمجاهدات بلا متابعةِ هؤلاء الأكابر لا ينقصُ من أمَّاريتها مقدار شعرة، بل تزيد في طغيانها وعنادها:

(ع) كُلُّ مُخْتَارِ الْعَلِيلِ عِلَّةٌ

وإزالةُ مرضها الذاتِيِّ منوطةٌ بالتمسُّك بشرائع الأنبياء عليهم السلام، وبدونه خَرْط القتاد.

ينبغي أن يعلم أنَّ الجذبةَ وإن كانت لا بُد لها من السُّلوك - سواء كانت مقدَّمةً عليه أو مؤخَّرةً عنه -، ولكنَّ الفضلَ لتقدُّم الجذبة على السلوك، فإنَّ السلوكَ حينئذٍ خادمُها، وفي تأخير الجذبة يكون مخدومَها؛ لأنَّ الجذبَ ....

حينئذٍ إنّما يتيسّرُ له بدولة السلوك، وفي تقدُّم الجذبة ليس كذلك، فإنَّه على هذا التقدير بنفسه مدعوٌّ ومطلوبٌ، ولهذا كان مراداً وذاك مريداً، ورأسُ المرادين ورئيسُ المحبوبين محمد رسول الله ﷺ، فإنَّ المقصودَ الذاتيَّ والمدعوَّ الأوّلَ في هذه الدعوة هو عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وغيرُه إنّما دُعُوا بتطفُّله، سواء كانوا مرادين أو مريدين، لولاه لما خلق الله الخلقَ، ولما أظهر الربوبيَّةَ كما ورد. فإذا كان كلُّ من سواه طفيليَّه، وكان هو ﷺ مقصوداً أصليًّا من هذه الدعوة؛ فلا جرم يكون الكلُّ محتاجين إليه، ويأخذون الفيوضَ والبركاتِ بتوسطه عليه وعلى آله الصلاة والسلام، فلو قيل للكلِّ: آلُهُ من هذه الحيثيَّة؛ لجاز، فإنَّ الكلّ متبعون له لا يأخذون كمالاً إلا بتوسُّطه، فإنَّه إذا كان وجودٌ من سواه لا يتصوَّر بدون وجوده كيف تتصوَّرُ كمالاتهم التي هي تابعةٌ للوجود بدون توسُّطه عليه الصلاة والسلام؟ نعم، ينبغي لمحبوب رب العالمين أن يكون كذلك. اسمع، قد صار مكشوفاً أنَّ محبوبيته ﷺ كائنةٌ بمحبته تعالى المتعلّقة بذاته البحت بلا ملاحظة الشُّؤون والاعتبارات، وصارت حضرةُ الذات محبوبةً بتلك المحبّة، بخلاف محبوبيَّة غيره ﷺ، فإنَّها كائنةٌ بالمحبّة المتعلّقة بالشُّؤون والاعتبارات، ومتلبِّسةٌ بالأسماء والصِّفات، أو بظلال الأسماء والصِّفات على تفاوت الدَّرجات: (شعر)

فَإِنَّ فَضْـلَ رَسُـولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ   حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

عليه وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين الصلواتُ والتسليماتُ والبركاتُ. وتحقيقُ هذا المقام: أنَّه يمكن أن يكون توسُّطُه ﷺ بمعنيين: أحدهما: أنَّه يكون حائلاً وحاجباً بين السَّالك والمطلوب، والثّاني: أنَّ السَّالكَ يصل إلى المطلوب بتطفُّله وبتوسُّط تبعيَّته ومتابعته عليه الصلاة والسلام، ففي طريق السُّلوك التوسُّطُ كائنٌ بمعنييه قبل الوصول إلى الحقيقة المحمديَّة، بل أظنُّ أنَّ كلَّ من كان واسطةً في البين من الشُّيوخ في هذا الطَّريق؛ فهو حاجبٌ عن شهود السَّالك، فويلٌ لمثل هذا السَّالك لو لم يتدارك ذلك أخيراً بالجذبة، ولم تجرَّ معاملتُه من الحجاب إلى عدم الحجابيَّة، فإنَّ في طريق الجذبة وبعد الوصول إلى حقيقة الحقائق التوسُّط بالمعنى الثّاني الذي هو تطفُّلُ السَّالك وتبعيَّتُه دون الحيلولة والحجاب، حتى يكون حجاباً للشُّهود والمشاهدة وأمثالهما.

لا يقال: إنَّ عدمَ التَّوسُّط وإن كان بمعنىً واحدٍ يستلزم قصوراً لجنابه ﷺ؛ لأنا نقول: إنَّ عدمَ التوسُّط بالمعنى المذكور مستلزمٌ لكمال جنابه ﷺ، لا للقصور، بل القصورُ في وجود التوسُّط، فإنَّ كمالَ المتبوع هو أن يصل تابعُه بتطفُّله وتبعيَّته إلى جميع درجات الكمال، وأن لا يتركَ دقيقةً من دقائقه، وهذا إنّما هو في عدم التوسُّط، لا في وجوده، فإنَّ في عدم التوسُّط شهوداً بلا حجابٍ، وهو أقصى درجات الكمال، وفي وجود التوسُّط الشُّهودُ في حجابٍ، فيكون الكمالُ في عدم التوسُّط، والقصورُ في التوسُّط، ومن شوكة المخدوم وعظمته أن لا يتخلَّفَ عنه خادمُه في مقامٍ أصلاً، ويكون بتبعيَّته شريكاً في دولة أقرانه، ومن ههنا قال عليه الصلاة والسلام: «**عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»، وستكون الرؤيةُ الأخرويَّةُ بلا توسُّطِ شيءٍ وحيلولةِ أمرٍ، وقد ورد في الحديث الصحيح: إنَّ العبدَ إذا دخل في الصلاة يرتفع الحجابُ الذي بين العبد والرب، ولهذا ....

كانت الصلاةُ معراجَ المؤمن، وصار الحظُّ الوافرُ منها نصيباً للمنتهي الواصل، فإنَّ رفعَ الحجاب مخصوصٌ بالمنتهي الواصل، فثبت ارتفاعُ التوسط والحيلولة، وهذه المعرفةُ من خواصِّ المعارف اللدنيَّة بهذا الفقير أعطيها بمحض الفضل والكرم، وتحقّق بحقيقتها: (شعر)

كَأَنِّي تُرْبَةٌ فِيهَا سَحَابُ الـ ... رَّبِيعِ مُمْطِرٌ مَاءً زُلَالَا

ونعم ما قيل: (شعر)

وَإِذَا أَتَى بَابَ الْعَجُوزِ خَلِيفَةٌ ... إِيَّاكَ يَا صَاحِ وَنَتْفَ سِبَالِكَا

ولمشائخ الطريقة قدس الله أسرارهم اختلافاتٌ في توسُّطه وعدم توسُّطه ﷺ، ذهب جماعةٌ إلى وجود التوسُّط، وطائفةٌ إلى عدمه، ولم يبيِّن منهم أحدٌ تحقيق التوسُّط وعدم التوسُّط، ولم يتكلّمْ في كمالهما وقصورهما، وأربابُ الظَّاهر يكادون يظنون عدمَ التوسُّط الذي هو كمالُ الإيمان كفراً، ويضلِّلون القائلَ به من جهالاتهم، ويتصوَّرون التوسُّطَ من كمال الإيمان، ويعدُّون القائلَ به من كُمَّل المتابعين، والحالُ أنَّ عدمَ التوسُّط مبنيٌّ عن كمال المتابعة، ووجودُ التوسُّط مشعرٌ بقصور المتابعة كما مرَّ، كلُّ ذلك منهم لعدم الدرك إلى حقيقة الحال، قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ٣٩].

أيُّها المخدومُ، إنَّ القولَ بالأويسيَّة ليس بإنكارٍ على الشَّيخ الظَّاهر، فإنَّ الأويسيَّ شخصٌ يكون للروحانيين مدخلٌ في تربيته، ألا ترى أنَّ الخواجه أحرار قدس سره لما وجد الإمدادَ من روحانية الخواجه النقشبند قدس سره قيل له مع وجود شيخه الظَّاهر: أويسياً؟ وكذلك الخواجه النقشبندُ لما نال الإمداد من روحانية الخواجه عبد الخالق الغجدواني قدس سرهما كان مع وجود شيخه الظَّاهر أويسيًا، خصوصاً إذا كان شخصٌ مع وجود الأويسيَّة مقرّاً بشيخه الظَّاهر، وجعل المراد إنكاراً على الشَّيخ بالزور والبهتان إنصافٌ عجيبٌ.

أيُّها المخدومُ، إنَّ المرادَ من تركيب لفظ عبد الباقي معناه الإضافيُّ لا العلميُّ، وإن كان فيه إشعارٌ بالمعنى العلميِّ أيضاً بأبلغ الوجوه، يعني: أنَّ شيخي وإن كان عبدَ الباقي، ولكنَّ المتكفِّلَ بتربيتي اللهُ الباقي، فأيُّ تحريفٍ وانحرافٍ هنا؟ وأيُّ سوءِ أدبٍ؟ رزق الله الإنصافَ.

أيُّها المخدومُ، إنَّ القصورَ الذي قيل في معنى قول: سبحاني الذي صدر عن أبي يزيد البسطاميّ قدس سره في غلبات السُّكر لو سُلِّمَ لا يلزم منه أن يكون ذلك القصورُ مستقرّاً ومستمرّاً في قائله حتى يكون غيرُه أفضلَ منه، فإنَّ كثيراً من المعارف تصدر في وقتٍ بمقتضى حال ذلك الوقت، ثم لما ظهر قصورُ تلك المعرفة بعناية الله تعالى في وقتٍ آخر تتركُ تلك المعرفةُ، ويترقّى إلى مقامٍ فوقانيٍّ، قد اندرج في المكتوب الشَّريف أنَّ أمثالَ هذه الكلمات الممزوجة بالشَّطح لو كتبها أربابُ السُّكر لجاز، ولكنَّ إظهارَ أرباب الصَّحْو أمثالَ هذه الكلمات مستبعدٌ جداً.

أيُّها المخدومُ، إنَّ كلَّ من كتب هذه الكلمات؛ فمنشؤه السُّكرُ، لم يحرِّك القلمَ في هذا الباب بلا مزج السُّكر.

غايةُ ما في الباب: أنَّ في السُّكر مراتب كثيرة، وكلَّما كان السُّكرُ أكثرَ؛ يكون الشطحُ أغلبَ وأوفرَ، وسكرُ البسطاميِّ هو ما يصدر عنه قولُ: لوائي أرفعُ من لواء محمد بلا تحاشٍ، فكلُّ من حاله الصَّحوُ لا يظنُّ به أنَّه لا سكرَ معه أصلاً، فإنَّه عينُ القصور؛ لأنَّ الصحوَ الخالصَ نصيبُ العوامِّ، ومن رجَّح الصَّحوَ؛ فمرادُه غلبةُ الصَّحو لا الصِّرْفُ، وكذلك كلُّ من يرجِّح السُّكرَ؛ فمرادُه: غلبةُ السُّكر، لا السُّكرُ الخالصُ، فإنَّه آفةٌ، ألا ترى أنَّ الجنيدَ قدس سره مع كونه رئيسَ أرباب.....

الصحو وترجيحِه الصحوَ على السُّكر له عباراتٌ كثيرةٌ ممزوجةٌ بالسُّكر يعسرُ تعدادُها؟ قال: العارفُ هو المعروفُ، وقال: لونُ الماء لون إنائه، وقال: المحدثُ إذا قُرِنَ بالقديم لم يَبْقَ له أثرٌ، وصاحبُ «العوارف» من كُمَّل أرباب الصَّحْو، ومع ذلك في كتابه من المعارف السُّكرية ما لا يمكن شرحُه، وهذا الفقيرُ قد جمع بعض معارفه السُّكرية في ورقٍ، ومن بقايا السُّكر تجويزُ إفشاء الأسرار، ومنه المباهاةُ والافتخارُ، ومنه ادِّعاءُ المزية على الأغيار، فلو كان صحوٌ خالصٌ يكون إفشاءُ الأسرار حينئذٍ كفراً، واعتقادُ الأفضليّة على الغير شركاً، وبقيَّةُ السُّكر في الصحو كالملح المصلح للطعام، فلو لم يكن ملحٌ يكون الطعام معطلاً: (شعر)

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ عِشْـقٌ وَهَيْمَانُ عَاشِـقٍ لَمَا كَانَ مَنْ يُصْـغِي وَمَا كَانَ سَـامِرُ

وقد حمل صاحب «العوارف» قدس سره قولَ: قدمي هذه على رقبة كلِّ وليِّ الصَّادر عن الشَّيخ عبد القادر قدس سره على السُّكر، وليس مرادُه إثباتَ القصور لهذا القول كما توهَّم، فإنَّه عينُ محمدةٍ له، بل بيانُ الواقع، يعني: أنَّ صدورَ مثل هذا الكلام المنبئ عن المباهاة والافتخار ليس هو بلا بقيَّةِ سكرٍ، فإنَّ التكلّمَ بأمثال هذا الكلام في الصحو الخالص عسيرٌ، وكلُّ هذه الدفاتر التي كتبها هذا الفقيرُ في علوم هذه الطَّائفة العليّة وأسرارهم كأنَّه تقرَّر في خاطركم الشَّريف أنَّه كتبها عن صحوٍ خالصٍ بلا مزج السُّكر، حاشا وكلا من ذلك، فإنَّه حرامٌ منكرٌ وجزافٌ، ونسجٌ للكلام، والذين ينسجون الكلامَ المتَّصفون بصحوٍ خالصٍ كثيرٌ، فلِمَ لا ينسجون الأقوالَ على هذا المنوال، ولا يحرِّكون بها قلوبَ الرجال؟ (شعر)

خَلِيـلَـيَّ مَا هَـذَا بِـهَـزْلٍ وَإِنَّـمَـا حَـدِيـثٌ عَجِيبٌ مِنْ بَدِيعِ الْغَرَائِبِ

أيُّها المخدومُ، إنَّ أمثالَ هذه الكلمات المنبئة عن إفشاء الأسرار المصروفة عن الظَّاهر قد صدرت عن مشائخ الطَّريقة قدَّس الله أسرارهم في كلِّ وقتٍ، وصار ذلك عادَتَهم المستمرَّةَ ليس هو أمرٌ ابتدعه هذا الفقيرُ واخترعه، ليس هذا أوَّل قارورةٍ كُسِرَتْ في الإسلام، فما كُلُّ هذا الاضطراب والجدال؟ فإن صدر لفظٌ لا يطابق ظاهرُه بعلوم الشَّريعة ينبغي أن يصرفَهُ عن الظَّاهر بأدنى توجّهٍ، وأن يجعله مطابقاً بعلوم الشَّريعة دون أن يتَّهم مسلماً، فإذا كان إشاعةَ فاحشةٍ وإفضاحَ فاسقٍ حراماً ومنكراً في الشَّريعة؛ فإفضاحُ مسلمٍ بمجرَّد اشتباهٍ كيف يكون مناسباً؟ وأيُّ تديُّنٍ في النِّداء من بلدٍ إلى بلدٍ وطريق الإسلاميَّة؟ والشفقةُ هو أنَّه إذا صدر عن شخصٍ كلمةٌ ظاهرُها مخالفٌ للعلوم الشَّرعيّة ينبغي أن ينظر إلى قائله أنَّه من هو، فإن كان ملحداً وزنديقاً ينبغي أن يردَّه، وأن لا يشتغل بإصلاحه، وإن كان من المسلمين وكان له إيمانٌ بالله ورسوله؛ ينبغي أن يجتهد في إصلاح كلامه، وأن يحمله على محملٍ صحيحٍ، وأن يطلبَ حَلَّه من قائله، فلو عجز عن حلِّه ينبغي أن ينصحَه، فإنَّ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر هو الرفقُ لكونه قريباً من الإجابة، فإن لم يكن المقصودُ الإجابةَ، بل كان تفضيحاً؛ فهو أمرٌ آخرُ، رزق الله تعالى التوفيقَ.

وأعجبُ من ذلك: أنَّه يفهم من المكتوب الشَّريف أنَّه قد طرأ الاشتباهُ والانحرافُ على ملازميكم أيضاً بعد استماع مكتوب هذا الفقير من ذاك العزيز، ويشبه أن يكون انعكاساً، وكان ينبغي لهم أن يحلُّوا مظانَّ الاشتباه بأنفسهم من غير أن يطرح لهذا الفقير، وأن يسكِّنوا الفتنةَ، فماذا أقول في حقِّ سائر الأصحاب بأن بعضهم لم يدفع الاشتباهَ، ولم تسمح نفسه بذلك، ....

واختار السكوتَ مع وجود القدرة على الدفع؟ (شعر)

وَنَحْنُ قَدْ تَوَقَّعْنَا مِنَ الْأَحْبَابِ إِمْدَادَا

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام أولاً وآخراً.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ وَالمِائَةُ

إلى مَولانا حسَنٍ الدِّهْلَوِيِّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ الحقيقةَ المحمديَّةَ ظهورٌ أوَّلُ وحقيقةُ الحقائق، بمعنى: أنَّ سائرَ الحقائق - سواءٌ كانت حقائقَ الأنبياء الكرام أو حقائقَ الملائكة العظام عليهم الصلاة والسلام - كالظلال لها، وأنَّها أصلُ جميع الحقائق، قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ نُورِي**»، وقال عليه الصلاة والسلام: «**خُلِقْتُ مِنْ نُورِ اللهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ نُورِي**»، فبالضَّرورة تكون تلك الحقيقةُ بين سائر الحقائق وبين الحقِّ جلَّ وعلا، ويكون وصولُ أحدٍ إلى المطلوب بلا توسُّطه عليه وعلى آله الصلاة والسلام محالاً، فهو نبيُّ الأنبياء والمرسلين، وإرسالُه رحمةً للعالمين، ومن ههنا يتمنَّى الأنبياءُ أولوا العزم مع وجود الأصالة فيهم تبعيَّتَه، والدخولَ في عداد أمته ﷺ.

فإن قيل: أيُّ كمالٍ مربوط بكون الأنبياء من أمته ﷺ، ولم يتيسّر لهم مع وجود دولة النبوَّة فيهم؟

قلت: إنَّ ذلك الكمالَ هو الوصولُ إلى حقيقة الحقائق، والاتحاد به، وهما منوطان بالتبعية والوراثة، بل موقوفان على كمال فضله تعالى، فإنَّهما نصيبُ أخصِّ الخواصِّ من أمَّته ﷺ، ومن لم يكن من أمَّته لا يصل إلى هذه الدَّولة، ولا يرتفع في حقِّه الحجابُ، فإنَّه إنّما يتيسّرُ بسبب الاتحاد، ولعلَّ الله سبحانه قال من هذه الحيثية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهو عليه وعلى آله الصلاة والسلام كما هو أفضلُ من كلِّ فردٍ من الأنبياء الكرام والملائكة العظام؛ كذلك هو عليه الصلاة والسلام أفضلُ من الكلّ من حيث الكلّ عليه وعليهم الصلاة والسلام، فإنَّ للأصل فضلاً على ظلِّه، وإن كان ذلك الظِّلُّ متضمناً لألوفٍ من الظلال، فإنَّ وصولَ الفيوض من المبدأ الفياض سبحانه إلى الظلِّ إنّما هو بتوسُّط الأصل، وقد حقَّق هذا الفقيرُ في رسائله أنَّ للنقطة الفوقانيَّة فضلاً على جميع النقط التي تحتها، وهنَّ كالظلال لها، وقطعُ العارف لتلك النقطة الفوقانية التي هي كالأصل أزيدُ من قطعه لجميع النقط التحتانيَّة التي هي كالظلال لها.

فإن قيل: يلزم من هذا البيان فضلُ خواصِّ هذه الأمة على الأنبياء عليهم السلام.

قلت: لا يلزم ذلك أصلاً، وإنَّما يلزم شركةُ خواصِّ هذه الأمَّة مع الأنبياء في تلك الدَّولة، ومع ذلك في الأنبياء كمالاتٌ كثيرةٌ ومزايا عديدةٌ مختصَّةٌ بهم، وأخصُّ الخواصِّ من هذه الأمَّة لو ترقَّى غاية الترقِّي لا يصل رأسه إلى قدم أدنى الأنبياء، وأين المجالُ للمساواة والمزيّة بعدُ؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]، عليهم الصلوات والتسليمات. فلو ترقَّى فردٌ من أفراد الأمة بتطفُّل نبيه وتبعيَّته فوق بعض الأنبياء عليهم السلام إنّما يكون ذلك بعنوان الخادميَّة والتبعيَّة، ومن المعلوم أنَّه ما نسبةُ الخادم إلى أقران المخدوم غيرَ الخادمية والتبعيَّة، والخادمُ الطفيليُّ طفيليٌّ في جميع الوقت، والحقيقةُ المحمديَّةُ التي هي حقيقةُ الحقائق على ما انكشف لهذا الفقير في آخر الأمر بعد طيِّ جميع مراتب الظلال هي التعيّنُ الحبيُّ، وظهورُه الذي هو مبدأُ الظهورات ومنشأُ خلق المخلوقات كما ورد في الحديث القدسي المشهور: ....

«كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِيّاً، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِأُعْرَفَ»، وأوَّلُ شيءٍ جاء إلى منصَّة الظُّهور من ذلك الكنز الخفيِّ؛ كان الحبَّ الذي صار سبباً لخلق الخلائق، فلو لم يكن هذا الحبُّ لما انفتحَ بابُ الإيجاد، وكان قدمُ العالم راسخاً ومستقرّاً في العدم، وينبغي أن يطلب سرُّ حديث: «لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ»، ولما أظهرت الربوبيةُ في هذا المقام.

فإن قيل: إنَّ صاحب «الفتوحات المكية» جعل التعيّنَ الأوّلَ الذي هو الحقيقةُ المحمديَّةُ عبارةً عن إجمال العلم، وأنت قلت في رسائلك: إنَّ التعيّنَ الأوّلَ هو التعيّنُ الوجوديُّ، وجعلت مركزَه الذي هو أشرفُ أجزائه وأسبقُها عبارةً عن الحقيقة المحمديَّة، وظننت تعيّنَ حضرة الإجمال ظلَّ هذا التعيّن الوجوديّ، وتكتب الآن ههنا: أنَّ التعيّنَ الأوّلَ هو التعيّنُ الحبيُّ، وأنَّه حقيقةٌ محمديةٌ، فما وجهُ التَّوفيق بين هذه الأقوال؟

قلت: كثيراً ما يظهر ظلُّ شيءٍ بصورة أصله، ويجعل السَّالكَ مشغولاً ومشغوفاً بنفسه، فذانك التعيّنان من ظلال التعيّن الأوّل ظهرا للسالك وقت العروج بصورة أصلهما الذي هو التعيّنُ الأوّلُ الحبيُّ.

فإن قيل: كيف يستقيم القولُ بأنَّ التعيّنَ الوجوديَّ ظلُّ التعين الحبيِّ، والحالُ أنَّ للوجود سبقةً على الحبِّ، فإنَّ الحبَّ فرعُ الوجود؟

قلت: إنَّ هذا الفقيرَ قد حقَّق في رسائله: أنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى موجودٌ بذاته لا بالوجود، وكذلك صفاتُه الثمانيةُ الحقيقيَّةُ موجودةٌ بذاته جلَّ شأنه لا بالوجود، فإنَّه لا مجالَ للوجود - بل للوجوب - في تلك المرتبة؛ لأنَّ الوجودَ والوجوبَ كليهما من الاعتبارات، وأوَّلُ اعتبارٍ ظهرَ لإيجاد العالم هو الحبّ، ثم بعده اعتبارُ الوجود الذي هو مقدّمةُ إيجاد العالم، فإنَّ لحضرة الذات تعالت بلا اعتبار هذا الحبِّ والوجودِ استغناءً عن العالم وعن إيجاد العالم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] نصٌّ قاطعٌ، والقولُ بظليَّة التعيّن العلميِّ الإجمالِ لذينك التعيّنين باعتبار أنَّهما من اعتبارات حضرة الذات بلا ملاحظة الصِّفات، والملحوظُ في هذا التعيّن هو الصفةُ الذي هي كالظلِّ للذات. ينبغي أن يعلم أنَّه إذا أجيل النظرُ في التعيّن الأوّل الذي هو التعيّنُ الحبيُّ بالدقَّة والإمعان؛ يعلم بفضل الله سبحانه أنَّ مركزَ ذلك التعيّن هو الحبُّ الذي هو الحقيقةُ المحمديَّةُ، ومحيطه الذي هو كالدائرة في صورة المثال وكالظلِّ لذلك المركز هو الخُلَّةُ التي هي الحقيقة الإبراهيميَّة، فكان الحبُّ أصلاً، والخلةُ كالظلِّ له، ومجموعُ المركز والمحيط الذي هو دائرةٌ واحدةٌ تعيّنٌ أوّلُ، ومسمّىً باسم أشرف أجزائه وأسبقها الذي هو المركزُ الذي هو عبارةٌ عن الحبِّ، وفي النظر الكشفيِّ أيضاً يظهر باعتبار أصالة ذلك الجزء وغلبته تعيّناً حبياً، ومن حيث إنَّ محيطَ الدائرة كالظل لمركزها وناشٍ منه - وإن ذلك المركز أصلٌ ومنشأٌ له - لو قيل للمحيط تعيّناً ثانوياً أيضاً؛ لجاز، ولكن ليس في النظر الكشفيِّ تعيّنان، بل تعينٌ واحدٌ مشتملٌ على الحبِّ والخلَّة اللذين هما المركزُ والمحيطُ، والتعيّنُ الثّاني في النظر الكشفيِّ هو التعيّنُ الوجوديُّ الذي هو كالظلِّ للتعيّن الأوّل كما مرَّ، فإذا كان المركزُ أصلاً للمحيط لا بُدَّ للمحيط في الوصول إلى المطلوب من توسُّط المركز، فإنَّ الوصولَ إلى المطلوب من طريق المركز الذي هو أصلُ الدائرة وإجمالُها ينبغي أن يعرف من هذا البيان مناسبةُ حبيب الله واتِّحاده بخليل الله عليهما الصلاة والسلام، ولما كان الأصلُ واسطةً للظلِّ في الوصول إلى المطلوب لا جرم أراد الخليلُ توسُّطَ حبيب الله، وتمنّى أن يكون داخلاً في عداد أمته...

عليهما الصلاة والسلام، كما ورد في الخبر.

فإن قيل: إذا كانت المعاملةُ هكذا، فما معنى أمرِ حبيب الله بمتابعة ملَّة خليل الله عليهما الصلاة والسلام؟ ولم قال ﷺ في بيان الصلاة والسلام على نفسه الشَّريفة: «**كَمَا صَلَّيْتَ وَكَمَا سَلَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**»؟

قلت: إنَّ حقيقةَ الشَّيء كلَّما كانت أعلى وأقربَ إلى التَّنزيه؛ يكون مظهرُ تلك الحقيقة في عالم العناصر أسفلَ، ويكون تلبُّسُه بالصِّفات البشريَّة أكثرَ، فوصولُ ذلك المظهر إلى تلك الحقيقة بطريق العروج يكون متضمناً للعسر، والملَّةُ التي أعطاها الله سبحانه لإبراهيم عليهم السلام طريقٌ واضحٌ للوصول إلى الحقيقة الإبراهيميَّة التي هي واقعةٌ في جوار الحقيقة المحمديَّة كما مرَّ، وإبراهيمُ عليه السلام وصل هناك من هذا الطَّريق، ولهذا أمر ﷺ بمتابعة ملَّته ليصل بها إلى حقيقة الحقائق، وقال ﷺ: «**كَمَا صَلَّيْتَ وَكَمَا سَلَّمْتَ**»؛ لأنَّ الصلاةَ والرَّحمةَ عليه عليه السلام إنّما هي بعد حصول دولة الوصول إلى الحقيقة، مع أنَّا نقول: إنَّ الفاضلَ يؤمر في بعض الأحيان بمتابعة المفضول، ولا يلزمُ من ذلك الأمرِ بالمتابعة قصورٌ في فاضليته، قال الله تعالى لنبيه عليه وعلى آله الصلاة والسلام: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، والأمرُ بمشورة الأصحاب لا يخلو من تضمُّن الأمر بمتابعتهم، وإلا؛ فما فائدةُ المشورة؟

واعلم أنَّ حقيقةَ الصــديق رضي الله عنه - يعني: ربه - من الأســماء الإلهيّة الذي هو مبدأُ تعيّنه ظلُّ الحقيقة المحمديَّة بلا توسُّطِ أمرٍ على نهجِ كلُّما هو كائنٌ في تلك الحقيقة ثابتٌ لذلك الظلِّ بطريق التبعيَّة والوراثة، ومن ههنا كان هو رضي الله عنه أكملَ ورثة هذه الأمَّة وأفضلهم، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَا صَبَّ اللهُ شَيْئًا فِي صَدْرِي إِلَّا وَقَدْ صَبَبْتُهُ فِي صَدْرِ أَبِي بَكْرٍ**»، ولاح أيضــاً أنَّ الحقيقةَ الإسرافيليَّةَ أيضــاً هي تلك الحقيقةُ المحمديَّةُ لا بطريق الأصالة والظليَّة كما في الحقيقة الصـــديقيَّة، حيث كانت ظِلّاً لتلك الحقيقة، بل في كليهما أصــالةٌ، هنا لا ظليةٌ حائلةٌ، وإنَّما الفرقُ بينهما بالكلية والجزئية، فإنَّ حقيقتَه ﷺ كليَّةٌ، ولهذا كانت تلك الحقيقةُ منسـوبةً إلى اسـمه عليه الصـلاة والسـلام، وحقائقُ الملائكة الكرام عليهم السلام ناشئةٌ من الحقيقة الإسرافيليَّة.

فإن قيل: هل يجوز أن يترقَّى العارفُ من حقيقته التي هي عبارةٌ عن الاسم الإلهيِّ الذي هو ربّه بعد الوصول إليها أو لا؟

قلت: إنَّ الوصولَ إلى تلك الحقيقة بعد طيِّ مراتب السُّلوك الذي قالوا: إنَّه عبارةٌ عن تمامية السَّير إلى الله على نوعين: أحدهما: وصولٌ إلى ظلٍّ من ظلال ذلك الاسم الذي ظهر في المظاهر الوجوبيَّة في صورة حقيقته، وبرز بوصف أصله، وهذا الاشتباهُ كثيرُ الوقوع في هذا الطَّريق، وعقبةٌ عظيمةٌ على السَّالك إلا أن يتيسّرَ مخلصٌ من هذه العقبة بمحض فضل الله تعالى، ولا شكَّ أنَّ هذا الترقِّي من هذا الظلِّ الشَّبيه بالحقيقة جائزٌ، بل واقعٌ، وأما إذا وقع الوصولُ إلى نفس الحقيقة؛ فلا يجوز الترقِّي منها بلا تطفُّل أحدٍ وتبعيَّته، فإنَّ تلك الحقيقةَ نهايةُ مراتب استعداده الذاتِي، وأما إذا وصل إلى حقيقة غيره التي هي فوق حقيقته بطريق التطفُّل؛ فجائزٌ بل واقعٌ، وهذا السَّيرُ كأنَّه سيرٌ قسريٌّ وراء السَّير الطبيعيِّ الاستعداديِّ كما مرت شمَّةٌ من ذلك عند بيان الوصول إلى الحقيقة المحمدية.

فإن قيل: هل يجوز الترقِّي من الحقيقة المحمديَّة التي هي حقيقةُ الحقائق ولا حقيقةَ فوقها من حقائق الممكنات أو لا؟

وأنت كتبت في رسائلك: أنَّ الترقِّي من الحقيقة المحمديَّة قد وقع، فما حقيقةُ هذه المعاملة؟

قلت: لا يجوز، فإنَّ فوقها مرتبةَ اللاتعيّن، ووصولُ المتعيَّن إليها ولحوقُه بها محالٌ، والقولُ بالوصول واللحوق بلا تكيُّف مجرَّدُ تفوُّهٍ يتسلَّى به قبل الوصول إلى حقيقة المعاملة، وأما بعد الوصول إلى حقيقة الأمر؛ فالحكمُ بعدم الوصول واللحوق لازمٌ؛ لأنَّه ليس فيه شائبةُ الريب، وما كتبت: أنَّه قد وقع الترقِّي من الحقيقة المحمديَّة؛ فالمرادُ من تلك الحقيقة: ظلُّ تلك الحقيقة الذي قالوا: إنَّه عبارةٌ عن إجمال حضرة العلم، ومعبَّرٌ عنه بالوحدة، كان في ذلك الوقت اشتباه الظلِّ بالأصل، ولما تيسّر التخلُّصُ بمحض فضل الله جل سلطانه من ذلك الظلِّ وسائر الظلال؛ علم أنَّ الترقِّي من حقيقة الحقائق غيرُ واقعٍ، بل غيرُ جائزٍ، فإنَّ رفعَ القدم منها ووضعَها فيما فوقها وضعُ القدم في الوجوب، وخروجٌ من الإمكان، وذلك محالٌ عقلاً وشرعـاً.

فإن قيل: يلزم من هذا التَّحقيق أنَّ الترقِّي من تلك الحقيقة غيرُ واقعٍ لخاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام أيضـاً.

قلت: إنَّه ﷺ أيضـاً - مع علوِّ شأنه وجلالة قدره - ممكنٌ دائمـاً لا يخرج من الإمكان قطُّ، ولا يلحق بالوجوب أصلاً، فإنَّه مستلزمٌ للتحقّق بالألوهية، تعالى الله أن يكون له ندٌّ وشريكٌ.

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَـارَى فِي نَبِيِّهِمِ... إلخ.

فإن قيل: قد اتَّضح من التَّحقيق السَّابق: أنَّ الوصولَ إلى حقيقة الحقائق واللُّحوق والاتِّحادَ بها بتطفُّله ووراثته ﷺ ثابتٌ للآخرين أيضـاً، وشركتهم له في كماله الخاصِّ به ﷺ كائنةٌ، فعلى هذا التَّقدير ما الفرقُ بين المتبوع الأصل وبين التابع الطفيليِّ في هذا الكمال الذي هو متضمِّنٌ لرفع الحجاب وارتفاع الواسطة، وفوق جميع الكمالات؟ وأيُّ مزيَّةٍ في المتبوع، والأصلُ ليست هي في التابع والطفيلي؟

قلت: إنَّ وصولَ الآخرين إلى تلك الحقيقة ولحوقهم بها من قبيل لحوق الخادم بالمخدوم، ووصولُ الطفيليّ إلى الأصيل، فإن كان الواصلُ من أخصِّ خواصِّ الأمة الذين هم الأقلون؛ فهو خادمٌ، وإن كان من الأنبياء عليهم السلام؛ فهو أيضـاً طفيليٌّ، والخادمُ الذي هو نائلُ حصّةٍ مما في يد المخدوم أيُّ شركةٍ له مع المخدوم؟ وأيُّ عزةٍ له؟ وأيُّ مزيّةٍ في جنبه؟ والطفيليُّ وإن كان جليسـاً وشريكـاً في اللقمة، ولكنَّ الطفيليَّ طفيليٌّ، ووصولُ الخدمة بتبعيَّة المخدوم إلى أمكنةٍ عاليةٍ، وأكلُهم من الأطعمة المخصوصة به، ونيلُهم الإعزاز والاحترام من عظمة شأن المخدوم، وعلوّ منزلته، وكأنَّه يلحق للمخدوم حينئذٍ عزةٌ أخرى من جهة لحوق خدمه به مع وجود عزته الذاتيّة، ويزيد بذلك قدرُه، ويرتفع شأنُه.

اسمع سماعـاً حسنـاً، إنَّه قد ورد في الحديث النبوي على صاحبه الصلاة والسلام: **«مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»**، فالمتبوعُ كلَّما كان التابعُ له في سنته الحسنة أكثرَ؛ يكون أجرُه مثلَ أجورهم أزيدَ وأوفرَ، ويكون موجبـاً لازدياد منزلته، فكيف يكون للتابعين شركةٌ مع المتبوع؟ وكيف تتوهَّمُ المساواةُ بينهما؟

اسمع اسمع، أنَّه يجوز أن يكون جماعةٌ في مقامٍ واحدٍ وشركاء في دولةٍ واحدةٍ، ولكن يكون مع كلِّ منهم معاملةٌ على حدةٍ، ولا يكون لأحدٍ منهم اطلاعٌ على الآخر، ألا ترى أنَّ أزواجَ النبي ﷺ يكنَّ معه في الجنة في مقامٍ واحدٍ، ويتناولن من طعامٍ واحدٍ، وشرابٍ واحدٍ، ولكنَّ المعاملةَ التي تكون مع النبي ﷺ لا تكون معهنَّ، والالتذاذُ والسرورُ اللذان يكونان له ﷺ لا يكونان لهنَّ؟ فلو كانت لهن شركةٌ هناك معه في جميع الأمور يلزم أفضليّتهنَّ ....

على الكلّ كأفضليّته ﷺ، فإنَّ الأفضليّةَ هنا بمعنى كثرة الثواب عند الله.

فإن قيل: إنَّ هذا التعيّنَ الحبيَّ الذي هو التعيّنُ الأوَّلُ والحقيقةُ المحمديَّةُ هل هو ممكنٌ أو واجبٌ، حادثٌ أو قديمٌ؟ وقد قال صاحبُ «الفصوص» للتعيّن الأوّل حقيقةً محمديّةً، وعبَّر عنه بالوحدة، وكذلك قال للتعيّن الثّاني واحديَّةً، وأثبت الأعيانَ الثابتةَ التي هي حقائقُ الممكنات عنده في تلك المرتبة، وقال لكلا التعيّنين: تعيّناً وجوبياً، واعتقد قدمهما، وقال للتعيّنات الثلاثة الباقية - أعني: الروحي والمثالي والجسدي -: تعيّناً إمكانياً، فما معتقدك في هذه المسألة؟

قلت: لا تعيّنَ عند هذا الفقير أصلاً ولا متعيّنَ، أيُّ تعيّنٍ يجعل اللا متعيّنَ متعيّناً؟ وهذه الألفاظُ موافقةٌ لمذاق حضرة الشَّيخ محيي الدين وأتباعه قدس الله تعالى أسرارهم، فإن وقع مثلُ هذه الألفاظ في عبارات الفقير؛ ينبغي أن نعتقده من قبيل صنعة المشاكلة، وعلى كلِّ حالٍ أقول: إنَّ ذلك التعيّنَ تعيّنٌ إمكانيٌّ ومخلوقٌ وحادثٌ، قال ﷺ: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ نُورِي**»، وورد في أحاديث آخر تعيّن وقتِ خلقة ذلك النور أيضاً كما ورد: «**قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ بِأَلْفَيْ عَامٍ**» وأمثاله، وكلُّما هو مخلوقٌ ومسبوقٌ بالعدم؛ فهو ممكنٌ وحادثٌ، فإذا كانت حقيقةُ الحقائق التي هي أسبقُ الحقائق مخلوقةً وممكنةً؛ تكون حقائقُ الآخرين مخلوقةً وممكنةً وحادثةً بالطَّريق الأولى، والعجبُ من الشَّيخ قدس سره من أين يحكمُ للحقيقة المحمدية - بل حقائق جميع الممكنات - التي قال لها أعياناً ثابتةً بالوجوب، ويعتقد قدمَها، ويخالف قولَ نبيه ﷺ؟ والممكنُ ممكنٌ بجميع أجزائه، وممكنٌ بصورته وحقيقته، لأيِّ شيءٍ يكون التعيّنُ الوجوبيُّ حقيقةَ الممكن، وحقيقةُ الممكن ينبغي أن تكون ممكنةً ألبتة، فإنَّ الممكنَ لا اشتراكَ له مع الواجب تعالى أصلاً ولا انتسابَ غير أن يكون الممكنُ مخلوقَهُ، وهو سبحانه خالقهُ، والشَّيخُ - لعدم تمييزه بين الواجب والممكن حيث قال بنفسه بعدم التميز بينهما - لا يبالي من أن يقول للواجب ممكناً وللممكن واجباً، فلو سومح في ذلك؛ فهو من كمال الكرم والعفو. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فإن قيل: إنَّك قد أثبتَّ في رسائلك بين الواجب تعالى والممكن نسبةَ الأصالة والظليَّة، وقلتَ في حق الممكن: إنَّه ظلُّ الواجب تعالى، وكتبت أيضاً: أنَّ الواجبَ تعالى باعتبار الأصالة حقيقةٌ للممكن الذي هو كالظلِّ له، وفرَّعت على ذلك معارفَ كثيرةً، فلو قال الشَّيخُ قدس سره أيضاً للواجب حقيقةَ الممكن بهذا الاعتبار أيُّ محذورٍ يلزم منه؟ ولم يكون ملوماً به؟

قلت: إنَّ مثلَ هذه العلوم التي تثبت بين الواجب تعالى والممكن نسبةٌ، ولم يرد بها الشرعُ كلُّها من المعارف السُّكرية، ولعدم الاطلاع على حقيقة المعاملة ولعدم إدراك كُنْه الأمر وماذا يكون الممكنُ حتى يكون ظلَّ الواجب تعالى، وكيف يكون للواجب تعالى ظلٌّ، فإنَّ الظلَّ موهمٌ لتوليد المثل، ومنبئٌ عن شائبة عدم كمال لطافة الأصل، فإذا لم يكن لمحمد رسول الله ﷺ من لطافته ظلٌّ كيف يكون لإله محمد ظلٌّ؟ والموجودُ في الخارج بالذات وبالاستقلال هو حضرةُ الذات تعالت، وصفاتُه الثمانيةُ الحقيقيَّةُ وما سواها أيّاً ما كان صار موجوداً بإيجاده تعالى، وممكنٌ ومخلوقٌ وحادثٌ، ولا شيء من المخلوق بظلٍّ لخالقه، وليس له انتسابٌ إلى الخالق تعالى غير المخلوقية، وغير ما ورد به الشرعُ، وهذا العلمُ بظلية العالم ينفعُ للسالك في الطَّريق نفعاً كثيراً، ويؤدِّيه بجذبه إلى الأصل، فإذا طوى بكمال العناية منازلَ الظِّلال ووصل إلى الأصل يجد بفضل الله تعالى ....

أنَّ هذا الأصلَ أيضـاً حكمُه حكم الظلِّ ليس له لياقةٌ بالمطلوبيَّة؛ لكونه متَّسماً بسمة الإمكان، وأنَّ المطلوبَ ما وراء حيطة الإدراك والوصل والاتِّصال. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

فصلٌ: قد كان منبعُ الفضائل والكمالات مولانا حسن الكشميري الدهلوي أحسن الله سبحانه أحواله وحصّل آماله أرسل رسالة إلى هذا الفقير، وأدرج فيها أسئلةً متعددةً، وطلب حلَّها، ولما كان حلُّها متضمناً لإظهار بعض الأسرار مع بعض موانع أخر ما اجترأ الفقيرُ على تحرير الجواب، وأمرَّ الوقت بالتعلل، ولكن لما كان للمشار إليه حقوقٌ عظيمةٌ على ذمَّة الفقير حيث تشرَّف بحسن دلالته بدولة الحضور عند صاحب الولاية حاوي طريق اندراج النِّهاية في البداية، فأخذ منه تعليمَ ألف باء في هذا الطَّريق، واستفاد في خدمته فيوضاتٍ وبركاتٍ غيرَ متناهيةٍ؛ أدرَجَ حلَّ بعض أسئلته التي لها مناسبةٌ بعلوم هذه الرِّسالة في ذيل هذه الرِّسالة بالضَّرورة، والله سبحانه الهادي إلى سبيل الرشاد.

وقد سأل: أنَّ الكمالاتِ الصوريَّةَ والمعنويَّةَ والظَّاهريَّةَ والباطنيَّةَ والعلميَّةَ والعمليَّةَ والدنيويَّةَ والأخرويَّةَ وما يمكن في نوع البشر كلَّها حاصلٌ لحضرة خير البشر ﷺ إلى يوم الحشر، ومتمكنةٌ فيه بالفعل، كما يفهم من حديث: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ، وآدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ**» وأمثالها، وما كان مشروطاً بشروطٍ أو موقوفاً على وقتٍ يحصل له بأحسن الوجوه ألبتَّة، فعلى هذا التَّقدير لماذا يكون حزنُه ﷺ الموصوفُ بالدوام المعروف بالكثرة؟ وما سبب ذلك؟ فإنَّ السببَ للحزن والغمِّ فقدانُ شيءٍ يطلبه ويريده ألبتة.

أيُّها المخدومُ، إنَّ استبعادَ وجود الحزن وفقدان الكمال بالنِّسبة إلى خاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية نظراً إلى جاهه وجلاله المحمديِّ، وعنايةُ الله جلَّ سلطانه الشاملة لحاله في حاله ومآله عليه الصلاة والسلام مسلَّمٌ ومستحسنٌ، وإذا نظرنا إلى عبديَّته وعجزه البشريِّ ﷺ، ولاحَظنا عزَّته وجلالَه وعظمتَه وكبرياءَه واستغناءَه تعالى الذَّاتيّات لا يُستبعدُ حصولُ حزنٍ له أو فقدانُ كمالٍ من كمالاته تعالى الغير المتناهية في حقِّه ﷺ أيضاً، بل ذلك لائقٌ بحال العبوديَّة، قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] كلاهما شاهدان عدلان لهذا المعنى، ويُثْبِتَان الفقدان في حقِّ الكلّ. نعم، إنَّ الممكنَ - وإن بلغ الدَّرجات العلى - ماذا يُدْرِكُ من حقيقة الواجب؟ وماذا ينال الحادثُ من القديم؟ وكيف يحيط المتناهي بما هو غيرُ متناهٍ؟ وما كتبوه من أنَّ كلَّ كمالٍ ممكنِ الحصول لنوع البشر؛ فهو حاصلٌ فيه ﷺ بالفعل، نعم، إنَّ الفضلَ الكليَّ على الكلّ مخصوصٌ به عليه الصلاة والسلام، ولكن يجوز أن يكون كمالٌ راجعٌ إلى فضلٍ جزئيٍّ مخصوصاً ببعض الأنبياء الكرام أو الملائكة العظام عليهم الصلاة والسلام، ولا يُوجِبُ ذلك قصوراً في فضله ﷺ الكليِّ أصلاً، وقد وردت أحاديث صحيحةٌ بكون بعض الكمالات في أفراد الأمَّة حتى يغبطه الأنبياءُ عليهم السلام، والحالُ أنَّ الفضلَ الكلّيَّ على جميع أفراد الأمَّة للأنبياء عليهم السلام، وأيضاً قد ورد في الحديث: أن للشهداء في سبيل الله مزيةً على الأنبياء بأشياء، حيث إنَّ الشهداءَ لا احتياج لهم إلى الغسل، ولم يُشرعْ صلاةُ الجنازة على الشهداء كما هو مذهبُ الإمام الشافعيِّ، والأنبياءُ لا بُدَّ لهم من الصلاة، وقال في القرآن ....

المجيد: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ اَمْوَاتٌ بَلْ اَحْيَاءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤] الآية، وقال في حقِّ الأنبياء: موتى، وهذه كلُّها فضائلُ جزئيةٌ لا تستلزم القصورَ في فضل الأنبياء الكليِّ، فيمكن أن يطرأ عليه ﷺ حزنٌ وغمٌّ بسبب فقدان هذه الفضائل الجزئيَّة، ويكون ذلك الحزنُ سبباً لحصول الاستعداد والوصول إلى تلك الفضائل، بأن تجتمع الشهادةُ مثلاً مع النبوَّة. ولئن سلَّمنا أنَّ جميعَ كمالات جميع أفراد الإنسان حاصلةٌ له ﷺ بالفعل نقول: إنَّ همَّته ﷺ لَمّا كانت عاليةً؛ لم يكتفِ بتلك الكمالات، بل اشتاق إلى ما فوقها، قائلاً: هل من مزيد، ولما كان حصولُ الكمالات الفوقانيَّة للبشر خارجاً عن حدِّ الإمكان؛ كان دوامُ الحزن وإفراطُ الغمِّ نقدَ وقته ﷺ، وتحقيقُ هذا المبحث - والله أعلم بحقيقة الحال - أنَّ مدارَ الأمر في الطَّريقة والحقيقة وفي القُرْبة والمعرفة على الفناء، وعلى زوال الصِّفات البشرية والأحوال الإمكانيَّة: (شعر)

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي حُبِّ مَوْلَاهُ فَانِيـًا ... فَلَيْسَ لَـهُ فِي كِبْرِيَاهُ سَبِيلُ

وكلُّما يبقى من وجود البشريَّة يكون حجابُ الطَّريق بقدره، وارتفاعُ الصِّفات البشريَّة بالكليَّة غيرُ ممكنٍ في حقِّ الكلّ، سواء كان من الخواصِّ أو من أخصِّ الخواصِّ، قال الشَّيخ فريد الدين العطار: (شعر)

أَلَا تَرَى سَيِّدَ الْكَوْنَيْنِ مَا وَصَلَا ... لَكِنَّهُ فَقْرٌ فَدَعْ عَنْ نَفْسِكَ التَّعَبَا

وأراد بكنه الفقر زوالَ الصِّفات البشريَّة والأحكام الإمكانيَّة بالكليَّة، وحصولُ ذلك غيرُ متصوَّرٍ؛ لكونه مستلزماً لقلب الحقائق، فإنَّ الممكنَ إذا ترقَّى وانخلع من إمكانيَّته يصير واجباً ألبتة، وذلك محالٌ عقلاً وشرعاً، وما قاله واحدٌ من الأعزة: (شعر)

لَوْ نَفَضَ الْمُمْكِنُ أَغْبِرَةَ الْـ ... إِمْكَانِ لَا يَبْقَى سِوَى وَاجِبِ

محمولٌ على التَّمثيل والتَّشبيه، لا على التَّحقيق والتَّقرير، فإنَّه غيرُ واقعٍ، قال واحدٌ من الأعزة: (شعر)

سَوَادُ الْوَجْهِ فِي الدَّارَيْنِ صَاحِ ... مِنَ الْمَخْلُوقِ أَصْلاً لَا يَزُولُ

فإن قيل: إنَّ بقاءَ أحكام الإمكان وآثاره ظاهرٌ في مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، فإنَّ قوسَ الوجوب وقوسَ الإمكان كليهما قائمان فيه، وأما مقام ﴿اَوْ اَدْنٰى﴾ الذي هو بالأصالة مخصوصٌ به ﷺ؛ فما معنى بقاءِ أحكام الإمكان فيه؟

قلت: إنَّ ما به الامتيازُ بين الوجوب والإمكان هو العدم الذي هو أحد طرفي الإمكان، فإنَّ الطرفَ الآخرَ من الإمكان الذي هو الوجودُ مشتركٌ بين الوجوب والإمكان، وفي مقام ﴿اَوْ اَدْنٰى﴾ تَشْرَعُ أحكامُ تلك العدم في الزَّوال، فيرتفع الامتيازُ من بين القوسين، لا أنَّ الإمكانَ يرتفع بالكليَّة، وينقلب وجوباً، فإنَّه محالٌ كما مرَّ، وإنَّما الفرقُ: أنَّ في مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ لا تخلُّصَ من الحجب الظلمانيّة التي هي من آثار العدم، وفي مقام ﴿اَوْ اَدْنٰى﴾ لو وُجدت الحجبُ؛ فهي نورانيَّةٌ وناشئةٌ من طرف الوجود الإمكانيِّ، ويمكن حَمْلُ معنى ذلك البيت الذي مرَّ على هذا التَّوجيه، بأن يراد من نفض غبار الإمكان زوالَ أحكام العدم التي هي كدورةٌ بالكليَّة.

فإن قيل: إذا زال طرفُ العدم عن الإمكان، وارتفع ما به الامتيازُ من بين الوجوب والإمكان، ولم يَبْقَ فيه غيرُ الوجود الذي هو طرفٌ آخرُ من ....

الإمكان، وقدِّر مشتركٌ بينه وبين الوجوب؛ فقد انخلع الإمكانُ عن حقيقته، وصار ملحقاً بالوجوب الذي هو الوجودُ الصِّرفُ، ولزم قلبُ الحقيقة، وكان معنى البيت المذكور - أعني: لم يبق فيه شيء غير الواجب - محمولاً على حقيقته.

قلت: إنَّ الوجودَ الذي هو أحدُ طرفي الإمكان ظلُّ الوجود الذي هو ثابتٌ في الوجود لا عينُه، وذاك الوجوبُ الذي حدث في الممكن بسبب زوال طرفه العدم هو وجوبٌ بالغير الذي هو قسمٌ من الممكن، لا وجوبٌ بالذات حتى يلزم انقلابُ الحقيقة، وذلك لأنَّ ارتفاعَ هذا العدم ما جاء من جهة الممكن حتى يصير واجباً بالذَّات، ويلزمَ المحالُ، بل ارتفاعُ هذا العدم من الممكن إنّما هو لاستيلاء وجود الواجب، وقهر الوجوب الذاتِيّ للممكن الذاتِيّ، والمتبادرُ من الوجوب المذكور في المصراع السَّابق هو الوجوبُ الذاتِيُّ، لا الوجوبُ بالغير، والقولُ بكون الوجود قدراً مشتركاً بين الواجب والممكن؛ فهو من قبيل الاشتراك اللفظيِّ لا المعنويِّ، وإن قالوا: إنَّه كليٌّ مشكّكٌ، فإنَّه لا شركةَ لوجود الممكن مع وجود الواجب في الحقيقة أصلاً حتى تتصوَّرَ الكليَّةُ والجزئيَّةُ.

فإن قيل: فما معنى الفناء والبقاء اللذين قال بهما الصوفيَّةُ، وجعلوا الولايةَ عبارةً عنهما؟ فإنَّه إذا لم يُتصوَّر ارتفاع الصِّفات البشريَّة كيف يتصوَّرُ الفناءُ؟

قلت: إنَّ الفناءَ الذي هو معتبرٌ في الولاية باعتبار الشُّعور والشُّهود، فإنَّه عبارةٌ عن نسيان ما سوى الحقِّ سبحانه، لا ارتفاع ما سواه.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ صاحبَ ذلك الفناء ربّما يظن في غلبات السُّكر عدمَ الشُّعور بالأشياء عدمَ الأشياء، ويتوهُّمه ارتفاعَ ما سواه تعالى، ويتسلَّى بذلك، فإذا ترقَّى من ذلك بمحض فضله تعالى، وتشرَّف بدولة الصَّحْو، وصار صاحبَ تميُّزٍ؛ يعلم أنَّ ذلك الفناءَ كان نسيانَ الأشياء لا انعدامَ الأشياء، فلو زال بسبب هذا النِّسيان شيءٌ؛ فإنَّما هو التعلّقُ بالأشياء الذي كان متمكناً ومذموماً، لا نفس الأشياء، فإنَّها قائمةٌ على صرافتها، ممتنعٌ نفيُها وإعدامُها:

(ع) سیاهی از حبشی کی رود که خود رنگ است

فإذا حصَّل بفضل الله تعالى هذه الرُّؤيةَ والتَّمييزَ؛ زال ذلك التَّسلِّي، وقعد مكانَه الحزنُ والغمُّ وعدمُ الاستراحة، وتيقَّن أنَّ وجودَه مرضيٌّ؛ لا يكون بسعيه واهتمامه معدوماً، وعلم أنَّ نقصَ الإمكان وقصورَ الحدوث لا زمانَ له دائماً، والعجبُ أنَّ العارفَ كلَّما يترقَّى إلى فوق، ويكون عروجاتُه أكثرَ؛ يكون رؤيةُ النَّقص والقصور فيه أزيدَ، ويكون عديمَ القرار والرَّاحة، وتشبهُ معاملةُ هذا العارف بقصَّة تلميذ رسن تاب حيث قال لأستاذه على وجه التَّعجُّب: كلَّما يكون عملي أزيدَ أقعُ أبعدَ، ولعلَّه من ههنا قال عليه الصلاة والسلام كما ورد: «**يَا لَيْتَ رَبَّ مُحَمَّدٍ لَمْ يَخْلُقْ مُحَمَّداً**»(١)، وقال أيضاً ﷺ: «**مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ**»، ويشبهُ أن يكون المرادُ بهذه الأذية: رؤيةَ النقص والقصور الموجبة لكمال الحزن والغمّ، فإنَّ سائرَ الأذية يمكن أن يقال: إنَّها كانت في سائر الأنبياء أكثرَ، فإنَّ نوحاً عليه السلام كان بين قومه تسعمائة وخمسين عاماً، ورأى منهم أنواعَ الأذية، ونقل أنَّ قومه رموه حين دعاهم إلى الإيمان بالأحجار حتى سقط مغشياً عليه من كثرة الأحجار كالأمطار، فكان مستوراً تحت الأحجار، فلما أفاق شرع إلى الدعوة، وعامله قومه بالمعاملة السابقة، وهكذا إلى أن يبلغ الكتاب أجله.

ينبغي أن يعلم أنَّ رؤيةَ النَّقص والقصور هذه ليست هي من البعد، بل هي القربُ والحضورُ، فإنَّ الكدورةَ القليلةَ في المحلِّ النورانِيِّ ترى ....

(١) ذكره النيسابوري في «غرائب القرآن»: (٢/ ٥٠٦).

في النَّظر كثيرةً، والكدورةَ الكثيرةَ في المحل الظلمانِيّ ترى يسيرةً، وإنّما قلت فيما سبق: إنّ مدارَ الأمر في القرب والمعرفة على الفناء، فإنَّ السَّالكَ ما لم يَفْنَ عن نفسه، ولم يخرج من الصِّفات البشريَّة والإمكانيَّة بالكليَّة؛ لا يصل إلى المطلوب، فإنَّ اجتماعَه مع المطلوب من قبيل اجتماع النقيضين، فإنَّ ثبوتَ العدم ضروريٌّ في الإمكان، وفي الوجوب سلبُه ضروريٌّ، وما لم يصل إلى المطلوب، ماذا يدرك من كمالات المطلوب؟ لا يدرك الشيءُ إلا بما يضاده ويغايره قضيَّةٌ مقررةٌ عند أرباب المعقول، ألا ترى أنَّ الصبيَّ الذي لا يعرف لذَّة الجماع إذا وصفت له لذته ليقال: إنَّه حلوٌ لا مرٌّ، وهو يتوهَّم حلاوتَه كحلاوة النبات والعسل ألبتة، فإنَّه لا حلاوةَ في وجدانه غيرُها، وهذه اللذَّةُ ليست هي لذتَه، بل هي لذَّةٌ مجعولةٌ ومخترعةٌ باختراع وهم ذلك الصبي، وفي الحقيقة هي راجعةٌ إليه لا إلى ذاك، فالعارفُ كلّما يحكي من المطلوب من قبل نفسه بلا إعلامٍ منه إنّما يكون حاكياً من نفسه، وإذا مدحه كان مادحًا لنفسه، قال عارفٌ في هذا المقام: يمكن أن يكون ضميرُ ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] راجعـًا إلى الشيء، يعني: لا يسبِّح شيءٌ ولا يقدِّس ولا يمدح إلا نفسه، لهذا قال البسطاميُّ: سبحاني لإعادة التَّسبيح إليه، ونِعْمَ ما قيل بالفارسية المثنوية أشعار:

(ع) اى شده هم در جمالِ خويشتن — مى پرستى هم خيالِ خويشتن
قسم خلقان زان جمال و زان كمال — هست گر بر هم نهى مُشت خيال
گر ز معشوقت خيالى در سر است — نيست معشوق، آن خيالِ ديگر است

قال صاحبُ «الفصوص»: والتجلِّي من الذَّات لا يكون إلا بصورة المتجلَّى له، فالمتجلَّى له ما رأى سوى صورته في مرآة الحقِّ، وما رأى الحقَّ، ولا يمكن أن يراه، وقال بإمكان الرؤية على وجه المتابعة، لا على وجه التَّحقيق، فإنَّ الرُّؤيةَ في الدُّنيا جائزةٌ، وفي الآخرة واقعةٌ، ولَمّا كان فناءُ السَّالك بالكليَّة ممتنعـًا، وكان الوصولُ إلى المطلوب والاتِّصال به بدونه ممنوعـًا، ولم تتصوَّر المعرفةُ بدون الوصول؛ لزم العجزُ عن المعرفة بالضَّرورة، وصار العجزُ عن المعرفة عينَ المعرفة.

لا يقال: إنَّ العجزَ عن المعرفة كيف يكون عينَ المعرفة، فإنَّه نقيضُها؛ لأنَّ العجزَ عن المعرفة عبارةٌ عن معرفةٍ بأنَّه لا يعرفُ، قال الصديقُ الأكبرُ رضي الله تعالى عنه: العجزُ عن درك الإدراك إدراكٌ، فسبحان من لم يجعل للخلق إليه سبيلاً إلا بالعجز عن معرفته، قال واحدٌ من الأكابر: (شعر)

سُبْحَانَهُ مِنْ خَالِقٍ — أَوْصَافُهُ مِنْ كِبْرِيَاهُ
أَلْقَى عَلَى تُرَابِ عَجْـ — ـزٍ فِيهِ عَقْلُ أَنْبِيَاهُ

فإذا كان الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام عاجزين في معرفة صفة كبريائه، وقال الملائكةُ الكرام عليهم السلام: (سبحانك ما عرفناك حق معرفتك)، واعترف الصديقُ ﷺ الذي هو رئيسُ هذه الأمَّة التي هي خيرُ الأمم بالعجز، فمن ذا الذي يدَّعي المعرفةَ بعد هؤلاء؟ إلا أن يظنَّ جهلَه المركَّبَ معرفةً، ويعتقدَ غيرَ الحقِّ حقّاً، وهذا العجزُ عن المعرفة هو نهايةُ نهايات مراتب العروج، ومنتهى غايات مدارج القرب، ومن لم يَصِلْ إلى النُّقطة الأخيرة، ولم يَطْوِ مراتبَ التجلِّيات والظهورات، ولم يجد الوصلَ والاتِّصالَ الذين كان مسروراً بهما مدّةً كثيرةً عينَ الانفصال؛ لا يكون مشرَّفًا بدولة هذا العجز، ولا يتخلَّصُ عن الجهل بالله، ومعرفةِ غير..

الحقِّ حقّـًا.

فإن قيل: فعلى هذا ما معنى وجوب معرفة الله تعالى؟

قلت: معنى وجوب المعرفة: هو أنَّ كلَّما ورد به الشَّرعُ في معرفة الذات والصِّفات الإلهيّة؛ فمعرفتُه واجبةٌ، وكلُّ معرفةٍ تستفاد من غير الشَّريعة؛ فإطلاقُ معرفة الحقِّ عليها جراءةٌ عند هذا الفقير، وحكمٌ على الحق جل وعلا بالظنِّ والتخمين، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ولعله لذلك قال سراجُ الأمة وإمامُ الأئمة الإمام الأعظم الكوفِيُّ رضي الله تعالى عنه: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك، ولكن عرفناك حقَّ معرفتك، وإن كان هذا القولُ ثقيلاً على الأكثر، ولكنه قابلٌ للتَّوجيه الوجيه، فإنَّ حقَّ المعرفة: أن يعرف الحقَّ بجميع ما نطقت به الشَّريعة من كمالاته وتنزيهاته وتقديساته تعالى؛ لأنَّه لم يبق ما وراءه معرفةٌ حتى تكون مانعةً عن المعرفة.

فإن قيل: للعوامِّ شركةٌ في هذه المعرفة مع الخواصِّ، بل مساواةٌ، فيلزم أن تكون معرفةُ عوامِّ المؤمنين مثلَ معرفة الأنبياء عليهم الصلاة والتسليمات، فإنَّ حقَّ المعرفة حصل للكلِّ، وهذه المسألةُ تشبه ما قال الإمامُ الأعظمُ: الإيمانُ لا يزيدُ ولا ينقصُ، وقالوا هناك: إنَّه يلزمُ من هذه العبارة أن يكون إيمانُ عوامِّ المؤمنين مثلَ إيمان الأنبياء عليهم السلام.

قلت: إنَّ حاصلَ هذه الشُّبهة القويَّة مبنيَّةٌ على دقيقة اهتدى إليها هذا الفقير بمحض الفضل والكرم، وهي أنَّ حقَّ المعرفة هو أن يلحق بتلك المعارف الشَّرعيّة الحاصلة للعارف العجزُ عن المعرفة، مثلاً: وردت الشَّريعةُ بثبوت صفة العلم للواجب تعالى، وذلك العلمُ غيرُ متكيِّفٍ وغيرُ متكمٍّ كذاته تعالى، وخارجٌ عن حيطةِ إدراكنا، فمن عرف ذلك العلمَ قياساً على علمه؛ فهو لم يعرفْهُ، بل المعرفةُ هناك مجعولُ وهمه، ومخترعُ خياله، لا معرفةُ علم الحقِّ الذي هو صفته الكاملة، ففي هذه الصورة لم توجد نفسُ المعرفة، فضلاً عن حق المعرفة، فإن انجرَّت معاملتُه من القياس والتخمين إلى العجز، ووجد بوجدانه وحاله أنَّه لا يمكن معرفته، وأيقن أنَّه لا نصيبَ له من ذلك غير الإيمان بثبوت تلك الصفة الكاملة؛ فحينئذٍ قد حصل له نفسُ المعرفة وحقُّ المعرفة، فكان أصلُ المعرفة هو حقَّ المعرفة في الحقيقة، وما ليس بحقِّ المعرفة ليس بأصل المعرفة فلم يكن للعوامِّ شركةٌ مع الخواصِّ في حقِّ المعرفة، وأين المساواةُ بعدُ؟

فإن قيل: إذا كان حقُّ المعرفة نفسَ المعرفة يلزم أن لا يكون في العوامِّ نفس المعرفة؛ لعدم حقِّ المعرفة فيهم.

قلت: إنَّ للمعرفة صورةً وحقيقةً، والمعرفةُ التي هي عينُ حقِّ المعرفة هي حقيقةُ المعرفة المربوطة بالعجز عن المعرفة، وصورتُها هي ما لم تبلغ حدَّ هذا العجز، ولم تتخلص من شائبة المقايسة على صفات الإمكان كما مرَّ، ومن كمال فضله تعالى اعتبر صورةَ المعرفة في نفس الإيمان، وجعل النَّجاةَ مربوطةً بها، كما اعتبر صورةَ الإيمان أيضـًا، وجعل دخولَ الجنة مترتبـًا عليها، وصورةُ المعرفة كافيةٌ في صورة الإيمان، وأما حقيقةُ الإيمان؛ فلا بُدَّ فيها من حقيقة المعرفة، فعلم من هذا التَّحقيق أنَّ للإيمان أيضـًا فردين: صورةً وحقيقةً، وما هو نصيبُ العوامِّ هو الصورةُ، وما أعطيه الخواصُّ هو الحقيقةُ، فلم يكن إيمانُ العوام مثلَ إيمان الأنبياء عليهم السلام الذين هم أخصُّ الخواصِّ، فإنَّ ذاك الإيمانَ غيرُ هذا الإيمان لا مماثلةَ بينهما، ولما كان العجزُ عن المعرفة مأخوذاً في حقيقة الإيمان، وكانت المعرفةُ بأنَّه لا يعرف موجودةً فيها؛ لا جرم يكون الزيادةُ والنقصانُ مفقودين فيها، فإنَّه لا احتمالَ لتفاوت درجات المعرفة في سلب المعرفة، وتفاوتُ الدَّرجات إنّما هو في الثُّبوت، فلا يكون في حقيقة الإيمان...

زيادةٌ ولا نقصانٌ. والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

فإن قيل: يلزم على هذا التَّقرير أن تكون علومُ الصوفيَّة ومعارفُهم الكشفيَّةُ ساقطةً عن حيِّز الاعتبار، وأن لا تكون معرفةُ الحقِّ جل وعلا مربوطةً بها أصلاً، فإنَّ حقَّ المعرفة حصل بالعلوم الشَّرعيّة، ولم تبقَ معرفةٌ حتى يكتسبها الصوفيَّةُ بالسعي والاجتهاد، فلم تثبت للصوفيَّة مزية على العلماء في معرفة الحقِّ جلَّ شأنه أصلاً.

قلت: إنَّ علومَ الصوفيَّة ومعارفَهم الكشفيَّةَ معداتٌ لذلك العجز الذي يتيسّرُ للمنتهيين منهم إلى نهاية النهاية، وهؤلاء الأكابرُ يتدرَّجون في مدارج تلك المعارف الكشفيَّة إلى أن يتشرَّفوا بدولة الوصول إلى ذلك العجز، فتكون معارفُ هؤلاء الأصفياء معتبرةً؛ لكونها وسيلةً لحصول حقِّ المعرفة، وذريعةَ الوصول إلى تلك الحقيقة.

فإن قيل: إذا ثبت العجزُ عن المعرفة، وكان الكمالُ منحصراً في العجز، فما معنى اعتبار الصوفيَّة ثلاثةَ مراتبَ في المعرفة؟ وما يكون المرادُ بعلم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين؟

قلت: إنَّ لهذا الفقير مشاجرةً في هذه المسألة مع القوم، وهؤلاء الأكابرُ اعتبروا هذه المراتبَ الثلاثَ بالنِّسبة إلى ذاته تعالى، وأثبتوا علمَ اليقين وعينَ اليقين وحقَّ اليقين في حضرته جل شأنه، وفي التَّمثيل الذي أوردوه لذلك قالوا للعلم بالنار الحاصل من الاستدلال بالدخان: علمَ اليقين بالنِّسبة إلى النار، وقالوا لرؤية النار: عينَ اليقين، وللتحقق بالنار: حقَّ اليقين، وهذا الفقيرُ نزَّل هذه المراتبَ الثلاثَ إلى الآيات الدالَّة على ذات الواجب جلَّ سلطانه، وقال بالعلم والعين والحقِّ في الدوالِّ لا في المدلول، فإنَّه أجلُّ وأعلى من العلم والعين والحقِّ، وفي التَّمثيل أثبت العلمَ والعينَ والحقَّ بالنِّسبة إلى الدخان، لا بالنِّسبة إلى النار، فإنَّ العلمَ بالدُّخان إذا حصل بالاستدلال؛ فهو علمُ اليقين بالنِّسبة إلى الدخان المستلزم للنار، وإذا حصلت رؤيةُ الدخان، واستدلَّ به لوجود النار؛ فهو عينُ اليقين بالنِّسبة إلى الدخان، وإذا حصل التحقّقُ بالدخان، واستدلَّ به على وجود النار؛ فهو حقُّ اليقين بالنِّسبة إلى الدخان، وهذا الاستدلالُ أتمُّ من الاستدلال السابق، فإنَّ ذاك استدلالٌ من الآفاق، وهذا استدلالٌ من الأنفس؛ لحصول التحقّق بالدخان. وأيضاً إنَّ الدخانَ واسطةٌ في عين اليقين، وفي حقِّ اليقين ليس بواسطةٍ، بل النِّسبةُ التي هي كائنةٌ للدخان مع النار تحصل تلك النِّسبةُ بعينها للمستدلِّ، فيصل إلى أعلى مدارج القرب الذي هو ما وراء العلم والعين والحقّ.

لا يقال: إذا ارتفعت الواسطةُ؛ فقد تحقّقت الرؤيةُ التي هي عينُ اليقين؛ لأنّا نقول: إنَّ ارتفاعَ الواسطة لا يكفي في تحقّق الرُّؤية، بل لا بُدَّ من أشياء أخر، وهي مفقودةٌ، ولما كانت مراتبُ اليقين راجعةً إلى الآيات، ولم تبق معرفةٌ تكون راجعةً إلى المدلول؛ لزم العجزُ عن المعرفة في المدلول بالضَّرورة، ولم تتحقّق هناك معرفةٌ غيرَ سلب المعرفة، فلو لم تجعل هذه المراتبُ الثلاثُ لليقين راجعةً إلى الآيات، وكانت راجعةً إلى المدلول؛ كيف يتصوَّرُ العجزُ عن المعرفة؟ وما يكون معنى سلب المعرفة؟

المكتوبُ الثاني والعشرون والمائة

إلى نُور محمَّدٍ التَّهَارِيِّ في بيانِ أنَّ الطَّريقَ الموصِل إلى جَنابِ قُدْسِ الحقِّ تعالى اثنَانِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. إنَّ الطَّريقَ الموصلَ إلى جناب قدسه تعالى اثنان: طريقٌ يتعلّقُ بقرب النبوَّة على أربابها الصلاةُ والتحيةُ، وهو موصلٌ إلى أصل الأصل، والواصلون من هذا الطَّريق بالأصالة هم الأنبياءُ عليهم السلام وأصحابُهم...

الكرامُ، ويشرَّفُ به أيضـاً من أريد له ذلك من سائر أولياء الأمَّة العظام وإن كانوا قليلين، بل أقلَّ، ولا توسُّطَ في هذا الطَّريق ولا حيلولةَ، وكلُّ من يأخذ الفيضَ من هؤلاء الواصلين يأخذه من الأصل بلا توسُّطِ أحدٍ، وليس أحدُهم حائلاً للآخر. وطريقٌ يتعلّق بقرب الولاية، والأقطابُ والأوتادُ والبدلاءُ والنجباءُ وعامّةُ أولياء الله تعالى واصلون من هذا الطَّريق، وطريقُ السُّلوك عبارةٌ عن هذا الطَّريق، بل الجذبةُ المتعارفةُ أيضـاً داخلةٌ فيه، وفيه التوسُّطُ والحيلولةُ، ومقتدى الواصلين من هذا الطَّريق ورئيسُهم ومنبعُ فيض هؤلاء الأكابر عليٌّ المرتضى كرم الله تعالى وجهه الكريم، وهذا المنصبُ العظيمُ الشأن متعلّقٌ به، وكأنَّ قدمي النبيِّ ﷺ في هذا المقام على فرقه المبارك كرم الله تعالى وجهه، وحضرةُ الفاطمة وحضراتُ الحسنين شركاءُ معه في هذا المقام، وأظنُّ أنَّه كرم الله وجهه كان ملاذَ هذا المقام قبل النَّشأة العنصريَّة أيضـاً، كما أنَّ بعد النَّشأة العنصريَّة كلُّ من وصل إليه الفيضُ والهدايةُ من هذا الطَّريق وصل بتوسُّطه، فإنَّه عند نقطة منتهى هذا الطَّريق، ومركزُ هذا المقام متعلّقٌ به، ولَمّا تمَّ دورُه كرم الله وجهه فوَّض هذا المنصبَ العظيمَ القَدْر وسلَّمه إلى حضرات الحسنين على التَّرتيب، وبعدهما إلى كلِّ واحدٍ من الأئمة الاثنى عشر على الترتيب والتَّفصيل، وكلُّ من وصل إليه الفيضُ والهدايةُ في أعصار هؤلاء الأكابر - وكذلك بعد ارتحالهم - وصل بتوسُّطهم وبحيلولتهم وإن كان من الأقطاب ونجباء الوقت، وكان ملاذَ الجميع وملجأَ الكلّ هؤلاء الأكابرُ، فإنَّه لا بُدَّ للأطراف من اللحوق بالمركز، إلى أن وصلت النوبةُ إلى الشَّيخ عبد القادر الجيلانيِّ قدس سره، ولما بلغت النوبةُ إليه فوِّضَ المنصبُ المذكورُ إليه قدس سره، ولا يشاهَدُ على هذا المركز أحدٌ بين الأئمة المذكورين وبين الشَّيخ قدس سره، ويفهم وصولُ الفيوض والبركات في هذا الطَّريق إلى أيِّ فردٍ كان من الأقطاب والنُّجباء بتوسُّطه الشَّريف، فإنَّ هذا المركزَ لم يتيسّرْ لغيره، ولهذا قال[1]: (شعر)

أَفَلَتْ شُـمُوسُ الْأَوَّلِينَ وَشَـمْسُـنَا ... أَبَـداً عَـلَـى أُفُـقِ الْـعُـلَـى لَا تَـغْـرُبُ

والمرادُ بالشمس: شمسُ فيضان الهداية والإرشاد، ومن أفولها: عدمُ الفيضان المذكور، ولَمّا تعلّقت المعاملةُ التي كانت أوّلاً متعلّقةً بالأوّلين بالشَّيخ بعد وجوده، وصار هو واسطةَ وصول الرُّشد والهداية كما كان الأوّلون قبله، ويكون وصولُ الفيض أيضـاً بتوسُّطه ما دامت معاملةُ التوسُّط باقيةً؛ صحّ قولُه: (شعر)

أَفَلَتْ شُـمُوسُ الْأَوَّلِينَ وَشَـمْسُـنَا

... البيت.

فإن قيل: إنَّ هذا الحكمَ منتقضٌ بمجدد الألف الثَّاني، فإنَّه قد اندرج في مكتوبٍ من مكتوبات الجلد الثّاني في بيان معنى مجدد الألف الثّاني: أنَّ كلَّما يصل إلى الأمة في تلك المدَّة من أنواع الفيض إنّما يصل بتوسُّطه، سواءٌ كانوا أقطاباً أو أوتاداً أو بدلاءَ أو نجباءً في ذلك الوقت.

قلت: إنَّ مجدِّدَ الألف في هذا المقام نائبُ مناب حضرة الشَّيخ قدس سره، وهذه المعاملةُ مربوطةٌ به نيابةً عن حضرة الشَّيخ، كما قالوا: إنَّ نورَ القمر مستفادٌ من نور الشمس، فلا محذورَ.

فإن قيل: إنَّ معنى مجدِّد الألف الذي ذكر فيما سبق مشكلٌ؛ لأنَّ عيسى عليه السلام ينزلُ في المدَّة المذكورة، والمهديُّ عليه الرضوان أيضـاً يظهر في تلك المدَّة، ومعاملتُهما أجلُّ وأعلى من أن يأخذا الفيوضَ بتوسُّط أحدٍ.

قلت: إنَّ معاملةَ التوسُّط مربوطةٌ بالطَّريق الثّانِي من الطَّريقين.........................

---

(١) من قصيدةٍ مطلعها:

مـــا في المناهـــل منهـــلٌ مســـتعذبُ ... إلا ولـــي فيـــه الألـــذُ الأطيـــبُ

من المعرِّب.

المذكورين الذي هو عبارةٌ عن قرب الولاية، وفي الطَّريق الأوّل الذي هو عبارةٌ عن قرب النبوَّة، معاملةُ التوسُّط مفقودةٌ، وكلُّ من وصل من ذاك الطَّريق ليس له حائلٌ ومتوسِّطٌ في البين، بل يأخذ الفيوضَ والبركاتِ بلا توسُّطِ أحدٍ، والتوسطُ والحيلولةُ إنّما هما في الطَّريق الأخير فقط، ومعاملةُ ذلك الموطن ممتازةٌ عن غيره كما مرَّ، وعيسى عليه السلام والمهديُّ عليه الرضوان واصلان من الطَّريق الأوّل كما أنَّ الشَّيخين ﵄ وصلا من الطَّريق الأوّل في ضمنه ﷺ، ولهما فيه شأنٌ خاصٌّ على تفاوت درجاتهما.

تنبيهٌ: ينبغي أن يعلم أنَّه يصحُّ أن يصل شخصٌ من طريق قرب الولاية إلى قرب النبوَّة، ويكون شريكاً في كلتا المعاملتين، ويعطى محلّاً هناك أيضاً بتطفُّل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويجعل معاملةَ كلا الطَّريقين مربوطةً به: (شعر)

لَـيْـسَ عَـلَـى اللهِ بِـمُسْـتَـنْـكَـرٍ أَنْ يَـجْـمَـعَ الْـعَـالَـمَ فِـي وَاحِـدِ

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين. قد مَنَّ الله سبحانه وتعالى على هذا العبد العاجز اللاشيء بإتمام هذه الترجمة الحقيرة بعد إتعاب الجسم والروح في عدة شهورٍ، وصارت بحيث يطلق عليه اسمُ المسطور، فلولا أن مَنَّ الله به عليّ لما تيسّرَ مدى الدهور؛ لأنّي حين الاشتغال كنت مبتلىً بغاية سوء الحال وتشتُّت البال وأنواع الأهوال، بحيث كان الاشتغالُ بها من أظهر المحال، إلا أن ما يسرّ اللهُ سبحانه ليس بعسيرٍ، وهو على كل شيء قدير. وكان الشروعُ فيها في أواسط شعبان المعظم عام ثلاثة وثلاثمائة وألف، والفراغُ منها في ذي القعدة من العام الثّاني، وكم شردت في تلك المدّة لاقتناص شواردها رقادي، وكم فرقتُ لجمع فرائدها شملَ فؤادي، وكم فارقتُ لوصل خرائدها قومي، وكم صبرتُ لقيد فوائدها على إيذاء من خاض في لومي، وكم اقتحمت لاستيضاح نكتةٍ منها مواقعَ السهر في ظلماء الدياجر، وكم أقدمت لتصحيح شبهة منها ظَمَأ الهواجر، فنسأل الله سبحانه أن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم، وأن ينفع بها إخوانَ الصَّفاء النفع العميم، إنَّه لطيف بعباده رؤوف رحيم، وصلى الله على سيدنا محمد ذي الخلق العظيم، وآله وصحبه الذين تأهبوا ليوم عظيمٍ.

ترجمة أحوال المعرب على سبيل الإجمال.

هو الشَّيخ محمد مراد سلمه الله تعالى ابن عبد الله، ولد سنة اثنتين وسعبين ومائتين وألف في منتصف ربيع الآخر يوم الثلاثاء، والشمسُ في أواسط برج الجَدْي في قرية المتّ من مضافات قصبة منزلة التابعة لولاية أوفا من ممالك قزان، المدعوَّة سابقًا بممالك بُلْغَار، الشَّهيرة في الكتب الفقهيَّة بعدم غيبوبة الشَّفَق لتوغُّلها في الشَّمال، أسلم أهلُها طوعًا في حدود سنة ثلاثمائة أيام المقتدر بالله العباسيّ أو قبلها، التابعة الآن من حدود سنة إحدى وستين وتسعمائة للدولة الرُّوسيّة، فلما بلغ - سلمه الله تعالى - ست سنين شرع في قراءة العلوم، أخذ القرآن المجيد أولاً من أبويه، ثم من خاله الشَّيخ الملا حسن الدين الذي هو من أكبر تلامذة الملا إسماعيل القشقاريّ المشهور في تلك البلاد، وشرع في قراءة الصرف في سن تسع، وقرأ «عوامل الجرجاني» في سنّ إحدى عشرة، ولازم خالَه المذكورَ إلى أن بلغ عمره ثماني عشرة سنة، وقرأ في تلك المدَّة عليه من النحو والمنطق والأخلاق والفقه إلى «شرح العقائد النسفية» للتفتازاني، وكان معيداً لدروسه، وبهذا حصل له ملكةٌ جيدةٌ فيما قرأ.

وبعد ذلك سافر إلى بلدة قزان في أوَّل ربيع من عام تسعين ومائتين وألف، واختار مدرسةَ العلامة شهاب الدين القزانِيّ المرجانِيّ صاحب النَّاظورة وغيرها من التآليف الكثيرة، ولكن لم يوفَّقْ للإقامة هناك، بل سافر منها قاصداً بخارى وما وراء النَّهر صحبةَ واحدٍ من السيَّاحين، إلا أنَّه توقَّفَ أثناء سفره هذا في بلدة طرويسكي مقدار سنتين، واختار للإقامة هناك مدرسةَ المرحوم الحاج المنلا شرف الدين والمنلا محمد جان، وقرأ عليهما «شرح العقائد» و«سُلَّم العلوم» في المنطق مع حواشيه، وهو غيرُ «السلم المنورق» المنظوم المستعمل في بلاد العرب، بل هو منثورٌ وأكبرُ من المذكور، وأجمعُ لقواعد المنطق، إلا أنَّه مخلوطٌ بمسائل الفلسفة، خصوصاً حاشيته المشهورة للقاضي مبارك الكوفامويّ الهنديّ، وكان له شغفٌ تامٌّ به، حتى كتبه وحاشيتَه المذكورةَ وحاشيةَ المنلا حسن بيده، وحَفِظَه من أوَّله؛ لكونه رائجًا في بلاده، والناسُ لا بُدَّ لهم من أن يرغبوا لِمَا هو رائجٌ عند أهل زمانه وبلاده، وكان يعتقد - كأهل بلاده - أن لا كمالَ فوق الذي يحويه هذا الكتابُ وحاشيتُه المذكورةُ، ولهذا كان لا يفارقهما في سفره وحضره.

ثم توجّه إلى بخارى من طريق طاشكند، وأقام بطاشكند مقدار شهرين، وكان يحضر درس «شرح العقائد» و«شرح حكمة العين» عند بعض علمائها.

ثم دخل بخارى سنة ثلاث وتسعين، وحضر درس «شرح العلامة الدوانِيّ على تهذيب المنطق» للعلامة التفتازانِيّ من أوَّله عند المنلا عبد الله المفتي السرطاويّ القزانِيّ والمنلا عبد الشكور التركماني رحمهما الله، فأتمَّ بحثَ الحمد في مدَّة ستةِ أشهرٍ بقراءة أربعةٍ من حواشيه على ما هو عادةُ تلك البلاد في هذه الأزمنة الأخيرة، فيقرؤونه بهذه الكيفيَّة إلى بحث الموضوع في مدة أربع سنين، ثم يتركونه قبل الوصول إلى مقصود الفنِّ، وهكذا عادتُهم في جميع الكتب، فطرأ الفتورُ على تحصيله بعد اطِّلاعه على ذلك، وتيقَّن أنَّ بخارى لم تَبْقَ معدنًا للكمالات كما كان أولاً، وأنَّ شهرتَها إنّما هي بالنَّظَر إلى حالها الأوّل، وعلم يقينًا أنَّ الإقامةَ فيها على هذه الحالة تضييعٌ للوقت لا غير، وحرمانٌ من المقصود.

فخرج منها في أوَّل الربيع متوجّهًا إلى طاشكند ثانيًا، فأقام بها..............................

وبنواحيها سنتين، وحضر درس علمائها المتداول هناك، وأقام في رباط بعض المشائخ في نواحيها مدّةً معلّماً، وصادفَ عنده كثيراً من كتب التصوُّف بالعربيَّة والفارسيَّة وكُتُب السِّيَر أيضاً، فطالعها كلَّها بالشَّوْق والالتذاذ، واستيقن أنَّ ما ظنَّه كمالاً نقصٌ محضٌ، وأنَّه تضييعٌ للوقت، وأنَّ الكمالَ فيما وراءه، ورأى النبيَّ ﷺ في منامه أثناء مطالعته كتبَ السِّيَر، وتشرَّف بالإنابة في الطَّريقة على يد بعض المشائخ في تلك النَّاحية.

ثم أراد الرجوعَ إلى بخارى ثانياً، فدلَّه بعض أحبابه على التوجّه إلى الحجاز، وشوَّقه إلى ذلك، فخرج من طاشكند في أواسط سنة خمس وتسعين في رفاقة بعض أعيان بلاده المجاورين بطاشكند متوجّهاً إلى الحجاز، فسلكوا طريقَ سمرقند وقرشي وعذار وبلخ وكابل وجلال آباد وپشاور ولاهور وأمرتسر، فتوقَّفوا هناك جمعةً واحدةً بسبب انكسار الجسر في طريق بابور البرّ، فرجعوا من هناك إلى لاهور ثانياً، فسلكوا طريق ملتان فسقر بقر فحيدر آباد السند فكراچي فبمباي، فأقاموا هناك مدةَ شهر رمضان، وبعد العيد ركبوا البابورَ، ووصلوا إلى جَدّةَ بعد ثمانية عشر يوماً، ودخلوا مكّةَ المكرّمةَ في أواخر شوالٍ.

وبعد أن حجَّ في السَّنَة المذكورة توجّهَ إلى المدينة المنورة، فدخل هناك أوّلاً في مدرسة أمين آغا، ثم تحوَّل بعد شهرٍ إلى مدرسة الشفا، ثم انتقل منها بعد ثمانية أشهرٍ إلى المدرسة المحمودية بسبب أنَّ مدرِّسَها الذي كان جاء من الآستانة في العام المذكور، وأحدث الامتحانَ لقبول الطلبة في المدرسة المذكورة، فحضر دروس العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير عند علمائها الكبار، وانكبَّ على مطالعة العلوم العربية، خصوصاً الفنونَ الثلاثةَ والعروضَ، فحصَّل منها شيئاً صالحاً، وطالَعَ أكثر «الإحياء» وسائر كتب التصوف، وقرأ «التوضيح» في الأصول مع حاشيته «التلويح» على واحدٍ من علماء بلاده، وكان جاوَرَ في المدينة في العام المذكور، وأتمَّ حفظ القرآن في العام الذي دخل المدينة، ونال الإجازة من كبار علماء المدينة الذين حضر دروسهم من الأهالي والمجاورين في سائر الفنون والعلوم، ودخل الطَّريقةَ النقشبنديَّةَ المجددية عند قطب وقته والمشار إليه بالبنان في الطَّريقة والحقيقة في عصره والذي لا يشقُّ له غبارٌ فيهما مولانا الشَّيخ محمد مظهر قدس الله سره وروَّح روحه ونوَّر ضريحه، وكان له قدس سره في حقّه عنايةٌ تامَّةٌ والتفاتٌ خاصٌّ، وقد أثنى عليه مراراً عند خواصِّ أصحابه حين غيبوبته، أخبره بذلك وبشَّره بما هنالك المرحوم المخدوم إسماعيل أفندي التوسيّ الذي كان من خواصِّ أصحابه، وناظِرَ كتبه رحمه الله تعالى.

وقال المترجمُ سلَّمه الله: رأيت مرةً في المنام حين كنت في صحبة سيدي محمد مظهر قدس سره بيتاً عالياً في صحراء واسعةٍ، وحوله أصحابُ سيدي الشَّيخ، وفي أيديهم المخدومُ الأعظمُ الشَّيخُ أحمد بهاء الدين حفظه الله تعالى ولدُ شيخنا يريدون أن يدخلوه في البيت المذكور، ويتداولونه من يدٍ إلى يدٍ، يجيئون به تارةً إلى الباب، وتارةً إلى الطَّاقة، ولا يقدرون على إدخاله بوجهٍ ما؛ لأنَّ العتبةَ عاليةٌ جداً، والحقيرُ أنظرُ إليهم من بعيدٍ، وأضحك متعجِّباً من عدم قدرتهم على الإدخال، فلما تبيَّن لي عجزُهم أخذته من أيديهم، ووضعته في العتبة، وقلت له: ادخل البيتَ، فدخل. انتهى.

قال: فكان الأمرُ كذلك؛ لأنَّ شيخَنا المذكورَ لما توفِّي؛ بقي المخدومُ المذكورُ حفظه الله في سنّ عشرة، فأخذه سيدي السيدُ محمد صالح الزواويُّ المكيُّ قدس الله سره وروَّح روحه ونوَّر ضريحه ....

في حجر تربيته، فلما جاء به مكة المكرّمة سلمه إليّ للإقراء، فقرأ عليّ مدَّةَ حياة سيدي المذكور، وسنتين بعد وفاته أيضـًا، واستفاد طريقةَ أجداده أيضـًا في تلك المدَّة، حتى حملته إلى المدينة سنة عشر وثلاثمائة وألف، ووضعتُه في عتبة باب آبائه وأجداده العالية. وهو الآن جالسٌ في مسند آبائه الكرام رزقه الله تعالى حسنَ الاستقامة، والحمدُ لله على ذلك.

وحين كان يستفيد في صحبة شيخه المذكور من الأسرار، ويستضيء فيها بأنواع الأنوار، وحصل له فيها أحوال القلب وسائر اللطائف في مدّةٍ يسيرةٍ، وشاهد حصولَها في عالم المثال بصور الأنوار؛ إذ غدر عليه الدهرُ الغدّارُ، حيث حصل له مرضٌ شديدٌ سلب عنه الصَّبرَ والقرارَ، فلزمه تبديلُ الهواء بالسَّفَر إلى بلاده، فحصل الإذنُ من شيخه بأنواع الحيلة؛ إذ كان غيرَ راضٍ بمفارقته لعدم مجيء أوانها، فسافر إلى وطنه، وبعد أن أقام به عدّةَ أشهرٍ كرَّ راجعـًا إلى الحجاز في عامه ذلك، وبعد أن حجَّ في العام المذكور أقام بمكّة المكرّمة، ولم يرجع إلى المدينة المنورة، وحضر صحبةَ مولانا الشَّيخ العلامة عبد الحميد أفندي الداغستانيّ قدس الله سره وروّح روحه ونوّر ضريحه، ثم سافر إلى وطنه ثانيـًا، وعاد في عامه إلى الحجاز، ودخل المدينةَ أوّلاً في هذه النوبة من طريق ينبع، وأقام بها ثمانية عشر يومـًا، ثم توجّه إلى مكة المكرّمة، وأقام بها أيضـًا بعد إتمام الحجّ، وحضر صحبةَ مولانا الشَّيخ عبد الحميد أفندي المذكور، واستفاد منه الطَّريقةَ، وحضر درس «سنن أبي داود» عنده في رمضان، وكان يحضر دروسَ بعض علمائها الكبار في فنونٍ شتّى.

وبينما هو في صدد الرجوع إلى المدينة بنية التشمُّر على صحبة شيخه المذكور، وقَصْرِ وقته عليها؛ إذ جاءه خبرُ وفاة شيخه المذكور قدس سره سنة إحدى وثلاثمائة وألف، فرجع عن عزيمته بالضَّرورة، والتزم صحبةَ مولانا الشَّيخ عبد الحميد قدس سره، ولكن خانه الدهرُ الخؤونُ أيضـًا، حيث توفّي آخرَ العام المذكور شيخُه المبرورُ المذكورُ أيضـًا، فحصل له غايةُ القلق والاضطراب، حيث ذاق طعمَ شراب القوم، وأدرك كنهَه، وتيقّن أن لا كمالَ سوى مشربهم ذوقـًا وحالاً كما قال الإمامُ الغزاليُّ قدس سره، وهو في غاية العطش، ولم ينل منه مقصودَهُ، ولم يحصل بغيتُه.

فهمَّ بالمسافرة إلى الهند لأخذ الطَّريقة من كبار المشائخ هناك، لا لأجل غرضٍ آخرَ، ولكن لما جلس مولانا السيد محمد صالح الزواويُّ مكان الشَّيخ عبد الحميد أفندي قدس سرهما اطمأنَّ خاطره، وحضر صحبته، وصار يستفيد منه الطَّريقة، ولكن لما سافر السيدُ المذكورُ في رجب عام اثنين وثلاثمائة عاد عليه القلق والاضطراب ثانيـًا، فشرع حينئذٍ في تعريب «الرشحات» لدفع الهموم عن نفسه بإشغالها به، ورجاء حصول النفع للإخوان، وورد إليه من المدينة المنورة من السيد المذكور مع قافلة رجب ورقةُ الإجازة والاستخلاف في مكانه مشتركـًا مع واحد من إخوانه الجاويّين، فزاد تحيُّرُه واضطرابُه من ذلك؛ لأنَّه كان معتقداً أنَّه لم يضع قدمَه في الطَّريقة، بل لم يحصلْ له مناسبةٌ بها بعدُ، فكتب إلى شيخه بطلب الإقالة منه، فلم يُقِلْه، بل لما عاد مكة المكرّمة في العام الثّاني أكَّد الإجازة بإلباس الخرقة إياهما في مجمع كافة الإخوان وبالإجازة قولاً، وكتب له إجازةً مخصوصةً في سائر العلوم على ظهر رسالة «الأمم» للشيخ إبراهيم الكورانيّ، وكان يخلِّفُهما بمكة المكرّمة حين توجّهه إلى المدينة المنورة، وكان يبذلُ في حقّه أنواعَ العنايات وصنوفَ الألطاف، ولَمّا قدّمه «تعريب الرشحات» بعد عوده إلى مكة المكرّمة استحسنه، وأمره بـ«تعريب المكتوبات» أيضـًا، فاعتذره بأنَّه مشكلٌ جداً، وفي غاية الصعوبة، فقال: إنَّ الله يعينك بحرمة ....

المشائخ الكرام، وإنَّه:

(ع) لَا عُسْـرَ فِـي أَمْرٍ مَعَ الْكُـرَمَـاءِ

فعرَّبها أيضـًا امتثالاً لأمره، فاستحسنه غايةَ الاستحسان، وسُرَّ به نهايةَ السُّرور، وقابَلَه بما عرَّبه بعض العلماء منتخبًا من «المكتوبات»، وعزم على طبعه بعد طبع «الرشحات»، ولكن اخترمته المنيّةُ قدس سره قبل بلوغه تلك الأمنيّة سنة طبع فيها «الرشحات»، وقد كتب له إجازةً ثالثةً على ظهر كتابه «حصر الشارد من أسانيد الشَّيخ عابد» في الطَّريقة وسائر العلوم والفنون، وكتب فيها هذه العبارة: وأنَّه له من اسمه نصيبٌ، وكما أنَّه مريدٌ فهو مرادٌ، وإنَّه يحصل منه نفعٌ تامٌّ للعباد. انتهى.

وقد بشَّره بالمرادية والمحبوبيَّة مشافهةً مراراً، ولكنَّه مع هذه كلِّها لا يغترُّ بها، بل دائمـًا في خوفٍ ووجلٍ من المسؤولية عند الله بالجلوس في هذا المكان، ولهذا ترك حضور الحلقة مرَّةً بعد الاعتذار على الإخوان، وإذنه إياهم بالذهاب إلى أيِّ مَحلٍّ شاؤوا، ولكن لما لم يترك الإخوانُ ذيلَه، وجاءه الملامُ من كلِّ طرفٍ بتضييع محلِّ المشائخ، وتركه إياه خاليـًا في حياته؛ عاد إليه ثانيـًا، لكن بالتَّصريح بأنَّه غيرُ مستحقٍّ له، وأنَّه إنّما يجلس فيه لكونه مأموراً من جانب مشائخه، ويؤكِّد ذلك دائمـًا، ويعتقده من قلبه، ويشهد على ذلك كلَّ أحدٍ لئلا يكون مسؤولاً عند الله تعالى، ولذلك لا يختار أوضاع المشائخ، ولا يحبُّ أن يمشي أحدٌ خلفه وقت المشي، أو يحمل أحدٌ سجَّادته، أو أن يتكلّم مع الناس على طور المشائخ بإيراد كلمات الصوفيَّة، وبيان اصطلاحاتهم كما هو ديدنُ مشائخ الوقت، بل يتكلّمُ مع كلِّ أحدٍ كلامـًا مناسبـًا لحاله وصنعته، لا ستراً لحاله، بل لئلا يكون منه دعوى ما ليس فيه ولو ضمنـًا، وكان في حياة شيوخه كلَّما يحضر عندهم يحضر بغاية الخوف من ظهوره عند بصر بصيرتهم بصورة واحدةٍ من الأخلاق الذميمة.

وبالجملة: إنَّه لا يرى في نفسه شيئـًا من كمالات القوم، وكلُّ من أراد منه الطَّريقةَ يقول: ليس عندي شيءٌ، اطلُبْها من أهلها، وإنما أجلسُ في هذا المحل امتثالاً لأمر مشائخي، فإن ألحَّ في الطلب يقبله بالضَّرورة خوفـًا من البخل والكتمان، وكذلك من راجع إليه في شيءٍ من علوم القوم يبيِّن له ما وصل إليه بمطالعة كتب القوم أو من مشائخه مشافهةً، وعنده جملةٌ من تأليفات مشائخه، كـ«المكتوبات المعصومية»، و«المقامات المظهرية»، و«المعمولات المظهرية»، ورسائل مولانا أحمد سعيد، ومولانا محمد مظهر قدس سرهما، و«المقامات الدهبيدية»، و«مناقب الإمام الربانيّ»، وغيرهما من كتب التصوُّف، وقد طالع كلَّها مراراً وما سواها أيضـًا في خزانات الكتب في المدنية المنورة، وطالع «العوارف» و«الفتوحات المكية» و«الفصوص» مع عدّةٍ من شروحه وحواشيه، بحيث اطَّلع على حقيقة مذهب الشَّيخ محيي الدين ابن العربي، كما أنَّه مطَّلع على حقيقة مذهب الإمام الرباني قدس سرهما كما ينبغي، بحيث قلَّما يخفى عليه دقيقةٌ من دقائقهما علمـًا، وكذلك طالع شروح «التائية الكبرى» و«شرح اللمعات» و«لوائح الجامي» و«شرح الرباعيات» و«شرح الخمريات» له.

وبالجملة: اعتناؤه بكتب التصوف أزيدُ من اعتنائه بغيرها، ومع ذلك لا يخلو أيضـًا من مطالعة كتب التفسير والحديث والسير وتراجم المشائخ والعلماء وتواريخ الأمم، ويتمنى دائمـًا أن يمضيَ عمره بعد عبادة الله تعالى في مطالعة هذه الفنون ومذاكرتها مع أهلها، وله من التصانيف: «تعريب الرشحات» وذيلُه، وقد طبع في مكة المكرّمة سنة سبعٍ وثلاثمائة من جيب شيخه السيد محمد صالح الزواويِّ قدس سره، و«تاريخ قزان وبلغار»، إلا أنَّه لم يتمَّ إلى الآن؛ لتوقُّفه على ترجمة بعض تواريخ الروسية، بل لتوقُّفه على إرادة الله تعالى، و«تعريب المكتوبات» هذا وما وضع في هامش الجلد الأوّل من ترجمة أحوال الإمام الربانيِّ، ....

وما وضع في هامش الجلد الثّاني من تعريب «المبدأ والمعاد» ورسائل أُخَرَ لم تنتشر بعدُ.

ومدارُ تعيُّشه يحصل من كرماء أهل بلاده بقدر الكفاية والستر، خصوصـاً أصحابَ تكيَّته التي هو ساكنٌ بها الآن بمكة المكرّمة، وهم الذين عرفوه حين جَهِلَه الناسُ، وأخرجوه من زاوية الخمول إلى عرصة الظهور والاشتهار، واشتروا له هذه التكيَّةَ بألف ذهب عثمانِيٍّ، ولا ينسونه في كل عام من إحساناتهم، جزاهم الله سبحانه خير الجزاء، وعمَّر دنياهم وأخراهم، وكذلك سائر أهل الإحسان.

وطبع هذا الكتاب أيضـاً من جملة إحسانات أهل بلاده، ولولاهم لما تيسّر طبعُه ونشرُه، وهو ليس بأثرٍ قليلٍ، بل هو أثرٌ جليلٌ، امتاز هذا الزمانُ المسعودُ عما قبله بنشره فيه، وقد قيل: إنَّ المرحومَ السلطانَ عبد العزيز رحمه الله تعالى أمر العلامة السيد داود البغداديَّ بتعريبها - أعني: مكتوبات الإمام الربانِي -، ووعده بإنعاماتٍ جزيلةٍ بعد الإتمام زيادةً على ما عيَّنه له حين الاشتغال بتعريبه من المصارف اللازمة، وشرع فيه، ولكن خانه الزمانُ، وحيل بين العير والنَّزوان، وشربا من كأس الحمام قبل أن يتمَّ، ويخرج في الميدان ولله سبحانه في كلِّ أمورٍ حكمٌ، ولكلِّ وقتٍ حادثٌ قلَّ أو جَمَّ.

وبالجملة: إنَّه كلَّما يفتح بصرَه يقع نظرُه على إحسانات أهل ممالك قزان، وليس في ذمته حقوق لسواهم في باب الإحسان إلا أن يكون من أهل جاوة بعض الإخوان، جزى الله الجميع خير جزائه، وعاملهم بلطفه يوم جزائه، والحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمَّ بقلم بعض أصحابه على سبيل الاختصار، وخيرُ الكلام ما قلَّ ودلَّ.

الفهرس

المكتوبات للإمام الرباني

فهرس المحتويات

الفهرس